خواطر وتأملات

في الفضائل والسلوك والآداب

دكتور

أحمد عرفة أحمد يوسف

عضو هيئة التدريس بقسم الفقه المقارن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالشرقية جامعة الأزهر

راجعه وقدم له

الأستاذ الدكتور/ محمد نبيل غنايم
الأستاذ الدكتور/ محمد محمد داود

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

خَواطِرُ وتَأَمُّلاتٌ

في الفَضَـــائِلِ والسُّلوكِ والآدَابِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إليكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر .

الطبعة الأولى : 2021/1442

رقم الإيداع : 2021/16573

الترقيم الدولي : 978-977-997-154-4

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

0225117747 - 01050144505

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

0502357979- 01007868983

خَوَاطِرُ وتَأَمُّلاتٌ
في الفَضَـــائِلِ والسُّلوكِ والآدَابِ

دكتور

أحمد عرفة أحمد يوسف

عضو هيئة التدريس بقسم الفقه المقارن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالشرقية جامعة الأزهر

راجعه وقدم له

الأستاذ الدكتور/ محمد نبيل غنايم

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد داود

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأستاذ الدكتور:

محمد نبيل غنايم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه، وبعد:

فيسعدني أن أقدم للباحثين، والقراء، والأئمة، والوعاظ، هذا العمل العلمي الماتع بموضوعاته، ولغته، وأسلوبه، وعرضه، ومصادره، ومراجعه؛ لأن القائم به شاب مجد ومجتهد ومخلص عرفته من أوائل جامعة الأزهر الشريف فعين معيدًا في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بفرع الجامعة في الشرقية، وانضم إلى طلابي وأشرفتُ عليه في الماجستير والدكتوراه، وكان نموذجًا للطالب المجتهد فأنجز الرسالتين في وقت مناسب، وتمت مناقشته، ومنحه الدرجة العلمية، وها هو يضيف إلى رسائله العلمية رسائل أخرى اجتماعية، وواقعية، سلك فيها مسلك الرسائل العلمية، من حيث المنهج العلمي والخطة، وتوثيق الآراء والأقوال من مصادرها ومراجعها، في دقة وأمانة وموضوعية، وكل ذلك بلغة سهلة، وأسلوب واضح محلى ومُطَعَم بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال أهل العلم، واستنباط العبرة والفضيلة والموعظة والحكمة من كل ذلك لتقديم الثمرة اليانعة في الأخلاق والسلوك والفضائل لأبناء الوطن العزيز والأمة الخاتمة خير الأمم.

وجاء ذلك في كتابه الثمين: "خواطر وتأملات في الفضائل والسلوك والآداب" تناول فيه: فضل العلم والعلماء، وفضل العمل والعمال، والتوبة، والاستغفار، والذكر، والدعاء، والصدقة، والشكر، والصبر، والاستقامة، والحياء، والخوف، والعفة، والتسامح، والحقوق الإسلامية للوالدين، والأرحام، والجار، واليتيم، وكبار السن، والمرضى.

ومن الآداب: أدب الحوار، وإمساك اللسان، وعدم الغضب، واجتناب الغيبية، والمنهج النبوي في الدعوة، وحب الوطن، ومفاتيح الرزق، ومنح الابتلاء...وغير ذلك مما نشره في صحف ذات مكانة عالية بين الناس مثل: صوت الأزهر، وعقيدتي وغيرهما، نفع الله به الإسلام والمسلمين، وزاده علمًا وإخلاصًا.

أ.د: محمد نبيل غنايم
أستاذ الشريعة الإسلامية
بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
القاهرة في ١٥/٤/١٤٤٢هـ ٣٠/١١/٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأستاذ الدكتور:

محمد محمد داود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبي الله ورسوله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كان لي شرف الاطلاع على هذا الزاد الإيماني، والأخلاقي، والفقهي لصاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ أحمد عرفة، فأفدتُ منه وسررتُ بمادته الميسرة التي تيسر العلم لعامة الناس والمثقفين، بلغة سهلة واضحة.

وما أحوجنا في هذا الزمان إلى تيسير العلم للناس عامة وللشباب خاصة لتنوير عقولهم بالقيم الإيمانية الهادية، وتزكيتهم بالأخلاق الكريمة، وفي هذا إسهام عظيم في بناء الشخصية الإسلامية بناءً إيمانيًّا، وأخلاقيًّا، يكون به الشباب عزًّا لدينه وقوة لوطنه وهديًا هاديًا لجميع البشرية السمحة.

ولقد طوَّف بنا صاحب الفضيلة في بستان الإيمان وحديقة الأخلاق، فجاءت المقالات فيها عنصر التشويق وسر الجاذبية الذي يشجع القارئ على مواصلة الاطلاع حتى يُتم قراءتها جميعًا، ففي تنوع المقالات ما يدفع ملل القارئ، ويجعله في متعة القراءة مقالًا بعد مقال.

ونهنئ الأمة الإسلامية بكاتب واعد من شباب العلماء له قلم سيَّال يبشر بمؤلفات قادمة – إن شاء الله تعالى –، تكون قيمة مضافة إلى الفكر والثقافة وإلى المكتبة العربية.

وأدعو الله تعالى له ولكل شباب العلماء والدعاة أن يبارك الله فيهم وأن يجعلهم عزًّا لدينه وهديًا هاديًا لجميع البشرية السمحة، وأن يجعلهم رفعة لوطننا الغالي مصر.

هذا، وبالله التوفيق، وصلي الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه راجي عفو ربه

الأستاذ الدكتور:

محمد محمد داود

أستاذ العلوم اللغوية بجامعة قناة السويس

والمشرف العام على موسوعة بيان الإسلام للرد على الافتراءات والشبهات

الجمعة ٥ من ربيع الآخر ١٤٤٢هـ

٢٠٢٠/١١/٢٠م.

المُقَدِّمَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضْلُلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[3].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهُ - تَعَالَى -، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

إن المتأمل في الشريعة الإسلامية الغراء، يجد أنها قد جاءت لرعاية مصالح الناس جميعًا، فشرعت من الأحكام والعبادات والأخلاق ما ينظم علاقة الفرد المسلم بربه، وما ينظم علاقة الفرد المسلم بأخيه المسلم، وغير ذلك من المعاملات المالية والأخلاق الإسلامية، والآداب النبوية التي أرشدنا إليها المصطفى ﷺ والتي في الالتزام بها السعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠، ٧١.

ولما كان الأمر كذلك فقد قمتُ على مدار خمس سنوات مضت بالمشاركة بالكتابة في الصحف الأسبوعية: كجريدة عقيدتي، واللواء الإسلامي، والمجلات الشهرية: كمجلة المجاهد، ومجلة التصوف الإسلامي، والعديد من المواقع عبر شبكة الإنترنت، ما بين مقالات موسمية، ومقالات فقهية، ومقالات في العقيدة، ومقالات في الزهد والآداب والأخلاق، فاستخرتُ الله تعالى - وفكرتُ في جمع هذه المقالات وتبويبها في أبواب مستقلة، واجتهدتُ في العمل على نشرها في مجموعة كتب كي يسهل على القارئ الاطلاع عليها، والاستفادة منها، ولعلَّ الله تعالى - أن ينفع بها يومًا ما.

وقد صدر بفضل الله تعالى من هذه المقالات، المقالات الخاصَّة بمواسم الطاعات في شهور السنة، وقد سمَّيتُ هذا الكتاب ب"مَوَاسِمُ الْخَيْرَاتِ فَضَائِلُ وَآدَابٌ"[1]، وأضفتُ عليها بعض المقالات المتعلقة ببعض الشهور.

وهذا الكتاب هو الثاني في هذه السلسلة المباركة والتي أسأل الله تعالى - أن ينفع بها وأن يتقبلها بفضله وكرمه، وقد أسميتُ هذا الكتاب ب "خواطر وتأملات في الفضائل والسلوك والآداب"، ويحتوي هذا الكتاب على المقالات المتعلقة بالأخلاق والآداب الإسلامية، ومقالات أخرى متفرقة في موضوعات شتى سيأتي ذكرها في موضعها - إن شاء الله تعالى - من هذا الكتاب.

أولًا: الْهَدَفُ مِنَ الْكِتَابِ:

إنَّ أغراض التأليف وأهدافه متعددة، ومن ذلك ما ذكره الإمام جمال الدين القاسمي - رحمه الله في "قواعد التحديث": "قد قالوا: ينبغي أن لا يخلو تصنيف من أحد المعاني الثمانية التي يصنف لها العلماء وهي: اختراع معدوم، أو جمع مفترق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ، كذا عدها أبو حيان، ويمكن الزيادة فيها"[2].

---

(١) صدر هذا الكتاب عن دار التعليم الجامعي بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٢١م.

(٢) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، لمحمد جمال الدين القاسمي، ص ٤٨، ط/ مؤسسة الرسالة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى.

وبالتطبيق على ما سبق فإنَّ محتوى هذا الكتاب الغرض منه: جمع هذه المقالات المتفرقة في الصحف، والمجلات، والمواقع الالكترونية، ونشرها في وعاء مستقل كي يسهل على القارئ الإلمام بها والاستفادة منها، وهذا غرضٌ مهم من أغراض التأليف.

ثانيًا: مَنْهَجُ الْكِتَابِ:

اقتضت طبيعة العمل في الكتاب أن يكون على النحو الآتي:

١) قمتُ بعزو الآيات القرآنية إلى سورها، وبيان رقم الآية، وذلك في الحاشية.

٢) قمتُ بتخريج الأحاديث النبوية، واكتفيتُ بذكر مصدر واحد أو مصدرين على الأكثر لكلِّ حديث، وما كان منها في الصحيحين (البخاري ومسلم) خرجته منهما أو من أحدهما، وما جاء في غير الصحيحين أُخرِّجه من مصدر واحد، وأبيِّن كلام الشأن في درجته من حيث الصحة والضعف، وجُلّ الأحاديث المذكورة صحيحة بفضل الله تعالى -، ونادرًا ما يذكر الضعيف مع بيان ذلك وتوضيحه في الحاشية.

٣) خرَّجت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين من مصادرها الأصلية، وذلك بذكر اسم الكتاب، والجزء والصفحة، وإن وجد تعليق على بعض الآثار ذكرته.

٤) قمتُ بعزو النقول الموجودة في هذه المقالات إلى مصادرها، وذلك بذكر اسم الكتاب، والجزء والصفحة.

٥) قمتُ ببيان الألفاظ الغريبة والمصطلحات الواردة في هذه المقالات، وعزوها إلى مصادرها.

ثالثًا: خُطَّةُ الْكِتَابِ:

اقتضت طبيعة الكتاب هذا أن يكون في ستة أقسام على النحو الآتي:

القسم الأول: العلم والعلماء، وقد جمعتُ فيه المقالات التي نشرتُها عن فضل العلم، ومكانة العلماء، وما يتعلق بأهمية القراءة، وقد احتوى على المقالات الآتية:

١ - فضائل العلم، وآدابه.
٢ - فضل العلم، ومكانة العلماء.
٣ - ميراث الأنبياء.
٤ - بالقراءة نحيا ونرقى.
٥ - الكتاب خير جليس.

القسم الثاني: العمل والعمال، وقد جمعتُ فيه المقالات المتعلقة بأهمية العمل في الإسلام، ومحاربة الإسلام للتسول، وأخلاقيات العمل في الإسلام، والعمل التطوعي في الإسلام، ومكانته، وقد احتوى على المقالات الآتية:

١ – دعوة الإسلام إلى العمل، ومحاربته التسول.

٢ – أخلاقيات العمل في الإسلام. ٣ – مكانة العمل التطوعي في الإسلام.

القسم الثالث: الفضائل والأخلاق، وقد احتوى هذا القسم على المقالات المتعلقة بفضائل الأعمال، والمقالات المتعلقة بالأخلاق الإسلامية، وجاء ذلك على النحو الآتي:

أولًا: الفضائلُ، ويحتوي على المقالات الآتية:

١ – فضائل الصحابة في القرآن الكريم.

٢ – فضائل الصحابة في السنة النبوية.

٣ – فضل التوبة، وشروطها. ٤ – فضائل الاستغفار، وفوائده.

٥ – فضائل الذكر، وآدابه.

٦ – فضائل الكلمات الأربع (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

٧ – فضائل القرآن الكريم، وآدابه. ٨ – فضائل الدعاء، وآدابه.

٩ – فضائل الصدقة.

ثَانِيًا: الأخلاق، ويحتوي على المقالات الآتية:

١ – حسن الخُلق. ٢ – الأمانة، والتحذير من الخيانة.

٣ – الصدق، وخطورة الكذب. ٤ – الشكر، ومنزلة الشاكرين.

٥ – الصبر، وجزاء الصابرين. ٦ – أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

٧ – الحياء من الإيمان. ٨ – "مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ".

٩ – "مَنْ صَمَتَ نَجَا" . ١٠ – الخوف من الله، وثمراته.

١١ – العفة، وكيفية تحقيقها. ١٢ – "اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم".

١٣ – التسامح الإسلامي وحاجة الأمة إليه.

١٤ – "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى".

القسم الرابع: الحقوق الإسلامية، وقد اشتمل هذا القسم على المقالات المتعلقة بالحقوق الإسلامية، ومنها: حق الوالدين، وحق الأرحام، وحق الجار، وحق اليتيم، وحق المسنين، وحق المريض، وقد احتوى على المقالات الآتية:

١ - "وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا".

٢ - صلة الأرحام تزيد في الأعمار وتبارك الأرزاق.

٣ - تذكير الأبرار بحقوق الجار.

٤ - عناية الإسلام باليتيم.

٥ - رعاية الشريعة للمسنين.

٦ - عيادة المريض آداب وأحكام.

القسم الخامس: آداب إسلامية، ويحتوي هذا القسم على المقالات المتعلقة بالآداب الإسلامية، وقد اشتمل على المقالات الآتية:

١ - أدب الحوار في الإسلام.

٢ - "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ".

٣ - "لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ".

٤ - "وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا".

القسم السادس: متفرقات، وقد اشتمل هذا القسم على المقالات المنشورة في أبواب متفرقة، فآثرت أن تكون في قسم واحد يجمعها؛ ليسهل على القارئ الاستفادة منها، وقد احتوى هذا القسم على المقالات الآتية:

١ - الْمَنْهَجُ النَّبَوِيُّ فِي الدَّعْوَةِ.

٢ - الهدي النبوي في حب الأوطان، وسبل تحقيقه.

٣ - سعادة الأمة، وَسُبُلُ تَحْقِيقِهَا.

٤ - مفاتيح الرزق في القرآن والسنة.

٥ - الابتلاءات منح وعطايا.

٦ - تكريم الإسلام للمرأة.

٧ - تربية الأولاد في الإسلام.

٨ - من عقوبات المعاصي انتشار الأمراض والأوبئة.

٩ - سرادقات العزاء، وضياع هيبة القرآن.

١٠ - تذكرة عن الموت وسكراته.

وبعد، فأدعو الله قائلًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[1].

وأختم بما كتبه أستاذ العلماء البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني معتذرًا عن كلام استدركه عليه: "إنّي رأيتُ أنّه ما كَتَبَ أحَدُهُم في يَومِهِ كِتابًا إلا قالَ في غَدِهِ، لو غُيِّرَ هذا لَكانَ أَحسن ولَو زُيِّدَ ذاكَ لَكانَ يُستَحسن، ولَو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضل، ولو تُرِكَ ذاكَ لَكانَ أجمل، وهذا مِن أعظَمِ العِبر، وهو دَليلٌ على استيلاءِ النّقْصِ على جُملَةِ البَشر"[2].

وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَهُو حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ.

د: أحمد عرفة أحمد يوسف

عضو هيئة التدريس بقسم الفقه المقارن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية

جامعة الأزهر الشريف

Ahmedarafa11@yahoo.com

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٨٦.

(٢) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، ١/ ٧٠، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق: عبد الجبار زكار.

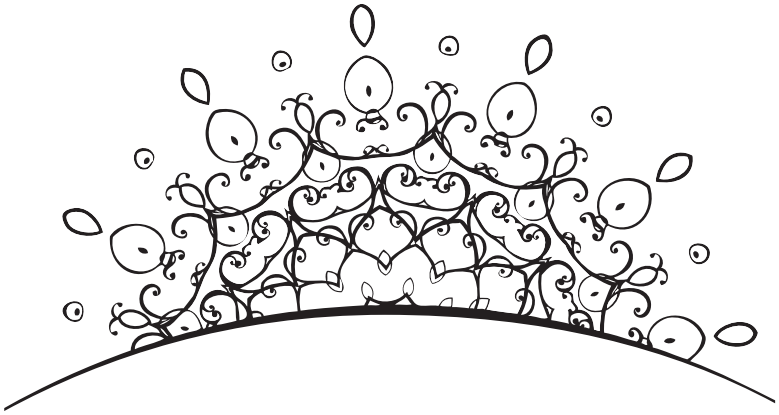

القسم الأول

العلم والعلماء

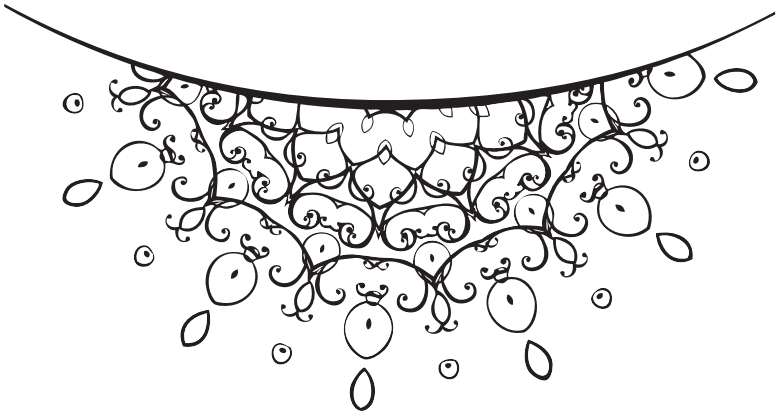

فَضَائِلُ الْعِلْمِ وَآدَابُهُ[1]

إنَّ من أعزِّ وأشرف ما صُرِفت فيه الأوقات، وأُنفِقت من أجله الأموال طلب العلم الشريف، الذي شرَّف المولى - جلَّ وعلا - أهله، ورفع ذكرهم، وأعلى مكانتهم؛ ومنها: أنَّه جلَّ وعلا - استشهد بأهله على أجلِّ مشهود عليه، وهو توحيده سبحانه قال - تعالى -: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[2].

ونفى - سبحانه التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار؛ فقال - سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

ورفع - جلَّ وعلا - درجات أهل العلم؛ فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[4].

وأمر - جلَّ وعلا - نبيه ﷺ بطلب المزيد منه؛ فقال - سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[5].

---

(١) أصل هذا الموضوع مجموعة مقالات منشورة في جريدة صوت الأزهر، العدد (٨٨٩)، السنة الثامنة عشرة، ٦ من المحرم ١٤٣٨هـ ٧ أكتوبر ٢٠١٦م، والعدد (٨٩٠)، السنة الثامنة عشرة، ١٣ من المحرم ١٤٣٨هـ ١٤ أكتوبر ٢٠١٦م، والعدد (٨٩١)، السنة الثامنة عشرة، ٢٠ من المحرم ١٤٣٨هـ ٢١ أكتوبر ٢٠١٦م، والعدد (٨٩٣)، السنة الثامنة عشرة، ٤ من صفر ١٤٣٨هـ ٤ من نوفمبر ٢٠١٦م، والعدد (٨٩٦)، السنة الثامنة عشرة، ٢٥ من صفر ١٤٣٨هـ ٢٥ من نوفمبر ٢٠١٦م.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ١٨.

(٣) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٤) سورة المجادلة: الآية: ١١.

(٥) سورة طه: الآية: ١١٤.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه، كما أمره أن يستزيده من العلم[1].

ومن فضل العلم وعلو منزلته أنَّ العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشرُّ كلُّه عدم الحياة والنور، والخير كلُّه سببه النور والحياة؛ فإنَّ النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبيِّن مراتبها، قال – تعالى –: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2].

كان ميتًا بالجهل قلبه فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناس[3].

وبيَّن النبي ﷺ أن طلب العلم طريق إلى الجنة، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ"[4].

قوله: (طريقًا) نكَّرها، ونكَّر علمًا؛ ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم الدينية، وليندرج فيه القليل والكثير، وقوله: (سهل الله له طريقًا)، أي: في الآخرة أو في الدنيا بأن يوفقه للأعمال الصالحة الموصلة إلى الجنة، وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه؛ لأنَّ طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة[5].

وبيَّن أنَّ العلم ميراث الأنبياء، وذلك فيما جاء عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[6].

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٤٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ١٢٢.

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص٦١.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – حديث رقم (٧٠٢٨) ٢/ ١١٣٩، ط/ جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(٥) فتح الباري: ١/ ١٦٠.

(٦) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة – حديث رقم (٢٨٩٨) ٢/ ٦٨٣، ط/ جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦٨٢).

وهذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإنَّ الأنبياء خير خلق الله، فورثهم خير الخلق بعدهم، ولمَّا كان كلُّ موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته؛ إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحقَّ الناس بميراثهم[1].

وفي الأثر عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام العلماء، وأعلم الأمة بالحلال والحرام في بيان مكانة العلم وأهله، قال: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالدِّينُ عِنْدَ الْأَجِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَقْوَامًا، وَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الطَّيْرِ وَأَنْعَامُهُ، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَالدَّرَجَةَ الْعُلْيَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعُمَّالِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ»[2].

وعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: بلغني أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ: "يَا بني لاَ تَعَلَّم الْعِلْمَ لِتُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِتُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ ترائي بِهِ في الْمَجَالِسِ، وَلاَ تَتْرُكِ الْعِلْمَ زُهْدًا فِيهِ وَرَغْبَةً في الْجَهَالَةِ، يَا بني اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْنِكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ عَالِمًا يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا يُعَلِّمُوكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَةٍ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَلاَ تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ عَالِمًا لاَ يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا زَادُوكَ غَيًّا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِعَذَابٍ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ"[3].

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص٧٣.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر، ص١١٥.

(٣) سنن الدارمي - باب: التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله حديث رقم (٣٧٧) ١/ ١١٧، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن إلى شهر بن حوشب، ينظر: سنن الدارمي، للإمام عبدالله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، ١/ ١١٧، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

وأما عن الآداب التي ينبغي على طالب العلم أن يتحلى بها فهي كثيرة، منها:

١ - **الإخلاص**: فأولُ أدبٍ على طالب العلم هو: أن يصحح نيته في الطلب، وأن يجعلها خالصةً لله تعالى -، فالإخلاصُ هو أساسُ قبول الطاعات، وطلبُ العلمِ من أفضل الطاعات والقربات، ولذلك نجدُ بعضَ السلف يقول: لا شيء يعدلُ ثواب طلب العلم إذا صحت فيه النِّيَّة، ويؤكد سفيان الثوري هذا المعنى قائلا": ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي.

قال الإمام القرافي - رحمه الله: "واعلم يا أخي أن هذا مقام تشيب منه النواصي، ولا يعتصم منه بالصياصي[١]، فينبغي لك أن توفر العناية عليه، والجد فيه مستعينًا بالله تعالى -، فمن لم يساعده القدر، ولم ينفعه الحذر، ولقد قطع الكبر من استكبر...، ولكني أدلك على أعظم الوسائل مع بذل الاجتهاد، وهو أن تكون مع بذل جهدك شديد الخوف عظيم الافتقار ملقيًا للسلاح معتمدًا على ذي الجلال مخرجًا لنفسك من التدبير، فإن هذه الوسيلة هي العروة الوثقى لماسكها، وطريق السلامة لسالكها، والله تعالى هو المسئول المبتهل لجلاله في السلامة من عذابه...واعلم أنه ليس من الرياء، قصد اشتهار النفس بالعلم لطلب الاقتداء، بل هو من أعظم القربات فإنه سعي في تكثير الطاعات وتقليل المخالفات"[٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أنَّه تعالى - لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه سبحانه ؛ إذ يقول في الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه بسند حسن عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ"[٣].

---

(١) الصياصي: الحصون، وكل شيء امتنع به وتحصن به فهو صيصة، ومنه قيل: للحصون الصياصي، قيل: شبه الرماح التي تشرع في الفتنة وما يشبهها من سائر السلاح بقرون بقر مجتمعة. ينظر: لسان العرب: ٧/ ٥١ مادة (صيص).

(٢) الذخيرة: للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، ١/ ٤٩، ط/ دار الغرب، بيروت، ١٩٩٤م، تحقيق: محمد حجي.

(٣) السنن الصغرى للنسائي - كتاب الجهاد - باب من غزا يلتمس الأجر والذكر - حديث رقم (٣١٥٣) ٢/ ٥٠٩، ط/ جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (٣١٤٠).

فتكون النِّيَّة في الطلب لنفع نفسه بالعلم أولًا، ثم بنشره وتعليمه، لا أن يحرصَ على العلم من أجل أن ينالَ شهادةً جامعيةً، أو منصبًا من المناصب، أو ليصرفَ وجوهَ الناسِ إليه، ولكي يشارَ إليه بأنَّه العالمُ فلان، أو القارئ فلان أو الباحثُ كذا وكذا، وغير ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ حذرنا من ذلك، وذلك فيما جاء عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ»[1].

وبيَّن لنا - أيضًا - أنَّ أوَّلَ من تُسعَّر بهم النار ثلاثة، وذلك فيما جاء عن سليمان بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ" قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: "وَلَمْ أَفْهَمْ تُحِبُّ كَمَا أَرَدْتُ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنْ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ"[2].

فهذه الأعمالُ الصالحةُ الواردة في الحديث من الشهادةِ والصَّدقةِ وقراءةِ القرآن من أشرف وأفضل الأعمال، ومع ذلك أدَّت بأصحابها إلى النار، وذلك لأنَّهم لم يُخلِصوا نيتَهم فيها، وإنما كانت رياءً وسمعةً من أجل الدنيا ومدحِ الناس وغيرِ ذلك.

---

(١) سنن ابن ماجه المقدمة - باب الانتفاع بالعلم والعمل به حديث رقم (٢٦٢)١/ ٤٢، ط/ جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٥٣).

(٢) السنن الصغرى للنسائي - كتاب الجهاد - من قاتل ليقال فلان جريء - حديث رقم (٣١٥٠)٢/ ٥٠٨، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (٣١٣٧).

يقول الدكتور بكر أبو زيد – رحمه الله:"وعليه؛ فالتَزِمْ التخلص من كلِّ ما يشوب نيتك في صدق الطلب: كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلمًا لأغراض وأعراض، من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمى نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى –، بل وتحمى الحمى.

فاستمسك رحمك الله تعالى – بالعروة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب؛ بأن تكون – مع بذل الجهد في الإخلاص – شديد الخوف من نواقضه، عظيم الافتقار والالتجاء إليه سبحانه "[1].

٢ – **العمل بالعلم**: فالعمل بالعلم من أعظم الآداب التي ينبغي على طالب العلم أن يتحلى بها، فثمرة العلم هي العمل به، فقد قيل: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، وفي الأثر عن الشافعي – رحمه الله "ليس العلم ما حُفِظ، العلم ما نَفع "[2].

وفي ذلك يقول الإمام الخطيب البغدادي – رحمه الله:" ثُمَّ إِنِّي مُوصِيكَ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وَإِجْهَادِ النَّفْسِ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجَبِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ شَجَرَةٌ وَالْعَمَلَ ثَمَرَةٌ، وَلَيْسَ يُعَدُّ عَالِمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِعِلْمِهِ عَامِلًا، وَقِيلَ: الْعِلْمُ وَالِدٌ وَالْعَمَلُ مَوْلُودٌ، وَالْعِلْمُ مَعَ الْعَمَلِ، وَالرِّوَايَةُ مَعَ الدِّرَايَةِ، فَلَا تَأْنَسْ بِالْعَمَلِ مَا دُمْتَ مُسْتَوْحِشًا مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا تَأْنَسْ بِالْعِلْمِ مَا كُنْتَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ وَلَكِنِ اجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ قَلَّ نَصِيبُكَ مِنْهُمَا، وَمَا شَيْءٌ أَضْعَفُ مِنْ عَالِمٍ تَرَكَ النَّاسُ عِلْمَهُ لِفَسَادِ طَرِيقَتِهِ، وَجَاهِلٍ أَخَذَ النَّاسُ بِجَهْلِهِ لِنَظَرِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ"[3].

---

(١) حلية طالب العلم: ص١٠.

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي – باب كراهية طلب العلم لغير الله وما جاء في الترغيب في العمل بالعلم – رقم (٥١٦) ١/ ٣٢٥، ط/ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل – باب ذم التسويف – ص١٤، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٧هـ، تحقيق: الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني.

وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "يا حملة العلم، اعملوا فإنَّما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيَهم، يخالف عملهم علمهم، ويخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حِلقًا يباهي بعضهم بعضًا، حتى إنَّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدَعَه، أولئك لا يصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى"(١).

وقد بيَّن النبي ﷺ أنَّ العبد مسئول عن العمل بما يتعلمه، وذلك فيما جاء عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»(٢).

وكان من دعاء النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا)(٣).

وكان النبي ﷺ يقول:(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا)(٤).

وقد ذم ربنا – جلَّ وعلا – من لا يعمل بعلمه في مواضع كثيرة من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٥).

والغرض: أنَّ الله تعالى – ذمَّهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم؛ حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبرِّ

(١) جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٧.

(٢) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والـورع – باب في القيامة حديث رقم (٢٦٠١)٢/ ٦١٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤١٧).

(٣) سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة – باب ما يقال بعد التسليم – حديث رقم (٩٧٨) ١/ ١٣٥، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٩٣٥).

(٤) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل – حديث رقم (٧٠٨١) ٢/ ١١٤٧.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٤٤.

مع تركهم له، بل على تركهم له، فإنَّ الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من يأمرهم به ولا يتخلف عنهم»[1].

وحذَّر النبي ﷺ من التخلف عن العمل بالعلم وبيَّن أنَّ في ذلك العذاب الشديد في الآخرة، وذلك فيما جاء عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطْرَحُ فِي النَّارِ فَيَطْحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الْحِمَارِ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَفْعَلُهُ، وَأَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَأَفْعَلُهُ"[2].

وذكر الإمام ابن القيم – رحمه الله أنَّ من أسباب حرمان العلم عدم العمل به؛ حيث قال: "السادس: عدم العمل به، فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه، قال بعض السلف: كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به، وقال بعض السلف أيضًا: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حلَّ وإلا ارتحل، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته، وترك العمل به إضاعة له، فما استدرَّ العلم ولا استجلب بمثل العمل"[3].

والانتفاع بالعلم على قسمين: نفع لازم، وهو: أنَّ يعمل بعلمه في نفسه من تصحيح العقيدة، والقيام بالعبادات القلبية: من الخشية، والتوكل، والإنابة، والمحبة، والرجاء، وعبادات الجوارح: من الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغير ذلك، ثم عليه مع ذلك تصحيح معاملاته، والكف عن المحرمات والمشتبهات.

ونفع متعدٍ، أي: يتعدى نفعه إلى غيره من الناس؛ فيعمل بعلمه في الناس، وذلك بنشره في الناس، والقيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والصدع بالحق، ووقف علمه وكتبه لله تعالى – بعد موته، لينتفع الناس وطلاب العلم به، فيجرى عليه ثواب ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١١٠.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الفتن – باب الفتنة التي تموج كموج البحر – حديث رقم (٧١٨٧) ٣/ ١٤٣٥.

(٣) مفتاح دار السعادة: ١/ ١٧٢.

ومن خلال ما سبق يتبيَّن لنا أنَّ العلم النَّافع، والعمل الصالح هما مفتاح السعادة، وأساس النجاة للعبد في الدنيا والآخرة، ومن رزقه الله علمًا نافعًا، ووفقه إلى العمل الصَّالح؛ فقد حاز الخير، وحظي بسعادة الدارين، قال - تعالى -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ ﴾[1].

٣ - **الصبر**: فمن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم الصبر، وفي ذلك يقول الإمام النووي - رحمه الله في وصفه لطالب العلم: «ينبغي أن يكون حريصًا على التَّعلُّم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلًا ونهارًا، وسفرًا وحضرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلَّا بقدر الضرورة، لأكل ونوم، قدرًا لا بُدَّ له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثمَّ فوَّتها!!»[2].

فطالبُ العلمِ بحاجة إلى الصَّبر، وتحمل المشقة في سبيل العلم وتحصيله، وفي ذلك يقول الإمام يحيى بن أبي كثير - رحمه الله: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم»[3]، والعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلَّك، ولمَّا قيل للشعبي - رحمه الله: من أين لك هذا العلم كلّه؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبُكور كبكور الغُراب[4].

نفي الاعتماد، يعني علو همته واعتماده على نفسه، والسير في البلاد: هو الحركة والسفر لجمع الفوائد من الشيوخ، وصبر كصبر الحمار: هو يريد شدة التحمل للمتاعب، والحمار أصبر الحيوانات، قالت العرب (أصبرُ من حمار)، وبكور كبكور الغراب: سرعة استغلال الزمان والتبكير فيه من أوله[5].

---

(١) سورة النحل: الآية: ٩٧.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٥٠.

(٣) صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب أوقات الصلوات الخمس - حديث رقم (١٤٢١) ١/ ٢٤٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، ٧/ ٣٣٤، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط.

(٥) تنبيهات الأكابر إلى العلم الشريف الطاهر، د/ حمزة بن فايح الفتحي ص١٧، منشور بموقع صيد الفوائد https://www.saaid.net/book/open.php?cat=8&book=2562

وفي قصة موسى – عليه السلام – والخضر الكثير من الدروس والعبر لطالب العلم، ومن أعظمها: الصَّبرُ، قال – تعالى –: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾[1].

فموسى – عليه السلام – لمَّا طلب التَّعلُّم، أرشده الخضر إلى أهمِّ ما يلزم طالب العلم، ألا وهو الصَّبر.

وفي ذلك يقول الإمام الخطيب البغدادي – رحمه الله: «قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّ فِيمَا عَانَاهُ مُوسَى مِنَ الدَّأَبِ وَالسَّفَرِ، وَصَبرَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَالْخُضُوعِ لِلْخِضْرِ بَعْدَ مُعَانَاةِ قَصْدِهِ، مَعَ مَحِلِّ مُوسَى مِنَ اللَّهِ وَمَوْضِعِهِ؛ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَشَرَفِ نُبُوَّتِهِ دَلَالَةٌ عَلَى ارْتِفَاعِ قَدْرِ الْعِلْمِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَةِ أَهْلِهِ، وَحُسْنِ التَّوَاضُعِ لِمَنْ يَلْتَمِسُ مِنْهُ وَيُؤْخَذُ عَنْهُ، وَلَوِ ارْتَفَعَ عَنِ التَّوَاضُعِ لِمَخْلُوقٍ أَحَدٌ بِارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ، وَسُمُوِّ مَنْزِلَةٍ لَسَبَقَ إِلَى ذَلِكَ مُوسَى، فَلَمَّا أَظْهَرَ الْجَدَّ وَالِاجْتِهَادَ، وَالِانْزِعَاجَ عَنِ الْوَطَنِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الِاسْتِفَادَةِ مَعَ الِاعْتِرَافِ بِالْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَصِلَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى مَا هُوَ غَائِبٌ عَنْهُ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَلْقِ مَنْ يَعْلُو عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَلَا يَكْبُرُ عَنْهَا»[2].

قال قتادة: لو كان أحدٌ يكتفي من العلم بشيء، لاكتفى موسى – عليه السلام – ولكنَّه قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾[3].

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم، قال: حتى الممات إن شاء الله، وقيل له مرة أخري مثل ذلك، فقال: لعلَّ الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد ذلك[4].

ومن الصَّبر: القناعةُ بالقليل من الرزق للتَّفرغ لطلب العلم، وفي ذلك يقول الإمام مالك – رحمه الله: «إن هذا الأمر لن يُنال حتى يُذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة

(١) سورة الكهف: الآيات: ٦٦ – ٦٩.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الرحلة في طلب الحديث – باب ذكر الرحلة في طلب الحديث والأمر بها والحث عليها وبيان فضلها رقم (٣٠)، ١/ ١٠٦، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، تحقيق: نور الدين عتر.

(٣) سورة الكهف: الآية: ٦٦.

(٤) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٩٥.

من الفقر في طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يُلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر»[1].

والصبرُ على مشقة السَّفر والرحلة لطلب العلم، وفي ذلك رحل الصحابةُ، والتابعون - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، وغيرهم من سلف هذه الأمَّة، وبذلوا في سبيل العلم وتحصيله الغالي والنفيس.

ومن ذلك رحلة جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس في حديث واحد، وكان سعيد بن المسيب يقول: "إن كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد"[2].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه"[3].

وأخرج الإمام ابن جماعة أنَّ الإمام الشافعي - رحمه الله قال: "حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصَّبر على كلِّ عارضٍ دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى - في إدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله تعالى - في العون عليه"[4].

ويقول الإمام ابن هشام النحوي - رحمه الله:

وَمَنْ يَصْطَبِرْ لِلْعِلْمِ يَظْفَرْ بِنَيْلِهِ وَمَنْ يَخْطِبُ الْحَسْنَاءَ يَصْبِرْ عَلَى الْبَذْلِ

٤ - احترام الشَّيخ وتوقيره: ومن الآداب التي ينبغي على طالب العلم أن يتحلى بها احترام الشَّيخ وتوقيره، وفي ذلك يقول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من حقِّ العَالِم عليك

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٩٥.

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي - باب فضل العلم - رقم (٤٠١) ١/ ٢٧٧.

(٣) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب القراء من أصحاب النبي ﷺ - حديث رقم (٥٠٥٣) ٣/ ١٠٥١، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - حديث رقم (٦٤٨٧) ٢/ ١٠٥٢.

(٤) تذكرة السامع والمتكلم: ص١٠٤.

إذا أتيته أن تُسلِّم عليه خاصَّة، وعلى القوم عامّة، وتجلس قُدَّامه، ولا تشِر بيديك، ولا تغمِز بعينَيك، ولا تقُل: قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذ بثوبِه، ولا تُلحَّ عليه في السؤال، فإنَّه بمنزلة النَّخلة المُرطبة التي لا يزال يسقط عليك منها شيء"[1].

وقال أيضًا: "إنَّ من حقِّ العَالِم ألَّا تُكثر عليه السؤال، ولا تُعنِّته في الجواب، وألا تُلحَّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا تطلبنَّ عثرته، وإن زلَّ قبلت معذرته، وعليك أن توقِّره وتعظِّمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجةٌ سبقت القوم إلى خدمته"[2].

"فليكن شيخك محلَّ إجلال منك، وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتَّحدُّث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التَّطاول والمماراة أمامه، وعدم التَّقدُّم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبًا الإكثار من السؤال، ولا سيَّما مع شهود الملأ، فإنَّ هذا يوجب لك الغرور، وله الملل، ولا تناديه باسمه مجردًا..."[3].

ولقد ضرب علماء السَّلف أروع الأمثلة في توقير العلماء، ومن ذلك ما رُوِي عَنِ الشَّعْبِيِّ؛ قَالَ: رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَخَذَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ: لا تَفْعَلْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا، فَقَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ. فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا زَيْدٌ، وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا ﷺ"[4].

وكان الإمام الشافعي – رحمه الله يقول: "كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رفيقًا هيبة له، لئلَّا يسمع وقعها"[5].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٢٩.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ص٣٥.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٢٨.

(٥) المجموع شرح المهذب: ص ٣٩.

ومنها: أن يحافظ على وقته: فالوقت هو الحياة، وهو أغلى وأعزُّ ما يملك كما قال الحسن البصري – رحمه الله: «يا ابن آدم إنما أنت أيام مجموعة إذا مضى يوم ذهب بعضك».

ولما سُئِل الشعبي – رحمه الله من أين لك هذا العلم كله؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وبكور كبكور الغراب، وصبر كصبر الحمار»[1].

ولقد ضرب علماء السَّلف أروع الأمثلة في المحافظة على الوقت، ومن ذلك الإمام النووي – رحمه الله ؛ فقد ذكر أنَّه كان لا يضيع وقتًا في ليل ولا نهار إلَّا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى في ذهابه في الطريق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظة أو مطالعة، وأنَّه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين قبل اشتغاله بالتَّصنيف، ومجاهدة النَّفس.

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله:«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل»[2].

٥ – التواضع والحذر من الكِبْرِ: فينبغي على طالب العلم أن يتحلى بالتواضع، وأن يحذر الكبر، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تعلَّموا العلم، وتعلَّموا له السكينةَ والوقار، وتواضعوا لمن تعلَّمون، وليتواضع لكم من تعلِّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء، ولا يقوم علمكم مع جهلكم)[3].

وقال الإمام الشافعي – رحمه الله: "لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلِّ النفس، وضيقِ العَيش، وخدمةِ العلماء أفلح"[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٣٤.

(٢) صيد الخاطر: ص٣٤.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل قال: وينبغي لطالب العلم أن يكون تعلمه وللعالم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى، رقم (١٧٨٩) ٢/ ٢٨٧، وأخرجه في المدخل إلى السنن الكبرى – باب تقريب الفتيان من طلاب العلم وترغيبهم في التعلم – رقم (٦٢٩) ١/ ٣٧٠، وقال: هذا هو الصَّحيح عن عمر من قوله [ورُوي] مرفوعًا، وهو ضعيف.

(٤) مناقب الشافعي، للإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ ه)، ٢/ ١٤١، ط/ مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م، تحقيق: السيد أحمد صقر.

ومنها: التحلي بمكارم الأخلاق واجتناب الأخلاق السيئة: فقد قالوا: علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كجسد بلا روح، وكان اللَّيث بن سعد يقول: "أنتم إلى يسير من الأدب أحوج منكم إلى كثير من العلم"[1].

وعن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: قال لي أبي: «يا بني، ائت الفقهاء والعلماء، وتعلّم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإنّ ذاك أحبّ إليّ لك من كثير من الحديث»[2].

وقال ابن جماعة – رحمه الله: «فالحذر الحذر من هذه الصفات الخبيثة والأخلاق الرذيلة؛ فإنَّها باب كلِّ شرٍّ، بل هي الشرُّ كلُّه، وقد بلي بعض أصحاب النُّفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بكثير من هذه الصفات إلا من عصم الله تعالى –، ولا سيَّما الحسد والعجب والرياء واحتقار النَّاس، وأدوية هذه البلية مستوفاة في كتب الرقائق، فمن أراد تطهير نفسه منها فعليه بتلك الكتب»[3].

ومن خلال ما تقدم: يتبين لنا أن العلم من أشرف الأعمال التي تُصرف فيها الأوقات، وتنفق فيها الأموال، وأن على طالب العلم أن يتحلى بمجموعة من الآداب، منها: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ –، والعمل بالعلم، والصبر على طلب العلم والسهر في مذاكرته وتحصيله، والرحلة إلى العلماء والشيوخ، وأن يوقر الطالب شيخه، وأن يتحلى بالتواضع ويحذر من الكبر، هذه الآداب وغيرها الكثير مما ينبغي على طالب العلم الالتزام به؛ كي ينال بركة هذا العلم، لا سيما العلوم الشرعية التي بها يُعرف الحلال من الحرام، وسائر العلوم الأخرى النافعة.

---

(١) شرف أصحاب الحديث: للخطيب البغدادي، ص ١٢٢.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص١/ ٨٠.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، ص٢٤.

فَضْلُ الْعِلْمِ وَمَكَانَةُ الْعُلَمَاءِ[1]

إنَّ من أجل الطاعات والقربات التي يتقرَّب بها العبد لخالقه ومولاه جلَّ وعلا – طلب العلم النَّافع، كي يعبد الله عزَّ وجلَّ – على بصيرة، ويبلغ دين الله تعالى – للعباد على الوجه الذي أراده الله، فما أحوجنا في هذه الأيام إلى التَّعرُّف من جديد على فضل العلم والعلماء، فكما قيل: العلم شرف، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف.

فضل العلم ومكانة العلماء في القرآن الكريم:

إنَّ المتأمِّل والمتدبِّر في القرآن الكريم يجد أنَّ المولى – سبحانه وتعالى – قد أعطى العلم منزلة كبيرة ومكانة عالية، ومن ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ – استشهد بأهل العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده سبحانه وتعالى –: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[2].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: «في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنَّه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء»[3].

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله: «استشهد – سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾، وهذا يدلُّ على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر، والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته، والثالث: اقترانه بشهادة ملائكته، والرابع: أنَّ في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإنَّ الله لا يستشهد من خلقه إلَّا العدول»[4].

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في مجلة المجاهد، السنة السادسة والثلاثين، العدد (٤٢٩)، صفر ١٤٣٧هـ نوفمبر ٢٠١٥م.

(٢) سورة آل عمران: الآية:١٠٨.

(٣) تفسير القرطبي: ٤/ ٤٠.

(٤) مفتاح دار السعادة: ١/ ٥٥.

ومنها: أنَّه سبحانه نفي التَّسوية بين أهله، وبين غيرهم، كما نفى التَّسوية بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب النَّار، فقال - سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال الإمام البيضاوي - رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «نفي لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية، بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم، وقيل: تقرير للأول على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون»[2].

ومنها: أنَّه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال - تعالى -: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾[3].

ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر نبيه ﷺ بطلب المزيد منه، وهذا يعلم على فضل العلم وشرفه فقال - تعالى -: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: «فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه، كما أمر أن يستزيده من العلم"[5].

ومنها: أنَّ العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشَّرُّ كلُّه عدم الحياة والنُّور، والخير كلُّه سببه النُّور والحياة؛ فإنَّ النُّور يكشف عن حقائق الأشياء ويبيِّن مراتبها، قال - تعالى -: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[6].

كان ميتًا بالجهل قلبه، فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في النَّاس.

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/ ٦٠.

(٣) سورة الرعد: الآية: ١٩.

(٤) سورة طه: الآية: ١١٤.

(٥) تفسير القرطبي: ٤/ ٤٠.

(٦) سورة الأنعام: الآية: ١٢٢.

ومن أهمية العلم ومنزلته عند المولى - تبارك وتعالى - دعوته للنَّفرة والتفقه في الدين فقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ندب - تعالى - المؤمنين إلى التَّفقُّه في الدين، وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو التعليم»[2].

ورفع الله تعالى - درجات أولى العلم، فقال - تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله: «قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبه ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسِّيَّة في الآخرة بعلو المنزلة في الجنَّة»[4].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما خصَّ الله تعالى - العلماء في شيء من القرآن ما خصَّهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم"[5].

والعلماء هم أهل الخشية من الله سبحانه وتعالى -: قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[6].

قال الشيخ السعدي - رحمه الله: "فكلُّ من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضل العلم، فإنَّه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته"[7].

---

(١) سورة التوبة: الآية:١٢٢.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/ ٦٣.

(٣) سورة المجادلة: الآية: ١١.

(٤) فتح الباري: ١/ ٢٠٧.

(٥) الدر المنثور: للسيوطي ٨/ ٨٣.

(٦) سورة فاطر: الآية: ٢٨.

(٧) تفسير السعدي: ص٦٨٩.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلا"[1].

ومن فضل العلم وشرفه أنَّه سبحانه وتعالى - أمر بسؤالهم، والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2]، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء.

وأهل العلم هم المنتفعون بأمثال القرآن قال الله تعالى -: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[3].

قال البغوي - رحمه الله: «أي: ما يعقل الأمثال إلَّا العلماء الذين يعقلون عن الله[4].

وقال ابن كثير - رحمه الله: «أي: وما يفهمها ويتدبرها إلَّا الراسخون في العلم المتعلمون عنه، وكان بعض السلف إذا مر بمَثلٍ لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالِمين»[5].

فضل العلم ومكانة العلماء في السُّنة النبوية:

جاءت في السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة تبيِّن لنا فضل العلم، ومكانة العلماء، وما أعده الله عزَّ وجلَّ - لهم من جزاء في الدنيا والآخرة ومن ذلك: أنَّ طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"[6].

قال الإمام البيهقي - رحمه الله: "أراد - والله تعالى أعلم - العلم الذي لا يسع العاقل البالغ جهله، أو علم ما يطرأ له خاصَّة، فيسأل عنه حتى يعلمه، أو أراد أنَّه فريضة على كلِّ مسلم حتى يقوم به من فيه كفاية.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٨٩، الزهد: لأحمد بن حنبل: ١/ ١٥٨.

(٢) سورة النحل: الآية: ٤٣.

(٣) سورة العنكبوت: الآية: ٤٣.

(٤) معالم التنزيل: ٦/ ٢٤٣.

(٥) مفتاح دار السعادة: ص٥٨.

(٦) سنن ابن ماجه المقدمة - باب فضل العلماء والحث على طلب العلم - حديث رقم (٢٢٩) ١/ ٣٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩١٣).

وقال الإمام البيضاوي – رحمه الله: المراد من العلم ما لا مندوحة للعبد عن تعلمه، كمعرفة الصَّانع، والعلم بوحدانيته، ونبوة رسوله ﷺ، وكيفية الصلاة، فإنَّ تعلمها فرض عين على كلِّ مسلم، أي: مكلف ليخرج غير المكلف من الصبي والمجنون، وموضوعه الشخص، فيشمل الذَّكر والأنثى"[1].

ومن فضل العلم وشرفه أنَّ طلب العلم طريق إلى الجنَّة: فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ"[2].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: أي: مشى في تحصيل علم شرعي قاصدًا به وجه الله تعالى – جازاه الله عليه بأن يوصله إلى الجنَّة مسلمًا مكرمًا[3].

وقال الإمام النووي – رحمه الله: "وفيه فضل المشي في طلب العلم، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى – "[4].

وقال الإمام ابن حجر – رحمه الله: "فيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه؛ لأنَّ طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة"[5].

ومنها: رضا الملائكة بطالب العلم، ووضع أجنحتها له، فعن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ"[6].

قال الإمام ابن حجر – رحمه الله: قوله:(طريقًا) نكَّرها، ونكَّر علمًا، ليتناول أنواع الطرق الموصلة إلى تحصيل العلوم الدينية، وليندرج فيه القليل والكثير، قوله:(سهل الله له طريقًا)، أي: في الآخرة أو في الدنيا، بأن يوفقه للأعمال الصالحة الموصلة

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٤٤.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر – حديث رقم (٧٠٢٨) ٢/ ١١٣٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٦/ ٦٨٤.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٧/ ١٩٢.

(٥) فتح الباري: ١/ ١٦٠.

(٦) سنن أبي داود – كتاب العلم – باب الحث على طلب العلم – حديث رقم (٣٦٤٣) ٢/ ٦٢٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

إلى الجنَّة، وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه؛ لأنَّ طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنَّة[1].

قال الإمام القرافي – رحمه الله في قوله ﷺ:(وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع)، قيل: تكف عن الطيران فتجلس إليه لتسمع منه، وقيل: تكف عن الطيران توقيرًا له، وقيل: تكف عن الطيران؛ لتبسط أجنحتها له بالدعاء، ولو لم تعلم الملائكة أنَّ منزلته عند الله تستحق ذلك لما فعلته؛ فينبغي لكل أحد من الملوك، فمن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم؛ اتباعًا لملائكة الله وخاصّة ملكه، وأما استغفارهم له فهو طلب ودعاء له بالمغفرة وأحدنا يسافر البلاد البعيدة للرجل الصالح لعله يدعو له فما ظنك بدعاء قوم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فيا حبذا هذه النعمة، وأما التشبيه بالبدر ففيه فوائد: إحداها: أن العالم يكمل بقدر اتباعه للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ هو الشمس لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾[2]، والسراج هو الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾[3]، ولما كان القمر يستفيد ضوؤه من الشمس، وكلما كثر توجهه إليها كثر ضوؤه حتى يصير بدرًا فكذلك العالم كلما كثر توجهه للنبي وإقباله عليه توفر كماله، وثانيهما: أن العالم متى أعرض عن النبي بكليته كسف باله وفسد حاله كما أن القمر إذا حيل بينه وبين الشمس كسف خلافًا لمن يزعم أن العلوم تتلقى بالتوجه ولا يحتاج فيها إلى النبوة، وثالثهما: أن الكوكب مع البدر كالمطموس الذي لا أثر له وضوء البدر عظيم المنفعة منتشر الأضواء منبعث الأشعة في الأقطار برًا وبحرًا، وهذا هو شأن العالم، وأما العابد فالكوكب حينئذ لا يتعدى نوره محله ولا يصل نفعه إلى غيره»[4].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٦٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة النبأ: الآية: ١٣.

(٤) الذخيرة: ١/ ٤١ وما بعدها.

ومن فضل العلم وشرفه أنَّ الفقه في الدين سبب من أسباب الحصول على الخير: عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (١).

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله: "وهذا يدل على أنَّ من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرًا، كما أنَّ من أراد به خيرًا فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرًا إذا أُريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأمَّا إن أُريد به مجرد العلم فلا يدل على أنَّ من فقه في الدين فقد أريد به خيرًا، فإنَّ الفقه حينئذ يكون شرطًا لإرادة الخير، وعلى الأول يكون موجبًا، والله أعلم"(٢).

وقال ابن بطال – رحمه الله: "فيه دليل على فضل العلماء على سائر الناس، وفيه فضل الفقه في الدين على سائر العلوم، وإنما يثبت فضله؛ لأنَّه يقود إلى خشية الله والتزام طاعته وتجنّب معاصيه"(٣).

ومنها: أنَّ العلم ميراث الأنبياء فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"(٤).

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله: "هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإنَّ الأنبياء خير خلق الله، فورثهم خير الخلق بعدهم، ولمَّا كان كلُّ موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته؛ إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلَّا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم"(٥).

ومن فضل العلماء وشرفهم وعلو منزلتهم أنَّ النبي ﷺ بيّن أنَّهم ورثة الأنبياء: فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان؛ أحدهما عالم، والآخر عابد، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين – حديث رقم (٧١) ١/ ٢١، صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب النهي عن المسألة – حديث رقم (٢٤٣٩) ١/ ٤٠٧.

(٢) مفتاح دار السعادة: ص٦٧.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال١/ ١٥٤.

(٤) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة – حديث رقم (٢٨٩٨) ٢/ ٦٨٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم (٢٦٨٢).

(٥) مفتاح دار السعادة: ص٧٣.

"فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ"[1].

وفى بيان سبب تفضيل العالم على العابد يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله: "إنَّ الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم، وينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها، وهذا معناه صحيح، فإنَّ العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدم ما يبنيه، فكل ما أراد إحياء بدعة، وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك، فلا شيء أشدُّ عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحبُّ إليه من زواله من بين أظهرهم؛ ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة، وأمَّا العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه في خاصَّة نفسه، وهيهات له.

وقوله: (إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير)، لمَّا كان تعليمه للناس الخير سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله، بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببًا لنجاته وسعادته وفلاحه، وأيضًا، فإنَّ معلم النَّاس الخير لمَّا كان مُظهِرًا لدين الربِّ وأحكامه، ومُعرِّفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه، ما يكون تنويهًا به وتشريفًا له وإظهارًا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض[2].

وقال الإمام بدر الدين بن جماعة - رحمه الله: "واعلم أنَّه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة، وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنَّه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه، فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها، فقيل التواضع له، وقيل النزول عنده والحضور معه، وقيل التوقير والتعظيم له، وقيل معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقاصده، وأمَّا إلهام الحيوانات بالاستغفار لهم، فقيل: لأنَّها خُلِقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلماء هم الذين يبينون ما يحلُّ منها وما يحرم، ويوصون بالإحسان إليها ونفى الضرر عنها"[3].

---

(١) سنن الترمذي - كتاب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة - حديث رقم (٢٨٩٨) ٢/ ٦٨٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦٨٥).

(٢) مفتاح دار السعادة: ص٧٢.

(٣) تذكرة السامع والمتكلم: ص ٥٢ - ٥٥.

ومن فضل العلماء وشرفهم أنَّ النبي ﷺ دعا لهم بالنَّضارة، فعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ»[1].

قال الإمام المنذري - رحمه الله: معناه الدعاء له بالنَّضارة، وهى النعمة والبهجة والحسن، فيكون تقديره: جمَّله الله وزيّنه، وقيل غير ذلك[2].

- فضل العلم ومكانة العلماء عند السلف الصالح - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -:

جاءت عن سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - آثار كثيرة تبيِّن لنا فضل العلم، وشرفه، وعلو منزلته في الدنيا والآخرة، ومنها: ما جاء عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالدِّينُ عِنْدَ الْأَجِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ - تَعَالَى - بِهِ أَقْوَامًا، وَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الطَّيْرِ وَأَنْعَامُهُ، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَالدَّرَجَةَ الْعُلْيَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعُمَّالِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ»[3].

وقال لقمان لابنه: "يَا بني لاَ تَعَلَّم الْعِلْمَ لِتُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِتُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ ترائي بِهِ في الْمَجَالِسِ، وَلاَ تَتْرُكِ الْعِلْمَ زُهْدًا فِيهِ وَرَغْبَةً في الْجَهَالَةِ، يَا بني اخْتَرِ الْمَجَالِسَ عَلَى عَيْنِكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ

---

(١) سنن ابن ماجه المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ - باب من بلغ علمًا - حديث رقم (٢٣٨) ١/ ٣٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٢٢٩).

(٢) الترغيب والترهيب: ١/ ١٠٨.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٧٧، ٧٨.

عَالِمًا يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا يُعَلِّمُوكَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَةٍ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ، وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَلاَ تَجْلِسْ مَعَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكُنْ عَالِمًا لاَ يَنْفَعْكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ تَكُنْ جَاهِلًا زَادُوكَ غَيًّا، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ بِعَذَابٍ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ" (١).

وقال عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل من أصحابه: يا كميل: "العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النّفقة، والعلم يزكو بالإنفاق" (٢).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: "كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ منه من هو فيه"، وعن سفيان الثوري، والشافعي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قالا: "ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم"، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فو الذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإنَّ أحدًا لم يولد عالمًا، وإنما العلم بالتَّعلُّم" (٣).

فضل العلم ومكانة العلماء في كلام العلماء والأدباء:

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: "من أحبَّ أن يكون للأنبياء وارثًا، وفي مزارعهم حارثًا فليتعلم العلم النافع، وهو علم الدين، ففي الحديث: (العُلَمَاءُ ورَثَةُ الأَنْبِيَاءِ) (٤)، وليحضر مجالس العلماء، فإنها رياض الجنة، ومن أحبَّ أن يعلم ما نصيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله، ففي الحديث: (منْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يفقهْهُ فِي الدِّينِ) (٥)، ومن سأل عن طريق تبلغه الجنة فليمش إلى مجلس العلم، ففي الحديث: "من

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٨.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٨.

(٤) سنن الترمذي - كتاب العلم - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة - حديث رقم (٢٨٩٨) ٢/ ٦٨٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦٨٢).

(٥) سبق تخريجه.

سلكَ طريقًا يلتمسُ فيهِ علمًا سلكَ اللهُ بِهِ طريقًا إلى الجنةِ"، ومن أحبَّ ألَّا ينقطع عمله بعد موته فلينشر العلم بالتدوين والتعليم، ففي الحديث: (إذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثلَاثٍ صَدَقةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أَوْ ولدٍ صَالِحٍ يدْعُو لَهُ)[1] [2].

وقال الإمام ابن حزم – رحمه الله: "لو لم يكن من فضل العلم إلَّا أنَّ الجهال يهابونك ويجلونك، وأنَّ العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سببًا إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة، ولو لم يكن من نقص الجهل إلَّا أنَّ صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهال لكان ذلك سببًا إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة، ولو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلَّا أنَّه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهمِّ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره"[3].

وقال أبو هلال العسكري – رحمه الله: "ولفضل العلم ذلت في التماسه الأعزاء، وتواضع الكبراء، وخضع لأهله ذوو الأحلام الراجحة، والنفوس الأبية، والعقول السليمة، واحتملوا فيه الأذى، وصبروا على المكروه، ومن طلب النفيس خاطر بالنفيس، وصبر على الخسيس.

وقال الجاحظ – رحمه الله: "العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلَّك، وأنت إذا أعطيته كلَّك كنت من إعطائه إياك البعض على خطر"[4].

قال أبو هلال العسكري معلقًا على كلام الجاحظ: "وقد صدق، فكم من راغب مجتهد في طلبه لا يحظى منه بطائل على طول تعبه، ومواصلة دأبه ونصبه، وذلك إذا نقص ذكاؤه، وكلَّ ذهنه، ونبتت قريحته، والفهم إنما يكون مع اعتدال آلته، فإذا عدم الاعتدال لم يكن قبول، كالطينة إذا كانت يابسة أو منحلة لم تقبل الختم، وإنَّما تقبله في حال اعتدالها، وإذا أكدى الطالب مع الاجتهاد، فكيف يكون مع الهوينا والفتور، فإذا كنت أيُّها الأخ ترغب في

(١) سنن الترمذي – كتاب الأحكام – باب في الوقف – حديث رقم (١٤٣٢) ١/ ٣٧٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٣٧٦)، وصحيح الجامع حديث رقم (٧٩٣).

(٢) التذكرة في الوعظ: ص٥٥.

(٣) مداواة النفوس١/ ٢١.

(٤) الحث على طلب العلم: ص٤١.

سمو القدر، ونباهة الذكر، وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزًّا لا تثلمه الليالي والأيام، ولا تتحينه الدهور والأعوام، وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعوانًا بغير أجر، وجندًا بلا ديوان وفرض، فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانّه، تأتك المنافع عفوًا، وتلق ما يعتمد منها صفوًا، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوق حلاوة الكرامة مدَّة عمرك، وتمتَّع بلذة الشرف فيه بقية أيامك، واستبق لنفسك الذكر به بعد وفاتك، ولأمر ما اجتهد فيه طائفة العقلاء، وتنافس عليه الحكماء، وتحاسد فيها الفضلاء، ولا يصلح الحسد والملق في شيء غيره"[1].

وقال – رحمه الله: "فإذا كان العلم مؤنسًا في الوحدة، ووطنًا في الغربة، وشرفًا للوضيع، وقوة للضعيف، ويسارًا للمقتر، ونباهة للمغمور حتى يلحقه بالمشهور المذكور، كان من حقه أن يُؤثر على أنفس الأعلاق، ويقدَّم على أكرم العقد، ومن حقِّ من يعرفه حقَّ معرفته أن يجتهد في التماسه؛ ليفوز بفضيلته، فإن من كانت هذه خصاله، كان التقصير في طلبه قصورًا، والتفريط في تحصيله لا يكون إلا بعدم التوفيق، ومن أقصر عنه أو قصَّر دونه، فليأذن بخسران الصفقة وليقرّ بقصور الهمَّة، وليعترف بنقصان المعرفة، وليعلم أنَّه غبن الحظ الأوفر، وخدع عن النصيب الأجزل، وباع الأرفع بالأدون، ورضي بالأخس عوضًا عن الأنفس، وذلك هو الضلال البعيد"[2].

من فوائد (العلم)[3]

(١) به يُعرف اللّه ويُعبد ويُوحّد.

(٢) هو أساس صحّة الاعتقادات والعبادات.

(٣) طلب العلم عبادة.

(٤) هو طريق الوصول إلى الجنّة.

---

(١) الحث على طلب العلم: ص٤١.

(٢) الحث على طلب العلم: ص ٤٢.

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – ﷺ –، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، ٧/ ٢٩٨٢، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.

(٥) يكسب صاحبه الخشية للّه.

(٦) يكسب صاحبه التّواضع للخلق.

(٧) ينتفع به صاحبه وينتفع به غيره ممّن علّمه.

(٨) يبقى أجره بعد انقطاع أجل صاحبه.

(٩) يورث صاحبه أعلى المراتب بعد الأنبياء.

(١٠) يرفع الوضيع ويعزّ الذّليل ويجبر الكسير.

(١١) هو دليل حبّ الخير للآخرين لحرص صاحبه على إخراج النّاس من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

(١٢) به توصل الأرحام وتؤدّى الحقوق.

كانت هذه بعض فضائل العلم، وبيان مكانة العلماء في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، في عظيم فضل العلم، وشرفه، وعلو مكانة أهله العاملين به، فما أحوج الأمة الإسلامية الآن لمعرفة قيمة العلم وأهله، فبالعلم يكون التَّقدُّم والرقيُّ والنهضة الحقيقية.

مِيرَاثُ الأَنْبِيَاءِ[1]

بينما الصحابي الجليل أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمر ذات يوم بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: "يا أهل السوق، ما أعجزكم" قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: "ذاك ميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه" قالوا: وأين هو؟ قال: "في المسجد" فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: "ما لكم؟ " قالوا: يا أبا هريرة فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يُقسَّم، فقال لهم أبو هريرة: "أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ " قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة:" ويحَكم، فذاك ميراث محمد ﷺ"[2].

فالعلم ميراث الأنبياء كما أخبر بذلك النبي ﷺ فيما جاء عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي - ﷺ - قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[3].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإنَّ الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته؛

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١١٨٠)، السنة الثالثة والعشرين، ٢٢ من ذي الحجة ١٤٣٦هـ ٦ من أكتوبر ٢٠١٥م.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد - حديث رقم (١٤٢٩) ٢/ ١١٤، وقال الألباني: حسن موقوف. ينظر: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٨٣).

(٣) سبق تخريجه: ص ٣٧.

إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم[1].

فما أحوج الأمة الآن إلى معرفة منزلة العلم ومكانته في الإسلام، فالعلم هو سبيل الرقي والتقدم، وبه تنهض الأمم، وتبنى الحضارات، فالعلم شرف، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن فضله وشرفه أن الله عزَّ وجلَّ - نفي التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب النار، وأصحاب الجنة فقال - تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[2]، وقال - سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3]، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم.

والعلم حياة ونور والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة، فإنَّ النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها، قال - تعالى -: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[4].

كان ميتًا بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناس، وذم الله تعالى - أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال - تعالى -: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6]، وقال - تعالى -: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[7]، وما ذاك إلا دليل على عظم وشرف العلم وأهله.

---

(١) مفتاح دار السعادة: لابن القيم، ص٧٣.

(٢) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٣) سورة الحشر: الآية: ٢٠.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٥) سورة الأنعام: الآية: ١١١.

(٦) سورة الأنعام: الآية: ٣٧.

(٧) سورة الفرقان: الآية: ٤٤.

وأمر الله تعالى – نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم، فقال – تعالى –: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: «فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى – نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم"[2].

ولأهمية العلم ومنزلته دعا ربنا – تبارك وتعالى – للنفرة في سبيل تعلمه وتعليمه، فقال – تعالى –: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3].

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي – ﷺ – قال: (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِهْهُ فِي الدِّيْنِ)[4].

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي – ﷺ – قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[5].

وهذا يدل على فضل العلم والتعليم، ومنزلة أهله، بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعلم كان ذلك خيرًا له من حمر النعم، وهي خيارها وأشرفها عند أهلها، فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس.

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ"[6].

(١) سورة طه: الآية: ١١٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٤/ ٤٠.

(٣) سورة التوبة: الآية: ١٢٢.

(٤) سبق تخريجه: ص٣٧.

(٥) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير – باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة – حديث رقم (٢٩٧٩) ٢/ ٥٧٢.

(٦) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة – حديث رقم (٢٩٠١) ٢/ ٦٨٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦٨٥).

والعلم هو الصدقة الجارية التي تنفع صاحبها بعد الموت، ويظل ثوابها له في قبره بعد موته، وذلك فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(١).

وأخرج البيقهي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: " سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ"(٢).

وما أعظم وصايا لقمان الحكيم لابنه يحثه على طلب العلم وتوقير أهله في وصية عظيمة نحتاج أن نتعلمها ونعلمها أبنائنا اليوم يقول – رحمه الله: "يا بني لا تعلم العلم لتباهي به العلماء أو لتماري به السفهاء أو ترائي به في المجالس، ولا تترك العلم زهدًا فيه ورغبة في الجهالة، يا بني اختر المجالس على عينك، وإذا رأيت قومًا يذكرون الله فاجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلًا يعلموك، ولعل الله أن يطلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلًا زادوك غيًّا أو عيًّا، ولعل الله يطلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم"(٣).

وما أروع ما سطره الإمام أبو هلال العسكري – رحمه الله في عبارات جميلة ما أحوجنا لتدبرها وفهمها والعمل بها؛ إذ يقول: "ولعمري إنَّ شيئًا ينزل المملوك منزلة الملوك، ويحل التابع محل المتبوع، ويحكم به السوقة على الملك العظيم، لحقيق أن ينافس فيه، ويحسد صاحبه عليه، ويجتهد في طلبه أشد الاجتهاد، وأمرًا يخدم فيه عبد الله بن عمر مجاهدًا، ومجاهد هو ابن جبر، أحد مماليك مكة، وعبد الله بن عمر

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الوصية – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته حديث رقم (٤٣١٠) ٢/ ٧٠٠.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي – الاختيار في صدقة التطوع – حديث رقم (٣٤٤٩) ٣/ ٢٤٨، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٨٣).

(٣) سنن الدارمي، برقم (٣٨١) ١/ ١١٨، حلية الأولياء: ٦/ ٤٩.

في فضله وزهده وورعه وشهرة اسمه، أبوه في شرفه ومكانه من الصحبة، ثم من رتبة الخلافة، وملكه الأرض شرقًا وغربًا، وطاعة أهل الإسلام والكفر له طوعًا وكرهًا، لحري أن يرغب فيه العاقل ويحافظ عليه اللبيب"[1].

فما أحوجنا جميعًا، ونحن على أعتاب بداية عام دراسي جديد أن نقدر قيمة العلم وأهله، وأن يضرب كل منا بسهم في خدمة وطنه في نشر العلم وتعليمه والإخلاص في العمل لله تعالى - في التوعية الدينية الصحيحة، ويعلم كل منا أنَّ عليه مسئولية تجاه وطنه، وأنَّ الإصلاح والتغيير الحقيقي لا يكون إلا بالعلم عن طريق النهضة بالمعلم والطلاب والمؤسسات التعليمية والمراكز البحثية، وأن يعلم كل منا أنَّه مسئول أمام الله عزَّ وجلَّ - غدًا عن عمله، وعلمه فماذا نحن قائلون لربنا غدًا؟.

(١) الحث على طلب العلم: لأبي هلال العسكري، ص٥٣.

بِالْقِرَاءَةِ نَحْيَا وَنَرْقَى [1]

إنَّ المتأمِّل والمتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجد أنَّ أول ما نزل قول الله تبارك وتعالى -: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[2].

«فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأنَّ من كرمه تعالى - أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البشرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[3]، وفي الأثر: قيِّدوا العلم بالكتابة، وفيه أيضًا: مَنْ عمل بما علم أورثه الله علمَ ما لم يكن يعلم»[4].

وعلى الرُّغم من أنَّنا أمَّة اقرأ فإنَّنا نجد الكثير من أبناء هذه الأمة لا يقرأ، وربَّما يقرأ لكنَّه لا يقرأ المفيد من الكتب، بل يقرأ روايات أو قصصًا لا فائدة منها؛ بدعوى تسلية الوقت، وغير ذلك ممَّا نراه ونشاهده في واقعنا، وهذا إن دّل فإنما يدّل على أنَّنا نعيش حالة جفاء وبُعد عن القراءة والكتب، وقد يكون السبب في ذلك كثرة الوسائل المضيعة للوقت من

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة صوت الأزهر، العدد (٩٠٦)، السنة الثامنة عشرة، ١١ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ ٨ من فبراير ٢٠١٧م، ونُشر في جريدة عقيدتي، العدد (١٧١٨)، السنة الخامسة والعشرين، ١٠ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ ٧ من فبراير ٢٠١٧م.

(٢) سورة العلق: الآيات: ١ - ٥.

(٣) سورة العلق: الآيات: ٣ - ٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٤٥.

الانشغال بالتلفاز، والجلوس لأوقات طويلة أمام وسائل التواصل الاجتماعي التي أضاعت أوقات الكثير من شباب الأمة اليوم، وكذلك نفتقد برامج التوعية في مدارسنا وجامعاتنا بأهمية القراءة ومكانتها، وتغيب ثقافة القراءة داخل البيوت والمؤسسات التربوية التي تربي النشء منذ صغره على حبِّ القراءة، فقد قالوا: التعليم في الصِّغر كالنَّقش على الحَجَرِ.

ولأهمية القراءة ودورها في نهضة الأمم نجد العلماء قد اهتموا واعتنوا بالكتاب، ووضعوه في المكانة اللائقة به، وفي ذلك يقول الجاحظ - رحمه الله:» الكتاب نِعْمَ الأنيس في ساعة الوحدة، ونعم القرين ببلاد الغربة، وهو وعاء مليء علمًا، وليس هناك قرين أحسن من الكتاب، ولا شجرة أطول عمرًا ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى من كتاب مفيد، والكتاب هو الجليس الذي لا يمدحك والصديق الذي لا يذمُّك، والرفيق الذي لا يَملُّك ولا يخدعك، إذا نظرت فيه أمتعك، وشحذ ذهنك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وغذَّى روحك، ونمَّى معلوماتك، وهو المعلم الذي إنْ افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة.

ولو لم يكن من فضله عليك إلا حفظه لأوقاتك فيما ينفعك، وصونها عمَّا يضرُّك من فضول النَّظر والكلام والاستماع والمخالطة ومجالسة مَنْ لا خير فيهم، لكان في ذلك على صاحبه أسبغ نعمة وأعظم منَّة، فالكتاب صديق يقطع أوقات فراغك في مؤانسة تنجيك من الوحدة المملة، كما ينقل إليك أخبار البلاد النائية؛ فتعرف أنباءها كما تعرف أنباء بلدتك»[1].

والقراءة هي وسيلة المعرفة، وتطوير المهارات، وتوسيع مدارك الإنسان من خلال الاطلاع على مجالات العلم المختلفة في شتى المعارف، وقد قالوا: مَنْ قرأ تكلَّم، فبالقراءة يُحصِّل الإنسان المعارف والمعلومات التي من خلالها يستطيع أن يبتكر ويطوِّر مهاراته، وبدون القراءة يظلُّ الإنسان على حاله، كما هو بمعلوماته القديمة لا يطور من نفسه ومعارفه، وفي ذلك يقول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كفى بالعلم شرفًا أن يدَّعيه مَنْ لا يُحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ذلًّا أن يتبرَّأ منه مَنْ هو فيه، ويحزن إذا نُسب إليه[2].

---

(١) الحيوان: ١/ ٥١، ط/ دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

(٢) حلية الأولياء: ٩/ ١٤٦.

فالقراءة ترفع عن صاحبها الجهل، وتُنير له الطريق، وبالتَّخلُّف عن القراءة والمعرفة يعيش الإنسان في غياهب الجهل، الذي ربَّما يُؤدِّي به إلى الهلاك، فأساس كل فتنة وشر هو الجهلُ.

ولأهمية القراءة ومكانتها نجد أنَّها كانت سببًا في فك الأسرى في معركة بدر، وذلك؛ حيث كان الرسول ﷺ يطلب من الأسير المشرك الذي يريد فداء نفسه من الأسر تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة!! فلنتأمل في هذا جيدًا لندرك مدى أهمية القراءة والكتابة، وأنَّها من الضَّروريات في تقدُّم ونهوض أيِّ أمَّة من الأمم.

ولقد ضرب سلف الأمة أروع الأمثلة في القراءة والشَّغف بها، ومن ذلك حال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله في المطالعة؛ حيث يقول عن نفسه: "وإنِّي أُخبر عن حالي: ما أشبع من مُطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره، فكأنِّي وقعتُ على كنز، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب – وكانت أحمالًا – وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه، ولو قلتُ: إنِّي طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلب"، ثم يقول موصيًا العالمَ وطالبَ العلم: "ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك"[1].

ولننظر إلى الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبليّ وحاله مع القراءة؛ حيث يقول عنه الإمام ابن الجوزي – رحمه الله: «كان دائم التشاغُل بالعلم، حتى إني رأيتُ بخَطِّه: إنِّي لا يحلّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مُطالعة، أعملتُ فِكري في حالة راحتي وأنا مُسْتَطرِحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإنِّي لأجد من حِرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين أشدّ ممَّا كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة»[2].

ونقلَ ابنُ رجب من «الفنون» لابن عقيل أنَّه قال عن نفسِه:» أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفَّ الكعك، وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفّرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه»[3].

(١) صيد الخاطر: ص٣١٨.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ١٤٥ – ١٤٦.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة: ١/ ١٤٥ – ١٤٦.

وكان الإمام الحافظ ابن حجر صاحب: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» غاية في القراءة والمطالعة، وفي ذلك يقول تلميذه السخاوي - رحمه الله: « إنَّما كانت همته المطالعة والقراءة والسَّماع والعبادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يُخْلي لحظةً من أوقاته عن شيءٍ من ذلك، حتى في حال أكْلِه وتوجُّهه وهو سالك، كما حكى لي ذلك بعض رُفْقَته الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابَهُ، وقد سمعته رحمه الله يقول غيرَ مرَّة: إنني لأتعجَّب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال!!»[1].

فبالقراءة تحيا الأمم، وترتقي المجتمعات، وتبنى الحضارات، فما أحوجنا إلى توعية الجيل عن طريق وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمقروءة والمسموعة بأهمية القراءة ومكانتها؛ لتسعد الأمة وتنهض.

(١) الجواهر والدرر: للسخاوي ١/ ١٧٠.

الكِتَابُ خَيْرُ جَلِيسٍ (1)[1]

بعد أيام تنطلق الدورة الثامنة والأربعون لمعرض القاهرة الدولي للكتاب، وهي فرصة سنوية ينتظرها كثير من العلماء، والباحثين، وطلاب العلم المشتغلين بفروع الثقافة المختلفة؛ حيث تُعقد الصالونات الأدبية، والندوات الثقافية، واللقاءات الدينية، وفيه يحرص كلُّ قارئ على معرفة الجديد في ميادين المعرفة المختلفة، ويلتقي فيه الباحثون والكُتاب من جميع أنحاء العالم.

والكتابُ هو عنوان نهضة الأمم وتقدمها، وسبيل بناء حضارتها، فالأمَّة التي تهتم بالقراءة والكتابة والعلم هي الأمة المتقدمة، أمَّا الأمَّة التي تتخلف عن القراءة والكتابة فهي دائمًا تراها في ذيل الأمم؛ لأنها لم تأخذ بأهم سُبُل التقدم وأرقاها، وهو العلم، وأمَّة الإسلام هي أمة القراءة والكتابة، فأول ما نزل من القرآن هو اقرأ، قال – تعالى –: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[2].

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأنَّ من كرمه تعالى – أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البشرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، السنة الخامسة والعشرين، ٢٦ من ربيع الآخر ١٤٣٨هـ ٢٤ من يناير ٢٠١٧م، والعدد (١٧١٨)، السنة الخامسة والعشرين، ٣ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ ٣١ من يناير ٢٠١٧م.

(٢) سورة العلق: الآيات: ١ – ٥.

﴿٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾[1]، وفي الأثر: قيِّدوا العلم بالكتابة، وفيه أيضًا: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يكن يعلم[2].

والكتاب هو أعظم وسيلة لحفظ العلم والعناية به، ولذلك نجد العلماء في القديم والحديث يُعنون بالتنصيف والتأليف في مجالات العلوم المختلفة، وما دفعهم لذلك إلا لعلمهم أنَّ الكتاب هو الباقي، وهو الصدقة الجارية التي ينتفع بها صاحبها بعد موته، وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي – رحمه الله: «كتاب العالم ولده المخلد»، وكان للعلماء من سلف هذه الأمة حالٌ عجيبةٌ مع الكتاب والنفقة عليه من عزيز المال، وفي ذلك يقول الجاحظ – رحمه الله: «مَنْ لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عُشَّاق القِيان، والمُسْتهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤْثر اتِّخاذ الكتب إيثار الأعرابيِّ فرسَه باللبن على عِياله، وحتى يُؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسِه»[3].

ونجد الإمام ابن حزم – رحمه الله في ذكره لدعائم العلم أنَّه يَعُدُّ منها الاستكثار من الكتب وجمعها؛ حيث يقول: «الاستكثارُ من الكتب، فلن يخلوَ كتابٌ من فائدة وزيادة علم يجدَها فيه إذا احتاجَ إليه، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمِه الذي يختصّ به؛ فإذ لا سبيل إلى ذلك، فالكتبُ نِعْم الخِزانة له إذا طُلِب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم تُوجَد، وهذا خطأٌ ممَّن ذمَّ الإكثار منها، ولو أُخِذَ برأيه، لتَلِفَت العلوم، ولجاذبهم الجهَّال فيها، وادَّعوا ما شاءوا!! فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل»[4].

والكتاب كما يقول الأستاذ: العقاد – رحمه الله طعام الفكر؛ وما ذاك إلا لأنَّه يحوي تجارب آلاف السنين في مختلف الأمم والعصور، إنَّه أوفى صديق، وخير جليس، وفي ذلك يقول المتنبي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدنَى سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزِّمَانِ كِتَابٌ

(١) سورة العلق: الآيات: ٣ – ٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٤٥.

(٣) الحيوان: ١/ ٥٥.

(٤) رسائل ابن حزم: ٤/ ٧٧.

وفي وصف الكتاب وأهميته ومكانته يقول الجاحظ – رحمه الله: «والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفًا، وإناءٌ شُحِن مُزَاحًا وجِدًّا؛ إن شئت كان أعيا من باقِل، وإنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه»[1]. ثم يقول: «ولا أعلَمُ جارًا أبرَّ، ولا خَليطًا أنصفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلِّمًا أخضعَ، ولا صاحبًا أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالًا وإبرامًا، ولا أحفَلَ أخلاقًا، ولا أقلَّ خِلافًا وإجرامًا، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفًا، ولا أقلَّ تصلُّفًا وتكلُّفًا، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب.

والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بيانك، وفخَّم ألفاظك، وعمَّر صدرك، وحباك تعظيم الأقوام، ومنحك صداقة الملوك، يطيعك في الليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبَّت عليك ريحُ أعدائك لم ينقلب عليك...»

ثم يقول – رحمه الله: «والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا، وورُوده خِمْسًا، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك»[2].

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل، وتشحذه، وتداويه، وتصلحه، وتهذبه، وتنفي الخَبَث عنه، وتفيدك العلم، وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأَخذ بالثقة، وتجلب الحالَ، وتكسب المال»[3].

---

(١) الحيوان١: ٣٨/.

(٢) المرجع السابق:١/ ٥٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٩٩.

فما أحوجنا الآن إلى أن نقدر الكتاب حق قدره، وأن نقوم بواجبنا في نهضة أمتنا الإسلامية، فعنوان النهضة والتقدم هو العلم، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة قيمة الكتاب والقراءة، فأمة اقرأ لا بد أن تقرأ.

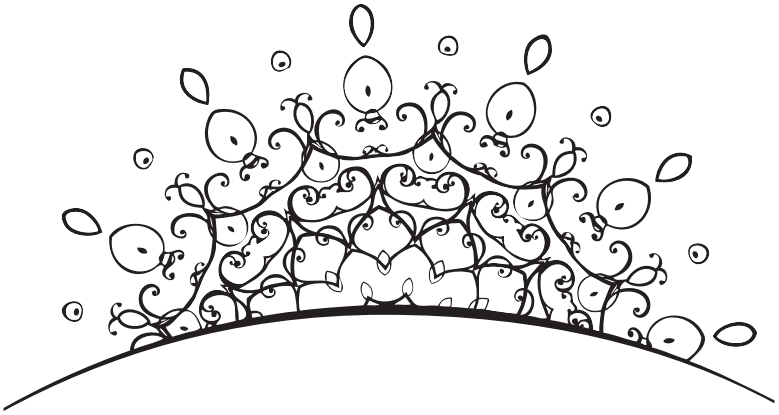

القسم الثاني

العمل والعمال

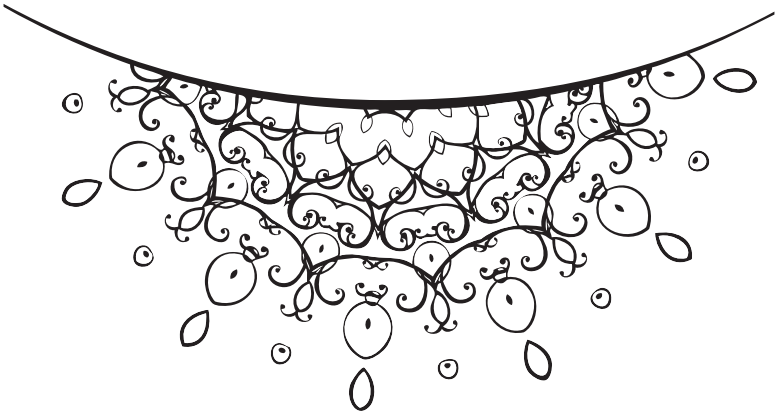

دَعْوَةُ الإِسْلَامِ إِلَى الْعَمَلِ وَمُحَارَبَتُهُ التَّسَوُّلَ[1]

إنَّ النَّاظرَ والمُتَأَمِّلَ في ديننا الإسلامي الحَنيفِ، يَجِدُهُ قد حَثَّ على العمل، ودعا إليه بشتى صوره وأشكاله، ونَهَى عن الخُمُول والكَسَلِ، وقد جاء ذلك واضحًا جليًّا في مَواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم؛ منها قول الله تعالى -: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2].

قال الإمام الفخر الرازي - رحمه الله: «قوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإن لعملكم في الدنيا حكمًا وفي الآخرة حكمًا. أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة. فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعاده[3].

وقال - سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[4].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾أي سهلة تستقرون عليها. والذلول المنقاد الذي يذل لك والمصدر الذل وهو اللين والانقياد. أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة. وقيل: أي

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، السنة السادسة والعشرين، العدد (٤٧٧٢)، ٢٢ من شعبان ١٤٣٩هـ ٨ من مايو ٢٠١٨م.

(٢) سورة التوبة: الآية: ١٠٥.

(٣) مفاتيح الغيب: ١٦/ ١٤٩.

(٤) سورة الملك: الآية: ١٥.

ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها؛ ولو كانت تتكفأ متماثلة لما كانت منقادة لنا. وقيل: أشار إلى التمكن من الزرع والغرس وشق العيون والأنهار وحفر الآبار. ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمر إباحة، وفيه إظهار الامتنان. وقيل: هو خبر بلفظ الأمر؛ أي لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها»[1].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2].

يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾أي من رزقه، وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصليتُ فريضتك، وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين، وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إنه العمل في يوم السبب، وعن الحسن بن سعيد بن المسيب: طلب العمل»[3].

كذلك دعا الإسلامُ إلى العمل المُثمِر وحثَّ عليه، وبَارَكَ الجُهدَ المبذولَ، وحذَّرَ من البّطَالة والتسول، ومنع الاستجداء ممن كان قادرًا على العمل، وقد مدح الله العامل بقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[4].

هذا وقد جاءت السُّنَّة المُطهَّرة وحثَّت على العمل وإتقانه، وبيَّنت أنَّ أفضلَ الأعمال أنْ يأكلَ الرجلُ من عَمَلِ يده، وأنَّ الأنبياء - عليهم السلام كانوا يأكلون من عمل أيديهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ -، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[5].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٢١٤ وما بعدها.

(٢) سورة الجمعة: الآية: ١٠.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٠٨ وما بعدها.

(٤) سورة النحل: الآية: ٧٦.

(٥) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب كسب الرجل وعمله بيده حديث رقم (٢١١٠) ١/ ٣٨٧.

فأطيب المكاسب ما كان بعمل اليد، وإنْ كان زراعة فهو أطيب المكاسب لِمَا يشتمل عليه من كونه عَمَلَ اليدِّ، ولِمَا فيه من التَّوكُّلِ، ولِمَا فيه من النَّفْعِ العام للآدمي والدواب[1].

وفي هذا الحديث فوائدُ كثيرةٌ؛ منها: "إيصال النفع لآخذ الأجرة إن كان العمل لغيره، وإيصال النفع إلى الناس بتهيئة أسبابهم من نحو: (زرع، وغرس، وخياطة) وغير ذلك، ومنها: أن يشتغل الكاسِبُ به فَيَسْلَمَ عن البطالة واللهو، ومنها: كَسْرُ النفس به، فَيَقِلُّ طُغيانُها ومَرَحُها، ومنها: التَّعَففُ عن ذلِّ السؤال والاحتياج إلى الغير، وشرط المُكتسِب أن لا يعتقد الرزقَ من الكَسْبِ بل من الرزاق ذي القوة"[2].

ولو تأملنا سيرة الأنبياء لوجدناهم يأكلون من عمل أيدهم، ومن ذلك نبينا - ﷺ؛ حيث كان راعي غنم وكان يقول: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[3].

وكان آدم - عليه السلام - حرَّاثًا، ونوح نجَّارًا، وإدريس خيَّاطًا، وإبراهيم ولوط كانا يعملان في الزراعة، وصالح تاجرًا، وداود حدَّادًا، وهكذا كان صحابة رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فقد كان عبد الرحمن بن عوف تاجرًا، والزبير بن العوام خيَّاطًا، وسعد بن أبى وقاص نَبَّالًا، أي: يصنع النبال، وعمرو بن العاص جزارًا، وكان لابن مسعود وأبي هريرة مزارع يزرعونها، وكان عمار بن ياسر يصنع المكاتل ويضفر الخوص، ولما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ، أَوْ أَفْضَلُ؟، قَالَ: "عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ"[4].

فالإسلام يدعو إلى السعي والعمل، ولا يدعو إلى الخمول والكسل، ومن العدالة أن يكون عمل واحد للرجل الواحد، فلا يوضع شخص في عدة شركات ليعمل فيها، وطاقة كل إنسان محدودة، في الوقت الذي نجد فيه رجالًا متعطلين لا عمل لهم[5].

---

(١) فتح الباري ٤/ ٣٠٤.

(٢) فيض القدير: ٥/ ٥٤٣.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الإجارة - باب رعي الغنم على قراريط - حديث رقم (٢٣٠٦) ١/ ٤١٨.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب البيوع - باب إباحة التجارة - حديث رقم (١٠٧٠١) ٥/ ٢٦٣، وقال الألباني: صحيح لغيره. ينظر: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٦٨٨).

(٥) الإسلام منقذ للإنسانية، محمد عطية الإبراشي، ص١١٥.

وكما أمرنا ديننَا بالعمل، وحثَّنا عليه، كذلك حذَّرنا من التسول ونهانا عنه، بل لم يقتصر الأمر على ذلك، بل حاربه بشتى أشكاله وصوره التي نراها اليوم في كثير من المجتمعات، حتى صار التسول مهنة عند الكثيرين، فربَّما تجد الكثير من هؤلاء يستطيع العمل، ولكنَّه استسهل هذا الأمر، وجعله حرفته ومهنته وشغله وعمله اليومي، وقد حذَّر النبي ﷺ من هذا الفعل، ونهى عنه، وحاربه، ودعا أتباعه للعمل، ومن ذلك قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»(١).

فالإسلام يحث على عزة النفس، والمحافظة على الكرامة بالعمل، حتى لا يمد الإنسان يده إلى غيره، فيعطيه المحسن، ويطرده البخيل، وفي هذا الحديث تشجيع على العمل، فالذي يأخذ حبله، ويذهب إلى الحقل، ويجمع حزمة من الحطب للوقود، فيبيعها ويشتري بثمنها ما يقتات منه، ويحفظ بهذه الوسيلة وجهه من ذل السؤال والخزي والخجل - خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه(٢).

كذلك نهى عن المسألة وبيّن أنَّها مذلة في الدنيا، وعقوبتها وخيمة في الآخرة وذلك في قوله: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»(٣).

وعلَّمنا النبيُّ ﷺ كيف نتعامل مع هؤلاء المتسولين القادرين على العمل والكسب؛ فقد روى البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: «ائْتِنِي بِهِمَا»، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: «مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا»، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي

(١) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة - حديث رقم (١٤٩٣) ١/ ٢٧٩.

(٢) الإسلام منقذ للإنسانية، ص١١٦.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب من سأل الناس تكثرا - حديث رقم (١٤٩٧) ١/ ٢٧٩، صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب كراهة المسألة للناس - حديث رقم (٢٤٤٥) ١/ ٤٠٨.

بِهِ»، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ"[1].

والفقر المدقع: هو الفقر الشديد، ومعناه: الفقر الذي يفضي به إلى التراب لا يكون عنده ما يقيه من التراب، والغُرم المفظع: هو الدَّيْنُ الشديد، والغُرم المفظع هو أن تلزمه الدُّيون الفظيعة القادحة حتى تتفرع به، فتحل له الصدقة، فيعطى من سهم الغارمين، والدَّمُ الموجع: هو أن يتحمل حمالة في حقن الدماء، وإصلاح ذات البين، حتى يؤديها، فإنْ لم يؤدها قُتل فيوجعه قتله[2].

ففي هذا الحديث صورةٌ عمليةٌ تطبيقية لكيفية محاربة التَّسولِ والبطالةِ والدعوةِ للعمل، فما أحوجنا إلى أنْ نأخذَ هذا الدرس العملي من نبينا - ﷺ - ونطبقه في واقعنا على هؤلاء المُتسولين، وألا نعطي لهم الفرصةَ كي يجعلوها مِهْنَةً، وأنْ نَحُضَّهُم على العمل، ونَدعُوَهُم إليه، وأنْ نُوفِّرَ لهم فُرصَ عَمَلٍ تجعلهم يأكلون من كَسْبِ أيديهم وعرق جبينهم، ويَكُفُّون بها أنفسهم عن ذُلِّ السؤال في الدنيا، وعقوبته في الآخرة، وليعلموا أنَّ عَمَلَ الرجلِ بيده شرفٌ عظيمٌ قام به خيرُ الخَلْقِ، وهم الأنبياء - عليهم السلام -، وهكذا كان الصحابة، وسلف الأمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

(١) سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب ما تجوز فيه المسألة - حديث رقم (١٦٤٣) ١/ ٢٨٢، وقال الألباني: صحيح لغيره. ينظر: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٨٣٤).

(٢) شرح سنن أبي داود: للعيني ٦/ ٣٨٧.

أَخْلَاقِيَّاتُ الْعَمَلِ فِي الإِسْلَامِ[1]

دعا الإسلام للعمل المثمر، وحثَّ عليه، وبارك الجهد المبذول، وحذَّر من البطالة والتسول، ومنع الاستجداء ممن كان قادرًا على العمل، وقد مدح الله عزَّ وجلَّ - العامل بقوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

ودعا النبي ﷺ إلى العمل، ورغَّب فيه، وبيَّن أنَّ العمل خير من البطالة والسؤال، وذلك فيما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي ﷺ أعطى رجلًا من الأنصار درهمين، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ»، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ»[3].

قوله: «مدقع» من أدقع من الدقع، وهو: الفقر الشديد، وأصله من الدقعاء وهي: التراب، ومعناه: الفقر الذي يفضي به إلى التراب لا يكون عنده ما يقيه من التراب. وقال ابن الأعرابي: الدقع: سوء احتمال الفقر[4]، وقوله: «أو لذي غرم مفظع» الغُرْمُ: هو

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١٦٨٣)، السنة الرابعة والعشرين، ٢٤ من شعبان ١٤٣٧هـ ٣١ من مايو ٢٠١٦م.

(٢) سورة النحل: الآية: ٧٦.

(٣) سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب ما تجوز فيه المسألة - حديث رقم (١٦٤٣) ١/ ٢٨٢، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٨٣٤).

(٤) شرح أبي داود: للعيني ٦/ ٣٨٨.

الدينُ، وهو بضم الغين وسكون الراء، ومفظع من أفظع يقال: أفظعني الأمر اشتد عَلَيَّ، والأمر الفظيع هو الشديد الشنيع الذي جاوز المقدار[1].

وقال الخطابي – رحمه الله: والغُرم المفظع: هو أن تلزمه الديون الفظيعة القادحة حتى تتفرع به، فتحل له الصدقة، فيعطى من سهم الغارمين[2].

قوله: «أو لذي دم موجع» بكسر الجيم، والدم الموجع هو أن يتحمل حمالة في حقن الدماء، وإصلاح ذات البين، حتى يؤديها، فإن لم يؤدها قتل فيوجعه قتله.

ويستفاد منه فوائد:

الأولى: أن بيع المزايدة جائز، والنهي عن البيع على بيع أخيه إنما هو بعد الركون، الثانية: إثبات الكسب والأمر به، الثالثة: أن السؤال حرام إذا قدر على الكسب، الرابعة: فيه أن مُقْتَدَى القوم يرشد قومه إلى طريق فيه نجاتهم، ويُوضح لهم كيفية الأعمال في كل شيء، الخامسة: أن السؤال وإن كان عن حاجة فإنه يُؤثر في القصد، لما فيه من التعلق بغير اللّه، فيكون أثرًا كالنكتة، ويظهر تأثيره بإسقاط جزء من الجواب[3].

والعمل نعمة عظيمة، تستحق الشكر، قال – تعالى –: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[4].

ونجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفضِّل العمل والكسب على الجهاد؛ حيث يقول: "لَأَنْ أموتَ بينَ شعبتي رَحلِي أَضرِب في الأرض أبتغي من فضل الله أَحَبُّ إليَّ من أنْ أُقْتَلَ مُجاهِدًا في سبيل الله؛ لأنَّ الله تعالى – قدَّم الذين يضرِبون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين"، يعني في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ﴾[5] [6].

(١) شرح أبي داود: للعيني ٦/ ٣٨٨.

(٢) معالم السنن: للخطابي ٢/ ٥٩.

(٣) شرح أبي داود: للعيني ٦/ ٣٨٩.

(٤) سورة يس: الآية: ٣٥.

(٥) سورة المزمل: الآية: ٢٠.

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ٥/ ٣٦٢، ط/ دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

وأباح الإسلام للعمال أن يطالبوا بحقِّهم، وزيادة أجورهم، وأن يُذكِّروا أصحاب العمل بواجباتهم، ما داموا يقومون بأداء واجباتهم في العمل؛ من حيث الإتقان والجودة والإخلاص، كما قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»(١).

ومن إتقان العمل أن يشعر العامل بالمسئولية تجاه العمل المكلف به، وأن يبذل الوسع والطاقة في سبيل تحقيق الإنتاج؛ لأنَّه بذلك يُنمِّي الاقتصاد، ويعود عليه بالنفع، وعلى الأمة وعلى المجتمع كلِّه.

وللعمل أخلاقيات وسلوكيات وآداب دعا إليها الإسلام، ومنها: الرقابة الذاتية على نفسه وعمله، ينبع ذلك من إيمانه، ومن مخافته من الله، واستشعاره تقوى الله، ورهبته، وأنَّ الله مطَّلِع عليه مراقب له، يعلم سره ونجواه وخفايا نفسه، يحاسبه على عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وأن يحرص على الكسب الحلال في جميع الأعمال التي يقوم بها؛ ولذلك لمَّا سُئل النبي ﷺ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»(٢).

وقد نهى الإسلام عن أكل الحرام، والعمل الحرام، والكسب الحرام، فحرَّم الربا، والقمار، والسرقة، والغش، والاحتكار، والاستغلال، والخداع في البيع.

ومنها: ألا يُجهد الإنسان نفسه في العمل أو دابته أو آلته، ومن ذلك ما أسسه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»(٣)؛ فلا يرهق نفسه بزيادة العمل، ولا بزيادة الحمل، كما لا يرهق الحيوان أو الآلة.

وألا يعمل في محرم، وما فيه معصية لله تعالى -، كبيع الخمور والمسكرات، والتجارة في المحرمات من الربا، وسائر المعاملات المنهي عنها؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي - الخامس والثلاثون من شعب الإيمان وهو باب في الأمانات وما يجب - حديث رقم (٥٣١٢) ٤/ ٣٣٤، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٨٨٠).

(٢) مسند أحمد بن حنبل - مسند الشاميين - حديث رافع بن خديج - حديث رقم (١٧٢٦٥) ٢٨/ ٥٠٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠٣٣).

(٣) صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع - حديث رقم (٢٠٠٥) ١/ ٣٦٨.

في معصية الخالق، والطاعة لا تكون إلا في المعروف، وهو ما أحلَّه الله عزَّ وجلَّ - ورسوله ﷺ.

ومن صفات العامل أن يكون قويًّا أمينًا؛ لأنَّ العامل إمَّا أن يكون أجيرًا عند الدولة، أو عند عامة الناس، وهذا المعنى هو ما صوره القرآن الكريم حكاية عن نبي الله موسى - عليه السلام - مع نبي الله شعيب - عليه السلام - حينما اختاره عاملًا، فيقول القرآن حكاية عن هذا ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[2].

وأن تكون لدى العامل الخبرة الكافية فيما يقوم به من أعمال، فلا يكفى أن يكون العامل أمينًا قويًّا خلوقًا تقيًّا؛ إذ لابُدَّ أن يكون عارفًا بعمله، مدركًا له، وقد كان عمر يستعمل قومًا، ويدع أفضل منهم؛ لبصرهم في العمل، وعدم الخبرة يؤدي إلى فساد العمل وضياعه، ويؤدى إلى ضعف الإنتاج، أو سوء الإدارة، أو إتلاف الآلات، ويستتبع ذلك هدر الأموال وإضاعتها.

ومن أخلاقيات العمل الأمانة، والأمانة من الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام، فينبغي للعامل أن يتحلى بها؛ لأنَّها من الدّين، ومن ثقلها عرضها الله على السماوات، والأرض، والجبال فأبيين أن يحملنها، وحملها الإنسان، ومن الأمانة أن يحرص على وقت العمل، واستثماره فيما يعود عليه بالنفع، وأن يبتعد عن الغشِّ بكافة صوره وأشكاله، وألا يستغل موقعه لمصلحة شخصية له أو لأحد أقاربه.

فما أحوج العمال اليوم في ميادين العمل المختلفة إلى هذه الأخلاقيات من الصدق، والأمانة، والرقابة الذاتية، وإتقان العمل، وغير ذلك من الأخلاقيات التي ذكرناها، كي يكون مثمرًا، والمال الذي يتحصل العامل عليه من عمله حلالًا، والله الموفق.

---

(١) سورة القصص: الآية: ٢٦.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب كراهة الإمارة بغير ضرورة - حديث رقم (٤٨٢٣) ٢/ ٨٠٤.

مكانةُ العملِ التطوعيِّ في الإسلامِ[1]

العمل التطوعي من الأعمال التي حثَّ عليها الإسلام، ودعا إليها النبي - عليه الصلاة والسلام -، فالعمل التطوعي ظاهرة اجتماعية تحقق الترابط والتآلف والتآخي بين أفراد المجتمع؛ حتى يكون كما وصفه الرسول ﷺ بقوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2].

والعمل التطوعي من أهمِّ الأعمال التي يجب أن يُعتنى بها، فكلُّ إنسان ذكرًا كان أو أنثى مطالب بعمل الخير بما يتناسب مع قدراته انطلاقًا من قوله تعالى -: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[3].

وقال - تعالى -: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[4].

فالأمر في هذه الآية الكريمة عمل تطوعي بدني سواء كان أمرًا بصدقة أو أمرًا بمعروف، وسعي بالإصلاح بين الناس.

ويقول الحسن البصري - رحمه الله:»لأن أقضي حاجة لأخ أحب إلي من أن أصلي ألف ركعة، ولأن أقضي حاجة لأخ أحب إلي من أن أعتكف شهرين»[5].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١١٧٢)، السنة الثالثة والعشرين، ٢٦ من شوال ١٤٣٦هـ ١١ من أغسطس ٢٠١٥م.

(٢) مسند أحمد بن حنبل - أول مسند الكوفيين - حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ - حديث رقم (١٨٣٧٣) ٣٠/ ٣٢٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٨٤٩).

(٣) سورة المائدة: الآية: ٢.

(٤) سورة النساء: الآية: ١١٤.

(٥) المجالسة وجواهر العلم: لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، ٣/ ٨٩، ط/ جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، ط/ دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ١٤١٩هـ، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

وكان ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يقول: «لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهرًا أو جمعة أو ما شاء الله أحبُّ إليَّ من حجةٍ، ولطبق بدرهم أهديه إلى أخ لي في الله أحب إليَّ من دينار أنفقه في سبيل الله»[1].

وقد بيّن لنا المصطفى ﷺ مكانة العمل التطوعي في الإسلام في أحاديث كثيرة؛ منها قوله ﷺ: «كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[2].

وقال ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ»[3].

وقال ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[4].

وقال ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»[5].

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٢٨.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من أخذ بالركاب ونحوه حديث رقم (٣٠٢٥) ٢/ ٥٧٩.

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل إزالة الأذى عن الطريق - حديث رقم (٦٨٣٧) ٢/ ١١١٠.

(٤) صحيح البخاري - كتاب المظالم والغصب - باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه حديث رقم (٢٤٨٢) ١/ ٤٥٩.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب الساعي على الأرملة - حديث رقم (٦٠٧٣) ٣/ ١٢٢٩، صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم - حديث رقم (٧٦٥٩) ٢/ ١٢٥٣.

وانظر كيف وضح لنا النبي ﷺ أنَّ إعانة ذوي الاحتياجات الخاصَّة من أفضل الأعمال، وكف الشر عن الناس درجة عليا من درجات العمل التطوعي، وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»[1].

ففي هذه الأحاديث النَّبويَّة السَّابقة، وغيرها حثٌّ من النبي ﷺ لأمته على فعل الخير والمشاركة فيه بكلِّ ما يستطيع الإنسان، وبكل ما يملك من قوة وقدرة، وأنَّ في هذه الأعمال التطوعية الخالصة لله تعالى – الأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة.

وخلاصة الأمر: أنَّ الشريعة الإسلامية بيَّنت لنا أنَّ مفهوم العمل التطوعي واسع لا حد له، وذلك حين لا يجد المسلم أي عمل خير يمكن أن يقدمه إلى مجتمعه وأمته بالفعل، فإنه يمكن لكلِّ شخص أن يقدم عملًا صالحًا لمجتمعه وأمته ولنفسه بالترك، بحيث إذا عجز عن ذلك أجمع فإنه يكف شره عن الناس، فإنها صدقة منه على نفسه وعلى الناس، ولا يعجز ولو أن يكون كأبي ضمضم فيتصدق بعرضه على من شتمه.

فما أحوج المسلمين اليوم إلى معرفة قيمة العمل التطوعي في الإسلام، والقيام به خير قيام، كما أمر ربنا – جلَّ وعلا – ونبينا ﷺ حتى تحقق السعادة والسكينة والطمأنينة للفرد والمجتمع.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال – حديث رقم (٢٦٠) ١/ ٥١.

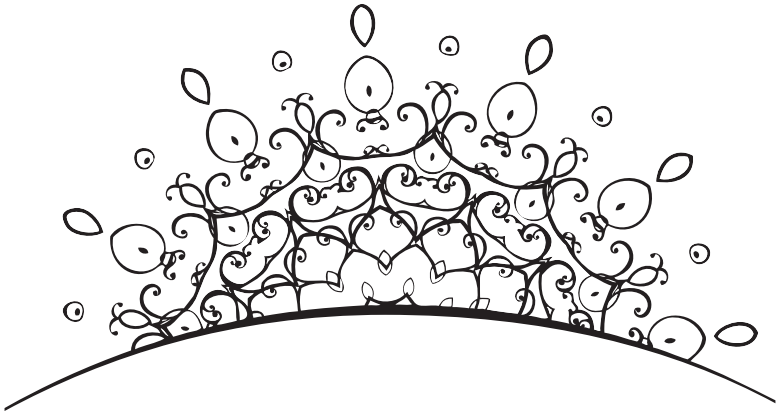

القسم الثالث

الفضائل والأخلاق

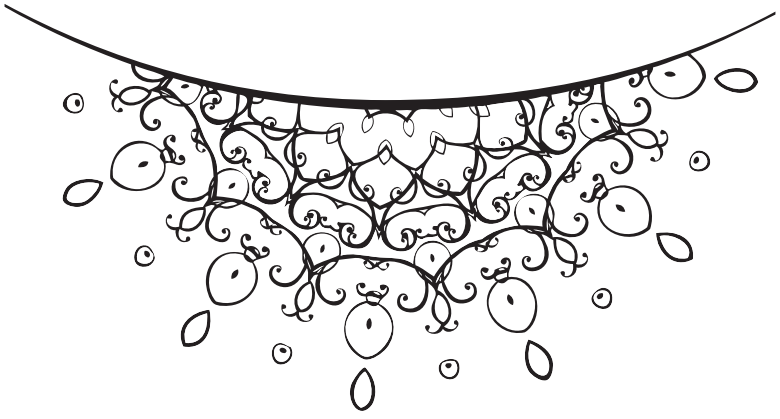

فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ [1]

في الآونة الأخيرة ظهرت ظاهرة الطعن في صحابة رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - الذين هم خير جيل عَرِفَتْهُ البشرية، وهم خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، فما أحوج الأمَّة الآن إلى معرفة فضائلهم ومناقبهم من خلال القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، وبيان عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فيهم.

فمن فضائلهم في القرآن الكريم أنَّ الله تعالى - أعلى شأنهم، ورضي عنهم، ورفع مكانتهم، قال - تعالى -: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[2].

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: «وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور، وقال مالك - رحمه الله: من أصبح وفى قلبه غيظ على أصحاب محمد - ﷺ - فقد أصابته الآية، قال الإمام القرطبي - رحمه الله معلِّقًا على كلام الإمام مالك - رحمه الله: لقد أحسن مالك في مقالته، وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم، أو طعن عليه في روايته فقد ردَّ على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين.

ثم قال - رحمه الله: فالصَّحابة كلُّهم عدول، أولياء الله تعالى - وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه، ورسله، هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة[3].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة صوت الأزهر، العدد (٨٥٢)، السنة السابعة عشرة، ١٢ من ربيع الآخر ١٤٣٧هـ ٢٢ من يناير ٢٠١٦م.

(٢) سورة الفتح: الآية: ٢٩.

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٩٧ - ٢٩٩.

وقال – تعالى –: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: «وهذه الآيات تتضمن الثَّناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم، وتتضمن أنَّ هؤلاء الأصناف هم المستحقون للفيء، ولا ريب أنَّ هؤلاء الرافضة خارجون من الأصناف الثلاثة، فإنَّهم لم يستغفروا للسَّابقين الأولين، وفى قلوبهم غلٌّ عليهم، ففي الآيات الثَّناء على الصحابة، وعلى أهل السُّنة الذين يتولونهم، وإخراج الرافضة من ذلك، وهذا نقيض مذهب الرافضة»[2].

وقال الإمام ابن أبى العز الحنفي – رحمه الله: «فمن أضلُّ ممن يكون في قلبه غلٌّ على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى – بعد النَّبيين؟ بل قد فضلهم اليهود والنَّصارى بخصلة قيل لليهود: مَنْ خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنَّصارى: مَنْ خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة من شرُّ أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة»[3].

وبيّن ربنا – جلَّ وعلا – أنَّه أعدَّ للصحابة الأجر العظيم، والثَّواب الجزيل، والمغفرة في الآخرة؛ فقال – جلَّ وعلا –: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[4].

(١) سورة الحشر: الآيات: ٨ – ١٠.

(٢) منهاج السنة: ٢/ ١٨.

(٣) شرح الطحاوية: ص٤٧.

(٤) سورة الحديد: الآية: ١٠.

وقد استدل الإمام ابن حزم – رحمه الله تعالى – بقوله تعالى –: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على أنَّ جميع الصحابة بدون استثناء من أهل الجنة مقطوع لهم بذلك[1].

ومن فضائلهم أنَّه سبحانه أخبرنا أنَّه رضي عنهم، فيا لها من منزلة عظيمة لصحابة رسول الله ﷺ هذا الرضا من الله جلَّ وعلا – قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾[2].

وقال – سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[3].

قال الإمام البغوي – رحمه الله: قال أبو صخر حميد بن زيادة: أتيت محمدًا بن كعب القرظي فقلتُ له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ – ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ – في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلتُ: من أين تقول هذا؟ قال: اقرأ قول الله تعالى –: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[4].

وقال ابن حزم – رحمه الله: «فقد أخبرنا الله عز وجل – أنَّه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم؛ فلا يحلُّ لأحد التَّوقف في أمرهم، ولا الشَّكّ فيه ألبتَّة»[5].

وبيّن ربنا – جلَّ وعلا – أنَّهم خير أمة؛ فقال – عزَّ وجلَّ –: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[6].

---

(١) الفصل في الملل والنحل: ٤/ ١٤٨.

(٢) سورة الفتح: الآية: ١٨.

(٣) سورة التوبة: الآية: ١٠٠.

(٤) تفسير البغوي: ٢/ ٢٧١.

(٥) الفصل في الملل والنحل: ٤ / ١٤٨.

(٦) سورة آل عمران: الآية: ١١٠.

وقال – تعالى –: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

فمن المخاطب وقت نزول الآيتين غير الصحابة؟ فهم المخاطبون بذلك خطابًا أوليًّا، فثبتت خيريتهم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – على كافة النَّاس غير الأنبياء، وجعلهم الله شهداء على الناس يوم القيامة؛ لفضلهم، وشرفهم، وعلو منزلتهم، وقال – تعالى –: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: وفي الجملة كلُّ ما في القرآن من خطاب المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، ومدحهم، والثَّناء عليهم، فهم – أي الصحابة – أوَّل من دخل في ذلك من هذه الأمة، وأفضل من دخل في ذلك من هذه الأمة[3].

كانت هذه بعض فضائل الصحابة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – في القرآن الكريم، وكيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ – رضي عنهم، وأعلى شأنهم، ورفع مكانتهم، وبيَّن أنَّهم خير أمَّة أُخرِجت للنَّاس، وما أعدَّه لهم من الأجر العظيم، والثواب الجزيل في الآخرة، فما أحوجنا إلى معرفة هذا الفضل لهم – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – كما أمرنا الله عزَّ وجلَّ –.

(١) سورة البقرة: الآية: ١٤٣.

(٢) سورة التحريم: الآية: ٨.

(٣) منهاج السنة: ٢/ ٤٩ – ٥٠.

فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ[1]

السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة هي المصدر الثاني للتَّشريع الإسلامي، والذين قاموا بحفظ السنة، ونشرها، والمحافظة عليها هم الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، وقد بيَّنت لنا السنة النبوية الصحيحة فضلهم، وعلو منزلتهم، ومن ذلك ما جاء عن أبي بردة عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»[2].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[3].

قال الإمام النووي - رحمه الله: "اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ، والمراد أصحابه، وقد قدمنا أن الصحيح الذي عليه الجمهور أن كل مسلم رأى النبي ﷺ ولو ساعة فهو من أصحابه، ورواية خير الناس على عمومها، والمراد منه جملة القرن، ولا يلزم منه تفضيل الصحابي على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -، ولا أفراد النساء على مريم وآسية وغيرهما، بل المراد جملة القرن بالنسبة إلى كل قرن بجملته"[4].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة صوت الأزهر، العدد (٨٤٧)، السنة السابعة عشرة، ٧ من ربيع الأول ١٤٣٧هـ ١٨ من ديسمبر ٢٠١٥م.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة - حديث رقم (٦٦٢٩) ٢/ ١٠٧٨.

(٣) صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه حديث رقم (٣٦٩٣) ٢/ ٧١٨، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - حديث رقم (٦٦٣٢) ٢/ ١٠٧٩.

(٤) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ٨٤ - ٨٥.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ -: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» وَاللهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لَا، قَالَ: «ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا»(١).

قال الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله: والذي ذهب إليه الجمهور أنَّ فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل؛ لمشاهدة رسول الله ﷺ، وأمَّا من اتفق له الذّب عنه والسَّبق إليه بالهجرة أو النُّصرة، وضبط الشَّرع المتلقي عنه، وتبليغه لمن بعده، فإنَّه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده؛ لأنَّه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده فظهر فضلهم(٢).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة كتاب حاطب مع الظعينة، وفيه، فقال عمر: "إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟» فَقَالَ: "لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ" فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"(٣)، وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا: «أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ، بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَ مِائَةٍ» قَالَ البَرَاءُ: «لاَ وَاللَّهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ النَّهَرَ إِلَّا مُؤْمِنٌ»(٤).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(٥) قال الحديبية، قال أصحابه هنيئًا مريئًا فما لنا، فأنزل الله تعالى -: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(٦).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسول الله: ﷺ "لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ"(٧).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - حديث رقم (٦٦٣٦) ٢/ ١٠٨٠.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي - باب فضل من شهد بدرًا - حديث رقم (٤٠٣٢) ٢/ ٧٨٨.

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب عدة أصحاب بدر - حديث رقم (٤٠٠٥) ٢/ ٧٨٤.

(٥) سورة الفتح: الآية: ١.

(٦) سورة الفتح: الآية: ٥.

(٧) سنن الترمذي، كتاب المناقب - باب في فضل من بايع تحت الشجرة - حديث رقم (٤٢٣٣) ٢/ ٩٧٦، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٨٦٠).

وحذر النبي ﷺ من سَبهم والتعرض لهم بسوء في أحاديث كثيرة؛ منها ما جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي - ﷺ -: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ»[1].

قال الإمام النووي - رحمه الله: ومعناه: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أحد أصحابي مدًّا ولا نصف مدٍّ[2].

وقال الإمام البيضاوي - رحمه الله: معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص، وصدق النية، قلت: وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية عظم موقع ذلك؛ لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلى الأفضلية بسبب القتال، كما وقع في الآية من أنفق من قبل الفتح وقاتل، فإنَّ فيها إشارة إلى موقع السبب الذي ذكرته، وذلك أنَّ الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا؛ لشدة الحاجة إليه، وقلَّة المعتني به، بخلاف ما وقع بعد ذلك؛ لأنَّ المسلمين كثروا بعد الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فإنَّه لا يقع ذلك الموقع المتقدّم، والله أعلم[3].

وقال الإمام الآجري - رحمه الله: "ومن سبَّهم فقد سبَّ رسول الله ﷺ -، ومن سبَّ رسول الله ﷺ - استحق اللَّعنة من الله عزَّ وجلَّ -، ومن الملائكة، ومن الناس أجمعين"[4].

وقال أيضًا: " لقد خاب وخسر من سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ - ؛ لأنَّه خالف الله ورسوله، ولحقته اللَّعنة من الله - عزَّ وجلَّ - -، ومن رسوله، ومن الملائكة، ومن جميع المؤمنين، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا، لا فريضة ولا تطوعًا، وهو ذليل في الدنيا، وضيع القدر، كثَّر الله بهم القبور، وأخلى منهم الدور[5].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذاً خليلًا - حديث رقم (٣٧١٧) ٢/ ٧٢٣.

(٢) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ٩٣.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٣٤.

(٤) الشريعة: ص٧١٢.

(٥) الشريعة: ص٧١٦.

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّوهُمْ»[1].

قال الإمام البيهقي - رحمه الله: "وإذا ظهر أنَّ حب الصحابة من الإيمان؛ فحبهم أن يعتقد فضائلهم، ويعترف لهم بها، ويعرف لكلِّ ذي حقٍّ منهم حقَّه، ولكلِّ ذي غنى في الإسلام غناه، ولكلِّ ذي منزلة عند الرسول - ﷺ - منزلته، وينشر محاسنهم، ويدعو بالخير لهم، ويقتدي بما جاء في أبواب الدين عنهم، ولا يتتبع زلاتهم وهفواتهم، ولا يتعمد تهجين أحد منهم ببث ما لا يحسن عنه، ويسكت عمَّا لا يقع ضرورة إلى الخوض فيه فيما كان بينهم، وبالله التوفيق"[2].

كانت هذه بعض فضائل الصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - في السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة تبيَّن لنا من خلالها كيف أنَّ النبي ﷺ بيّن أنَّهم خير القرون، وأنَّهم أمان للأمَّة، كما أنَّ النُّجوم أمنة للسماء، فما أحوجنا إلى معرفة هذا الفضل لصحابة نبينا ﷺ والدفاع عنهم، والتحذير من التعرض لهم بسوء.

(١) صحيح مسلم - كتاب التفسير - باب حدثنا محمد بن رافع - حديث رقم (٧٧٢٤) ٢/ ١٢٦٩.

(٢) شعب الإيمان: ٢/ ١٩١.

فَضْلُ التَّوْبَةِ وَشُرُوطُهَا

لقد أمرنا الله تعالى - بالتوبة والإقبال عليه سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم، كما دعانا النبي ﷺ إلى التوبة إلى الله سبحانه وتعالى -، وأمرنا بكثرة الاستغفار، فالمسلم إذا وقع في خطيئة من الخطايا، أو ذنب من الذنوب، أو معصية من المعاصي، عليه أن يتوب إلى الله تعالى - مهما كثرت ذنوبه وخطاياه، فباب التوبة مفتوح ما لم تطلع الشمس من مغربها، أو تبلغ الروح الحلقوم، وفيما يأتي بيان فضل التوبة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتوبة النصوح، وشروط قبولها، وفوائد التوبة.

التوبة في القرآن الكريم:

إنَّ المتأمل والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ المولى - سبحانه وتعالى - قد أمر عباده بالتوبة والإنابة والرجوع إليه إذا وقعوا في المعاصي، واقترفوا الذنوب والآثام، فإنَّه سبحانه يغفرها للعبد إذا تاب توبة صادقة في آيات كثيرة من كتابه العزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة، وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأنَّ الله تبارك وتعالى - يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر»[2].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٧١.

(٣) سورة النور: الآية: ٣١.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: والمعنى: وتوبوا إلى الله فإنَّكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى –، فلا تتركوا التوبة في كلِّ حال[1].

وقال – سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

ودعا الله عزَّ وجلَّ – الناس جميعًا إلى التوبة الصادقة، والعودة إليه سبحانه حتى المشركين دعاهم إلى التوبة؛ فقال – سبحانه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقال – سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[4].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: "أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عمَّا كان يتعاطاه من الدناءات، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب، ثُمَّ لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه، وسُئل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثُمَّ لا يعود إليه أبدًا"[5].

التوبة في السُّنَّة النبويَّة:

جاءت أحاديث كثيرة في سنة النبي ﷺ يأمرنا فيها ﷺ بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الله؛ منها:

١ – أنَّه ﷺ كان يكثر من التوبة والاستغفار:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[6].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٧٤.

(٣) سورة التوبة: الآية: ١١.

(٤) سورة التحريم: الآية: ٨.

(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٩١ وما بعدها.

(٦) صحيح البخاري – كتاب الدعوات – باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة – حديث رقم (٦٣٨٠) ٣/ ١٢٨٣.

وعن الأغر بن يسار المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[1].

ففي هذين الحديثين: دليل على وجوب التوبة؛ لأنَّ النبي ﷺ أمر بها فقال: يا أيها الناس توبوا إلى الله.

فإذا تاب الإنسان إلى ربه حصل بذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: امتثال أمر الله ورسوله، وفي امتثال أمر الله ورسوله كل خير، فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السعادة في الدنيا والآخرة.

والفائدة الثانية: الاقتداء برسول الله؛ حيث كان ﷺ يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، يعني يقول: أتوب إلى الله أتوب إلى الله[2].

٢ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - يفرح بتوبة حين يتوب ويرجع إليه:

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"[3].

قال الإمام النووي - رحمه الله: قال العلماء: فرح الله تعالى - هو رضاه، وقال المازري: الفرح ينقسم على وجوه؛ منها: السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به. قال: فالمراد هنا أنَّ الله تعالى - يرضى توبة عبده أشد ممَّا يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيدًا لمعنى الرضا في نفس السامع، ومبالغة في تقريره[4].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه حديث رقم (٧٠٣٤) ٢/ ١١٤٠.

(٢) شرح رياض الصالحين: لابن عثيمين، ١/ ٩٨.

(٣) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب في الحض على التوبة والفرح بها حديث رقم (٧١٣٦) ٢/ ١١٥٦.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي: ١٧/ ٦١.

٣ - بيَّن الله عزَّ وجلَّ - أنَّه مهما كثرت ذنوب العبد فإنَّه يغفرها له إذا استغفر وتاب:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[١].

٤ - أنَّ باب التوبة مفتوح في كلِّ وقت بالليل والنهار:

فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَبِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[٢].

قال المازري: المراد قبول التوبة، وإنَّما ورد لفظ بسط اليد؛ لأنَّ العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله، وإذا كرهه قبضها، فخوطبوا بأمر حسي يفهمونه[٣].

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»[٤].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: (... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...)[٥].

وكان أصحاب النبي ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ»[٦].

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده حديث رقم (٣٨٨٥) ٢/ ٩٠٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٤٥).

(٢) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة حديث رقم (٣٧٦٣) ٢/ ٨٨٤.

(٣) الديباج على مسلم: ٦/ ١٠٣.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه حديث رقم (٧٠٣٦) ٢/ ١١٤٠.

(٥) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم حديث رقم (٦٧٣٧) ٢/ ١٠٩٦.

(٦) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا قام من مجلسه حديث رقم (٣٧٦٣) ٢/ ٨٨٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٤٣٤).

وقال الفضيل: قال الله تعالى -: "بشر المذنبين بأنَّهم إن تابوا قبلتُ منهم، وحذر الصديقين أنِّي إن وضعت عليهم على عذبتهم"[1].

وقال طلق بن حبيب: "إنَّ حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين"[2].

وقال عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب"[3].

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "اجلسوا إلى التوابين فإنَّهم أرق أفئدة"[4].

وقال بعضهم: "أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب علي"[5].

التوبة النصوح، وشروط قبولها:

ما هي التوبة النصوح؟؟

قيل النصح في التوبة: "هو تخليصها من كل غشٍ ونقصٍ، وفساد".

وقال الحسن البصري - رحمه الله: "هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على ألا يعود فيه"[6].

وقال الكلبي: "أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن"[7].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء: الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها، بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٤.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ١٤.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ١٥.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ١٥.

(٦) مدارج السالكين: ١/ ٣٠٩.

(٧) المرجع السابق: ١/ ٣٠٩.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه والرهبة ممَّا عنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه"[1].

وقال ذو النون المصري: التوبة النصوح: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى - في كتابه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] [3].

وقال الجنيد: التوبة عَلَى ثلاثة معان: أولها الندم، وَالثَّانِي: العزم عَلَى ترك المعاودة إِلَى مَا نهى اللَّه عَنْهُ، والثالث: السعي فِي أداء المظالم[4].

وقال عبد الله بن المبارك: حقيقة التوبة لها ست علامات:

أولها: الندم على ما مضى، والثانية: العزم على أن لا تعود، والثالثة: أن تعمد إلى كل فرض ضيعته فتؤديه، والرابعة: أن تعمد إلى مظالم العباد، فتؤدّي إلى كل ذي حق حقه، والخامسة: أن تعمد إلى البدن الذي ربيتهُ بالسحت والحرام فتذيبه بالهموم والأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم، ثُمَّ تنشئ بينهما لحمًا طيبًا إن هو نشأ، والسادسة: أن تذيق البدن ألم الطاعة، كما أذقته لذة المعصية[5].

وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: كم تائب يرد يوم القيامة يظن أنَّه تائب وليس بتائب؛ لأنَّه لم يحكم أبواب التوبة[6].

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٣٠٩.

(٢) سورة التوبة: الآية: ١١٨.

(٣) الرسالة القشيرية: ١/ ٢١٣.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢١١.

(٥) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ٨٠ وما بعدها.

(٦) المرجع السابق: ١٠/ ٨٠ وما بعدها.

وقال عبد الله بن سُميط: ما دام قلب العبد مصرًّا على ذنبٍ واحد، فعمله معلق في الهواء، فإن تاب من ذلك الذنب وإلا بقيّ عمله أبدًا معلقًا[١].

وقال أبو بكر الواسطي: التوبة النصوح: أن لا يبقى على صاحبها أثر من المعصية سرًّا ولا جهرًا، ومن كانت توبته نصوحًا لا يبالي كيف أمسى ولا كيف أصبح[٢].

وقال ابن عطاء الله السكندري: التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه سبحانه [٣].

وقال محمد بن كعب القرظي: التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان[٤].

وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال، وقال أيضًا: التوبة ترك التسويف[٥].

قال الإمام النووي – رحمه الله: قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى – لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط؛ أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته[٦].

---

(١) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ٨٠ وما بعدها.

(٢) الرسالة القشيرية: ١/ ٢١٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٢١٣.

(٤) الآداب الشرعية: لابن مفلح ١/ ٨٦.

(٥) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤.

(٦) رياض الصالحين: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، ١/ ١٤، ط/ دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م، تحقيق: د/ ماهر ياسين الفحل.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعة[1]:

هذه الثلاثة، وأن يبرأ من صاحبها، فإن كانت مالًا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبةً استحله منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

ويزاد على هذه الشروط أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة، وذلك على نوعين: النوع الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه، والنوع الثاني: باعتبار العموم.

أمَّا الأول: فلا بُدَّ أن تكون التوبة قبل حلول الأجل يعني الموت، فإن كانت بعد حلول الأجل فإنها لا تنفع التائب؛ لقول الله سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

فعن ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[3]، أي: ما لم تصل الروح الحلقوم، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة.

النوع الثاني: وهو العموم، فإنَّ النبي ﷺ أخبر بأن: (الهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)، فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحدًا توبة.

قال الله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[4]، وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها، كما فسَّر ذلك النبي ﷺ[5].

---

(١) رياض الصالحين: ١/ ١٤.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٨.

(٣) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده حديث رقم (٣٨٨٠) ٢/ ٩٠٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٣٧).

(٤) سورة الأنعام: الآية: ١٥٨.

(٥) شرح رياض الصالحين: للشيخ/ محمد صالح العثيمين ١/ ٦٢ – ٦٧.

من قصص التائبين:

توبة شاب مسرف على نفسه في المعاصي على يد إبراهيم بن أدهم:

جاء رجل قد أسرف على نفسه في المعاصي إلى الإمام الزاهد إبراهيم بن أدهم، قال أريد أن أتوب فماذا أصنع؟ قال له يا هذا: عليك بخمس خصال لتكون من أهل التوبة ولتترك المعاصي:

أمَّا الأولى: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزق الله، قال الرجل - سبحان الله كيف ذلك؟، وهل الأرزاق كلها إلا لله يا إبراهيم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[1]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾[2]، فقال له: فهل يجدر بك أن تأكل رزقه وتعصيه.

الثانية: إذا أردت أن تعصي الله فابحث عن أرض ليست لله فاعصه هنالك، فقال الرجل يا إبراهيم الأرض كلها لله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3].

فكيف تقول ذلك؟، قال إبراهيم: فهل يجدر بك أن تعصي الله في ملك الله.

والثالثة: إذا أردت أن تعصي الله فابحث عن مكان أمين لا يراك الله فيه، قال كيف ذلك يا إبراهيم؟، والله يقول: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾[4].

فقال إبراهيم: فهل يجدر بك أن تعصي الله وأنت على يقين أن الله يراك.

والرابعة: إذا أردت أن تعصي الله وجاءك ملك الموت فقل له أخر قبض روحي حتى أتوب إلى الله، قال كيف ذلك؟، والله يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[5]، فقال: أنت تعلم ذلك، وكيف تريد النجاة؟.

---

(١) سورة الذاريات: الآية: ٥.

(٢) سورة هود: الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ١٢٨.

(٤) سورة غافر: الآية: ١٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ٣٤.

والخامسة: إذا أردت أن تعصي الله وجاءتك زبانية جهنم ليسوقوك إلى العذاب فلا تذهب معهم؛ فبكى الرجل وانطلق، وهو يقول: أستغفر الله وأتوب إليه أستغفر الله وأتوب إليه[1].

من علامات قبول التوبة:

قال بعض الحكماء: إنَّما تعرف توبة الرجل في أربعة أشياء: أحدها: أن يمسك لسانه من الفضول والغيبة والكذب، والثاني: أن لا يرى لأحد في قلبه حسدًا ولا عداوة، والثالث: أن يفارق أصحاب السوء، والرابع: أن يكون مستعدًا للموت نادمًا مستغفرًا لما سلف من ذنوبه مجتهدًا في طاعة ربه.

وقيل لبعض الحكماء: هل للتائب من علامة يعرف بها هل قبلت توبته؟ قال: نعم علامته أربعة أشياء: أولها: أن ينقطع عن أصحاب السوء، ويريهم هيبة من نفسه، ويخالط الصالحين، والثاني: أن يكون منقطعًا من كل ذنب، مقبلًا على جميع الطاعات، الثالث: أن يذهب فرح الدنيا كلها من قلبه، ويرى حزن الآخرة كلها دائمًا في قلبه، الرابع: أن يرى نفسه فارغًا عمَّا ضمن الله تعالى – له من الرزق، مشتغلًا بما أمره به، فإذا وجدت فيه هذه العلامات فهو من الذين قال الله تعالى – في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

ووجب له على الناس أربعة أشياء: أولها: أن يحبوه، فإنَّ الله تعالى – قد أحبه، الثاني: أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبته الله على التوبة، الثالث: أن لا يعيروه بما سلف من ذنوبه، والرابع: أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه.

ويكرمه الله تعالى – بأربع كرامات: إحداها: أن يخرجه الله تعالى – من الذنوب، كأنَّه لم يذنب قط، الثاني: أن يحبه الله تعالى –، الثالث: أن لا يسلط عليه الشيطان، ويحفظه منه، الرابع: أن يؤمنه الخوف قبل أن يخرج من الدنيا؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ – قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[3] [4].

---

(١) التوابين: للإمام ابن قدامة المقدسي، ١/ ٢٨٥، ط/ دار الكتب العلمية بيروت تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٢٢.

(٣) سورة فصلت: الآية: ٣٠.

(٤) تنبيه الغافلين: ص٦٩ وما بعدها.

فوائد التوبة:

إنَّ للتوبة فوائد لا نستطيع أن نكتبها أو أن نحيط بها، لكِن حسبنا أن نستشعر أنَّ التوبة:

١ - سبب لمحبة الله جلَّ وعلا -:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

قال الإمام ابن العربي - رحمه الله: "ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تواب ثلاثة أقوال أحدها: أنه يجوز في حق الرب - سبحانه وتعالى - فيُدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول، وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى - وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة، وقال آخرون: توبة الله على العبد قبوله توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى -: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة، والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة"[٢].

٢ - سبب للخروج من دائرة الظالمين:

قال - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣].

٣ - طاعة لأمر الله عزَّ وجلَّ:

قال - تعالى -: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ أمر، ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة، وأنها فرض متعين...، والمعنى: وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى، فلا تتركوا التوبة في كل حال»[٥].

٤ - سبب لمحو الذنوب: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»[٦].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٢٥.

(٣) سورة الحجرات: الآية: ١١.

(٤) سورة النور: الآية: ٣١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٣٨.

(٦) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب ذكر التوبة - حديث رقم (٤٣٩١) ١/ ٦٢٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٣٢٦).

٥ - سبب للفلاح في الدنيا والآخرة:

قال - تعالى -: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾[١]، وقال - تعالى -: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[٢].

٦ - تبدل السيئات إلى حسنات:

قال - تعالى -: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٣].

٧ - سبب في الرزق والقوة:

قال - تعالى - على لسان نبيه نوح - عليه السَّلام -: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[٤].

٨ - التوبة تجعل العبد يهرب من العذاب والوحشة إلى الأنس والرحمة:

قال - تعالى -: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٥].

٩ - سبب في الحياة الهادئة المطمئنة:

قال - تعالى -: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[٦].

---

(١) سورة القصص: الآية: ٦٧.

(٢) سورة مريم: الآية: ٦٠.

(٣) سورة الفرقان: الآية: ٧٠.

(٤) سورة نوح: الآيات: ١٠ - ١٢.

(٥) سورة الذاريات: الآية: ٥٠.

(٦) سورة هود: الآية: ٣.

١٠ - تطهر قلب التائب:

أخرج الترمذي في سننه بسند حسن أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] [2].

(١) سورة المطففين: الآية: ١٤.

(٢) سنن الترمذي - كتاب التفسير - باب ومن سورة ويل للمطففين حديث رقم (٣٦٥٤) ٢/ ٨٥٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٣٣٤).

فَضَائِل الاسْتِغْفَار وَفَوَائِدُه[1]

ورد في الأثر عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان لنا أمانان، ذهب أحدهما، وهو كون الرسول فينا، وبقي الاستغفار معنا، فإذا ذهب هلكنا.

والمتأمِّل في حال كثير من الناس في هذه الأيام التي نعيشها يجده يبحث عن أمن وأمان له من هذه الفتن والمحن والابتلاءات التي نعيشها، ومن أعظم وسائل الأمن الاستغفار، فبالاستغفار تغفر الخطايا والذنوب، وبالاستغفار تكون البركة في الأرزاق.

فتعالوا بنا في هذه المقالة المتواضعة نتعرف على فضائل الاستغفار في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وحال السلف الصالح - رضوان الله عليهم - مع هذه العبادة العظيمة.

فضائل الاستغفار في القرآن الكريم:

إنَّ المتأمِّل والمتدبِّر لآيات القرآن الكريم يجد أنَّ المولى - سبحانه وتعالى - قد بيَّن لنا فضل ومكانة الاستغفار في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، منها: أن الاستغفار سنة الأنبياء والمرسلين، وأنه يجلب القوة والخير، وأنه من مُبعِدات العذاب، ومن موجبات رحمته سبحانه وتعالى -، وأنه يجلب الخيرات والبركات ويدفع البلاء، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ - يغفر لمن استغفر، وأنَّ الاستغفار من صفات المتقين، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ - مدح أهله، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر عباده بالاستغفار، وفيما يأتي بيان هذه الفضائل بشيء من التفصيل:

1 - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر عباده بالاستغفار:

من فضائل الاستغفار أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر به عباده في آيات كثيرة من القرآن الكريم: منها: قوله تعالى -: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقوله تعالى -: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾[3].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في موقع صيد الفوائد .https://saaid.net/bahoth/199.htm بعنوان: (الاستغفار فضائله وفوائده)، وتم تعديل العنوان لطبيعة الكتاب.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٩٩.

(٣) سورة هود: الآية: ٣.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾، أمرهم بالاستغفار في مواطن مظنة القبول، وأماكن الرحمة، وهو طلب الغفران من الله باللِّسان مع التَّوبة بالقلب؛ إذ الاستغفار باللِّسان دون التوبة بالقلب غير نافع، وأمروا بالاستغفار، وإن كان فيهم من لم يذنب، كمن بلغ قُبَيل الإحرام ولم يقارف ذنبًا وأحرم، فيكون الاستغفار من مثل هذا؛ لأجل أنَّه ربما صدر منه تقصير في أداء الواجبات والاحتراز من المحظورات، وظاهر هذا الأمر أنَّه ليس طلب غفران من ذنب خاصٍّ، بل طلب غفران الذنوب، وقيل: إنَّه أمر بطلب غفران خاصٍّ، والتَّقدير: واستغفروا الله مما كان من مخالفتكم في الوقوف والإفاضة، فإنَّه غفور لكم، رحيم فيما فرَّطتم فيه في حلكم وإحرامكم، وفي سفركم ومقامكم.

وفي الأمر بالاستغفار عقب الإفاضة، أو معها، دليل على أنَّ ذلك الوقت، وذلك المكان المفاض منه، والمذهوب إليه من أزمان الإجابة وأماكنها، والرحمة والمغفرة[1].

٢ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - مدح أهله:

قال - تعالى -: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾[2].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: قوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، دَلّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إنَّ يعقوب - عليه السلام -، لما قال لبنيه ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾، إنه أخرهم إلى وقت السحر[3].

وقال - تعالى -: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[4].

«وصفهم بأنَّهم يُحيُون جُلَّ اللَّيل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار من رؤية أعمالهم، والسَّحَر: السُّدس الأخير من اللَّيل، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنَّهم الأحقاء بأن يُوصفوا بالاستغفار، كأنَّهم المختصون به، لاستدامتهم له، وإطنابهم فيه»[5].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٦٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ١٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٤.

(٤) سورة الذاريات: الآية: ١٨.

(٥) البحر المديد: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ٧/ ٢٩٤، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت.

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمرنا أن نستغفر بالسَّحَر سبعين استغفارًا.

وقال سفيان الثوري - رحمه الله: بلغني أنَّه إذا كان أول الليل نادى مناد ليقيم القانتون، فيقومون كذلك يصلُّون إلى السَّحَر، فإذا كان عند السَّحَر نادى مناد: أين المستغفرون؟؛ فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون، فيصلون، فيلحقون بهم، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فرشهم، كالموتى نشروا من قبورهم[1].

٣ - أنَّ الاستغفار من صفات المتقين:

فقد أخبر - سبحانه وتعالى - أنَّ الاستغفار من صفات المتقين، وذلك في قوله جلَّ وعلا -: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾[2].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب، هو الذي يحلُّ عقد الإصرار، ويثبت معناه في الجنان، لا التَّلفظ باللِّسان، فأمَّا من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصرٌّ على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر، وروي عن الحسن البصري أنَّه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

ثم قال - رحمه الله: «هذا يقوله في زمانه، فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبًّا على الظلم! حريصًا عليه لا يُقلِع، والسُّبْحة في يده زاعمًا أنَّه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف، وفي التنزيل ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾[3] [4].

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآيات: ١٣٣ - ١٣٦.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٣١.

(٤) تفسير القرطبي: ٤/ ١١٠ وما بعدها.

٤ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - يغفر لمن استغفر:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[١].

قال الإمام الطاهر بن عاشور - رحمه الله: «والمراد بالاستغفار التوبة وطلب العفو من اللَّهِ عمّا مضى من الذنوب قبل التوبة، ومعنى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾يتحقّق ذلك، فاستعير فعل ﴿يَجِدْ ﴾ للتحقّق لأنّ فعل وَجد حقيقته الظَفَر بالشيء ومشاهدته، فأطلق على تحقيق العفو والمغفرة على وجه الاستعارة، ومعنى: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ شديد الغفران وشديد الرحمة وذلك كناية عن العموم والتعجيل، فيصير المعنى يجد الله غافرًا له راحمًا له، لأنّه عامّ المغفرةِ والرحمةِ فلا يخرج منها أحد استغفره وتاب إليه، ولا يتخلّف عنه شمول مغفرته ورحمته زَمنًا، فكانت صيغة: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ مع ﴿يَجِدْ ﴾ دَالَّةً على القبول من كلّ تائب بفضل الله»[٢].

٥ - الاستغفار يجلب الخيرات والبركات ويدفع البلاء:

فالاستغفار يجلب الخيرات والبركات للعبد، ويدفع عنه البلاء، يقول الله تعالى -: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

«أي: إذا تبتم إلى الله، واستغفرتموه، وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السَّماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها، وفي هذا دلالة على عظم فوائد الاستغفار، وكثرة خيراته، وتعدد ثمراته.

وهذه الثمرات المذكورة هنا هي ممَّا يناله العبد في دنياه من الخيرات العميمة، والعطايا الكريمة، والثمرات المتنوعة، وأمَّا ما يناله المستغفرون يوم القيامة من الثَّواب الجزيل، والأجر العظيم، والرحمة، والمغفرة، والعتق من النار، والسَّلامة من العذاب، فأمر لا يحصيه إلا الله تعالى -[٤].

---

(١) سورة النساء: الآية: ١١٠.

(٢) التحرير والتنوير: للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، ٥/ ١٩٦، ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.

(٣) سورة نوح: الآيات: ١٠ - ١٤.

(٤) فقه الأدعية والأذكار: د/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ٢/ ٢٧٦.

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله قوله: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾، أي: ارجعوا إليه، وارجعوا عمَّا أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنَّه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾، أي: متواصلة الأمطار، ولهذا تستحب قراءة هذه السُّورة في صلاة الاستسقاء؛ لأجل هذه الآية، وهكذا رُوِي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار.

وقوله: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾، أي: إذا تبتم إلى الله، واستغفرتموه، وأطعتموه، كثر الرِّزق عليكم، وأسقاكم من بركات السَّماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدَّكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها.

هذا مقام الدعوة بالتَّرغيب، ثُمَّ عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب؛ فقال: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾، أي: عظمة، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حقَّ عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾، قيل: معناه من نطفة، ثُمَّ من علقة، ثم من مضغة، قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ويحيى بن رافع، والسدي، وابن زيد[1].

٦ – **الاستغفار من موجبات رحمته سبحانه وتعالى** –: قال – جلَّ وعلا –: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2].

٧ – الاستغفار من مُبعِدات العذاب:

فالاستغفار من مُبعِدات عذابه، أليس هو القائل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[3].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٣٣.

(٢) سورة النمل: الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٣٣.

فعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ؛ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[1] [2].

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار[3].

٨ - الاستغفار يجلب القوة والخير:

ومن فضائل الاستغفار أنَّه من الوسائل الجالبة للخير العميم، والمتاع الحسن خاصَّة عند اقترانه بالتوبة، يقول اللّه تبارك وتعالى -: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[4].

قال العلامة الشنقيطي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، هذه الآية الكريمة تدلُّ على أنَّ الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى - من الذنوب سبب لأن يمتِّع الله من فعل ذلك متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى؛ لأنَّه رتَّب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظَّاهر أنَّ المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأنَّ المراد بالأجل المُسمَّى: الموت، ويدل لذلك قوله تعالى - في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود - عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسَّلام -: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[5].

وقوله تعالى - عن «نوح»: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[6].

---

(١) سورة الأنفال: الآية: ٣٣.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحج - باب التلبية وصفتها ووقتها - حديث رقم (٢٨٧٢) ١/ ٤٧٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٢.

(٤) سورة هود: الآية:٤.

(٥) سورة هود: الآية: ٥٢.

(٦) سورة نوح: الآيات: ١٠ - ١٢.

وقوله تعالى -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[1].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[3].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات[5].

٩ - الاستغفار سنة الأنبياء والمرسلين:

ومن فضائل الاستغفار أنَّه من سنَّة الأنبياء والمرسلين، وطريق ووسيلة الأولياء والصالحين، يلجؤون إليه في كل وقت وحين، في السَّرَّاء والضَّرَّاء، به يتضرعون، وبه يتقربون.

نبي الله آدم - عليه السلام -: فكان ممَّا قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[6].

نبي الله نوح - عليه السلام -: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[7]، وقال: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾[8].

نبي الله موسى - عليه السلام -: قال موسى - عليه السلام - لمَّا قتل رجلًا من الأقباط: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[9].

---

(١) سورة النحل: الآية: ٩٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ٩٦.

(٣) سورة المائدة: الآية: ٦٦.

(٤) سورة الطلاق: الآية: ٢.

(٥) أضواء البيان: ٢/ ٢١٧٠.

(٦) سورة الأعراف: الآية: ٢٣.

(٧) سورة نوح: الآية: ٢٨.

(٨) سورة هود: الآية: ٤٧.

(٩) سورة القصص: الآية:١٦.

نبي الله شعيب – عليه السلام –: قال لقومه: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[1].

نبي الله صالح – عليه السلام –: لقومه بعد أن أمرهم بعبادة الله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[2].

فضائل الاستغفار في السُّنَّة النَّبويَّة:

وردت أحاديث كثيرة في السُّنَّة النَّبويَّة المطهرة بيَّن لنا فيها المصطفى ﷺ فضل الاستغفار، وأنَّه صلوات الله عليه وسلامه كان دائم التَّوبة والاستغفار، مع أنَّه غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، وما تأخَّر، ومنها:

عن الأغرِّ المُزَنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[3].

قال الإمام النووي – رحمه الله: قوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»، قال أهلُ اللُّغة: الغين، بالغين المعجمة، والغيم، بمعنى، والمراد هنا: ما يتغشَّى القلب، قال القاضي: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه، أو غفل عدَّ ذلك ذنبًا، واستغفر منه، قال، وقيل: هو همّه بسبب أمته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده؛ فيستغفر لهم، وقيل: سببه اشتغاله بالنَّظر في مصالح أمَّته، وأمورهم، ومحاربة العدو، ومداراته، وتأليف المؤلفة، ونحو ذلك، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه؛ فيراه ذنبًا بالنِّسبة إلى عظيم منزلته، وان كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال، فهي نزول عن عالي درجته، ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى –، ومشاهدته، ومراقبته، وفراغه ممَّا سواه؛ فيستغفر لذلك، وقيل: يحتمل أنَّ هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه

(١) سورة هود: الآية: ٩٠.

(٢) سورة هود: الآية: ٦١.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه حديث رقم (٧٠٣٤) ٢/ ١١٤٠.

لقوله تعالى -، فأنزل السّكينة عليهم، ويكون استغفاره إظهارًا للعبودية، والافتقار، وملازمة الخشوع، وشكرًا لما أولاه[1].

وعن الزهري قال أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: قال أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[2].

قال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "أولى العباد بالاجتهاد في العبادة الأنبياء، عليهم السلام، لما حباهم الله به من معرفته، فهم دائبون في شكر ربهم معترفون له بالتقصير لا يدلون عليه بالأعمال، مستكينون خاشعون، روي عن مكحول عن أبى هريرة قال: (ما رأيت أحدًا أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ، وقال مكحول: ما رأيت أكثر استغفارًا من أبى هريرة، وكان مكحول كثير الاستغفار، وقال أنس: أمرنا أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة"[3].

وعن عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ -: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[4].

وعن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ -: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[5].

وعن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١٧/ ٢٣ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة - حديث رقم (٦٣٨٠) ٣/ ١٢٨٣.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، ١٠/ ٧٧، ط/ مكتبة الرشد - السعودية - الرياض - ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الأدب - باب الاستغفار - حديث رقم (٣٩٥١) ١/ ٥٤٧، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم(٥٤٧١)، وضعيف الترغيب حديث رقم (١١٤٥، ١٠٠٢).

(٥) سنن ابن ماجه كتاب الأدب - باب الاستغفار - حديث رقم (٣٩٥٠) ١/ ٥٤٧، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٣٨٨٦).

كُلَّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَرَّةً، وَذَلِكَ عَلَى قَدْرِ دِينِي - أَوْ قَدْرِ دِينِهِ»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[2].

وعن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ - قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ»[3].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي - ﷺ - فيما يحكى عن ربه عزَّ وجلَّ - قال: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[5].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب الديات - الدية كم تكون؟ - حديث رقم (٢٦١٩١).

(٢) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة - حديث رقم (٦٣٨٠) ٣/ ١٢٨٣.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد - حديث رقم (٨٤٦)، شعب الإيمان للبيهقي - فصل في إدامة ذكر الله عزَّ وجلَّ - حديث رقم (٦٦٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٩٥٥)، وصحيح الترغيب حديث رقم (١٦١٩).

(٤) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده حديث رقم (٣٥٤٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٤٠).

(٥) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة - حديث رقم (٧١٦٢) ٢/ ١١٦٠.

من أقوال السَّلف في الاستغفار:

ورد عن السَّلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم – العديد من الآثار التي تبيِّن فضل الاستغفار وفوائده؛ منها:

ما جاء عن قتادة – رحمه الله قال: "إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار"[1].

وعن الحسن البصري قال: "أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، أينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة[2].

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبًا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصًا – إن شاء الله تعالى –، اللَّهمَّ إنِّي أستغفرك من كلِّ ذنب تبتُ إليك منه ثُمَّ عدتُ فيه، وأستغفرك من كلِّ ما وعدتك به من نفسي ولم أوفِ لك به، وأستغفرك من كلِّ عمل أرد به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كلِّ نعمة أنعمتَ بها عليَّ فاستعنتُ بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كلِّ ذنب أتيتُه في ضياء النَّهار، وسواد الليل، في ملأ أو خلاء، وسر وعلانية يا حليم[3].

أنواع الاستغفار:

إنَّ المتأمل في السُّنة النَّبويَّة المطهرة يجد أنَّ للاستغفار صيغًا كثيرة؛ منها:

١ – أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة، فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ –: سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللَّهمَّ أنت ربي، وأنا عبدك، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، أصبحتُ على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ،

---

(١) الدر المنثور: ٤/ ٥٧.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في "نودار الأصول" ٢/ ٢٩٤.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٣١٣.

وأبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنوبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلهيته، وتوحيده، والاعتراف بأنَّه خالقه، العالم به؛ إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقِّه، وتقصيره فيه، والاعتراف بأنَّه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده، وهو أمره ونهيه، الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأنَّ ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقِّك، فإنَّه غير مقدور للبشر، وإنَّما هو جهد المقلِّ، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثَّواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك مصدق بوعدك، ثُمَّ أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطتُ فيه من أمرك ونهيك، فإنَّك إن لم تعذني من شره، وإلَّا أحاطت بي الهلكة، فإنَّ إضاعة حقِّك سبب الهلاك، وأنا أقرُّ لك وألتزم بنعمتك عليَّ، وأقرُّ وألتزم وأنجع بذنبي، فمنك النِّعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي، وأن تعفيني من شره، إنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت، فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار"[2].

٢ - ومنها: ما ثبت في الصحيحين عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه قال لرسول الله ﷺ -: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ"[3].

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب في الاستغفار - حديث رقم (١٣٠٩)، سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب في دعاء الضيف - حديث رقم (٣٥٨٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (١٥١٧)، وصحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٧٧).

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٢٢١.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب الدعاء قبل السلام - حديث رقم (٨٤٢) ١/ ١٥٩، صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب خفض الصوت بالذكر - حديث رقم (٧٠٤٤) ٢/ ١١٤١.

٣ - ومنها: قوله: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، فعن زيد مولى النبي - ﷺ - أنه سمع رسول الله ﷺ - يقول: "مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ"[١].

وفي هذا الحديث دلالة على أنَّ الاستغفار يمحو الذنوب سواء كانت كبائر أو صغائر، فإنَّ الفرار من الزحف من الكبائر.

لكن ممَّا ينبغي أن يعلم - هنا - أنَّ المُراد بالاستغفار: ما اقترن به ترك الإصرار، فهو حينئذ يُعدُّ توبة نصوحًا تَجُبُّ ما قبلها، أمَّا إن قال المرء بلسانه: أستغفر الله، وهو غير مقلع عن ذنب، فهو داع لله بالمغفرة، كما يقول: اللَّهمَّ اغفر لي، وهذا طلب من الله المغفرة، ودعاء بها، فيكون حكمه حكم سائر الدعاء لله، ويرجى له الإجابة.

وقد ذكر أهل العلم أنَّ القائل: أستغفر الله وأتوب إليه له حالتان:

الأولى: أن يقول ذلك وهو مصرٌّ بقلبه على الذنب، فهذا كاذب في قوله: وأتوب إليه؛ لأنَّه غير تائب، فإنَّ التَّوبة لا تكون مع الإصرار من العبد على الذنب.

والحالة الثانية: أن يقول ذلك وهو مقلع بقلبه وعزمه ونيته عن المعصية، وجمهور أهل العلم على جواز قول التَّائب: أتوب إلى الله، وعلى جواز أن يعاهد العبد ربه على أن لا يعود إلى المعصية أبدًا، فإنَّ العزم على ذلك واجب عليه، فهو مُخبِر بما عزم عليه في الحال، وقد تقدَّم أنَّ من شروط قبول التَّوبة العزم من العبد على عدم العودة إلى الذنب، فإن صحَّ منه العزم على ذلك قُبِلت توبته، فإن عاد إلى الذنب مرة ثانية احتاج إلى توبة أخرى ليغفر له ذنبه، ولهذا فإنَّ العبد ما دام كذلك، كلما أذنب تاب، وكلما أخطأ استغفر فهو حريٌّ بالمغفرة، وإن تكرر الذنب والتَّوبة[٢].

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الوتر - باب في الاستغفار - حديث رقم (١٥١٩) ١/ ٢٥٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث (١٥١٧).

(٢) فقه الأدعية والأذكار: ٢/ ٢٨٧.

فوائد الاستغفار:

إنَّ للاستغفار فوائد كثيرة؛ منها[1]:

(١) الاستغفار يجلب الغيث المدرار للمستغفرين، ويجعل لهم جنّات ويجعل لهم أنهارًا.

(٢) الاستغفار يكون سببًا في إنعام اللّه عزّ وجلّ - على المستغفرين بالرّزق من الأموال والبنين.

(٣) تسهيل الطّاعات، وكثرة الدّعاء، وتيسير الرّزق.

(٤) زوال الوحشة الّتي بين الإنسان وبين اللّه.

(٥) المستغفر تصغر الدّنيا في قلبه.

(٦) ابتعاد شياطين الإنس والجنّ عنه.

(٧) يجد حلاوة الإيمان والطّاعة.

(٨) حصول محبّة اللّه له.

(٩) الزّيادة في العقل والإيمان.

(١٠) تيسير الرّزق، وذهاب الهمّ والغمّ والحزن.

(١١) إقبال اللّه على المستغفر، وفرحه بتوبته.

(١٢) وإذا مات تلقّته الملائكة بالبشرى من ربّه.

(١٣) إذا كان يوم القيامة كان النّاس في الحرّ والعرق، وهو في ظلّ العرش.

(١٤) إذا انصرف النّاس من الموقف كان المستغفر من أهل اليمين مع أولياء اللّه المتّقين.

(١٥) تحقيق طهارة الفرد والمجتمع من الأفعال السّيّئة.

(١٦) دعاء حملة عرش ربّنا الكريم له.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٢/ ٣٠٢.

فَضَائِلُ الذِّكْرِ وآدابه

ذكر الله عزَّ وجلَّ – عبادة العبادات، وقربة من أجل القربات، يتقرب به العبد المسلم لخالقه جلَّ وعلا –، وبه تطمئن القلوب والأرواح، وقد بيّن النبي ﷺ أن من يذكر ربه فإن ربه يذكره، وأن الذكر من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله سبحانه وتعالى –، وفيما يلي بيان فضل الذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فضل الذكر في القرآن الكريم:

لذكر الله عزَّ وجلَّ – فضائل كثيرة، ذكرها ربنا – تبارك وتعالى – في كتابه العزيز؛ منها:

١ – أنَّ الله عزَّ وجلَّ – يذكر من يذكره:

فقال – عزَّ وجلَّ –: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[١].

ما المراد بقوله تعالى –: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾؟.

ذكر علماء السَّلف – رحمهم الله تعالى –، والمفسرون أقوالًا كثيرة في تفسير هذه الآية؛ منها:

قال الحسن البصري: اذكروني فيما افترضت عليكم، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي[٢].

وقال سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي[٣].

وقال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: ذكر الله إياكم، أكبر من ذكركم له[٤].

وعن الربيع في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: إنَّ الله ذاكرُ من ذكره، وزَائدُ من شكره، ومعذِّبُ مَنْ كفَره.

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٦٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٦٥.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٤٦٥.

وعن السدي: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ قال: ليس من عبد يَذكر الله إلا ذكره الله، لا يذكره مؤمن إلا ذكره برَحمةٍ، ولا يذكره كافر إلا ذكره بعذاب[1].

وقال أبو عثمان النهدي: إنِّي لأعلم الساعة التي يذكرنا الله فيها، قيل له: ومن أين تعلمها؟، قال: يقول الله عزَّ وجلَّ -: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾.

وسئل أبو عثمان فقيل له: نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة، فقال: أحمدوا الله تعالى - على أن زينَ جارحة من جوارحكم بطاعته.

وقال ذو النون المصري: من ذكر الله تعالى - ذكرًا على الحقيقة نسى في جنب ذكره شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما عمل بن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله[2].

وقال الإمام الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ بالطاعة قلبًا وقالبًا، فيعم الذكر باللسان والقلب والجوارح، فالأول: كما في المنتخب الحمد والتسبيح والتحميد وقراءة كتاب الله تعالى -، والثاني: الفكر في الدلائل الدالة على التكاليف والوعد والوعيد، وفي الصفات الإلهية والأسرار الربانية، والثالث: استغراق الجوارح في الأعمال المأمور بها خالية عن الأعمال المنهي عنها، ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله تعالى - ذكرًا في قوله: ﴿ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[3]. ﴿ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾، أي: أجازكم بالثواب، وعبر عن ذلك بالذكر للمشاكلة، ولأنَّه نتيجته ومنشؤه[4].

وقال - تعالى -: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[5].

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٢١١ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ١٧١ وما بعدها.

(٣) سورة الجمعة: الآية: ٩.

(٤) روح المعاني: ٢/ ١٩.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ٢٠٥.

عن عبيد بن عمير في قول الله تعالى -: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ ﴾، قال: يقول الله تعالى -: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني عبدي وحده ذكرته وحدي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرته في أحسن منهم وأكرم.

وعن قتادة قوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةَ ﴾، أمر الله بذكره، ونهى عن الغفلة.

وعن زيد بن أسلم، ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةَ ﴾، قال: الذكر أن تذكر الله وتسبحه وتهلله وتحمده[1].

وعن الحسن قال: «إنْ كانَ الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّوَّر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبدًا»[2].

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أنَّ الله تعالى - يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[3]، وذلك أنَّ الله ذكر عبدًا صالحًا رَضِي فعله، فقال: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[4].

وقال ابن جُرَيْج: «يكره رفع الصوت والنداء والصياحُ في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روي عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ في الدعاء ولا في غيره»[5].

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم: للإمام الحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، ٥/ ١٦٤٧، ط/ المكتبة العصرية - صيدا بيروت - تحقيق: أسعد محمد الطيب.

(٢) الزهد: لابن عبد المبارك، ص ٤٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ٥٥.

(٤) سورة مريم: الآية: ٣.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٢٨.

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾[1].

قال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ – لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال غير الذكر، فإنَّ الله تعالى – لم يجعل له حدًا ينتهي إليه، فلم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

وبالليل والنهار، في البر، وفى السفر والحضر، والغنى والفقير، والصحة والسقم، والسِّر والعلانية، وعلى كلِّ حال.

وقال – عزَّ وجلَّ –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[3]، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته[4].

وقال – تعالى –: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[5].

قال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: «يذكرون الله تعالى – في أدبار الصلوات، وغدوًا وعشيًا، وفى المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا أو راح من منزله ذكر الله تعالى – ».

وقال الإمام القرطبي – رحمه الله: «للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال: الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإنَّ ذكره يعين على الثبات في الشدائد، الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإنَّ القلب لا يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: ٤١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩٥.

(٥) سورة الجمعة: الآية: ١٠.

﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1] وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس، الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم، قلتُ: والأظهر أنَّه ذكر اللسان الموافق للجنان.

قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، يقول الله عزَّ وجلَّ -: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾[2]، لرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله عزَّ وجلَّ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].

وقال قتادة: افترض الله جلَّ وعزَّ - ذكره على عباده، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيوف، وحكم هذا الذكر أن يكون خفيًا؛ لأنَّ رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدًا، فأمَّا إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنَّه يفت في أعضاء العدو[4].

وقال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[5].

قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات حتى يذكر الله عزَّ وجلَّ - قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا.

وقال الله تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[6].

وبيّن القرآن الكريم أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - أكبر من كل شيء، فقال - تعالى -: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[7].

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٥٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ٤١.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٤٥.

(٤) تفسير القرطبي: ٨/ ٢٣.

(٥) سورة الأحزاب: الآية: ٣٥.

(٦) سورة الرعد: الآية: ٢٨.

(٧) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

وفيها أربعة أقوال: أحدها: أنَّ ذكر اللَّه أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات؛ لأنَّ المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أنَّ المعنى: أنَّكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذِكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أنَّ المعنى: ولذكر اللَّه أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية، هذا ما ذكره المفسرون.

قال الإمام ابن القيِّم – رحمه الله: إنَّ الذِّكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، ذكرها مجملة، ثُمَّ أورد بعد ذلك تفصيلها:

الأوّل: الأمرُ به مطلقًا ومقيّدًا.

الثاني: النّهي عن ضدّه من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرّابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له.

السابع: الإخبار بأنَّه أكبرُ من كلِّ شيء.

الثامن: أنَّه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنَّهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنَّه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح[1].

ثم قال – رحمه الله في بيان تفصيل هذه الأوجه العشرة: أمّا الأوّل: وهو الأمر به مطلقًا ومقيّدًا، فكقوله تعالى –: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[2].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٢٤ وما بعدها.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ٢٠٥.

وأمَّا النهي عن ضدّه، فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[1].

وأمّا تعليق الفلاح بالإكثار منه فكقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

وأمّا الثناء على أهله وحسن جزائهم فكقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3].

وأمَّا خسران من لها عنه فكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[4].

وأمّا جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[5]، وذكر العبد لربِّه محفوف بذكرين من ربِّه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكرًا له، وذكر بعده به صار العبد مذكورًا، فذكر الربّ لعبده نوعان: نوعٌ قبل ذكر العبد لربِّه، ونوعٌ بعده.

وأمّا الإخبار عنه بأنَّه أكبرُ من كلِّ شيء فكقوله تعالى -: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[6].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللَّه يقول: معنى الآية: أنَّ في الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثانية: اشتمالها على ذكر اللَّه، وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر اللَّه أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأمّا ختم الأعمال الصالحة به، فكما ختم به عمل الصيام بقوله:﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[7]، وختم به الحجّ في قوله:﴿فَإِذَا قَضَيْتُم

(١) سورة الحشر: الآية ١٩.

(٢) سورة الجمعة: الآية: ١٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: ٣٥.

(٤) سورة المنافقون: الآية: ٩.

(٥) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٦) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

(٧) سورة البقرة: الآية: ١٨٥.

مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾[1]، وختم به الصلاة بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[2]، وختم به الجمعة بقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[3]، ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا، وإذا كان آخر كلام العبد أدخله الله الجنة.

وأمّا اختصاص الذّاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول فكقوله تعالى -: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[4].

وأمّا مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنّه روحها فإنَّه سبحانه قرنه بالصلاة، كقوله تعالى -: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[5]، وقرنه بالصيام، وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبّه ومقصوده، كما قال ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ؛ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[6]، وقرنه بالجهاد، وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء؛ فقال - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الجمعة: الآية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية: ١٩١.

(٥) سورة طه: الآية: ١٤.

(٦) سنن أبي داود - كتاب المناسك - باب في الرمل - حديث رقم (١٨٩٠) ١/ ٣٢١، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود حديث رقم (١٨٨٨).

(٧) سورة الأنفال: الآية: ٤٥.

فهذه وجوهٌ عشرةٌ ورد فيها الذِّكر في القرآن الكريم، وذُكِرَ لكلِّ وجه منها بعضُ الأمثلة من الآيات القرآنية، والقرآن الكريم مليءٌ بالآيات المندرجة تحت هذه الأنواع، وهي يسيرة الحصول، قريبة المتناول لمن قرأ القرآن الكريم، وتدبّر آياته[1].

فضل الذكر في السُّنَّة النَّبويَّة:

جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تبيِّن لنا فضل الذكر، وعظيم منزلته، وثوابه عند ربِّ العالمين - جلَّ وعلا -، منها: أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - من أفضل وأحب الأعمال إلى الله، والذكر وصية النبي ﷺ لأصحابه، ومباهاة الملائكة للذاكرين، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ - يذكر من يذكره، وأنَّ الذاكر لله عزَّ وجلَّ - يسبق غيره، وغيرها، وفيما يأتي بيان هذه الفضائل بشيء من التفصيل:

١ - أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - من أفضل وأحب الأعمال إلى الله:

فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»[2].

في هذا الحديث الشريف ثلاث فوائد:

١ - أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - أفضل وأحب الأعمال إلى الله تبارك وتعالى -.

٢ - أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - أفضل من إنفاق الذهب والفضة.

٣ - أنَّ ذكر الله عزَّ وجلَّ - أفضل من الجهاد في سبيل الله، قال - تعالى -: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[3].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم)، أي: أفضلها، (وأزكاها عند مليككم)، أي: أنماها وأطهرها عند ربكم، (وأرفعها في درجاتكم)، أي:

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٢٧ وما بعدها.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب منه خير الأعمال ذكر الله حديث رقم (٣٧٠٤) ٢/ ٨٦٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٣٧٧).

(٣) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

منازلكم في الجنة، (وخير لكم من إنفاق الذهب والورق) بكسر الراء الفضة، (وخير لكم من أن تلقوا عدوكم)، يعني: الكفار، (فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم)، يعني: تقتلوهم ويقتلوكم بسيف أو غيره، قالوا وما ذاك؟ قال: (ذكر الله).

لأنَّ جميع العبادات من الإنفاق، ومقاتلة العدو، وغيرهما وسائل ووسايط يتقرب بها إلى الله، والذكر هو المقصود الأعظم، والقلب الذي تدور عليه رحا جميع الأديان، وهذا الحديث يقتضى أنَّ الذكر أفضل من تلاوة القرآن[1].

وقال الإمام الصنعاني - رحمه الله: ولا تعارضه أحاديث فضل الجهاد، وأنَّه أفضل من الذكر؛ لأنَّ المراد بالذكر الأفضل من الجهاد ذكر اللسان والقلب، والتفكر في المعنى، واستحضار عظمة الله، فهذا أفضل من الجهاد، والجهاد أفضل من الذكر باللسان فقط.

وقال الإمام ابن العربي - رحمه الله: إنَّه ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه، فمن لم يذكر الله عند صدقته أو صيامه فليس عمله كاملًا، فصار الذكر أفضل الأعمال من هذه الحيثية، ويشير إليه حديث نية المؤمن خير من عمله[2].

وقال ثابت البناني: إنِّي لأعلم متى يذكرني ربى - عزَّ وجلَّ -، ففزعوا منه، وقالوا: كيف؟، فقال: إذا ذكرته ذكرني[3].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[4].

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: له وجهان؛ أحدهما: أنَّ ذكر الله تعالى - لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر: أنَّ ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه[5].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٨١٤.

(٢) سبل السلام شرح بلوغ المرام: ٤/ ٢١٤.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٤.

(٤) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

(٥) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٩٤.

٢ - أنَّ الذكر وصية النبي ﷺ لأصحابه:

فعن عبد اللّه بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»[١].

قوله (إن شرائع الإسلام): قال الطيبي: الشريعة مورد الإبل على الماء الجاري، والمراد ما شرع الله وأظهره لعباده من الفرائض والسنن.

وقال ملا علي القاري: "الظاهر أنَّ المراد بها هنا النوافل؛ لقوله: (قد كثرت عليَّ) بضم المثلثة ويفتح، أي: غلبت عليَّ بالكثرة حتى عجزت عنها؛ لضعفي، (فأخبرني بشيء): قال الطيبي: التنكير في بشيء للتقليل المتضمن لمعنى التعظيم، كقوله تعالى -: ورضوان من الله أكبر، ومعناه أخبرني بشيء يسير مستجلب لثواب كثير، قال القاري: وإلا ظهر أنَّ التنوين لمجرد التنكير.

قال المباركفوري: بل الأظهر هو ما قال الطيبي فتأمل.

(أتشبث به)، أي: أتعلق به وأستمسك، ولم يرد أنَّه يترك شرائع الإسلام رأسًا، ولكنَّه طلب ما يتشبث به بعد الفرائض عن سائر ما لم يفترض عليه، قاله الطيبي، قال: لا يزال، أي: هو أنَّه لا يزال (لسانك رطبًا من ذكر الله)، أي: طريًّا مشتغلًا قريب العهد منه، وهو كناية عن المداومة على الذكر"[٢].

٣ - مباهاة الملائكة للذاكرين:

فعن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب ما جاء في فضل الذكر - حديث رقم (٣٧٠٢) ٢/ ٧٦٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٣٧٥).

(٢) تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٢٢.

لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[1].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله: "إنَّ هذا الحديث من الأحاديث التي تدل على فضيلة الاجتماع على ذكر الله عزَّ وجلَّ -، ولكن ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوت واحد، ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام، وعافية البدن، والأمن، وما أشبه ذلك، فإنَّ ذكر نعمة الله من ذكر الله عزَّ وجلَّ - ؛ فيكون في هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذاكروا نعمة الله عليهم، ولهذا كان بعض السَّلف إذا مرَّ بأخيه أو آتاه أخوه قال: اجلس بنا نؤمن ساعة، أي: اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا؛ فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع، نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته"[2].

٤ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - يذكر من يذكره:

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ، ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[3].

قال المباركفوري - رحمه الله: قوله: (أنا عند ظن عبدي بي)، أي: أنا أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر، والمُراد الحثُّ على تغليب الرجاء على الخوف، وحسن الظن بالله، كقوله عليه الصَّلاة والسَّلام -: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، ويجوز أن يُراد بالظن اليقين، والمعنى: أنا عند يقينه بي، وعلمه

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر - حديث رقم (٧٠٣٢) ٢/ ١١٤٠.

(٢) شرح رياض الصالحين: للشيخ/ محمد بن صالح العثيمين: ١/ ١٦٥٨.

(٣) صحيح البخاري - كتاب التوحيد - باب قول الله: ويحذركم الله نفسه حديث رقم (٧٤٩٤) ٣/ ١٤٩٤، صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى حديث رقم (٦٩٨١) ٢/ ١١٣٢.

بأنَّ مصيره إليَّ، وحسابه عليَّ، وأنَّ ما قضيتُ به له أو عليه من خير أو شر لا مرد له، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، قاله الطيبي.

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله: قيل: معنى "ظن عبد بي": ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها، تمسكا بصادق وعده، قال: ويؤيده قوله في الحديث الآخر: "ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ"(١).

قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقنًا بأن الله يقبله، ويغفر له؛ لأنَّه وعد بذلك، وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظن أنَّ الله لا يقبلها، وأنَّها لا تنفعه، فهذا هو اليأس من رحمة الله، وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وكل إلى ما ظنَّ، كما في بعض طرق الحديث المذكور: فيظن بي عبدي ما شاء.

قال: وأمَّا ظنُّ المغفرة مع الإصرار فذلك محض الجهل والغرة، وهو يجرُّ إلى مذهب المرجئة، (وأنا معه إذا دعاني)، أي: بعلم، وهو كقوله: إنني معكما أسمع وأرى(٢).

وقال الكرماني - رحمه الله: قامت البراهين القطعية على استحالة هذه الإطلاقات على الله تعالى -، فهي إذًا على سبيل التجوّز، والمعنى: من أتى شيئًا من الطاعات ولو قليلًا قابلته عليه بأضعاف من الإثابة والإكرام، وكلما زاد في الطاعة زدته في الثواب، وإن كان إتيانه بالطاعة على التأني تكون كيفية إتياني بالثواب على السرعة، فالغرض أنَّ الثواب راجع على العمل، مضاعف عليه، وإطلاق النفس والتقرّب والهرولة، وهي من الإسراع ونوع من العدو عليه تعالى -، إنَّما هو مجاز على سبيل المشاكلة، أو على طريق الاستعارة، أو على قصد إرادة لوازمها، وهو من الأحاديث الدالة على كرم أكرم الأكرمين(٣).

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ - حديث رقم (٣٨١٦) ٢/ ٨٩٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٤٧٩).

(٢) تحفة الأحوذي: ٧/ ٥٣ وما بعدها.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، ١/ ٣٧٩.

وقال الإمام الشوكاني – رحمه الله: "في هذا الحديث ترغيب من الله عزَّ وجلَّ – لعباده بتحسين ظنونهم، وأنَّه يعاملهم على حسبها، فمن ظنَّ به خيرًا أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميل تفضلاته، ونثر عليه محاسن كراماته وسوابغ عطياته، ومن لم يكن في ظنِّه هكذا لم يكن الله تعالى – له هكذا، وهذا هو معنى كونه سبحانه وتعالى – عند ظنِّ عبده، فعلى العبد أن يكون حسن الظن بربه في جميع حالاته، ويستعين على تحصيل ذلك باستحضاره ما ورد من الأدلة الدالة على سعة رحمة الله سبحانه وتعالى –، كحديث أبي هريرة في الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: "لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي"[1].

وقال القاضي عياض – رحمه الله: قيل: معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية، وقيل: المراد به الرجاء وتأميل العفو، وهذا أصح، قوله: وأنا معه حين يذكرني، أي: معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية، وأمَّا قوله تعالى –: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، فمعناه بالعلم والإحاطة.

قوله: «إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»، قال المازري: النفس تطلق في اللغة على معان؛ منها: الدم، ومنها: نفس الحيوان، وهما مستحيلان في حقِّ الله تعالى –، ومنها: الذات، والله تعالى – له ذات حقيقة، وهو المراد بقوله تعالى – في نفسي، ومنها: الغيب، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى – تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، أي: ما في غيبي، فيجوز أن يكون أيضًا مراد الحديث، أي: إذا ذكرني خاليا أثابه الله وجازاه عمَّا عمل»[3].

٥ – أنَّ الذاكر لله عزَّ وجلَّ – يسبق غيره:

فعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أَتَوْا رسُولَ اللهِ ﷺ، فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ، يَحُجُّونَ، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، فَقَالَ: أَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا

(١) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين: للإمام محمد بن على الشوكاني، ١/ ٩، ط/ دار القلم – بيروت – لبنان سنة ١٩٨٤م.

(٢) سورة الحديد: الآية: ٤.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧/ ٢.

تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَكُون أَحَدٌ أَفْضَل مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ، قالوا: بَلَى يَا رسول الله، قَالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ"، قَالَ أَبُو صالح الراوي عن أَبي هريرة، لَمَّا سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِنَّ قَالَ: يقول: سُبْحَان اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، واللهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنهُنَّ كُلُّهُنَّ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ[1].

قال الإمام ابن دقيق العيد – رحمه الله: قوله: (ذهب أهل الدثور: الدثر)، هو المال الكثير، وقوله: (تدركون من سبقكم)، يحتمل أن يراد به السبق المعنوي، وهو السبق في الفضيلة، وقوله من بعدكم، أي: من بعدكم في الفضيلة ممن لا يعمل هذا العمل، ويحتمل أن يراد القبلية الزمانية والبعدية الزمانية، ولعلَّ الأول أقرب إلى السياق، فإن سؤالهم كان عن أمر الفضيلة، وتقدم الأغنياء فيها.

وقوله: "لا يكون أحد أفضل منكم": يدل على ترجيح هذه الأذكار على فضيلة المال، وعلى تلك الفضيلة للأغنياء مشروطة بأن لا يفعلوا هذا الفعل الذي أمر به الفقراء، وفي تلك الرواية تعليم كيفية هذا الذكر، وقد كان يمكن أن يكون فرادى – أي: كل كلمة على حدة – ولو فعل ذلك جاز وحصل به المقصود، ولكن بيَّن في هذه الرواية أنَّه يكون مجموعًا، ويكون العدد للجملة، وإذا كان كذلك يحصل في كل فرد هذا العدد، والله أعلم[2].

٦ – أنَّ الذاكر لله حي والغافل عن ذكره ميت:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[3].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأذان – باب الذكر بعد الصلاة حديث رقم (٨٥١) ١/ ١٦٠، صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته حديث رقم (١٣٧٥) ١/ ٢٣٧.

(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: للإمام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)، ١/ ٢١٨، ط/ مؤسسة الرسالة – الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م – تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الدعوات – باب فضل ذكر الله حديث رقم (٦٤٨٢) ٣/ ١٣٠١.

قال الإمام المناوي – رحمه الله: شبه الذاكر بالحي الذي يزين ظاهره بنور الحياة وإشراقها فيه، وباطنه منور بالعلم والفهم، فكذا الذاكر مزين ظاهره بنور العلم والمعرفة[1].

وقال المباركفوري – رحمه الله: "شبه الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنور الحياة وإشراقها فيه، وبالتصرف التام فيما يريده، وباطنه بنور العلم والفهم والإدراك، كذلك الذاكر مزين ظاهره بنور العلم والطاعة، وباطنه بنور العلم والمعرفة، فقلبه مستقر في حظيرة القدس، وسره في مخدع الوصل، وغير الذاكر عاطل ظاهره، وباطل باطنه.

وقيل: موقع التشبيه بالحي والميت لما في الحي من النفع لمن يواليه والضرر لمن يعاديه، وليس ذلك في الميت، وفي هذا التمثيل منقبة للذاكر جليلة، وفضيلة له نبيلة، وإنَّه بما يقع منه من ذكر الله عزَّ وجلَّ – في حياة ذاتية وروحية لما يغشاه من الأنوار ويصل إليه من الأجور، كما أنَّ التارك للذكر، وإن كان في حياة ذاتية فليس لها اعتبار، بل هو شبيه بالأموات الذين لا يفيض عليهم بشي ممَّا يفيض على الإحياء المشغولين بطاعة الله عزَّ وجلَّ – "[2].

٧ – سبق الذاكرين إلى الله تعالى – دون غيرهم:

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»[3].

وقال الإمام البغوي – رحمه الله: "قال القتيبي: المفردون: الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه، وبقوا وهم يذكرون الله، وقال ابن الأعرابي: فرد الرجل: إذا تفقه، واعتزل الناس، وخلا بمراعاة الأمر والنهي"[4].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٧١٧.

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ٣٧١.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب الحث على ذكر الله تعالى – حديث رقم (٦٩٨٤) ٢/ ١١٣٣.

(٤) شرح السنة: ٥/ ١٨.

وقال ابن قتيبة – رحمه الله: المفردون الذين هلك أقرانهم ولداتهم وطالت أعمارهم؛ فانفردوا لذكر الله عزَّ وجلَّ – وعبادته.

وقال الأزهري – رحمه الله: "هم المنقطعون عن الناس لذكر الله عزَّ وجلَّ –، فكأنهم أفردوا أنفسهم للذكر، والفارد والفرد في اللغة: الثور الوحشي لانفراده عن الإنس بالإنس، وقال غيره استولى عليهم الذكر فأفردهم عن كل شيء إلا عن الله عزَّ وجلَّ – فهم يفردونه بالذكر، ولا يضمون إليه سواه"[1].

٨ – أنَّ أفضل الذكر لا إله إلا الله:

فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَه إِلَّا اللهُ"[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (أفضل الذّكر لا إله إلا الله)؛ لأنَّها كلمة التوحيد والتوحيد لا يماثله شيء، وهي الفارقة بين الكفر والإيمان، ولأنَّها أجمع للقلب مع الله، وأنقى للغير، وأشد تزكية للنفس، وتصفية للباطن، وتنقية للخاطر من قوله، أراد الاستيعاب لا يظهر مع تقدير أعمال إذا لم يبق مفضل عليه[3].

٩ – الذكر وصية الأنبياء:

فعن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ حدثهم فقال: إِنَّ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ يَعْمَلُ بِهِنَّ، وَيَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ قَالَ: فَكَانَ يُبْطِئُ بِهِنَّ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ تَعْمَلُ بِهِنَّ، وَتَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ بِهِنَّ، وَإِمَّا أَنْ أَقُومَ فَآمُرَهُمْ بِهِنَّ قَالَ يَحْيَى: إِنَّكَ إِنْ تَسْبِقْنِي بِهِنَّ أَخَفْ أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي، فَجَمَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، حَتَّى جَلَسَ النَّاسُ عَلَى الشُّرُفَاتِ، فَوَعَظَ النَّاسَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَعْمَلُ بِهِنَّ، وَآمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، أُولَاهُنَّ، أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا؛ فَإِنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَذِهِ دَارِي وَعَمَلِي،

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين: لابن الجوزي ١/ ١٠٤٢.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الأدب – باب فضل الحامدين – حديث رقم (٣٩٣٢) ١/ ٥٤٤، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه حديث رقم (٣٨٦٨).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٣٦٧.

فَاعْمَلْ لِي وَأَدِّ إِلَيَّ عَمَلَكَ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي عَمَلَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَبْدٌ كَذَلِكَ، يُؤَدِّي عَمَلَهُ لِغَيْرِ سَيِّدِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَلَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا نَصَبْتُمْ وُجُوهَكُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ حِينَ يُصَلِّي لَهُ، فَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ وَجْهَهُ حَتَّى يَكُونَ الْعَبْدُ هُوَ يَنْصَرِفُ"(١).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "هذا الحديث عظيم الشأن ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقله"(٢).

وقال أيضًا: وقوله ﷺ: "وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ": فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى - وأن لا يزال لهجا بذكره، فإنَّه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى - انخنس عدو الله تعالى - وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوضع وكالذباب، ولهذا سُمِّيَ الوسواس الخناس، أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى - خنس، أي: كف وأنقبض.

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى - خنس(٣).

١٠ - أن دور الجنة تبنى بالذكر فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء:

فعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رسول الله ﷺ قال: [أَكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا غِرَاسُهَا ؟ قَالَ: مَا شَاءَ اللهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ](٤).

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة حديث رقم (٣١٠٢) ٢/ ٧٢١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم(٢٨٦٣).

(٢) الوابل الصيب: ص ٢٤.

(٣) المرجع السابق: ص٥٦.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠٩.

- من أقوال السَّلف في فضل الذكر:

جاءت عن السَّلف الصالح - رضوان الله عليهم - آثار كثيرة تبيِّن لنا فضل الذكر، وعظيم منزلته، ومنها:

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ذهب الذّاكرون اللّه بالخير كلّه"[1].

وعن ابن عبّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: "يطوف الرّجل بالبيت ما كان حلالًا حتّى يهلّ بالحجّ، فإذا ركب إلى عرفة فمن تيسّر له هديه من الإبل أو البقر أو الغنم ما تيسّر له من ذلك، أيّ ذلك شاء، غير إن لم يتيسّر له فعليه ثلاثة أيّام في الحجّ، وذلك قبل يوم عرفة، فإن كان آخر يوم من الأيّام الثّلاثة يوم عرفة فلا جناح عليه، ثمّ لينطلق حتّى يقف بعرفات من صلاة العصر إلى أن يكون الظّلام ثمّ ليدفعوا من عرفات، فإذا أفاضوا منها حتّى يبلغوا جمعًا الّذي يتبرّر فيه، ثمّ ليذكروا اللّه كثيرًا، أو أكثروا التّكبير والتّهليل قبل أن تصبحوا، ثمّ أفيضوا فإنَّ النّاس كانوا يفيضون، وقال اللّه تعالى -: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، حتّى ترموا الجمرة[3].

وقال أبو الدّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لكلّ شيء جلاء، وإنَّ جلاء القلوب ذكر اللّه عزَّ وجلَّ - [4].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله معلقًا: "ولا ريب أنَّ القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنَّه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا جلاه، وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبًا على قلبه وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل؛ لأنَّه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ وأسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًا ولا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب"[5].

---

(١) شعب الإيمان: ١/ ٤٠٨ برقم (٥٥٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٩٩.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٤٥٢١.

(٤) شعب الإيمان: ١/ ٣٩٦، برقم (٥٢٣)، الوابل الصيب: ص ٦٠.

(٥) الوابل الصيب: ص ٩٢.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنَّهما يطمسان نور القلب، ويعميان بصره، قال – تعالى –: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[1].

وقال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من أكثر ذكر اللّه برأ من النّفاق"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة – رحمه الله: «الذّكر للقلب مثل الماء للسّمك، فكيف يكون حال السّمك إذا فارق الماء»[3].

وقال ابن القيّم – رحمه اللّه: «الذّكر باب المحبّة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم»[4].

وقال – رحمه اللّه: «محبّة اللّه تعالى – ومعرفته، ودوام ذكره، والسّكون إليه، والطّمأنينة إليه، وإفراده بالحبّ والخوف والرّجاء والتّوكّل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنّة الدّنيا والنّعيم الّذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبّين وحياة العارفين»[5].

وقال ذو النون المصري: «من ذكر الله تعالى – ذكرًا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كلَّ شيء، وحفظ الله تعالى – عليه كل شيء، وكان له عوضًا عن كل شيء»[6].

وسمعته يقول: سمعت عبد الله المعلم يقول: سمعت أحمد المسجدي يقول: سئل أبو عثمان؛ فقيل له: نحن نذكر الله تعالى –، ولا نجد في قلوبنا حلاوة ؟ فقال: أحمدو الله على أن زين جارحة من جوارحكم بطاعته[7].

---

(١) سورة الكهف: الآية: ٢٨.

(٢) شعب الإيمان: للبيهقي ١/ ٤١٥.

(٣) الوابل الصيب: لابن القيم، ص ٦٣.

(٤) الوابل الصيب: لابن القيم، ص ٦٢.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٠.

(٦) الرسالة القشيرية: ١/ ١٠١.

(٧) المرجع السابق: ١/ ١٠١.

وقال أبو سليمان الداراني: «إنَّ في الجنة قيعانًا، فإذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار فيها، فربما يقف بعض الملائكة، فيقال له: لم وقفت؟ فيقول: فَتر صاحبي»[1].

وقال الحسن: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أنَّ الباب مغلق»[2].

وقال أبو عثمان: «من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر»[3].

وعن الجنيد قال: سمعت السري يقول: مكتوب في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى -: إذا كان الغالب علي عبدي ذكري عشقني وعشقته[4].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الذكر، وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، والذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب، إذا مرضنا تداوينا بذكركم، فنترك الذكر أحيانًا، فننتكس به، يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات إذا أظلمهم البلاء، فإليه ملجؤهم وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقبلون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورًا، وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أنَّ الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك

(١) الرسالة القشيرية: ١/ ١٠١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٠١.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٠١.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٠٢.

القلوب بور وخراب، وهو عمارتها وأساسها، وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا؛ ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء، به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل، كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان، كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: «إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان؛ فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا فيقال: قد مسه الإنسي، وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه»[1].

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله: «بذكر الله تستنير القلوب وتحيا، فكل غافل عن ذكر الله فهو في ظلام الليل أغشى، ولو أشرقت لعينه شموس الضحى، الله نور السموات والأرض، فلهذا لا تستنير إلا القلوب التي هي بذكره ملأى، صب تقلبه على فرش الضنا مذ غبتم عدم المسرة والهنا ما اشتد عنكم بعد مزاركم إلا الصبابة والكآبة والعنا، لكن أماني الوصل تنعش قلبه، فيعيش أحيانًا بترويح المُنى، وتهب من ذكراكم لفؤاده نسمات ألطاف تفرج ما عنا، فالذكر أغنى ما لفاقة قلبه ما لليتيم من تذكركم عنا، كيف يستغني المحب عن ذكر الحبيب زمان البعد والحجاب، والذكر هو العوض لفقد الأحباب عمَّا فقده من نعيم الرؤية، ولذيذ العتاب المحب الصادق إمَّا أن يكون إلى المحبوب ناظرًا ما دام له عن وجهه سافرًا وإمَّا أن يكون له ذاكرًا إذا لم يكن له في حضرته حاضرًا كنت من قرب دارهم في نعيم، وأنا اليوم في العذاب الأليم، أنا أشكو إليكم حرقة الذكرى، فأنا من وقودها في جحيم أجمع لكم من طبيب خبير ولبيب وناصح وحكيم، إنَّ هجر الأحباب سوط عذاب، ووصل الأحباب رأس النعيم، عباد الله اذكروا الله من هو إلى وجهه الكريم ناظر جنابه العزيز حاضر، فخير الذكر ما كنت فيه غائبًا كحاضر، ومحبوبًا كناظر، لو تحقق الذاكر بما

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٤٢٣.

هو له من الأدب لازم عليه واجب لنظر إلى شيطانه، ويقذفون من كل جانب دحورًا ولهم عذاب واصب، ذاكر الله لا يستطيع الشيطان في ذكره مقيلًا، ذاكر الله لا يجد الشيطان إلى إغوائه سبيلًا، ذاكر الله لا يزال شيطانه مدحورًا ذليلًا، ذاكر الله قد تكفل الله بحفظه، وكيف يضيع من كان الله يحفظه كفيلًا؟، اذكروا الله بكرة وأصيلًا، وتبتل لذكره تبتيلًا، اذكروا الله ذكر صب مشوق، واجعل الذكر للوصال سبيلًا، ارض بالله مؤنسًا وجليسًا، واتخذه دون العباد وكيلًا، فرَّ ممَّا سواه، والجأ إليه واسمحه تجده برًا وصولًا، الزم الذكر واتخذه تجد الذكر بالوصال كفيلًا»[1].

أقسام الذكر:

ينقسم الذكر إلى قسمين: ذكر مطلق، وذكر مقيد:

أمَّا الذكر المطلق: فهذا النوع من الذكر ليس له وقت معين، ولا مكان معين، ولا صيغة معينة، وإنَّما يكون في كلِّ وقت وفى كل مكان، وعلى أي حال يكون الإنسان عليها، قال الإمام النووي – رحمه الله: باب مختصر في أحرف ممَّا جاء في فضل الذكر غير مقيد بوقت[2]، ثُمَّ ذكر بعد ذلك الأدلة على هذا النوع من الذكر، ومنها:

قول الله تعالى –: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4]، وقال – تعالى –: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[5]، وقال – تعالى –: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[6].

---

(١) التذكرة في الوعظ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي: ١/ ١١٦ وما بعدها، ط/ دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح.

(٢) الأذكار: ص ١٥.

(٣) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

(٤) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٥) سورة الصافات: الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.

(٦) سورة الأنبياء: الآية: ٢٠.

وهناك أحاديث كثيرة في السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة بيَّن لنا فيها النبي ﷺ أهمية الذكر المطلق، وفائدته، وأنواعه؛ منها:

ما جاء عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ"(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: " «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٢).

وعن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ" (٣).

وقال ﷺ: "مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ"(٤).

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»(٥).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب فضل التسبيح - حديث رقم (٦٤٨١) ٣/ ١٣٠١، صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء - حديث رقم (٧٠٢١) ٢/ ١١٣٨.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب سبق المفردون - حديث رقم (٣٩٤٦) ٢/ ٩٢١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٩٧).

(٣) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء - حديث رقم (٧٠٢٠) ٢/ ١١٣٧.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب فضل التسبيح - حديث رقم (٦٤٨٠) ٣/ ١٣٠١.

(٥) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء - حديث رقم (٧٠٢٧) ٢/ ١١٣٩.

وأمَّا عن الذكر المقيد: فهذا النوع من الذكر له وقت معين، ومكان معين، وصيغة معينة، وهى الأذكار الموظفة التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها في أوقات معينة، وبصيغة معينة.

لقد اهتم النبي ﷺ بهذه الأذكار في أوقاتها، وعلَّمها لأصحابه ولأمته من بعده ﷺ، وإذا واظب عليها العبد المسلم في أوقاتها حصل من وراء ذلك الحسنات الكثيرة، وكانت له حفظ وحماية من الشيطان في ليله ونهاره، وذلك لأنَّه دائمًا مع ربه تبارك وتعالى - في عبادة، لا يغفل عن ذلك طرفة عين، ففي كلِّ موضع هناك ذكر معين، وفى كلِّ وقت هناك ذكر معين، فينبغي على الإنسان المسلم أن يحافظ على هذه الأذكار الموظفة، ومنها:

أذكار النوم: فعن حذيفة بن اليمان، وأبي ذر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قالا: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ: «اللهُمَّ بِاسْمِكَ اللهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتُ»[1]، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[2].

أذكار دخول المنزل والخروج منه: فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ قَالَ - يَعْنِي - إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ"[3].

من فوائد الذكر:

قال الإمام ابن القيّم - رحمه اللّه: في الذّكر أكثر من مائة فائدة منها[4]:

(١) أنّه يطرد الشّيطان ويقمعه. (٢) أنّه يرضي الرّحمن - عزّ وجلّ -.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي - كتاب عمل اليوم والليلة - حديث رقم (١٠٥٨٤) ٦/ ١٨٧.

(٢) السنن الكبرى للنسائي - كتاب عمل اليوم والليلة - ما يقول إذا أراد أن ينام - حديث رقم (١٠٦٠٨) ١/ ١٩٢.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا خرج من بيته حديث رقم (٣٧٥٤) ٢/ ٨٨٢، وصححه الترمذي في صحيح الترمذي حديث رقم (٣٤٢٦).

(٤) لفظ فائدة هنا يشمل أمرين: الأول فائدة للذكر والآخر فائدة عن الذكر، وقد ذكر من النوع الأول ثلاثاً وسبعين، ومن النوع الثاني خمس فوائد، ولذلك قال - رحمه اللّه في الذكر ولم يقل للذكر. ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ٢٠١٠ - ٢٠١٣، والوابل الصيب: لابن القيم، ص ٦١ - ص ١١١، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) أنّه يزيل الهمّ والغمّ عن القلب.

(٤) أنّه يجلب للقلب الفرح والسّرور والبسط.

(٥) أنّه يقوّي القلب والبدن.

(٦) أنّه ينوّر الوجه والقلب.

(٧) أنّه يجلب الرّزق.

(٨) أنّه يكسو الذّاكر المهابة والحلاوة والنّضرة.

(٩) أنّه يورثه المحبّة الّتي هي روح الإسلام وقطب رحى الدّين ومدار السّعادة والنّجاة.

(١٠) أنّه يورثه المراقبة حتّى يدخله في باب الإحسان، فيعبد اللّه كأنّه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذّكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

(١١) أنّه يورثه الإنابة، وهي الرّجوع إلى اللّه عزّ وجلّ -.

(١٢) أنّه يورثه القرب منه، فعلى قدر ذكره للّه عزّ وجلّ - يكون قربه منه.

(١٣) أنّه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة.

(١٤) أنّه يورثه الهيبة لربّهـ عزّ وجلّ - وإجلاله، لشدّة استيلائه على قلبه وحضوره مع اللّه تعالى، بخلاف الغافل؛ فإنّ حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

(١٥) أنّه يورثه ذكر اللّه تعالى له كما قال تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"[1]، ولو لم يكن في الذّكر إلّا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا.

(١٦) أنّه يورثه حياة القلب.

(١٧) أنّه فوت القلب والرّوح، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

(١٨) أنّه يورث جلاء القلب من صدئه.

(١٩) أنّه يحطّ الخطايا ويذهبها.

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٢٠) أنّه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربّه تبارك وتعالى.

(٢١) من ذكر اللّه تعالى - عزَّ وجلَّ - ذكره ربّه، ولذكر اللّه أكبر.. قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[1].

(٢٢) أنّ العبد إذا تعرّف إلى اللّه تعالى بذكره في الرّخاء عرفه في الشّدّة.

(٢٣) أنّه ينجّي من عذاب اللّه تعالى.

(٢٤) أنّه سبب تنزيل السّكينة، وغشيان الرّحمة، وحفوف الملائكة بحلقات الذّكر.

(٢٥) أنّه سبب اشتغال اللّسان عن الغيبة والنّميمة والكذب والفحش والباطل.

(٢٦) أنّ مجالس الذّكر مجالس الملائكة، ومجالس اللّغو والغفلة مجالس الشّياطين، فليتخيّر العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدّنيا والآخرة.

(٢٧) أنّه يسعد الذّاكر بذكره ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أينما كان.

(٢٨) أنّه يؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة.

(٢٩) أنّه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال اللّه تعالى العبد يوم الحرّ الأكبر في ظلّ عرشه، وهذا الذّاكر مستظلّ بظلّ عرش الرّحمن - عزّ وجلّ -.

(٣٠) أنّ الاشتغال به سبب لعطاء اللّه للذّاكر أفضل ما يعطي السّائلين.

(٣١) أنّه أيسر العبادات، وهو من أجلّها وأفضلها.

(٣٢) أنّه غراس الجنّة.

(٣٣) أنّ العطاء والفضل الّذي رتّب عليه لم يرتّب على غيره من الأعمال.

(٣٤) أنّ دوام ذكر الرّبّ تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الّذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده.

(٣٥) أنّ الذّكر نور للذّاكر في الدّنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصّراط.

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٣٦) لمّا كان الذّكر متيسّرًا للعبد في جميع الأوقات والأحوال فإنّ الذّاكر وهو مستلقٍ على فراشه يسبق (في الفضل والخير) القائم الغافل.

(٣٧) الذّكر يفتح باب الدّخول إلى اللّه عزّ وجلّ -، فإذا فتح الباب ووجد الذّاكر ربّه فقد وجد كلّ شيء.

(٣٨) في القلب خلّة وفاقة لا يسدّها شيء البتّة إلّا ذكر اللّه عزّ وجلّ -، فإذا صار القلب بحيث يكون هو الذّاكر بطريق الأصالة، واللّسان تبع له فهذا هو الذّكر الّذي يسدّ الخلّة ويفني الفاقة.

(٣٩) أنّ الذّكر يجمع المتفرّق ويفرّق المجتمع، ويقرّب البعيد ويبعد القريب، فيجمع ما تفرّق على العبد من قلبه وإرادته وهمومه وعزومه، والعذاب كلّ العذاب في تفرقتها وتشتّتها عليه وانفراطها له، والحياة والنّعيم في اجتماع قلبه وهمّه وعزمه وإرادته. ويفرّق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه. ويفرّق أيضًا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره حتّى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحلّ. ويفرّق أيضًا ما اجتمع على حربه من جند الشّيطان.

(٤٠) أنّ الذّكر ينبّه القلب من نومه، ويوقظه من سنته.

(٤١) أنّ الذّكر شجرة تثمر المعارف والأحوال الّتي شمّر إليها السّالكون.

(٤٢) أنّ الذّاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه. وهذه المعيّة معيّة خاصّة غير معيّة العلم والإحاطة العامّة، فهي معيّة بالقرب والولاية والمحبّة والنّصرة والتّوفيق.

(٤٣) أنّ الذّكر يعدل حتّى عتق الرّقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل والضّرب بالسّيف في سبيل اللّه عزّ وجلّ -.

(٤٤) أنّ الذّكر رأس الشّكر، فما شكر اللّه تعالى من لم يذكره.

(٤٥) أنّ أكرم الخلق على اللّه تعالى من المتّقين من لا يزال لسانه رطبًا بذكر اللّه.

(٤٦) أنّ في القلب قسوة لا يذيبها إلّا ذكر اللّه تعالى -.

(٤٧) أنّ الذّكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة وشفاؤها ودواؤها في ذكر اللّه تعالى -.

(٤٨) الذّكر أصل موالاة اللّه عزَّ وجلَّ -، ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، لأنّ العبد لا يزال يذكر ربّهـ عزَّ وجلَّ - حتّى يحبّه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتّى يبغضه فيعاديه.

(٤٩) أنّه ما استجلبت نعم اللّه عزَّ وجلَّ - واستدفعت نقمه بمثل ذكر اللّه تعالى -.

(٥٠) أنّ الذّكر يوجب صلاة اللّه عزَّ وجلَّ - وملائكته على الذّاكر، ومن صلّى اللّه تعالى - عليه وملائكته فقد أفلح كلّ الفلاح وفاز كلّ الفوز.

(٥١) أنّ من شاء أن يسكن رياض الجنّة في الدّنيا فليجلس في مجالس الذّكر.

(٥٢) أنّ مجالس الذّكر مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدّنيا لهم مجلس إلّا مجلس يذكر اللّه تعالى - فيه.

(٥٣) أنّ اللّه عزَّ وجلَّ - يباهي بالذّاكرين ملائكته.

(٥٤) من داوم على الذّكر دخل الجنّة مستبشرا فرحا بما أنعم اللّه عليه.

(٥٥) الذّاكر يحقّق الغاية الّتي من أجلها شرعت الأعمال كالصّلاة ونحوها، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

(٥٦) إكثار الذّكر في الأعمال يجعل الذّاكر أفضل أهل ذلك العمل، فأفضل الصّوّام أكثرهم ذكرًا للّه عزَّ وجلَّ - في صومهم، وأفضل المتصدّقين أكثرهم ذكرًا للّه تعالى... وهكذا.

(٥٧) إدامة الذّكر تنوب عن التّطوّعات وتقوم مقامها (ممّن لا يقدر عليها) سواء كانت هذه التّطوّعات بدنيّة (كالجهاد) أو ماليّة (كالصّدقة) أو بدنيّة ماليّة كحجّ التّطوّع.

(٥٨) ذكر اللّه عزَّ وجلَّ - من أكبر العون على طاعته عزَّ وجلَّ - فإنّه يحبّبها للعبد ويسهّلها عليه، ويجعل قرّة عينه فيها.

(٥٩) أنّ ذكر اللّه عزَّ وجلَّ - يسهّل الصّعب، وييسّر العسير ويخفّف المشاقّ. فما ذُكِرَ اللّه عزَّ وجلَّ - على صعب إلّا هان، ولا على عسير إلّا تيسّر، ولا مشقّة إلّا خفّت، ولا شدّة إلّا زالت، ولا كربة إلّا انفرجت.

---

(١) سورة طه: الآية: ١٤.

(٦٠) أنّ ذكر اللّه عزَّ وجلَّ - يذهب عن القلب مخاوفه كلّها. فليس للخائف الّذي قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر اللّه عزَّ وجلَّ -.

(٦١) الذّكر يعطي الذّاكر قوّة (عظيمة) حتّى إنّه ليفعل مع الذّكر ما لم يظنّ فعله بدونه.

(٦٢) الذّاكرون هم السّابقون يوم القيامة.

(٦٣) الذّكر سببّ لتصديق الرّبّ - عزَّ وجلَّ - عبده، لأنّه يخبر عن اللّه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فإذا أخبر بها العبد، صدّقه ربّه، ومن صدّقه اللّه تعالى -، لم يحشر مع الكاذبين، ورجي له أن يحشر مع الصّادقين.

(٦٤) الملائكة تبني للذّاكر دورًا في الجنّة ما دام يذكر، فإذا أمسك عن الذّكر، أمسكت الملائكة عن البناء.

(٦٥) الذّكر سدّ بين العبد وبين جهنّم - والعياذ باللّه تعالى - فإذا كان ذكرًا دائمًا محكمًا، كان سدّا محكمًا لا منفذ فيه، وإلّا فبحسبه.

(٦٦) الملائكة تستغفر للذّاكر كما تستغفر للتّائب.

(٦٧) بالذّاكرين تتباهى الجبال والقفار وتستبشر بمن عليها من الذّاكرين.

(٦٨) كثرة الذّكر أمان من النّفاق، فإنّ المنافقين قليلو الذّكر للّه تعالى، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

(٦٩) يحصّل الذّاكر من اللّذّة ما لا يحصل لغيره، ولذا سمّيت مجالس الذّكر رياض الجنّة.

(٧٠) يكسو الذّكر صاحبه نضرة في الدّنيا ونورًا في الآخرة.

(٧١) في تكثير الذّكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة.

(٧٢) في الذّكر اشتغال عن الكلام الباطل من الغيبة والنّميمة واللّغو ونحو ذلك من حيث إنّ اللّسان لا يسكت البتّة، وهو إمّا لسان ذاكر، وإمّا لسان لاغ، ولا بدّ من أحدهما، والنّفس إن لم تشغلها بالحقّ شغلتك بالباطل..

(٧٣) لا سبيل إلى تفريق جمع الشّياطين الّتي تحوط بالإنسان إلّا بذكر اللّه عزَّ وجلَّ -.

(٧٤) الذّكر يجعل الدّعاء مستجابًا.

---

(١) سورة النساء: الآية: ١٤٢.

فَضَائِلُ الكَلِمَاتِ الأَرْبَعِ[1]

«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»

إِنِّ من أعظم الطاعات والقربات لله تبارك وتعالى – الإكثار من ذكره سبحانه، فَذِكْرُ الله تعالى – غذاء الأرواح، وشفاء القلوب، وقرّة عيون المحبين، والذكر عبادة عظيمة سهلة ميسرة، ولكن على من يسّر الله عزَّ وجلَّ – عليه، وذِكْرُ الله تعالى – منه ما هو مقيد: أي له أوقات معينة، وصيغ معينة، وأماكن معينة، ومنه ما هو مطلق: يكون في أيِّ وقت، وأيِّ زمان، وأيِّ مكان، ومن الذِّكر المطلق هذه الكلمات الأربع:(سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ).

ولهذه الكلمات فضائل كثيرة بيَّنها لنا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، فهيا بنا نتعرف عليها في هذه المقالة المتواضعة، وبالله التّوفيق.

إنَّ لهذه الكلمات الأربع فضائل عظيمة في السُّنة النَّبويَّة المطهَّرة؛ منها:

1 – أنَّهنَّ أحبُّ الكلام إلى الله:

فعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: " أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ "[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (أحب الكلام إلى الله تعالى)، أي: المتضمن للأذكار والأدعية (أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) لتضمنها تنزيهه تعالى – عن كلِّ ما يستحيل عليه، ووصفه بكلِّ ما يجب له من أوصاف كما له، وانفراده بوحدانيته، واختصاصه بعظمته وقدمه المفهومين من أكبريته ولتفصيل هذه الجملة علم آخر، (لا يضرك) أيُّها المتكلم بهنَّ في حيازة ثوابهنَّ (بأيهن بدأت)، فلا

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في موقع صيد الفوائد h$$ps://saaid.ne$/baho$h/198.h$m

(٢) صحيح مسلم – كتاب الآداب – باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه حديث رقم (٥٧٢٤) ٢/ ٩٣١.

ينقص ثوابها بتقديم بعضها على بعض؛ لاستقلال كلٍّ واحد من الجمل، لكنَّ الأفضل ترتيبها هكذا"[1].

٢ - أنَّ النبي ﷺ أخبر أنّهنَّ أحبُّ إليه مما طلعت عليه الشمس (أي من الدنيا وما فيها):

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن أقول: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[2].

قوله: "أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ"، أي: من الدنيا وما فيها من الأموال وغيرها.

قال الإمام ابن العربي - رحمه الله: أطلق المفاضلة بين قول هذه الكلمات، وبين ما طلعت عليه الشمس، ومن شرط المفاضلة استواء الشيئين في أصل المعنى، ثُمَّ يزيد أحدهما على الآخر.

وأجاب بما حاصله أفعل، قد يُراد به أصل الفعل لا المفاضلة، كقوله تعالى - "خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلا"، ولا مفاضلة بين الجنَّة والنَّار، وقيل: يحتمل أن يكون المراد: أنَّ هذه الكلمات أحبُّ إلي من أن يكون لي الدنيا فأتصدق بها، والحاصل أنَّ الثَّواب المترتب على قول هذا الكلام أكثر من ثواب من تصدق بجميع الدنيا[3].

٣ - ومن فضائلهنَّ: ما جاء عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: مرّ بي رسول الله ﷺ فقلتُ: إنِّي قد كبرتُ وضعُفت، أو كما قالتْ، فمُرني بعمل أعمله وأنا جالسة، قال: " سَبِّحِي اللَّهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاحْمَدِي اللَّهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ، تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ، تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكَبِّرِي اللَّهَ مِائَةَ تَكْبِيرَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ بَدَنَةٍ مُقَلَّدَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ، وَهَلِّلِي اللَّهَ مِائَةَ تَهْلِيلَةٍ، قَالَ ابْنُ خَلَفٍ: أَحْسِبُهُ قَالَ، تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يُرْفَعُ يَوْمَئِذٍ لِأَحَدٍ مِثْلُ عَمَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ مَا أَتَيْتِ بِهِ"[4].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٧٩.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء - حديث رقم (٧٠٢٢) ٢/ ١١٣٨.

(٣) تحفة الأحوذي: ١٠/ ٤٠.

(٤) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار - مسند النساء - حديث أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واسمها فاختة حديث رقم (٢٦٩١١) ٤٤/ ٤٧٩، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب حديث رقم (١٥٥٣).

٤ - **أَنَّهنَّ مكفِّرات للذنوب**: فعن عبد الله ابن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: "مَا عَلَى الْأَرْضِ رَجُلٌ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا كُفِّرَتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ"[١].

٥ - **أَنَّهنَّ غراس الجنَّة**: فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنَّه قال: "لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ"[٢].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله:(رأيت إبراهيم) الخليل (ليلة أسرى بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان) جمع قاع، وهو أرض مستوية لا بناء، ولا غراس فيها (وغراسها) جمع غرس، وهو ما يغرس: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)، أي: أعلمهم أنَّ هذه الكلمات تورث قائلها دخول الجنة، وأنَّ الساعي في اكتسابها لا يضيع سعيه؛ لأنَّها المغرس الذي لا يتلف ما استودع فيه[٣].

٦ - **أَنَّه ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام يكثر تكبيره وتسبيحه وتهليله وتحميده:**

فعن عبد الله بن شداد: أنَّ نفرًا من بني عُذْرَة ثلاثةً أتوا النبيَّ ﷺ فأسلموا قال: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَكْفِينِيهِمْ؟» قَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ: فَكَانُوا عِنْدَ طَلْحَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا فَخَرَجَ فيه أَحَدُهُمْ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بَعْثًا فَخَرَجَ فِيهِ آخَرُ فَاسْتُشْهِدَ، قَالَ: ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ، قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ هَؤُلاءِ الثَّلاثَةَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدِي فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ الْمَيِّتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَمَامَهُمْ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَخِيرًا يَلِيهِ، وَرَأَيْتُ الَّذِي اسْتُشْهِدَ أَوَّلَهُم آخِرَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ،

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح - حديث رقم (١٨٥٣) ١/ ٦٨٢، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترغيب(١٥٦٩).

(٢) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد - حديث رقم (٣٧٩٨) ٢/ ٨٩٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٤٦٢)، وصحيح الجامع (٥١٥٢).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٤٩.

قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلامِ لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ"[1].

٧ - أنَّ الله اختار هذه الكلمات واصطفاهنَّ لعِباده، ورتّب على ذِكر الله بهنّ أجورًا عظيمةً، وثوابًا جزيلًا:

فعن أبي هريرة وأبي سعيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنَّ رسول الله ﷺ قال: " إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - اصْطَفَى مِنَ الْكَلَامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ"، قَالَ: "وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ كُتِبَ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ عِشْرُونَ سَيِّئَةً، وَمَنْ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَ لَهُ بِهَا ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً"[2].

٨ - أنَّهنَّ جُنّةٌ لقائلهنَّ من النَّار، ويأتين يوم القيامة مُنجيات لقائلهنَّ ومقدّمات له:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: "لَا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ"[3].

٩ - أنَّهنَّ يَنعَطِفْن حول عرش الرحمن ولهنَّ دويٌّ كدويِّ النَّحل، يذكرن بصاحبهنّ:

فعن النعمان بن بَشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟»[4].

---

(١) مسند أحمد - مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة - مسند أبي محمد طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (١٤٠١) ٣/ ١٩، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣٣٦٧)، وصحيح الجامع (٥٣٧١).

(٢) مسند أحمد - ومن مسند بني هاشم - مسند أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٨٠١٢) ١٣/ ٣٨٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧١٨).

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح - حديث رقم (١٩٨٥) ١/ ٧٢٥، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٦٧).

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الأدب - باب فضل التسبيح - حديث رقم (٣٩٤١) ١/ ٥٤٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٨٧٧).

قوله: "يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ" أي: يدرن، والدوي الصوت الخفي، قوله: "تذكره بصاحبها" أي: تذكر ربه بحال صاحبها فكأنها شواهد عليه ثم بيّن ﷺ بالتصريح "أما يحب أحدكم" استفهام إنكار فكأنه قال: إنه مع هذه الفضيلة كيف ينسى أحدكم يغفل عن هذا الذكر"[1].

١٠ - أنَّ النبي ﷺ أخبر أنَّهنَّ ثقيلاتٌ في الميزان:

فعن أبي سلمى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راعي رسول الله ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بَخٍ بَخٍ وَأَشَارَ بِيَدِهِ بِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ»[2].

١١ - أنَّ للعبد بقول كلِّ واحدة منهنَّ صدقة:

فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: "أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"[3].

قال الإمام النووي - رحمه الله: قوله: "بكل تسبيحة صدقة" قال القاضي: يحتمل تسميتها صدقة أن لها أجرًا كما للصدقة أجر، وأن هذه الطاعات تماثل الصدقات في

---

(١) شرح سنن ابن ماجه السيوطي وآخرون، ١/ ٢٧٠، ط/ الناشر: قديمي كتب خانة - كراتشي.

(٢) صحيح ابن حبان - كتاب الرقائق - باب الأذكار - ذكر استحباب الإكثار للمرء من التسبيح والتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير لله حديث رقم (٨٣٣) ٣/ ١١٤، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢٠٠٩، ١٥٥٧).

(٣) صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف - حديث رقم (٢٣٧٦) ١/ ٣٩٦.

الأجور، وسماها صدقة على طريق المقابلة، وتجنيس الكلام، وقيل: معناه أنها صدقة على نفسه"[1]، وقال: "وفي هذا الحديث فضيلة التسبيح وسائر الأذكار..."[2].

١٢ - أنَّ النَّبي ﷺ جعلهنَّ عن القرآن الكريم في حقِّ من لا يُحسنه: فعن ابن أبي أوفى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فَمَا يُجْزِينِي فِي صَلَاتِي، قَالَ: "تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، قَالَ: هَذَا لِلَّهِ فَمَا لِي؟، قَالَ: "تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلَأَ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ وَقَبَضَ كَفَّيْهِ»[3].

ومن خلال ما تقدم: يتبين لنا فضل هذه الكلمات الأربع سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأن لها فضائل عديدة ينبغي أن نحافظ عليها.

(١) شرح النووي على مسلم: ٧/ ٩١.

(٢) المرجع السابق: ٧/ ٩٣.

(٣) سنن الدارقطني - كتاب الصلاة - باب ما يجزيه من الدعاء عند العجز عن قراءة فاتحة الكتاب - حديث رقم (٢) ١/ ٣١٤، ط/ دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.

فَضَائِلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَآدَابُهُ

القرآن الكريم هو كلام الله عزَّ وجلَّ - المعجز الذي أنزله من فوق سبع سماوات على النبي ﷺ ليكون دستورًا ومنهجًا لأمة الإسلام في العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات، وقد تعبدنا الله عزَّ وجلَّ - بتلاوته في الصلوات، وكذلك بيّن النبي ﷺ لنا ثوابه قراءته وحفظه وتعليمه، وفيما يلي بيان فضل القرآن الكريم، وبيان ثواب تلاوته، وما هي الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها قارئ القرآن الكريم.

فضل القرآن الكريم في القرآن الكريم:

إنَّ المتأمل في القرآن الكريم يجد أنَّ الله سبحانه وتعالى - سماه نورًا؛ لأنَّ القلوب لا تضيء ولا تشرق إلا به، قال - تعالى -: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[2].

القرآن الكريم شفاء، قال - جلَّ وعلا -: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾[3].

في القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان فأشرقت، وتفتحت لتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان.

في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة، فهو يصل القلب بالله، فيرضى ويستروح الرضا من الله، والرضا عن الحياة، والقلق مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء، ومن ثَمَّ هو رحمة للمؤمنين.

---

(١) سورة الشورى: الآية: ٥٢.

(٢) سورة المائدة: الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية: ٨٢.

وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان.

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير فهو يعصم العقل من الشطط.

وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء المجتمعات[1].

القرآن هداية، قال المولي - جل جلاله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[2].

فضل القرآن الكريم في السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة:

إنِّ الناظر والمتأمل في السنة النبوية المطهرة يجد أن هناك أحاديث كثيرة في فضل القرآن الكريم، والحث على حفظه، وقراءته، وتعلمه، وتعليمه، وثواب تلاوته، ومن ذلك ما روي عن علي بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، فَقُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "كِتَابُ اللَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى، قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"[3].

وعن أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله أوصني قال: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»[4].

---

(١) ري الظمآن: ص١٦٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٩.

(٣) سنن الدارمي - كتاب فضائل القرآن - باب: فضل من قرأ القرآن - حديث رقم (٣٣٣١) ٢/ ٥٢٦، وقال حسين سليم أسد: في إسناده مجهولان أبو المختار سعد الطائي، وابن أبي الحارث.

(٤) صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان - باب ما جاء في الطاعات وثوابها - ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ رجاء - حديث رقم (٣٦١) ٢/ ٧٦، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٤٢٢).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»[1].

وعن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[2].

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[3].

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنَّ النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»[4].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[5].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله: (إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ) أي بالإيمان بالقرآن، وتعظيمه، والعمل به، قال الطيبي: أطلق الكتاب على القرآن ليثبت له الكمال؛ لأن اسم الجنس إذا أطلق على فرد من أفراده يكون محمولًا على كماله وبلوغه إلى حد هو الجنس كله كأن غيره ليس منه (أَقْوَامًا) أي درجة أقوام ويكرمهم في الدارين (وَيَضَعُ) يذل (بِهِ آخَرِينَ) وهم من لم يؤمن به أو أمن ولم يعمل به"[6].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن - حديث رقم (١٩١٠) ١/ ٣١٧.

(٢) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل قراءة القرآن - حديث رقم (١٩١٢) ١/ ٣١٧.

(٣) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه حديث رقم (٥٠٧٩) ٣/ ١٠٥٥.

(٤) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل الماهر في القرآن - حديث رقم (١٨٩٨) ١/ ٣١٥.

(٥) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل من يقوم بالقرآن - حديث رقم (١٩٣٥) ١/ ٣٢١.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٥٥٣.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١).

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله: "والحديث فيه التصريح بأن قاري القرآن له بكل حرف منه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولما كان الحرف فيه يطلق على الكلمة المتركبة من حرف أوضح النبي ﷺ، إن المراد هنا الحرف البسيط المنفرد لا الكلمة، وهذا أجر عظيم وثواب كبير ولله الحمد"(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً"(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنْ خَلْقِهِ» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنَّ النبي ﷺ قال: "يُقَالُ - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ -: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا"(٥).

---

(١) سنن الترمذي - كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر - حديث رقم (٣١٥٨) ٢/ ٧٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٩١٠).

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ٢١٢.

(٣) سنن الترمذي - كتاب فضائل القرآن - الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب - حديث رقم (٣١٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٩١٥).

(٤) سنن ابن ماجه المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ - باب فضل من تعلم القرآن وعلمه حديث رقم (٢٢٠) ١/ ٣٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٢١٤).

(٥) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب استحباب الترتيل في القراءة - حديث (١٤٦٦) ١/ ٢٥١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (١٤٦٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النبي ﷺ قال: "الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ "، قَالَ: «فَيُشَفَّعَانِ»[1].

"قيل: يحتمل تجسيدهما وخلق النطق فيهما فإن المعاني والأعمال تتجسم يوم القيامة، ويحتمل إرسال ملك ينطق على لسانهما، ويحتمل المجاز والتمثيل أي يشفعان بلسان الحال. قال الطيبي: الشفاعة والقول من الصيام والقرآن إما أن يؤل أو يجري على ما عليه النص وهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم، فإن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل عن إدراك العوالم الإلهية. ولا سبيل لنا إلا الإذعان له والإيمان به، ومن تأول ذهب إلى أنه استعيرت الشفاعة والقول للصيام والقرآن لإطفاء غضب الله وإعطاء الكرامة ورفع الدرجات والزلفى عند الله"[2].

من أقوال السَّلف في فضل القرآن وأهله:

قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم"[3].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من أراد أن يعلم أنَّه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحب القرآن فهو يحب الله، فإنَّما القرآن كلام الله جل جلاله "[4].

وقال خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "تقرب إلى الله ما استطعتَ فإنَّك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه"[5].

وقال الفضيل بن عياض – رحمه الله: "كفى بالله محبًا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا، اتخذ الله صاحبًا، ودع الناس جانبًا"[6].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم – مسند عبد الله بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – حديث رقم (٦٦٢٦) ١١/ ١٩٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٨٨٢).

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٦/ ٤١٦.

(٣) حلية الأولياء: ٧/ ٣٠٠.

(٤) المعجم الكبير للطبراني – من اسمه عبد الله عبد الله بن مسعود الهذلي، رقم (٨٦٥٧) ٩/ ١٣٢.

(٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب التفسير – تفسير سورة السجدة رقم (٣٦٥٢) ٢/ ٤٧٩.

(٦) إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٢٢، الزهد الكبير: للبيهقي ١/ ٢١٦. شعب الإيمان للبيهقي – معاني المحبة – رقم (٤٥١) ١/ ٣٧٧.

وقال أيضًا: "من لم يستأنس بالقرآن فلا آنس الله وحشته"[1].

وعن عبد الله بن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "ضمن الله عزَّ وجلَّ - لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب، ذلك بأنَّ الله تعالى - يقول: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [2].

وقال كعب الأحبار: "عليكم بالقرآن، فإنَّه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب عهدًا بالرحمن"[3].

وقال محمد بن واسع - رحمه الله: "القرآن بستان العارفين، فأينما حلَّوا منه، حلَّوا في نزهة"[4].

وقيل لمريد: أتحفظ القرآن فقال: لا فقال: واغوثاه بالله مريد لا يحفظ القرآن كأترجة لا ريح لها فبم يتنغم فبم يترنم فبم يناجي ربه، أما علمت أن عيش العارفين سماع النغم من أنفسهم ومن غيرهم؟[5].

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إنَّ البيت ليتسع على أهله، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويكثر خيره أن يقرأ فيه القرآن، وإنَّ البيت ليضيق على أهله، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، ويقل خيره أن لا يقرأ فيه القرآن"[6].

وقال عبد الملك بن عمير: "كان يقال: إن أبقى الناس عقولًا قُرَّاء القرآن"[7].

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي: ٣/ ٣٣٩.

(٢) سورة طه: الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سنن الدارمي - ومن كتاب فضائل القرآن - باب فضل من قرأ القرآن - رقم (٣٣٢٧) ٢/ ٥٢٥، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

(٤) حلية الأولياء: ٢/ ٣٤٧.

(٥) المرجع السابق: ١٠/ ٣٤٣.

(٦) سنن الدارمي - ومن كتاب فضائل القرآن - باب فضل من قرأ القرآن - رقم (٣٣٠٩) ٢/ ٥٢٢، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح وهو موقوف على أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة - باب في فضل من قرأ القرآن - رقم (٢٩٩٥٦) ٦/ ١٢٠.

وقال قتادة: "لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام بزيادة أو نقصان، قضاء الله الذي قضى "شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا"[1].

وقال أحمد بن أبي الحواري - رحمه الله: "سمعت ابن عينية يقول: "لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله عزَّ وجلَّ -، فمن أحب القرآن فقد أحب الله عزَّ وجلَّ - افقهوا ما يقال لكم"[2].

وقال مالك بن دينار - رحمه الله: "يا حملة القرآن ماذا غرس القرآن في قلوبكم، فإنَّ القرآن ربيع المؤمن، كما أنَّ الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحش فيكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة، أين أصحاب سورتين؟، ماذا عملتم فيها؟؟"[3].

الأدب مع القرآن الكريم:

هناك العديد من الآداب التي ينبغي على قارئ القرآن الكريم أن يتحلى بها، منها: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ -، وأن يكون القارئ على طهارة، وأن يلبس القارئ أفضل الثياب، وأن يستعيذ القارئ بالله من الشيطان الرجيم، والبسملة، وترتيل القرآن تحسين الصوت عند تلاوة القرآن، وأن يعتني بالسور التي ورد لها فضل فيكثر من قراءتها، وفيما يأتي بيانها بشيء من التفصيل:

١ - الإخلاص لله عزَّ وجلَّ -:

لأنَّ الإخلاص هو روح الأعمال، وهو كمالها، وسبب قبولها، ولما سئل أحد الصالحين: ما غاية الإخلاص؟ قال: ألا تحب محمدة الناس.

وورد في الحديث: "أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٥.

(٢) حلية الأولياء: ٧/ ٢٧٨.

(٣) الزهد: لأحمد بن حنبل ١/ ٣١٩.

اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ... "[1].

٢ - أن يكون القارئ على طهارة:

فالطهارة من لوازم الأدب لقراءة القرآن الكريم، قال - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

٣ - أن يلبس القارئ أفضل الثياب:

قال - تعالى -: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

والمراد بالمسجد هنا قيل: كل صلاة، وقيل: المراد عند كل عبادة، ولا شك أنَّ قراءة القرآن من أعظم وأكرم العبادات وأفضلها.

٤ - أن يستعيذ القارئ بالله من الشيطان الرجيم:

قال - سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[4]، أي: إذا أردت قراءة القرآن، والأمر هنا محمول على الندب، وهو الأصح.

٥ - البسملة:

فيجب على القارئ أن يحافظ على قراءة البسملة عند ابتداء القراءة من أول السورة عدا سورة «براءة»، فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يعرف انقضاء السورة، والشروع في غيرها بالبسملة، إلا في هذه السورة بالذات.

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في الرياء والسمعة - حديث رقم (٢٥٥٧) ٢/ ٦٠٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٨٢).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: ٧٧ - ٨٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ٣١.

(٤) سورة النحل: الآية: ٩٨.

والسُّنة أن يقطع البسملة عمَّا بعدها، أي: يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثُمَّ يتوقف، ثُمَّ يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ثُمَّ يتوقف، ثم يبدأ بقراءة السورة التي يريد قراءتها، فإذا أردتَ أن تقرأ من وسط السورة مثلًا فيكتفي بالاستعاذة.

٦ - ترتيل القرآن:

قال - تعالى -: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[١]، والترتيل هو قراءته على مهل مع تدبر وتفهم لحروفه، بحيث يتمكن السامع من عدها.

وقال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[٢].

قال الإمام الغزالي - رحمه الله: «تلاوة القرآن حق تلاوته: أن يشترك فيها اللسان بتصحيح الحروف، والعقل بتفسير المعاني، والقلب بالاتعاظ، فاللسان يرتل، والقلب يتعظ»[٣].

٧ - تحسين الصوت عند تلاوة القرآن:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»[٤].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: (زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)[٥]، وأخرج الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَ قِرَاءَةَ رَجُلٍ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قِيلَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[٦].

---

(١) سورة المزمل: الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٢١.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨٧.

(٤) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب من لم يتغن بالقرآن - حديث رقم (٥٠٧٥) ٣/ ١٠٥٥، صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن - حديث رقم (١٨٨٥) ١/ ٣١٣.

(٥) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب استحباب الترتيل في القراءة - حديث رقم (١٤٧٠) ١/ ٢٥١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (١٤٦٨).

(٦) مسند أحمد - ومن مسند بني هاشم - مسند أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٢٢٩٦٩) ٣٨/ ٦٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢١٠٤).

٨ - أن يعتني بالسور التي ورد لها فضل فيكثر من قراءتها:

كسورة الإخلاص مثلًا، فقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن سعد بن مالك بن سنان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال لأصحابه: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ القُرْآنِ»(١).

قال بعض العلماء: إنَّ القرآن أنزل أثلاثًا: ثلثًا منه وعد ووعيد، وثلثًا منه أسماء وصفات، وقد جمع قل هو الله أحد ثلثًا، وهو الأسماء والصفات.

ومثل سورة الكهف: فقد ورد في فضلها أحاديث منها ما جاء عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ"(٢).

ومثل آية الكرسي: كما جاء عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»(٣).

ومثل سورة الفاتحة: كما أخرج الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ»(٤).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب فضل قل هو الله أحد - حديث رقم (٥٠٦٧) ٣/ ١٠٥٣.

(٢) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل سورة الكهف - حديث رقم (١٩١٩) ١/ ٣١٨.

(٣) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب فضل سورة الكهف - حديث رقم (١٩٢١) ١/ ٣١٩.

(٤) مسند أحمد - ومن مسند بني هاشم - مسند أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٨٦٨٢) ١٤/ ٣١٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٠٧٩).

٩ - استحباب طلب القراءة من حسن الصوت:

فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال له: «اقْرَأْ عَلَيَّ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قَالَ: فَرَأَيْتُ عَيْنَيِ النَّبِيِّ ﷺ تَهْمِلَانِ[١].

١٠ - أن يمسك عن القراءة إذا تثاءب:

فإذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضي التثاؤب ثم يقرأ.. قال مجاهد: وهو حسن، ويدل عليه ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ»[٢].

١١ - أنَّه إذا مر بآية سجدة سجد:

جمهور العلماء على أنَّ سجود التلاوة سنة، وليس بواجب لما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأَ يَوْمَ الجُمُعَةِ عَلَى المِنْبَرِ بِسُورَةِ النَّحْلِ حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ نَزَلَ، فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الجُمُعَةُ القَابِلَةُ قَرَأَ بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ، فَقَدْ أَصَابَ وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ، فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[٣]، وهو المجمع عليه.

وثبت في الصحيحين عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه قرأ على النبي ﷺ (النجم) فلم يسجد[٤].

وثبت أيضًا أنَّه سجد في النجم[٥]؛ فدلَّ على أنَّه ليس بواجب.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب قول المقرئ للقارئ حسبك - حديث رقم (٥١٠٤) ٣/ ١٠٥٩.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب تشميت العاطس - حديث رقم (٧٦٨٤) ٢/ ١٢٥٧.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجمعة - أبواب سجود القرآن - باب من رأى أن الله عزَّ وجلَّ - لم يوجب السجود - حديث رقم (١٠٨٥) ١/ ٢٠٤.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الجمعة - أبواب سجود القرآن - باب من قرأ السجدة ولم يسجد - حديث رقم (١٠٨٠) ١/ ٢٠٤، صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب سجود التلاوة - حديث رقم (١٣٢٦) ١/ ٢٣٠.

(٥) صحيح ابن حبان - باب الإمامة والجماعة - باب الحدث في الصلاة - ذكر ما يستحب للمرء إذا قرأ سورة النجم استعمال السجود لله حديث رقم (٢٧٦٣) ٦/ ٤٦٩.

١٢ - أن يتدبر القارئ في قراءته:

قيل لبعض السلف: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بأي شيء؟ فقال: أهناك شيء أحب إليَّ من كلام ربي حتى أحدث به نفسي[١].

وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلًا له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها[٢].

التحذير من هجر القرآن:

قال الله تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[٣].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنَّه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره، وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب، وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله تعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[٤]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٨١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٨١.

(٣) سورة الفرقان: الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٤) سورة الفرقان: الآية: ٣٠.

(٥) الفوائد: لابن القيم ص٩٤.

هجر سماع القرآن الكريم: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

فأين نحن من سماع القرآن الكريم؟ انظر إلى المسلمين في هذه الأيام ما الذي يسمعونه؟ يسمعون الغناء، والشعر الماجن الذي حرمه الله عزَّ وجلَّ -، ورسوله ﷺ قال - تعالى -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾(٢).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتسع بأهله، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويكثر خيره، وإنَّ البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يضيق بأهله، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، ويقل خيره.

ومن هَجْرِ القرآن الكريم هجر تلاوته حق التلاوة وإتباع أحكامه قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾(٣).

هجر تدبر القرآن الكريم: قال - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾(٤).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يقول - تعالى - آمرًا لهم بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنَّه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض؛ لأنَّه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (٨٤٩٤) ١٤/ ١٩١، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (٥٤٠٨).

(٢) سورة لقمان: الآيتان: ٦، ٧.

(٣) سورة البقرة: الآية: ١٢١.

(٤) سورة النساء: الآية: ٨٢.

(٥) تفسير ابن كثير: ١/ ٦٥٤.

وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحدًا من الخلائق لا يقدر عليه[1].

وقال - تعالى -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[2].

قال الحسن البصري - رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه صبيان وعبيد لا علم لهم بتأويله ولم يأتوا الأمر من قبل أوله»، وقال: « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته»، وما تدبر آياته إلا اتباعه بعلمه، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: والله لقد قرأتُ القرآن كله وما أسقط منه حرفًا واحدًا وقد أسقطه كله، ما ترى له في القرآن من خلق ولا عمل، وحتى أن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الورعة، ومتى كان القراء يقولون مثل هذا ؟ لا كثرَ الله في المسلمين من هؤلاء»[3].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[4].

وروى مالك عن نافع عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: "تعلم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورًا لله"[5].

وطول هذه المدة ليس عجزًا من عمر، ولا انشغالًا عن القرآن؛ فما بقي إلا أنَّه التدبر.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٤٤.

(٢) سورة ص: الآية: ٢٩.

(٣) مصنف عبد الرزاق الصنعاني - كتاب صلاة العيدين - باب تعاهد القرآن ونسيانه برقم (٥٩٨٤) ٣ ٣٦٣، أخلاق حملة القرآن للآجري - باب أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله عزَّ وجلَّ - برقم (٣٤) ١/ ٣٩، ط/ دار الصفا والمروة بالإسكندرية، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ ٢٠٠٥م، أبو محمد أحمد شحاتة السكندري، الزهد والرقائق لابن المبارك - باب ما جاء في ذم التنعم في الدنيا برقم (٧٩٣)، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

(٤) تفسير الطبري - ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن، رقم (٨١) ١/ ٨٠.

(٥) مناقب عمر بن الخطاب: لابن الجوزي، ص ١٩١.

وعن مسروق قال: "قال رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري صلى ليلة حتى أصبح، أو كاد يقرأ آية يرددها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

وقال أبو سليمان الداراني: «كان علي بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ولا تُقرأ عليه»[2].

وكان علي بن الفضيل بن عياض - رحمه الله يقرأ في سورة الأنعام حتى بلغ قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، فظل يرددها حتى مات فبكى عليه والده الفضيل، وقال: أي ابناه والله ما قتل ابني إلا الخوف من عذاب الله، وسمي قتيل القرآن»[4].

ومن هَجْرِ القرآن الكريم هجر تحكيمه بين الناس والتحاكم إلى كلامه سبحانه وتعالى -، قال - تعالى -: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[5].

وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[6].

فأين أمة القرآن من التحاكم والحكم بالقرآن الكريم في المجالس العرفية، انظر كيف يحكم المسلمون بين بعضهم البعض.

---

(١) سورة الجاثية: الآية: ٢١.

(٢) الرقة والبكاء: ص ٢٠٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية: ٢٧.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٤٦٧.

(٥) سورة المائدة: الآية: ٤٩.

(٦) سورة النساء: الآية: ٥٩.

ومن هَجْرِ القرآن الكريم هجر التداوي به، فالقرآن الكريم شفاء من الأمراض الظاهرة والباطنة؛ قال – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾(١).

وقال – تعالى –: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾(٢).

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها»(٣).

وقال الحسن البصري – رحمه الله: «والله ما دون القرآن من غنى، ولا بعد من فاقة»(٤).

وقال عمرو بن ميمون: «من نشر مصحفًا حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عزَّ وجلَّ – له مثل عمل جميع أهل الدنيا»(٥).

ثمرات قراءة القرآن الكريم:

لقراءة القرآن من الثّمرات ما لا يحصى، وقد جاءت بذلك الأحاديث الصّحيحة، والآثار الواردة عن الصّحابة والتّابعين، وهي كما يأتي(٦):

١ – إنّ قارئ القرآن في مصافّ العظماء ومن أفضل النّاس، وأعلاهم درجة.

٢ – يكتسب القارئ عن كلّ حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها.

٣ – تشمل القارئ ظلّة الرّحمة ويحاط بالملائكة وتتنزّل عليه السّكينة.

٤ – يضيء اللّه قلب القارئ، ويقيه ظلمات يوم القيامة ويبعد عنه الشّدائد.

٥ – القارئ رائحته زكيّة ومذاقه حلو كالأترجّة، ومن هنا فهو جليس صالح يقترب

---

(١) سورة الرعد: الآية: ٢٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٨٢.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٤٦٢.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٤٥١.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٤٥١.

(٦) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٤/ ١١٨٢.

إليه الصّالحون العاملون ليشمّوا منه عطره، وينفحوا من شذاه.

٦ – قارئ القرآن لا يحزنه الفزع الأكبر لأنّه في حماية اللّه ولأنّ القرآن يشفع له.

٧ – قارئ القرآن سبب في رحمة والديه، وإغداقهما بالنّعيم ويمدّهما اللّه بالأنوار المتلألئة جزاء قراءة ابنهما.

٨ – قارئ القرآن يرقى إلى قمّة المعالي في الجنّة ويصعد إلى ذروة النّعيم.

٩ – يغبط الصّالحون قارئ القرآن ويتمنّون أن يكونوا في درجته السّامية عند اللّه تعالى، ويودّون أن يعملوا مثله.

١٠ – قارئ القرآن تدعو له الملائكة الكرام بالرّحمة والمغفرة.

١١ – قارئ القرآن مستمسك بالعروة الوثقى، ويتمتّع بالشّفاء النّاجع ويعصم من الزّيغ، وينجو من الشّدائد.

١٢ – قارئ القرآن من أهل اللّه وخاصّته المتقرّبين إليه، ومن العاملين الشّغوفين بطاعة اللّه والقانتين له.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الثّمار ثمرات أخرى يانعة منها[1]:

١٣ – قارئ القرآن يرتفع به درجات في الدّنيا أيضًا إذ يرفع اللّه به أقوامًا ويخفض آخرين (ممّن أعرضوا عنه أو هجروه).

١٤ – قارئ القرآن يكتب عند اللّه من الذّاكرين والقانتين.

١٥ – قارئ القرآن ممّن يشهد لهم رسول اللّه ﷺ يوم القيامة.

١٦ – الماهر بالقرآن يبعث يوم القيامة مع السّفرة الكرام البررة.

١٧ – قارئ القرآن تبتعد عنه الشّياطين وتخرج من بيته.

١٨ – قارئ القرآن يستنير عقله ويمتلئ قلبه بالحكمة وتتفجّر منه ينابيع العلم.

١٩ – قارئ القرآن فيه قبس من النبوّة (غير أنّه لا يوحى إليه).

٢٠ – حامل القرآن لا يجهل مع من يجهل لأنّ القرآن في جوفه يحميه من الحدّة والغضب.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٤/ ١١٨٣.

٢١ – بالقرآن الكريم تعمر القلوب والبيوت، ويعمّها الخير والبركة.

٢٢ – قراءة القرآن تورث القلب خشوعا والنّفس صفاء.

٢٣ – قارئ القرآن يسأل اللّه به فيجيبه فضلًا منه وكرمًا.

٢٤ – أهل القرآن يذكرهم اللّه فيمن عنده وكفى بذلك فضلًا وشرفًا.

٢٥ – في القرآن غنى لأهله تسعد به قلوبهم كما يسعد صاحب الأموال بما له، وهو غنى لا دخل فيه.

فَضَائِلُ الدُّعَاءِ وَآدَابُهُ

فمَّما لاشك فيه أنَّ للدعاء فضائل كثيرة في القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، فالدعاء سلاح المؤمن، ونور السماوات والأرض، والدعاء هو العبادة، والدعاء به تزال الهموم، وتفرج الكروب.

فضل الدعاء في القرآن الكريم:

إنَّ المتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ ربنا - تبارك وتعالى - قد أرشد عباده المؤمنين إلى سؤاله ودعائه وحده لا شريك له في آيات كثيرة من كتابه الكريم؛ منها:

قوله عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

سبب نزول هذه الآية: روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال يهود أهل المدينة يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا؟، وأنت تزعم أنَّ بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام، وأنَّ غلظ كل سماء مثل ذلك؛ فنزلت هذه الآية[2].

وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله تعالى -: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٨٦.

(٢) تفسير البغوي: ١/ ١٥٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٥٥.

(٤) سورة غافر: الآية: ٦٠.

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ" ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح فدل هذا على أنَّ الدعاء هو العبادة، وكذا قال أكثر المفسرين(١).

وأنَّ المعنى: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم وقيل: هو الذكر والدعاء(٢).

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله: هذا من فضله تبارك وتعالى – وكرمه أنَّه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، وكان سفيان الثوري يقول: "يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يارب"(٣).

وقال – تعالى –: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾(٤).

ذكر الإمام القرطبي – رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذه الأقوال عن السلف: قال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: هو ذو الضرورة المجهود، وقال السدي: الذي لا حول له ولا قوة، وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عمَّا دون الله، وقال أبو جعفر، وأبو عثمان النيسابوري: هو المفلس، وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعيًا لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها، وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر قال: إذًا فاسأله فإنَّه يجيب المضطر(٥).

وقال صاحب الفوائد: "ما من مضطر دعا إلا أجيب وأعيد نفع دعائه إليه، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة، وذلك أنَّ الدعاء طلب شيء، فإن لم يعط ذلك الشيء بعينه يعط ما هو أجل منه، أو إن لم يعط هذا الوقت يعط بعده"(٦).

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٣٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٨٥.

(٤) سورة النمل: الآية: ٦٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢٢٣.

(٦) روح المعاني: ٢٠/ ٦.

وانظر إلى كرم الله تعالى - الذي إذا لم يُسأل يغضب، قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

فضل الدعاء في السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة:

جاءت أحاديث كثيرة عن المصطفى - صلوات الله عليه وسلامه تبيِّن لنا فضل الدعاء، وكيفيته؛ منها:

ما أخرجه الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنَّ النبي ﷺ قال: (أَفْضَلُ العِبَادَةِ الدُّعَاءُ)[2].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ"[3].

قال ملا علي القاري: "الدعاء هو العبادة، أي: هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة؛ لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عمَّا سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائمًا بوجوب العبودية، معترفًا بحق الربوبية، عالمًا بنعمة الإيجاد، طالبًا لمدد الإمداد على وفق المراد، وتوفيق الإسعاد، ثُمَّ قرأ: "وقال ربكم أدعوني أستجب لكم"، قيل: استدل بالآية على أنَّ الدعاء عبادة؛ لأنَّه مأمور به، والمأمور به عبادة، وقال القاضي استشهد بالآية؛ لدلالتها على أنَّ المقصود يترتب عليه ترتيب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، ويكون أتم العبادات، ويقرب من هذا قوله: مخ العبادة، أي: خالصها، وقال الراغب: لعبودية إظهار التذلل، ولا عبادة أفضل منه؛ لأنَّها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالى -.

وقال الطيبي - رحمه الله: "يمكن أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي، وهو غاية التذلل والافتقار والاستكانة، وما شرعت العبادة إلا للخضوع للباري - سبحانه وإظهار الافتقار إليه، وينصر هذا التأويل ما بعد الآية المتلوة: "إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي

---

(١) سورة الأنعام: الآية: ٤٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم - بسم الله الرحمن الرحيم أول كتاب المناسك - كتاب الدعاء - حديث رقم (١٨٠٥) ١/ ٦٦٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١١٢٢).

(٣) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب الدعاء - حديث رقم (١٤٨١) ١/ ٢٥٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (١٤٧٩).

سيدخلون جهنم داخرين"؛ حيث عبر عن عدم الافتقار والتذلل بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي وجعل جزاء ذلك الاستكبار الهوان"[1].

وأخرج الترمذي عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي أَنْ يَرْفَعَ الْعَبْدُ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صَفرًا»[2].

قال الإمام بدر الدين العيني – رحمه الله: قوله عليه السَّلام –: "إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفرًا": حتى يضع فيهما خيرًا، وهذا جارٍ على سبيل الاستعارة التبعية التمثيلية، شبه ترك الله تعالى – تخييب العبد ورد يديه صفرًا بترك الكريم رد المحتاج حياء، فقيل: ترك الله رد المحتاج حياء، كما قيل ترك الكريم رد المحتاج حياء، فأطلق الحياء ثمة، كما أطلق الحياء ههنا، فذلك استعير ترك المستحي لترك ضرب المثل ثم نفى عنه[3].

وأخرج الترمذي عن ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ»[4].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ:(الدعاء ينفع مما نزل): من المصائب والمكاره، أي: يسهل تحمل البلاء النازل فيصيره كأنه لم ينزل، أو يرضيه حتى لا يتمنى خلافه، (ومما لم ينزل) من ذلك؛ فيمنع نزوله بالمعنى المقرر، (فعليكم عباد الله) بحذف حرف النداء (بالدعاء)، أي: الزموه واجتهدوا فيه، وداوموه، وكفى بك شرفًا أن تدعوه فيجيبك ويختار لك ما هو الأصلح[5].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ١١٩ وما بعدها.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب إن الله حيي كريم – حديث رقم (٣٩٠٤) ٢/ ٩١١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٥٦).

(٣) عمدة القاري: ١/ ١٧٧.

(٤) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة – حديث رقم (٣٨٩٣) ٢/ ٩٠٩، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٦٣٤).

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٢١.

وقال ملا علي القاري – رحمه الله: قوله ﷺ: إنَّ الدعاء ينفع ممَّا نزل، أي: من بلاء نزل، بالرفع إن كان معلقًا، وبالصبر إن كان محكمًا؛ فيسهل عليه تحمل ما نزل به من البلاء؛ فيصبره عليه أم يرضيه به حتى لا يكون في نزوله متمنيًا خلاف ما كان، بل يتلذذ بالبلاء كما يتلذذ أهل الدنيا بالنعماء، وممَّا لم ينزل بأن يصرفه عنه ويدفعه منه أو يمده قبل النزول بتأييد من عنده يخف معه أعباء ذلك إذا نزل به، قال الغزالي: فإن قيل: فما فائدة الدعاء مع أنَّ القضاء لا مرد له فاعلم أنَّ من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة، كما أنَّ الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أنَّ الترس يدفع السهم فيتدافعان، كذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح، وقد قال – تعالى – في سورة النساء: "وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم"، فقدر الله الأمر وقدر سببه، وفي الدعاء من الفوائد من حضور القلب والافتقار، وهما نهاية العبادة وغاية المعرفة، فعليكم، أي: إذا كان هذا شأن الدعاء فالزموا عباد الله، أي: يا عباد الله بالدعاء؛ لأنَّه من لوازم العبودية التي هي القيام بحق الربوبية[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[2].

قال الطيبي: وذلك؛ لأنَّ الله يحب أن يسأل من فضله، فمن لم يسأل الله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه لا محالة[3].

قوله: (من لم يسأل الله يغضب عليه)؛ لأن ترك السؤال تكبر واستغناء، وهذا لا يجوز للعبد ولنعم ما قيل: الله يغضب إن تركت سؤاله وترى ابن آدم حين يسأل يغضب[4].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ١٢٣.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب من لم يسأل الله يغضب عليه حديث رقم (٣٧٠٠) ٢/ ٨٦٧، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٣٧٣).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧/ ١٢٥.

(٤) مشكاة المصابيح: ٧/ ٧١٧.

رَحِم، مَا لَمْ يَعْجَلْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا اسْتِعْجَالُهُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[1].

قال المظهري – رحمه الله: من له ملالة من الدعاء لا يقبل دعاؤه؛ لأنَّ الدعاء عبادة حصلت الإجابة أو لم تحصل، فلا ينبغي للمؤمن أن يمل من العبادة وتأخير الإجابة، إما لأنَّه لم يأت وقتها، وإمَّا لأنَّه لم يقدر في الأزل قبول دعائه في الدنيا ليعطى عوضه في الآخرة، وإمَّا أن يؤخر القبول ليلح ويبالغ في ذلك، فإنَّ الله يحب الملحين في الدعاء مع ما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له[2].

وأخرج البيهقي عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ، وَأَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ"[3].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (إنّ أبخل الناس من بخل بالسلام): ابتداء وجوابًا؛ لأنَّه لفظ قليل لا كلفة فيه، وأجره جزيل، فمن بخل به مع عدم كلفته فهو أبخل الناس، وقوله: (وأعجز الناس من عجز عن الدعاء)، أي: الطلب من الله تعالى؛ حيث سمع قول ربه ادعوني فلم يدعه مع فاقته، وعدم المشقة عليه فيه[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الدُّعَاءِ»[5].

---

(١) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب في انتظار الفرج وغير ذلك – حديث رقم (٣٩٢٢) ٢/ ٩١٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٧٣).

(٢) شرح الزرقاني على موطأ مالك: لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، ٢/ ٤٨، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي – التاسع والثلاثون من شعب الإيمان – الحادي والستون من شعب الإيمان وهو باب في مقاربة أهل الدين – حديث رقم (٨٧٦٩) ٦/ ٤٢٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠٤٤).

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير: للإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، ١/ ٦١٦، ط/ مكتبة الإمام الشافعي بالرياض ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٥) سنن ابن ماجه كتاب الدعاء – باب فضل الدعاء حديث رقم (٣٩٦١) ١/ ٥٤٩، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٣٨٩٧).

من أقوال السَّلف في الدعاء:

عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنّ الدّعاء موقوف بين السّماء والأرض لا يصعد منه شيء حتّى تصلّي على نبيّك ﷺ»[1].

وعن ابن عبّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: «حدّث النّاس كلّ جمعة، فإن أبيت فمرّتين، فإن أكثرت فثلاث مرّات، ولا تملّ النّاس هذا القرآن، ولا ألفينّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقصّ عليهم فتقطع حديثهم فتملّهم، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدّثهم وهم يشتهونه، فانظر السّجع من الدّعاء فاجتنبه، فإنّي عهدت رسول اللّه ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلّا ذلك الاجتناب»[2].

وقال بعض الصّحابة: في معنى قوله تعالى -: "وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلا"، «أي: لا ترفع صوتك في دعائك فتذكر ذنوبك فتعيّر بها[3].

وعن سالم بن عبد اللّه بن عمر - رحمه اللّه: أنَّه رأى سائلًا يسأل النَّاس يوم عرفة، فقال: «يا عاجز، في هذا اليوم يسأل غير اللّه عزَّ وجلَّ - »[4].

وقال مجاهد: «إنَّ الصّلاة جعلت في خير السّاعات فعليكم بالدّعاء خلف الصّلوات»[5].

وقال الحسن البصريّ: "إذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الّذين كانت﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؟[6] قال: فيقومون فيتخطّون رقاب النّاس»، قال: «ثمّ ينادي مناد:

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الصلاة - أبواب الوتر - باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ حديث رقم (٤٨٨) ١/ ١٤١.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب ما يكره من السجع في الدعاء - حديث رقم (٦٤١١) ٣/ ١٢٨٩.

(٣) فتح الباري: ٨/ ٤٠٦.

(٤) موسوعة شروح الموطأ: ١٢/ ٩٦٢.

(٥) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٤.

(٦) سورة السجدة: الآية: ١٦.

سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الّذين كانوا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: «فيقومون فيتخطّون رقاب النّاس، قال: «ثمّ ينادي مناد، سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الحمّادون للّه على كلّ حال؟، قال: «فيقومون وهم كثير، ثمّ يكون التّنعيم والحساب فيمن بقي»[1].

وقال الإمام مالك: «أكره للرّجل أن يقول في دعائه: يا سيّدي يا سيّدي يا حنّان يا حنّان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء: ربّنا ربّنا»[2].

وقال الأوزاعيّ: خرج النّاس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد اللّه تعالى – وأثنى عليه ثمّ قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرّين بالإساءة؟ قالوا: بلى، فقال: اللّهمّ إنّا سمعناك تقول ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلّا لمثلنا؟، اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا»[3].

وقال سفيان الثّوريّ – رحمه اللّه: «بلغني أنَّ بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتّى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرّعون فأوحى اللّه عزَّ وجلَّ – إلى أنبيائهم – عليهم السّلام – لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتّى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السّماء وتكلّ ألسنتكم عن الدّعاء، فإنّي لا أجيب لكم داعيًا، ولا أرحم لكم باكيًا حتّى تردّوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم»[4].

وقال أبو سليمان الدّارانيّ – رحمه اللّه: «من أراد أن يسأل اللّه حاجة، فليبدأ بالصّلاة على النّبيّ ﷺ، ثمّ يسأله حاجته ثمّ يختم بالصّلاة على النّبيّ ﷺ فإنَّ اللّه عزَّ وجلَّ – يقبل الصّلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما»[5].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان – رقم (٦٩٣) ١/ ٤٥٣.

(٢) البيان والتحصيل: ١/ ٢٩٣.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٨.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٣٠٧.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٣٠٧.

وقال سفيان بن عيينة – رحمه اللّه: «لا يمنعنَّ أحدًا الدّعاء ما يعلم في نفسه يعني من التّقصير – فإنَّ اللّه قد أجاب دعاء شرّ خلقه، وهو إبليس حين قال: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾»[1].

وقال يحيى الغسّانيّ – رحمه اللّه: أصاب النّاس قحط على عهد داود – عليه السّلام –، فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتّى يستسقوا بهم، فقال أحدهم: «اللّهمّ إنّك أنزلت في توراتك أن نعفوا عمَّن ظلمنا، اللّهمَّ إنَّا ظلمنا أنفسنا فاعف عنّا، وقال الثّاني: اللّهمّ إنّك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقّاءنا، اللّهمَّ إنَّا أرقّاؤك فأعتقنا، وقال الثّالث: اللّهمَّ إنَّك أنزلت في توراتك أن لا نردّ المساكين إذا وقفوا بأبوابنا، اللّهمّ إنّا مساكينك وقفنا ببابك فلا تردّ دعاءنا» فسقوا[2].

وقال الدّاوديّ – رحمه اللّه: «على الدّاعي أن يجتهد ويلحّ ولا يقل إن شئت كالمستثني، ولكن دعاء البائس الفقير»[3].

آداب الدعاء:

يقول ابن عطاء الله السكندري – رحمه الله: إنَّ للدعاء أركانًا وأجنحة وأسبابًا وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه: حضور القلب، والرأفة والاستكانة، والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على سيدنا محمد ﷺ[4].

وقال الإمام الغزاليّ – رحمه اللّه: من آداب الدّعاء:

١ – أن يترصّد لدعائه الأوقات الشّريفة كيوم عرفة من السَّنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السّحر من ساعات اللّيل.

٢ – أن يغتنم الأحوال الشّريفة، كحال الزّحف، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصّلاة، وعند إفطار الصّائم، وحالة السّجود، وفي حال السّفر.

---

(١) سورة الحجر: الآية: ٣٦.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٨.

(٣) فتح الباري: ١١/ ١٤٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣١١.

٣ – أن يدعو مستقبل القبلة، مع خفض الصّوت بين المخافتة والجهر، وأن لا يتكلّف السّجع في الدّعاء فإنّ حال الدّاعي ينبغي أن يكون حال متضرّع والتّكلّف لا يناسبه.

٤ – الإخلاص في الدّعاء والتّضرّع والخشوع والرّغبة والرّهبة، وأن يجزم الدّعاء، ويوقن بالإجابة، ويصدق رجاؤه فيه.

٥ – أن يلحّ في الدّعاء ويكون ثلاثًا، كما ينبغي له أن لا يستبطئ الإجابة.

٦ – أن يفتتح الدّعاء ويختتمه بذكر اللّه تعالى – والصّلاة على النّبيّ ﷺ ثمّ يبدأ بالسّؤال.

٧ – التّوبة وردّ المظالم والإقبال على اللّه عزَّ وجلَّ – بكنه الهمّة، وهو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة، وتحرّي أكل الحلال[١].

ومن هذه الآداب:

١ – أن يجزم بالدعاء، ويوقن بالإجابة:

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[٢]، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا شَاءَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»[٣].

قال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ – أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٧.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ – حديث رقم (٣٨١٦) ٢/ ٨٩٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٤٧٩).

(٣) صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب في المشيئة والإرادة: وما تشاءون إلا أن يشاء الله حديث رقم (٧٥٦٧) ٣/ ١٥١٢.

(٤) سورة الحجر: الآية: ٣٦.

٢ - أن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثًا:

ورد في الأثر: (إنَّ الله يحب الملحين في الدعاء)، وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "... وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا..."[١].

وأخرج الطبراني عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنَّ النبي ﷺ قال: «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»[٢].

٣ - أن يفتتح الدعاء بذكر الله تعالى - وأن يختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "الدُّعَاءُ مَحْجُوبٌ عَنِ اللهِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ"[٣].

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ - يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما[٤].

٤ - أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: « كَانَ لاَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِهِ إِلَّا فِي الِاسْتِسْقَاءِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ»[٥].

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال[٦].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين - حديث رقم (٤٧٥٠) ٢/ ٧٨٤.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - من اسمه أحمد - حديث رقم (٢٠٤٠) ٢/ ٣٠١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٣٧).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي - الخامس عشر من شعب الإيمان وهو باب في تعظيم النبي ﷺ - حديث رقم (١٥٧٦) ٢/ ٢١٥، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٥٢٣).

(٤) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٥.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الاستسقاء - باب رفع الإمام يده في الاستسقاء - حديث رقم (١٠٣٩) ١/ ١٩٥، صحيح مسلم - كتاب صلاة الاستسقاء - باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء - حديث رقم (٢١١١) ١/ ٣٥٠.

(٦) إحياء علوم الدين: ١/ ٣٠٥.

٥ - التضرع والخشية والرغبة والرهبة:

قال - سبحانه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾(١).

٦ - عدم الاعتداء في الدعاء:

قال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢).

روي عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله تعالى -: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال: «في الدعاء ولا في غيره»(٣).

وعن قتادة في معنى الآية قال: «اعلموا أنَّ في بعض الدعاء اعتداء، فاجتنبوا العدوان والاعتداء إن استطعتم ولا قوة إلاَّ بالله»(٤).

وعن الربيع في معنى الآية قال: «إيَّاك أن تسأل ربَّك أمرًا قد نُهيتَ عنه أو ما ينبغي لك»(٥).

وعن ابن جريج في معنى الآية قال: «إنَّ من الدعاء اعتداءً، يُكره رفع الصوت والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمرُ بالتضرُّع والاستكانة»(٦).

وعن ابن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع ابنه يقول: "اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة فقال بني: سل الله الجنة وتعوذ به من النار"، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء"(٧).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ٥٥.

(٣) تفسير الطبري: ٥/ ٢٠٧.

(٤) المرجع السابق: ٥/ ٢٠٧.

(٥) المرجع السابق: ٥/ ٢٠٧.

(٦) المرجع السابق: ٥/ ٢٠٧.

(٧) سنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب الإسراف في ماء الوضوء - حديث رقم (٩٦) ١/ ١٦، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٩٦).

قال الإمام القرطبّي – رحمه اللّه: "الاعتداء في الدّعاء علي وجوه منها: الجهر الكثير والصّياح، ومنها أن يدعو الإنسان لنفسه (بما لا يستحقّ)، بأن تكون له منزلة نبيّ، أو يدعو في محال، أو أن يدعو طالبًا معصية، أو أن يدعو بما ليس في الكتاب والسُّنَّة"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة – رحمه اللّه: "الاعتداء في الدّعاء يكون تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من المعونة على المحرّمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله اللّه، كأن يسأل تخليده إلى يوم القيامة، أو بأن يرفع عنه منازل البشريّة، من الحاجة إلى الطّعام والشّراب، ونحو ذلك ممّا فيه اعتداء لا يحبّه اللّه، ولا يحبّ سائله، وأعظم المعتدين عدوانًا هم الّذين يدعون معه غيره؛ إذ إنَّ أعظم العدوان الشّرك، ومن العدوان أن يدعوه غير متضرّع، ومن لم يسأل مسألة مسكين متضرّع خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء أيضًا أن يعبده بما لم يشرع، أو يثني عليه بما لم يثن على نفسه، ولا أذن فيه، فإنَّ هذا اعتداء في دعائه الّذي هو ثناء وعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطّلب"(٢).

٧ – أن يخفض صوته عند الدعاء:

فيكون بين المخافتة والجهر والاستكانة والانكسار، وإظهار الفقر والحاجة، قالت السيدة عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – في قوله تعالى –: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾(٣)، أي: بدعائك.

وعن أبى موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»(٤).

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ١٤٤.

(٢) الفتاوى: ١٧ / ٢٢ – ٢٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية: ١١٠.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الدعوات – باب الدعاء إذا علا عقبة – حديث رقم (٦٤٥٧) ٣/ ١٢٩٧، صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب استحباب خفض الصوت بالذكر – حديث رقم (٧٠٣٧) ٢/ ١١٤٠.

قوله: (يأيها الناس اربعوا على أنفسكم) مقتضاه أن رفع الصوت لا يكره لذاته بل لما فيه من التعب والمشقة على صاحبه، فالمكروه هو الجهر الشديد المشتمل على التعب لا مجرد الإظهار إلا إذا تضمن مفسدة الرياء فلا حجة فيه لمن يقول بكراهة الجهر مطلقًا، والله تعالى أعلم[1].

قال المهلب: "إنما نهاهم - والله أعلم - عن رفع الصوت إبقاء عليهم ورفقًا بهم؛ لأنهم كانوا في مشقة السفر فأراد: اكلفوا من العمل ما تطيقون وكان بالمؤمنين رحيمًا، ثم أعلمهم أن الله يعلم خفي كلامهم بالتكبير كما يسمع عاليه؛ إذ لا آفة تمنعه من ذلك؛ لأنه سميع قريب. قال الطبري: في هذا الحديث من الفقه كراهية رفع الصوت بالدعاء، وهو قول عامة السلف من الصحابة والتابعين"[2].

٨ - ألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم:

فعن أبى سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ، إِمَّا يُعَجِّلُ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السَّوْءِ مِثْلَهَا"[3].

٩ - ألا يدعو على نفسه وأولاده:

فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى خَدَمِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَاعَةَ نَيْلٍ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ»[4].

---

(١) حاشية السندي على صحيح البخاري: ٢/ ٧١،

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٥/ ١٥١ وما بعدها.

(٣) مسند أحمد - ومن مسند بني هاشم - مسند أبي سعيد الخدري - حديث رقم (١١١٣٣) ١٧/ ٢١٣، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٦٣٢).

(٤) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله حديث رقم (١٥٣٤) ١/ ٢٦٠، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (١٥٣٢).

١٠ – أن يتحرى أوقات إجابة الدعاء، وأوقات إجابة كثيرة؛ منها:

١ – الثلث الأخير من الليل: فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»(١).

وعن عمرو بن عبسة أَنَّ النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»(٢).

٢ – عند الأذان: فعن أبى أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "إِذَا نَادَى الْمُنَادِي فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ..."(٣).

٣ – بين الآذان والإقامة: فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ مُسْتَجَابٌ فَادْعُوا»(٤).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قال: «لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ»(٥).

٤ – في السجود: فعن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ النبي ﷺ قال: "... وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»(٦).

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء – حديث رقم (١٨٠٦) ١/ ٣٠٠.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب في دعاء الضيف – حديث رقم (٣٩٢٨) ٢/ ٩١٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٧٩).

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الدعاء – باب التكبير والتهليل والتسبيح – حديث رقم (٢٠٠٤) ١/ ٧٣١، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣).

(٤) مسند أبي يعلى – حديث رقم (٣٦٨٠) ٦/ ٣٥٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٥).

(٥) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة – حديث رقم (٥٢١) ١/ ٩٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود (٥٢١).

(٦) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود – حديث رقم (١١٠٢) ١/ ١٩٧.

٥ - يوم الجمعة: فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوجَدُ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ»(١).

٦ - عند نزول المطر، وعند التقاء الجيوش، وعند إقامة الصلاة:

فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "ثنتان لا تُردَّانِ، أو قلّما تُردّان: الدعاءُ عند النِّداءِ، وعِند البأسِ حين يُلحِمُ بعضُه بَعضًا"(٢).

وأخرج البيهقي أنَّ النبي ﷺ قال: «اطْلُبُوا اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْتِقَاءِ الْجُيُوشِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، ونُزُولِ الْغَيْثِ»(٣).

٧ - دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب: أخرج البزار بسند صحيح عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «دُعَاءُ الْأَخِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَا يُرَدُّ»(٤).

قال القاضي عياض: "فيه أنَّ الداعي لأخيه بظهر الغيب له من الأجر بمثل ما دعا به؛ لأنَّه إن دعا لغيره فقد عمل عملين صالحين: أحدهما: ذكر الله تعالى - مخلصًا له، وفازعًا إليه بلسانه وقلبه، والثَّاني: محبته الخير لأخيه المسلم ودعاؤه له، وهو عمل خير لمسلم يؤجر عليه، وقد نص فيه أنَّها مستجابة(٥).

٨ - دعوة المسافر، دعوة المظلوم، دعوة الوالد لولده، دعوة الصائم: فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ تُسْتَجَابُ دَعْوَتُهُمْ، الْوَالِدُ وَالْمُسَافِرُ

---

(١) السنن الكبرى للنسائي - كتاب الجمعة - وقت الجمعة - حديث رقم (١٦٩٧) ١/ ٥٢٦، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨١٩٠).

(٢) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب الدعاء عند اللقاء - حديث رقم (٢٥٤٢) ٢/ ٤٣٦، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٢٥٤٠).

(٣) معرفة السنن والآثار للبيهقي - كتاب الاستسقاء - طلب الإجابة عند نزول الغيث - حديث رقم (٢٠٩٠) ٥/ ١٨٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠٢٦).

(٤) البحر الزخار مسند البزار - أول حديث عمران بن حصين - حديث رقم (٣٥٧٧) ٩/ ٥٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٣٧٩).

(٥) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم: ٨/ ١١١.

وَالْمَظْلُومُ»[1]، وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: " ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ: دَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ"[2].

٩ – الدعاء يوم عرفة: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[3].

١٠ – دبر الصلوات المكتوبة: فعن أبى أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ»[4].

شروط قبول الدعاء:

١ – **الإخلاص**: قال الله عزَّ وجلَّ –: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ﴾[5]، وقال – سبحانه: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾[6].

وعن أبى أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[7].

---

(١) صحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة – جماع أبواب صدقة التطوع – باب الرخصة في الخيلاء عند الصدقة – حديث رقم (٢٤٧٨) ٤/ ١١٣، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٠٤٩).

(٢) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب تفريع أبواب الوتر – باب الدعاء بظهر الغيب – حديث رقم(١٥٣٨) ١/ ٢٦١، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (١٥٣٦).

(٣) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب في دعاء يوم عرفة – حديث رقم (٣٩٣٤) ٢/ ٩١٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٨٥).

(٤) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب ما جاء في عقد التسبيح باليد – حديث رقم (٣٨٣٨) ٢/ ٨٩٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٤٩٩).

(٥) سورة غافر: الآية: ٦٥.

(٦) سورة الأعراف: الآية: ٢٩.

(٧) السنن الصغرى – كتاب الجهاد – من غزا يلتمس الأجر والذكر – حديث رقم (٣١٥٣) ٢/ ٥٠٩، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (٣١٤٠).

٢ - **تحرى الحلال في المأكل والملبس والمشرب:** فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: " أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾[٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"[٣].

٣ - **الثقة واليقين وعدم غفلة القلب أثناء الدعاء:** فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[٤].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله ﷺ: "واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ)، أي: لا يعبأ بسؤال سائل مشغوف القلب بما أهمه من دنياه، قال الإمام الرازي: اجمعوا على أنَّ الدعاء مع غفلة القلب لا أثر له"[٥].

٤ - **عدم الاستعجال في الدعاء:** فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"[٦].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٧٢.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها - حديث رقم (٣٣٩٣) ١/ ٣٩٩.

(٤) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ - حديث رقم (٣٨١٦) ٢/ ٨٩٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٤٧٩).

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ١٠٦.

(٦) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب يستجاب للعبد ما لم يعجل - حديث رقم (٦٤١٤) ٣/ ١٢٩٠، صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت - حديث رقم (٧١١٠) ٢/ ١١٥١.

قال بعض العلماء: قوله: (مَا لَمْ يَعْجَلْ) يعنى يسأم الدعاء ويتركه فيكون كالماء بدعائه، وأنه قد أتى من الدعاء ما كان يستحق به الإجابة، فيصير كالمبجل لربّ كريم، لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء، ولا تضره الذنوب[١].

وقال بعضهم: إنما يعجل العبد إذا كان غرضه من الدعاء نيل ما سأل، وإذا لم ينل ما يريد ثقل عليه الدعاء، ويجب أن يكون غرض العبد من الدعاء هو الدعاء لله، والسؤال منه، والافتقار إليه أبدًا، ولا يفارق سمة العبودية وعلامة الرق، والانقياد للأمر والنهي والاستسلام لربّه تعالى بالذّلة والخشوع، فإن الله تعالى يحب الإلحاح في الدعاء[٢].

وقال بعض السلف: لأنا أشد خشيةً أن أحرم الدعاء من أن أحرم الإجابة، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[٣] فقد أمر بالدعاء ووعد بالإجابة وهو لا يخلف الميعاد، وروي عن النبي ﷺ: (ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث، إما أن يستجاب له، وإمّا أن يدخر له، وإما أن يكفر عنه)[٤]. ففي هذا الحديث دليل أن الدعاء مجاب إما معجلًا وإما مؤخرًا. وقد روى عن قتادة أنه قال: إنما يجاب من الدعاء ما وافق القدر؛ لأن النبي ﷺ قد دعا ألا يجعل الله بأس أمته بينهم فمنعها، لما سبق في علم الله وقدره من كون الاختلاف والبأس بينهم[٥].

من فوائد (الدعاء)[6]

(١) سرعة الفرج وتفريج الكرب.

(٢) إلقاء الهمّ على الرّبّ لحسن الظّنّ بالقرب.

---

(١) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ١٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١٠/ ١٠١.

(٣) سورة غافر: الآية: ٦٠.

(٤) موطأ مالك - كتاب القرآن - باب ما جاء في الدعاء - حديث رقم (٥٠٤) ١/ ٢١٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٧١٤).

(٥) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ١٠١.

(٦) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٩٤٤.

(٣) سلاح يتّقى به العدوّ وسوء القضاء.

(٤) يجلب المصالح ويدفع المفاسد.

(٥) يشغل العبد بذنبه وعيبه عن عيب غيره.

(٦) مداومة الشّعور بالضّعف والحاجة، فلا يزال يدعو حتّى ينال حاجته.

(٧) يعدّ من أجلّ أنواع العبادة، فيقصد لذاته كما يقصد لقضاء الحاجة ولدفع المضرّة.

فَضَائِلُ الصَّدَقَةِ

من الأعمال الصالحة التي رغبنا فيها ربنا - جلَّ وعلا -، وحثنا عليها نبينا ﷺ الصدقة والإنفاق في سبيل الله، وقد وعد الله عزَّ وجلَّ - المنفقين بالثواب العظيم والأجر الجزيل في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان لفضل الصدقة والإنفاق في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فضل الصدقة في القرآن الكريم:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾[1].

قيل: إنَّها نزلت في عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر رسول الله ﷺ فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول: "ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان"[2].

وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيت النبي ﷺ رافعًا يديه يدعو لعثمان يقول: "يا رب عثمان إنِّي رضيت عن عثمان فارض عنه" فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾[3].

وقال الإمام الماوردي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾فيه تأويلان: أحدهما: يعني في الجهاد، قاله ابن زيد، والثاني: في أبواب البر كلها[4].

---

(١) سورة البقرة: الآيتان: ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) مسند أحمد - أول مسند البصريين - حديث عبد الرحمن بن سمرة - حديث رقم (٢٠٦٣٠) ٣٤/ ٢٣٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٠٦.

(٤) تفسير النكت والعيون: ١/ ٣٣٦.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ضرب الله ذلك مثلًا في أنَّ النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف، وفي مضاعفة ذلك في غير ذلك من الطاعات قولان: أحدهما: أنَّ الحسنة في غير ذلك بعشرة أمثالها، قاله ابن زيد، والثاني: يجوز مضاعفتها بسبعمائة ضعف، قاله الضحاك.

﴿يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ **يحتمل أمرين:**

أحدهما: يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، والثاني: يضاعف الزيادة على ذلك لمن يشاء[2]، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: واسع لا يَضِيق عن الزيادة، عليم بمن يستحقها، قاله ابن زيد، والثاني: واسع الرحمة لا يَضِيق عن المضاعفة، عليم بما كان من النفقة، ويحتمل تأويلًا ثالثًا: واسع القدرة، عليم بالمصلحة[3].

وقال – تعالى –: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[4].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: « أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب»[5].

وقال – تعالى –: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٦١.

(٢) تفسير النكت والعيون: ١/ ٣٦٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٣٧.

(٤) سورة سبأ: الآية: ٣٩.

(٥) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٢٣.

(٦) سورة الحديد: الآيتان: ١١، ١٢.

عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: «من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا»، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، أو إنَّ الله يريد منا القرض؟! قال: نعم يا أبا الدحداح! قال: يدك! قال: فناوله يده، قال: فإنِّي قد أقرضتُ ربي حائطي، حائطًا فيه ستمائة نخلة، ثُمَّ جاء يمشي حتى أتى الحائط، وأم الدحداح فيه في عيالها، فناداها: يا أم الدحداح! قالت: لبيك! قال: اخرجي! قد أقرضت ربي حائطًا فيه ستمائة نخلة[1].

فضل الصدقة في السُّنَّة النَّبويَّة:

إنَّ المتأمل في سنة النبي ﷺ يجد أنَّ هناك أحاديث كثيرة تبيِّن لنا فضل الصدقة والإنفاق في سبيل الله عزَّ وجلَّ - ؛ منها: أمر النبي ﷺ لأصحابه بها، ودعوة الملائكة للمتصدق بالزيادة والبركة، ومضاعفة أجر الصدقة على ذي الرحم عن غيره، وفيما يأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل:

١ - أمر النبي ﷺ لأصحابه بالصدقة:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: دَخَلَ عَلَى بِلَالٍ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ صُبرًا مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا بِلَالُ؟» فَقَالَ: تَمْرًا ادَّخَرْتَهُ لَكَ فَقَالَ: «وَيْحَكَ يَا بِلَالُ، أَمَا تَخَافُ أَنْ يَكُونَ لَهُ بُخَارٌ فِي النَّارِ؟ أَنْفِقْ يَا بِلَالُ، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا»[2].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: «فإنَّ خوف الإقلال من سوء الظن بالله تعالى؛ لأنَّه تعالى - وعد على الإنفاق خلفًا في الدنيا، وثوابًا في العقبى، وما أحسن ذكر العرش في هذا المقام»[3].

٢ - دعوة الملائكة للمتصدق بالزيادة والبركة:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النبي ﷺ قال: " مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا"[4].

---

(١) تفسير الطبري: ٥/ ٨٥.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - باب من اسمه إبراهيم - حديث رقم (٢٥٧٢) ٣/ ٨٦، وقال الألباني: حسن صحيح. ينظر: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٩٢٢).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٧٧٤.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى - حديث رقم (١٤٦٤) ١/ ٢٧٢، صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب في المنفق والممسك - حديث رقم (٢٣٨٣) ١/ ٣٩٨.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: "هذا يعم الواجبات والمندوبات اللهم أعط ممسكًا تلفًا، يعني الممسك عن النفقات الواجبات، وأمَّا الممسك عن المندوبات فقد لا يستحق هذا الدعاء، اللهم إلا أن يغلب عليه البخل بها وإن قلت، كالحبة واللقمة فهذا قد يتناوله هذا الدعاء؛ لأنَّه إنَّما يكون كذلك لغلبة صفة البخل المذمومة عليه، وقل ما يكون كذلك إلا ويبخل بكثير من الواجبات أو لا يطيب نفسا بها"(١).

قال الإمام ابن بطال – رحمه الله: "معنى هذا الحديث: الحض على الإنفاق في الواجبات، كالنفقة على الأهل وصلة الرحم، ويدخل فيه صدقة التطوع، والفرض، ومعلوم أنَّ دعاء الملائكة مجاب..."(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»(٣).

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَإِنَّ صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ، وَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، وَتَقِي الْفَقْرَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا وَقُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ دَاءً، أَدْنَاهَا الْهَمُّ»(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: "أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ الْمُسْلِمِ سُرُورًا أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا"(٥).

---

(١) الديباج على مسلم: ٣/ ٨٢.

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٣/ ٤٣٩.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب الصدقة من كسب طيب – حديث رقم (١٤٣٠) ١/ ٢٦٦.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط حديث رقم (٩٤٣) ١/ ٢٨٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٥٩، ٣٧٦٠).

(٥) شعب الإيمان للبيهقي – التاسع والثلاثون من شعب الإيمان – الثالث والخمسون من شعب الإيمان – حديث رقم (٧٣٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠٩٦).

وعن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ»[1].

والكاشح: هو الذي يَطْوِي على العداوة كَشْحه[2].

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله: "وهذا؛ لأن الإنفاق على القريب المحبوب مشوب بالهوى، فأما على المبغض فهو الذي لا شوب فيه"[3].

وعن حرملة بن عمران، أنَّه سمع يزيد بن أبي حبيب يحدث أنَّ أبا الخير، حدثه أنَّه، سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ" أَوْ قَالَ: "حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ"، قَالَ يَزِيدُ: فَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لَا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ لَا يَتَصَدَّقُ فِيهِ بِشَيءٍ وَلَوْ كَعْكَةً، وَلَوْ بَصَلَةً"[4].

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"[5].

وعن أبى كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» قَالَ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا»[6].

---

(١) مسند أحمد – حديث رقم (١٥٣٢٠) ٢٤/ ٣٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١١١٠).

(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر: محمود بن عمر الزمخشري، ٣/ ٢٦٣، ط/ دار المعرفة – لبنان – الطبعة الثانية، تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين: لابن الجوزي ١/ ١١٠٢.

(٤) صحيح ابن حبان – كتاب الزكاة – باب صدقة التطوع – ذكر البيان بأن ظل كل امرئ في القيامة يكون صدقته حديث رقم (٣٣٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٥١٠).

(٥) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة – حديث رقم (١٤٣٨) ١/ ٢٦٧، صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة – حديث رقم (٢٣٩٤) ١/ ٣٩٩.

(٦) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر – حديث رقم (٢٤٩٥) ٢/ ٥٩٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٠٢٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ، قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(١).

قال الإمام الصنعاني - رحمه الله "قال العلماء: عدم النقص بمعنيين: الأول: أنه يبارك له فيه، ويدفع عنه الآفات، فيجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، والثاني: أنه يحصل بالثواب الحاصل عن الصدقة جبران نقص عينها بالحق الصدقة لم تنقص المال لما يكتب الله من مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة. قلت: والمعنى الثالث: أنه تعالى يخلفها بعوض يظهر به عدم نقص المال بل ربما زادته، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾(٢)، وهو مجرب محسوس، وفي قوله: "ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا" حث على العفو عن المسيء، وعدم مجازاته على إساءته، وإن كانت جائزة قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٣)، وفيه: أنه يجعل الله تعالى للعافي عزًا وعظمة في القلوب؛ لأنه بالانتصاف يظن أنه يُعظم ويُصان جانبه ويهاب، ويظن أن الإغضاء والعفو لا يحصل به ذلك فأخبر رسول الله ﷺ بأنه يزداد بالعفو عزًا، وفي قوله "وما تواضع أحد لله": أي: لأجل ما أعده الله للمتواضعين "إلا رفعه الله" دليل على أن التواضع سبب للرفعة في الدارين لإطلاقه، وفي الحديث حث على الصدقة، وعلى العفو، وعلى التواضع، وهذه من مكارم الأخلاق"(٤).

وعن مطرف عن أبيه، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟"(٥).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب العفو والتواضع - حديث رقم (٦٧٥٧) ٢/ ١٠٩٩.

(٢) سورة سبأ: الآية: ٣٩.

(٣) سورة الشورى: الآية: ٤.

(٤) سبل السلام: ٤/ ٢٠٨ وما بعدها.

(٥) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب حدثنا قتيبة بن سعيد - حديث رقم (٧٦٠٩) ٢/ ١٢٤٥.

وعن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"(١).

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله: "إنَّ للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر، أو من ظالم، بل من كافر فإنَّ الله تعالى – يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به؛ لأنَّهم جربوه"(٢).

من أقوال السَّلف في فضل الصدقة:

قال عبد العزيز بن أبى رواد: "كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المرض، وكتمان الصدقة، وكتمان المصائب"(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز: "الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه"(٤).

وقال الشعبي: "من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه"(٥).

وقال عُبيد بن عمير: "يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، وأعرى ما كانوا قط، فمن أطعم لله عزَّ وجلَّ – أشبعه الله، ومن سقى لله عزَّ وجلَّ – سقاه الله، ومن كسا لله عزَّ وجلَّ – كساه الله"(٦).

---

(١) صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب كلام الرب – عزَّ وجلَّ – يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم – حديث رقم (٧٠٦٥) ٣/ ١٥١٩.

(٢) الوابل الصيب: ص٤٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٢٦.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٢٦.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٢٢٦.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٢٢٦.

أنواع الصدقة المندوبة:

إنَّ الصدقة المندوبة لا تقتصر على المال وما يقوم بالمال، بل تشمل كل عمل صالح من طيب الكلمة، وبشاشة الوجه، وإعانة الرجل على دابته، ومعاونته على حمل متاعه عليها، وغير ذلك كثير، وقد ورد في السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة تدل على ذلك؛ منها ما أخرجه الطبراني في الأوسط عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السَّوْءِ، وَالصَّدَقَةُ خَفِيًّا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ زِيَادَةٌ فِي الْعُمُرِ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ»[1].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[2].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، أنه قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[3].

بل وتتعدى الصدقات إلى الحيوانات والطيور: فقد أخرج البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[4].

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني – باب العين – باب الميم من اسمه: محمد – حديث رقم (٦٠٨٦) ٦/ ١٦٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٦٩).

(٢) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء – حديث رقم (٦٨٥٧) ٢/ ١١١٢.

(٣) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب استحباب صلاة الضحى – حديث رقم (١٧٠٤) ١/ ٢٨٦.

(٤) صحيح البخاري – كتاب المزارعة – باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه حديث رقم (٢٣٦١) ١/ ٤٣٣، صحيح مسلم – كتاب المساقاة – باب فضل الغرس والزرع – حديث رقم (٤٠٥٥) ٢/ ٦٦٤.

قال الإمام ابن بطال – رحمه الله: «وفيه من الفقه: أن من يزرع في أرض غيره أن الزرع للزارع، ولرب الأرض عليه كراء أرضه لقوله عليه السلام: (ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا إلا كان له صدقة). فجعل الصدقة للزارع والثواب له خاصة دون رب الأرض، فعلمنا أنه ليس لرب الأرض حق في الزرع الذي أخرجته الأرض، وفيه الحض على عمارة الأرض لتعيش نفسه أو من يأتي بعده ممن يؤجر فيه، وذلك يدل على جواز اتخاذ الصناع، وأن الله تعالى – أباح ذلك لعباده المؤمنين لأقواتهم وأقوات أهليهم طلبًا للغنى بها عن الناس، وفساد قول من أنكر ذلك، ولو كان كما زعموا ما كان لمن زرع زرعًا وأكل منه إنسان أو بهيمة أجر، لأنه لا يؤجر أحد فيما لا يجوز فعله»[1].

والصدقات يتعدى ثوابها ونفعها بعد الموت: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ، قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[2].

قال الإمام النووي – رحمه الله: "قال العلماء: معنى الحديث: أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف، وفيه: فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح...، وفيه: دليل لصحة أصل الوقف، وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العلم والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح، وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع، وفيه: أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما، وكذلك قضاء الدين كما سبق، وأما الحج فيجزي عن الميت عند الشافعي وموافقيه، وهذا داخل في قضاء الدين إن كان حجًا واجبًا، وإن كان تطوعًا وصى به فهو من باب الوصايا، وأما إذا مات وعليه صيام فالصحيح أن الولي يصوم عنه"[3].

---

(١) شرح صحيح البخاري: لابن بطال: ٦/ ٤٥٦ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الوصية – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته حديث رقم (٤٣١٠) ٢/ ٧٠٠.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١١/ ٨٥.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: "أي هذه الأعمال المذكورة يجري على المؤمن ثوابها، ويتجدد من بعد موته، فإذا مات انقطع عمله إلا منها، ولا ينافي ما ذكر هنا الحصر المذكور في الحديث المار "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث"[2] فإن المذكورات تندرج في تلك الثلاث؛ لأن الصدقة الجارية تشمل الوقف، والنهر، والبئر، والنخل، والمسجد، والمصحف، فيمكن ردّ جميع ما في الأحاديث إلى تلك الثلاث، ولا تعارض"[3].

وقد نظمها الحافظ السيوطي – رحمه الله فقال[4]:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... عليه من فعال غير عشر
علوم بثها ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي ... إليه أو بناء محل ذكر.

من فوائد (الصدقة)[5]

(١) طهرة للنّفس، وقربة إلى اللّه عزّ وجلّ –.

(٢) طريق موصل إلى محبّة اللّه ورضوانه.

(٣) تثمر سعادة الدّين والدّنيا.

---

(١) سنن ابن ماجه المقدمة – باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ – باب ثواب معلم الناس الخير – حديث رقم (٢٤٩) ١/ ٤٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٤٢).

(٢) سبق تخريجه: ص ٣٦.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٧١١.

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٢٥٥، عون المعبود: ٨/ ٨٧.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٦/ ٢٥٢٩.

(٤) دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٥) حفظ الإنسان في ماله وبدنه.

(٦) دليل على الزّهد.

(٧) طاعة للّه ورسوله ﷺ.

(٨) باب من أبواب التّكافل الاجتماعيّ.

(٩) تثمر محبّة النّاس.

حُسْنُ الْخُلُقِ

إنِّ للإسلام أثرًا كبيرًا في الأخلاق. انظر إلى أخلاق العرب قبل الإسلام وبعده تجد أنهم في الجاهلية كانوا متفرقين، مختلفين في كلمتهم، مضطربين في أحوالهم، في جهل مطبق، يئدون البنات، ويعبدون الأصنام، ويقطعون الأرحام، ويشنون الغارات لأتفه الأسباب. فلما استضاءوا بنور الإسلام اجتمعت كلمتهم، واتفقت ميولهم، وتعاونت قلوبهم، واتحدت أيديهم، وتآلفوا وتحابوا، فنصرهم الله تعالى، وحكموا العالم، وملكوا أطراف الأرض[1].

فالإسلام خلقهم خلقًا بعد أن تشبعوا بروح القرآن الكريم، والمثل العليا للإسلام، من الإيمان بالله تعالى، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، والصدق في القول، والعدالة في الحكم، والابتعاد عن الظلم، وضبط النفس، وكظم الغيظ، والمساواة بين الغني والفقير، والإخلاص في السر والعلانية، ومراعاة حقوق الجار، والتمسك بالتقوى والعمل الصالح، والفضيلة والكمال، والإيثار، والرحمة والشفقة، والإنسانية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

والمتأمل في ديننا الإسلاميِّ الحنيف يجد أنَّه كما شرع العبادات، وأمرنا بها، حثَّنا على الأخلاق الفاضلة، ونهانا عن الأخلاق السيئة، وجاء نبينا ﷺ بمكارم الأخلاق، ونهى عن مساوئها، ومن المكارم حُسن الخُلق، الذي هو ميزان العبد يوم القيامة، وهو أثقل الأعمال في ميزان العباد، وكما قالوا: الدين الإسلاميّ كله خُلق، فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الدين، وفيما يأتي بيان مكانة حُسن الخُلق في الإسلام، وكيف أنَّ العبادات كلها مرتبطة بالأخلاق.

---

(١) الإسلام منقذ للإنسانية، محمد عطية الإبراشي، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

حُسن الخلق في القرآن، والسُّنَّة:

أمر الله عزَّ وجلَّ - بحسن الخلق مع الناس كافة؛ فقال عز وجل: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يعني الناس كلهم"، وقال عطاء: "للناس كلهم المشرك، وغيره".

وقال القرطبي - رحمه الله "قال أبو العالية: "قولوا لهم الطَّيِّب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به"[2].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[3].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: فائدة جليلة جمع النبي بين تقوي الله، وحسن الخلق؛ لأنَّ تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلي محبته[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[5].

وعن أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٨٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/ ١٦.

(٣) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة والآداب - باب ما جاء في معاشرة الناس حديث رقم (٢١١٥) ٢/ ٥١٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٨٧).

(٤) الفوائد: للإمام ابن القيم ١/ ٥٤.

(٥) سنن أبي داود - كتاب السنة - باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم (٤٦٨٤) ٢/ ٧٨٧، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (٤٦٨٢).

(٦) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في حسن الخلق - حديث رقم (٤٨٠٠) ٢/ ٨٠٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (٤٧٩٨).

وسئل النبي ﷺ فقيل له: يا رسول الله: مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ؟ قَالَ: «خُلُقٌ حَسَنٌ»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ سئل عن أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الفَمُ وَالفَرْجُ»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا»(٣).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا... "(٤).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصْلَتَيْنِ هُمَا أَخَفُّ عَلَى الظَّهْرِ، وأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهُمَا؟» قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَمِلَ الْخَلَائِقُ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمَا»(٥).

من أقوال السَّلف في حُسن الخُلق:

قال الحسن البصري – رحمه الله: "حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى"(٦).

وقال الماوردي – رحمه الله: "إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب"(٧).

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الطب – حديث رقم (٨٢٠٦) ٤/ ٤٤١، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٩٧٣).

(٢) سنن الترمذي – – كتاب البر والصلة والآداب عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء في حسن الخلق حديث رقم (٢١٣٥) ٢/ ٥١٩، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٠٠٤).

(٣) صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب صفة النبي ﷺ – حديث رقم (٣٥٩٩) ٢/ ٧٠٠.

(٤) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء في معالي الأخلاق – حديث رقم (٢١٥٠) ٢/ ٥٢٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٠١٨).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط حديث رقم (٧١٠٣) ٧/ ١٤٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٠٤٨).

(٦) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٢.

(٧) أدب الدنيا والدين: للماوردي ص ٢٣٦.

وقال طاووس: "إنَّ هذه الأخلاق منائح يمنحها الله عزَّ وجلَّ - من يشاء من عباده، فإذا أراد الله بعبد خيرًا منحه خلقًا صالحًا"(١).

وقال أبو أيوب السختياني: "لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عمَّا يكون منهم"(٢).

وقال يحيى بن معاذ: "في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق"(٣).

وقال الواسطي: "حسن الخلق هو ألا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى -"(٤).

وقيل: "إنَّ أويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فكان يقول لهم: يا إخوتاه، إن كان لا بُدَّ فارموني بالصغار، حتى لا تدموا ساقي، فتمنعوني عن الصلاة"(٥).

وقال الحسن البصري - رحمه الله: "من ساء خلقه عذب نفسه"(٦).

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله إذا قيل له: "إنَّ فلانًا يقع في عرضك يقول: والله لأغيظنَّ من أمره، يعني: إبليس، اللَّهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له"(٧).

وقالت امرأة لمالك بن دينار - رحمه الله: "يا مرائي فقال: يا هذه، وجدتُ اسمي الذي أضله أهل البصرة"(٨).

---

(١) مكارم الأخلاق: لابن أبي الدنيا: ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٨.

(٣) إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٢.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٥٢.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٧١.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٥٢.

(٧) المرجع السابق: ٣/ ٣١٤.

(٨) المرجع السابق: ٣/ ٧٢.

وكان الفضيل بن عياض – رحمه الله: "لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق"(١).

وقال الإمام الجنيد: "أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات، وإن قل عمله، وعلمه: الحِلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق وهو كمال الإيمان"(٢).

وقال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت أيُّ الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين قال: الدين، والمال قال: فإذا كانت ثلاثًا؟ قال: الدين، والمال، والحياء، قال: فإذا كانت أربعًا؟ قال: الدين، والمال، والحياء، وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمسًا؟ قال: الدين، والمال، والحياء وحسن الخلق، والسَّخاء، قال: فإذا كانت ستًّا؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي، ولله ولي، ومن الشيطان بريء(٣).

العبادات وارتباطها بحُسن الخُلق:

الناظر إلى العبادات في الشريعة الإسلامية يجد أنَّها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحُسن الخُلق، ويتحقَّق ذلك من خلال القيام بالعبادة، كما أمر الله عزَّ وجلَّ –، وكما بيّن النبي ﷺ، وبذلك تؤتي هذه العبادات ثمارها المرجوة منها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلاَةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَلاَ تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(٤)، وفي رواية أخرى: "... إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ... "(٥).

ومن ثمرات الصلوات ما ذكره الله في كتابه: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(٦).

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥٢.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الآذان – باب لا يسعى إلى الصلاة حديث رقم (٦٣٩) ١/ ١٢٤.

(٥) صحيح البخاري – كتاب الآذان – باب قول الرحل: فاتتنا الصلاة حديث رقم (٦٣٨) ١/ ١٢٤.

(٦) سورة العنكبوت: الآية: ٤٥.

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي أولًا: غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

وقد نصَّ القرآن الكريم على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

وفي الصيام قال الله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقال النبي ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا، فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ»(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(٤).

فلم ينظر الإسلام للصيام على أنَّه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها المحظورة، ونزواتها المنكورة.

وفي الحج قال الله تعالى -: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٥).

والنبي ﷺ كان أحسن الناس خلقًا، زكاه ربه تبارك وتعالى - فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة: الآية: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٨٣.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب فضل الصوم حديث رقم (١٩٢٨) ١/ ٣٥٤، صحيح مسلم - كتاب الصيام - باب فضل الصيام حديث رقم (٢٧٦٢) ١/ ٤٥٦.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الصوم - باب من لم يدع قول الزور حديث رقم (١٩٣٧) ١/ ٣٥٦.

(٥) سورة البقرة: الآية: ١٩٧.

(٦) سورة القلم: الآية: ٤.

ما هو الخُلُق العظيم؟

قال شيخ المفسرين الإمام الطبري - رحمه الله: «الأدب العظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه، وقد رُوي هذا المعنى عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، المعنى: على دين عظيم، وهو الإسلام»[1].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: الدين.

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنَ...»[2].

وقال الجنيد: «سمي خلقه عظيمًا؛ لأنَّه لم تكن له همة سوى الله تعالى».

وقيل: سمي خلقه عظيمًا؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[3].

وقال الإمام الماوردي: في الخلق العظيم ثلاثة أوجه: أحدها: أدب القرآن، والثاني: دين الإسلام، والثالث: الطبع الكريم، وهو الظاهر[4].

وقال الواسطي: «هو أن لا يخاصم، ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى -»[5].

وقال شاه الكرماني: «هو كف الأذى، واحتمال المؤن»[6].

وقال بعضهم: «هو أن يكون من الناس قريبًا، وفيما بينهم غريبًا»[7].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٣/ ٥٢٩.

(٢) مسند أحمد حديث رقم (٢٤٦٠١) ٤١/ ١٤٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٨١١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٢٧.

(٤) تفسير الماوردي: ٦/ ٦١.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٣.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

(٧) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

وقال الواسطي مرة: «هو إرضاء الخلق في السراء والضراء»[١].

وقال أبو عثمان: «هو الرضا عن الله تعالى - »[٢].

وسُئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: «أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه»[٣].

وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق، ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور، فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الناس[٤].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال"[٥].

وقال الحسن - رحمه الله: "معالي الأخلاق للمؤمن قوة في لين، وحزم في دين، وإيمان في يقين، وحرص على العلم، واقتصاد في النفقة، وبذل في السَّعة، وقناعة في الفاقة، ورحمة للمجهود، وإعطاء في كرم، وبرٌّ في استقامة"[٦].

وقال الأشعث بن قيس يومًا لقومه: "إنَّما أنا رجل منكم، ليس في فضل عليكم، ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوط حريمكم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد علي فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه، قيل له: يا أبا محمد ما يدعوك إلى هذا الكلام ؟ قال: أحضهم على مكارم الأخلاق"[٧].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٣.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٥٣.

(٦) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: للإمام محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، ١/ ٢٨٣، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م - الطبعة: الثانية - تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي.

(٧) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ٢/ ٢٨٣.

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: "إنَّ حُسنَ الخلق يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وإنَّ الخلق السيئ يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل"[1].

علامات حسن الخلق:

قال يوسف بن أسباط: "علامة حسن الخلق عشر خصالٍ: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه، ولمن فوقه[2].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشَّجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشَّجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنَّه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنائها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال: ليس الشديد بالصرعة إنَّما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة"[3].

---

(١) تنبيه الغافلين: ص٣٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ٧١.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣٠٧.

من فوائد (حسن الخلق)[1]

(١) حسن الخلق من أفضل ما يقرّب العبد إلى اللّه تعالى.

(٢) إذا أحسن العبد خلقه مع النّاس أحبّه اللّه والنّاس.

(٣) حَسِنُ الخلق يألف النّاس ويألفه النّاس.

(٤) لا يكرّم العبد نفسه بمثل حسن الخلق ولا يهينها بمثل سوئه.

(٥) حُسنُ الخلق سبب في رفع الدّرجات وعلوّ الهمم.

(٦) حسن الخلق سبب في حبّ رسول اللّه ﷺ والقرب منه يوم القيامة.

(٧) حسن الخلق يدلّ على سماحة النّفس وكرم الطّبع.

(٨) حسن الخلق يحوّل العدوّ إلى الصّديق.

(٩) حسن الخلق سبب لعفو اللّه وجالب لغفرانه.

(١٠) يمحو اللّه بحسن الخلق السّيئات.

(١١) يدرك المرء بحسن خلقه درجة الصّائم القائم.

(١٢) حسن الخلق من أكثر ما يدخل النّاس الجنّة.

(١٣) حسن الخلق يجعل صاحبه ممّن ثقلت موازينه يوم القيامة.

(١٤) حسن الخلق يحرّم جسد صاحبه على النّار.

(١٥) حسن الخلق يصلح ما بين الإنسان وبين النّاس.

(١٦) وبالخُلق الحَسنِ يكثر المصافون ويقلّ المعادون.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٥٨٦.

الأَمانَةُ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْخِيَانَةِ

الأمانة خُلق من الأخلاق الإسلامية التي أمرنا بها ربنا - سبحانه وتعالى -، وحثَّنا عليها نبينا ﷺ، وهي خُلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين - عليهم جميعًا أفضل الصلوات وأزكى التسليمات -، وقد كان النبي ﷺ معروفًا بهذا الخُلق عند المشركين، وكانوا يحفظون أماناتهم عنده ﷺ، فما أحوجنا إلى أن نتعرف على هذا الخُلق الإسلامي الرفيع، وأن نقتدي بنبينا ﷺ، وفيما يأتي بيان فضل الأمانة في القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة.

الأمانة في القرآن الكريم:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: الأمانة الفرائض، عرضها الله على السماوات، والأرض، والجبال إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم، وقال آخرون: الأمانة الطاعة.

وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها.

وقال قتادة: الأمانة الدين، والفرائض، والحدود.

وقال بعضهم: الغسل من الجنابة.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: الأمانة ثلاثة الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة.

وقال الربيع بن أنس: هي الأمانات فيما بينك، وبين الناس.

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله: الأمانة تعمُّ جميع وظائف الدين، ونسب هذا القول إلى جمهور المفسرين[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: ٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٢٥٢.

وأمرنا الله تبارك وتعالى - بأداء الأمانات إلى أهلها؛ فقال - جلَّ وعلا - في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع.

ثم قال - رحمه الله: والأظهر في الآية أنَّها عامَّة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات، في قسمة الأموال، ورد الظلامات، والعدل في الحكومات، وهذا اختيار الطبري، وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع، والتحرز في الشهادات، وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما، ونحوه؛ والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى - [2].

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يخبر - تعالى - أنَّه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وهذا يعمُّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عزَّ وجلَّ -، على عباده: من الصلوات، والزكوات، والكفارات، والنذور، والصيام، وغير ذلك، ممَّا هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع، وغير ذلك ممَّا يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عزَّ وجلَّ - بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة[3].

وبيّن ربنا - سبحانه وتعالى - أنَّ الأمانة والمحافظة عليها وأدائها من صفات المؤمنين المفلحين؛ فقال - عزَّ وجلَّ - عند ذكر صفات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[4].

وحذرنا المولى - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز من خيانة الأمانة؛ فقال - جلَّ وعلا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[5].

---

(١) سورة النساء: الآية: ٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٥٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٨.

(٤) سورة المؤمنون: الآية:٨.

(٥) سورة الأنفال: الآية: ٢٧.

فعن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني: الفريضة يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها[1].

الأمانة في السنة النبوية:

إنَّ المتأمل في سنة المصطفى ﷺ يجد أنَّه صلوات الله عليه وسلامه حثَّ أمته على التحلي بهذا الخُلق العظيم، ألا وهو خُلق الأمانة في أحاديث كثيرة؛ منها:

أنَّه ﷺ أمرنا بأداء الأمانة إلى أصحابها، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[2].

قال أبو الفضل عباس بن محمد: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام وسئل عن تفسير هذا الحديث، فقال: هو الرجل يكون لك عليه المال فيجحدك ولا يعطيك، ثُمَّ يصير له عليك المال فلا بأس أن تأخذ منه الذي أخذ منك، وتعطيه الباقي[3].

وبيّن المصطفى ﷺ أنَّ الأمانة والمحافظة عليها وأدائها دليل على الإيمان، وأنَّ ضياع الأمانة دليل على خلل في الإيمان، ومن ذلك ما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[4].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ) فإن المؤمن من أمنه الخلق على أنفسهم وأموالهم، فمن خان وجار فليس بمؤمن، أراد نفي الكمال لا الحقيقة، (وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ)، هذا وأمثاله وعيد لا يراد به الوقوع، بل الزجر والردع ونفى الكمال والفضيلة، قال الحكيم: والعهد هو تذكرة الله للعبد يوم أخذ الميثاق فنسيه الأعداء وحفظه الموحدون، لكن تعتريهم غفلة، فأوفرهم حظًّا من الحفظ أوفرهم حظًّا من الذكر[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤١.

(٢) سنن أبي داود – كتاب البيوع – أبواب الإجارة – باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده حديث رقم (٣٥٣٧) ٢/ ٦٠٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (٣٥٣٥).

(٣) مكارم الأخلاق: ص٢.

(٤) مسند أحمد – ومن مسند بني هاشم – مسند أنس بن مالك حديث رقم (١٢٥٦٧) ٢٠/ ٣٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧١٧٩).

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٩٤٢.

وبيّن لنا النبي ﷺ أنَّ خيانة الأمانة علامة من علامات النفاق؛ فقال ﷺ: "آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"(١).

قال الإمام النووي – رحمه الله: "والصحيح المختار أنَّ معناه: أنَّ هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلق بأخلاقهم، فإنَّ النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنَّه منافق في الإسلام؛ فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنَّه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار"(٢).

وعن عبد اللّه بن عمرو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنّ النّبيّ ﷺ قال: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٣).

وبيَّن – صلوات الله عليه وسلامه أنَّ ضياع الأمانة من علامات الساعة، فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ»(٤).

قال الإمام ابن العربي – رحمه الله: "وصفة رفع الأمانة وفقدها: أن ينام الإنسان فتقبض من قلبه، والمعنى فيه: أنَّ المرء في النوم متوفَي، ثُمَّ مرجوع إليه روحه، فإذا قبضت على صفة من الأمانة ردت إليه بدونها، وتحقيقه أنَّ الأعمال لا يزال يضعفها نسيانها، حتى إذا تناهى الضعف ذهبت بالنوم عن النفس، فإذا ردت عليه ردت دونها؛ فلا يبقى لها أثر وما عنده من الإيمان، وأصل الاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب، ثُمَّ ينام

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب علامة المنافق حديث رقم (٣٣) ١/ ١٢، صحيح مسلم – باب بيان خصال المنافق حديث رقم (٢٢٠) ١/ ٤٥.

(٢) شرح النووي على مسلم: ٢/ ٤٧.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب علامة المنافق – حديث رقم (٣٤) ١/ ١٢، صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان خصال المنافق حديث رقم (٢١٩) ١/ ٤٥.

(٤) الطبراني في المعجم الكبير حديث رقم (٧١٨٢) ٧/ ٢٩٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢٥٧٠).

فلا ترجع إليه إلا بعد نزع باقي الأمانة بقوة؛ فلا يبقى شيء"[1].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ وسأله يا رسول الله متى الساعة؟ فقال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[2].

وقال ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»[3].

وبيّن لنا المصطفى ﷺ أنَّ حفظ الأمانة وأدائها سبب من أسباب دخول الجنة، فعن عبادة بن الصامت أنَّ رسول الله ﷺ قال: "اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنُ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ"[4].

وأوصي النبي ﷺ أصحابه بحفظ الأمانة، فعن عبد الله بن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قال: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ، أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَزَعَمْتَ: «أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ»، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ[5].

وعن معاذ بن جبل، – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «يَا مُعَاذُ، انْطَلِقْ فَارْحَلْ رَاحِلَتَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي أَبْعَثْكَ إِلَى الْيَمَنِ» فَانْطَلَقْتُ فَرَحَلْتُ رَاحِلَتِي ثُمَّ جِئْتُ فَوَقَفْتُ بِبَابِ الْمَسْجِدِ حَتَّى أَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ مَضَى مَعِي فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، إِنِّي

(١) فيض القدير: ٣/ ١١٤.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب رفع الأمانة حديث رقم (٦٥٧٥) ٣/ ١٣١٧.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الفتن – باب شدة الزمان حديث رقم (٤١٧٢) ١/ ٥٨٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٤١٠٨).

(٤) المستدرك للحاكم – كتاب الحدود حديث رقم (٨٠٦٦) ٤/ ٣٩٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠١٨).

(٥) صحيح البخاري – كتاب الشهادات – باب من أمر بإنجاز الوعد – حديث رقم (٢٧٢٢) ١/ ٥١٠.

أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَوَفَاءٍ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَتَرْكِ الْخِيَانَةِ، وَرَحْمَةِ الْيَتِيمِ، وَحِفْظِ الْجَارِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَبَذْلِ السَّلَامِ، وَلِينِ الْكَلَامِ، وَلُزُومِ الْإِيمَانِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي الْقُرْآنِ، وَحُبِّ الْآخِرَةِ، وَالْجَزَعِ مِنَ الْحِسَابِ، وَقِصَرِ الْأَمَلِ، وَحَسَنِ الْعَمَلِ، وَأَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِمًا، أَوْ تُكَذِّبَ صَادِقًا، أَوْ تُصَدِّقَ كَاذِبًا، أَوْ تَعْصِيَ إِمَامًا عَادِلًا»(٦).

الأمانة من صفات الأنبياء وأتباعهم:

بيَّن لنا المولى - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز أنَّ الأمانة صفة من صفات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم، وورد ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم؛ منها:

قال نبي الله نوح - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٧).

وقال نبي الله هود - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٨).

وقال نبي الله صالح - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٩).

وقال نبي الله لوط - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١٠).

وقال نبي الله شعيب - عليه السلام -: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١١).

ولقد كان المشركون يقولون عن النبي ﷺ: إنَّه الصادق الأمين، وكان هو ﷺ يقول عن نفسه: "أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ وَأَمِينٌ فِي الأَرْضِ"(١٢).

---

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية حديث رقم (٨٥٠).

(٧) سورة الشعراء: الآية: ١٠٧.

(٨) سورة الشعراء: الآية: ١٢٥.

(٩) سورة الشعراء: الآية: ١٤٣.

(١٠) سورة الشعراء: الآية: ١٦٢.

(١١) سورة الشعراء: الآية: ١٧٨.

(١٢) الطبراني في الكبير - حديث رقم (٩٨٩) ١/ ٣٣١، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٣٣٧).

من أقوال السَّلف في الأمانة:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "القتل في سبيل الله كفارة كل ذنب إلا الأمانة، وإنَّ الأمانة الصلاة، والزكاة، والغسل من الجنابة، والكيل والميزان، والحديث، وأعظم من ذلك الودائع"[1].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إذا كانت في البيت خيانة ذهبت منه البركة[2].

وعن خالد الربعي قال: كان يقال: "إن من أجدر الأعمال أن لا تؤخر عقوبته، أو يعجل عقوبته، الأمانة تخان، والرحم تقطع، والإحسان يكفر"[3].

وعن مجاهد قال: المكر والخديعة والخيانة في النار، وليس من أخلاق المؤمن المكر، ولا الخيانة[4].

مجالات الأمانة، وأنواعها:

للأمانة مجالات وأنواع متعددة، وليست كما يظن كثير من الناس عند سماع هذه الكلمة أنَّ المراد بها الأموال والودائع، ولكن الأمانة تشمل الدين كله، ومن مجالات الأمانة وأنواعها الآتي:

١ - أمانة التكليف:

من أعظم الأمانات التي أمر الله عزَّ وجلَّ - بحفظها والعناية بها والمحافظة عليها وأدائها، كما أمر - سبحانه وتعالى - أمانة التكاليف الشرعية التي كلفنا بها في هذه الحياة الدنيا، وبيَّن الله عزَّ وجلَّ - لنا في كتابه العزيز هذه التكاليف الشرعية، وأنَّه لم يخلقنا عبثًا، ولم يتركنا سدى، وإنما خلقنا لحكمة عظيمة، ومهمة جليلة، وهى تحقيق توحيده وعبوديته سبحانه وتعالى -، وتتجلى أمانة التكليف في قوله تعالى -: ﴿ وَمَا

(١) مكارم الأخلاق ومعاليها: للخرائطي، ص٢.

(٢) المرجع السابق: ص٣١.

(٣) المرجع السابق: ص٢.

(٤) المرجع السابق: ص٢.

﴿خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أي: وما خلقت الجن ولإنس إلا لآمرهم بالعبادة[2].

وقال عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إلا ليعبدون ويطيعون، فأثيب العابد، وأعاقب الجاحد[3].

فالهدف الأسمى من خلق الإنس والجن هو التعبد لله جلَّ وعلا - فنعبده وحده لا نشرك به شيئًا، ونستقيم على تلك العبودية، ثُمَّ نأخذ بأيدي الناس من حولنا إلى عبادة الله جلَّ وعلا - بالحكمة والموعظة الحسنة.

٢ - أمانة الأموال والودائع:

وهي من أخطر الآفات والآثام التي تركها كثير من المسلمين، وأشد الأمانة الودائع من الأموال، والأولاد، وغير ذلك، يقول الله تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[4].

وقال ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»[5].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله: (مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ) بوجه من وجوه التعامل، أو للحفظ، أو بقرض، أو غير ذلك لكنه (يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ) خبر لفظًا ومعنى، أي: يسر الله ذلك بإعانته، وتوسيع رزقه، ويصح كونها إنشائية معنى بأن يخرج مخرج الدعاء، (وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا) على أصحابها بصدقة أوغيرها (أَتْلَفَهُ اللَّهُ)، أي: أتلف الله أمواله في الدنيا بكثرة المحن، والمغارم، والمصائب، ومحق البركة، وفي الآخرة بالعذاب[6].

---

(١) سورة الذاريات: الآية: ٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٥٥.

(٣) المرجع السابق: ١٧/ ٥٦.

(٤) سورة النساء: الآية: ٥٨.

(٥) صحيح البخاري - كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس - باب من أخذ أموال يريد أداءها أو إتلافها - حديث رقم (٢٤٢٦) ١/ ٤٤٦.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٧٥٦.

٣ - أمانة حفظ الأسرار:

ومن الأمانات التي أمر الشارع بحفظها، وحذَّر من إفشائها أمانة كتم الأسرار، ولا سيَّما بين الرجل وزوجته، وقد جاء في سنة المصطفى ﷺ فعن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»(١).

قال الإمام النووي - رحمه الله: "وفي هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجرى بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل ذلك، وما يجرى من المرأة فيه من قول أو فعل ونحوه، فأمَّا مجرد ذكر الجماع فإن لم تكن فيه فائدة، ولا إليه حاجة، فمكروه؛ لأنَّه خلاف المروءة، وإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة بأن ينكر عليه إعراضه عنها، أو تدعى عليه العجز عن الجماع، أو نحو ذلك فلا كراهة في ذكره، كما قال ﷺ: إِنِّي لأَفْعَلُهُ أَنَا وَهَذِهِ، وقال ﷺ لأبي طلحة «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟»، وقال لجابر: الكَيْسَ الكَيْسَ يَا جَابِرُ"(يعني الولد)(٢) (٣).

٤ - الأمانة تجاه الرعية:

ومن الأمانات التي أمر الشارع بحفظها والعناية بها الأمانة تجاه الرعية أيًّا كانت هذه الرعية خاصة أو عامة، كبيرة أو صغيرة، عظيمة أو حقيرة، وقد جاء الأمر بذلك في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومن ذلك قول الله تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٤).

وعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،

---

(١) صحيح مسلم - كتاب النكاح - باب تحريم إفشاء سر المرأة - حديث رقم (٣٦١٥) ١/ ٥٩١.

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب طلب الولد - حديث رقم (٥٣٠٠) ٣/ ١٠٩٧.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٠/ ٩.

(٤) سورة التحريم: الآية: ٦.

وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ"، أي: حافظ ملتزم بصلاح ما قام عليه، وهو ما تحت نظره من الرعاية، وهي الحفظ، يعني: كلكم مستلزم بحفظ ما يطالب به من العدل إن كان واليا، ومن عدم الخيانة إن كان موليًا عليه.

(وكل) راع (مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) في الآخرة، فكل من كان تحت نظره شيء فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه، ومتعلقات ذلك، فإن وفي ما عليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر والجزاء الأكبر، وإلا طالبه كل أحد من رعيته بحقه في الآخرة[2].

وعن معقل بن يسار – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[3].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً)، أي: يفوض إليه رعاية رعية، وهي بمعنى المرعية، بأن ينصبه إلي القيام بمصالحهم، ويعطيه زمام أمورهم، والراعي الحافظ المؤتمن على ما يليه من الرعاية وهي الحفظ، (يَمُوتُ) خبر ما (يَوْمَ يَمُوتُ) الظرف مقدم على عامله،(وَهُوَ غَاشٌّ)، أي: خائن (لرعيته) المراد يوم يموت وقت إزهاق روحه وما قبله من حالة لا تقبل فيها التوبة؛ لأن النائب من خيانته تقصيره لا يستحق هذا الوعيد، (إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)، أي: إن استحل أو المراد يمنعه من دخوله مع السابقين الأولين، وأفاد التحذير من غش الرعية لمن قلد شيئًا من أمرهم، فإذا لم ينصح فيما قلد أو أهمل فلم يقم بإقامة الحدود، واستخلاص الحقوق، وحماية البيضة، ومجاهدة العدو، وحفظ الشريعة، ورد المبتدعة والخوارج، فهو داخل في هذا

---

(١) صحيح البخاري – كتاب العتق – باب العبد راع في مال سيده حديث رقم (٢٥٩٧) ١/ ٤٨١، صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل حديث رقم (٤٨٢٨) ٢/ ٨٠٥.

(٢) فيض القدير: ٥/ ٤٩.

(٣) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار حديث رقم (٣٨٠) ١/ ٧٢.

الوعيد الشديد المفيد؛ لكون ذلك من أكبر الكبائر المبعدة عن الجنة، وأفاد بقوله: يوم يموت: أنَّ التوبة قبل حالة الموت مفيدة"[1].

٥ - الأمانة في البيع والشراء:

فعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا"[2].

فالشعب أمانة في يد الزعماء، والدين أمانة في يد العلماء، والعدل أمانة في يد القضاة، والحق أمانة في يد المحامين، والصدق أمانة في يد الشهود، والمرضى أمانة في يد الأطباء، والمصالح أمانة في يد المستخدمين، والتلميذ أمانة في يد الأستاذ، والولد أمانة في يد أبيه، والوطن أمانة في عنق الجميع، ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[3].

التَّحذير من خيانة الأمانة:

لقد حذرنا الله عز وجل من خيانة الأمانة، فقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]، لا تخونوا الله والرسول في الأمانة العامة أمانة التكاليف، ولا تخونوا أماناتكم الخاصة من الودائع.

وكان ﷺ يستعيذ من الخيانة؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ»[5].

---

(١) فيض القدير: ٥/ ٦٢٣.

(٢) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا حديث رقم (٢١٨٨) ١/ ٣٨٨.

(٣) سورة البقرة: الآية:٢٨٣.

(٤) سورة الأنفال: الآية: ٢٧.

(٥) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب في الاستعاذة حديث رقم (١٥٤٩) ١/ ٢٦٢، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (١٥٤٧).

قال الإمام المناوي – رحمه الله:(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ)، أي: من ألمه وشدة مصابرته، (فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ)، أي: النائم معي في فراش واحد قلما كان يلازم صاحبه في المضجع سمي ضجيعًا، (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ)، ومن ثَمَّ قيل: أفحش الزمانة عدم الأمانة[1].

من فوائد الأمانة[2]:

(١) الأمانة من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) يقوم عليها أمر السّموات والأرض.

(٣) هي محور الدّين وامتحان ربّ العالمين.

(٤) بالأمانة يحفظ الدّين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشّهادة والقضاء والكتابة...

(٥) الأمين يحبّه اللّه ويحبّه النّاس.

(٦) من أعظم الصّفات الخلقيّة الّتي وصف اللّه بها عباده المؤمنين بقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ»[3].

(٧) مجتمع تفشو فيه الأمانة مجتمع خير وبركة.

---

(١) فيض القدير: ٢/ ١٨٩.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٣/ ٥٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآية: ٨.

الصِّدْقُ، وَخُطُورَةُ الْكَذِبِ

من الأخلاق الإسلامية التي أمرنا ربنا - جلَّ وعلا -، وحثَّنا عليها نبينا ﷺ، خُلق الصدق، والصدق يكون في الأقوال، والأعمال، وفيما يأتي نبيِّن فضل الصدق في القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة.

فضل الصدق في القرآن الكريم:

الصدق خصلة محمودة، وسجية ممدوحة، والصدق: هو أن يخبر الإنسان عمَّا يعتقد أنَّه الحق، وأنَّه مطابق للواقع بلا زيادة ولا نقصان، بلا وكس، ولا شطط، وليس الإخبار مقصورًا على القول فحسب، بل قد يكون بالفعل: كالإشارة باليد، أو هز الرأس، وقد يكون بالسكون.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الصدق، وهو منزل القوم الأعظم، منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين[1].

إنَّ المتأمل والمتدبر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ المولى - سبحانه وتعالى - قد بيَّن لنا عظم هذا الخُلق، وأهميته، ومكانته في آيات كثيرة؛ منها:

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٨.

١ - أمر الله سبحانه وتعالى - أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ فقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: يقول - تعالى ذكره للمؤمنين، معرِّفَهم سبيل النجاة من عقابه، والخلاص من أليم عذابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ﴾، بالله ورسوله﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وراقبوه بأداء فرائضه، وتجنب حدوده ﴿وَكُونُواْ﴾، في الدنيا، من أهل ولاية الله وطاعته، تكونوا في الآخرة﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في الجنة، يعني: مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذِّب قيلَهم فعلُهم[٢].

وقال أبو حيان الأندلسي - رحمه الله: هو خطاب للمؤمنين، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق، واعترضت هذه الجملة تنبيهًا على رتبة الصدق، وكفى بها أنَّها ثانية لرتبة النبوة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[٣][٤].

٢ - أخبر الله تعالى - عن أهل البر، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان والإسلام وبالصدقة والصبر بأنهم أهل الصدق، فقال - جلَّ وعلا -: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة: الآية: ١١٩.

(٢) تفسير الطبري: ١٤/ ٥٥٨.

(٣) سورة النساء: الآية: ٦٩.

(٤) البحر المحيط: ٥/ ١٩.

(٥) سورة البقرة: الآية: ١٧٧.

وهذا صريح في أنَّ الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

٣ - وقسَّم الله سبحانه وتعالى - الناس إلى صادقٍ ومنافق، فقال - جلَّ وعلا -: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١).

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

٤ - وأخبر - سبحانه أنَّه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال - تعالى -: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٢).

وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٣).

فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله.

٥ - وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق؛ فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾(٤).

٦ - وأخبر سبحانه عن خليله إبراهيم - عليه السلام - أنَّه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين؛ فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾(٥).

٧ - وبَشّر الله سبحانه وتعالى - عباده بأنَّ لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق؛ فقال: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة: الآية: ١١٩.

(٣) سورة الزمر: الآية: ٣٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية: ٨٠.

(٥) سورة الشعراء: الآية: ٨٤.

(٦) سورة يونس: الآية: ٢.

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1].

وقال – سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[2].

٨ – الأنبياء وكمال الصدق: لقد وصف الله عزَّ وجلَّ – أنبياءه بالصدق في كتابه العزيز، فقال عن إبراهيم – عليه السلام –: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[3].

وقال عن إدريس – عليه السلام –: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[4].

وقال عن إسماعيل – عليه السلام –: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[5].

وقال عن كليمه موسى – عليه السلام –: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[6]، أي: الصدق.

وقال عن يوسف – عليه السلام –: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾[7].

وقال في حقِّ المصطفى ﷺ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[8].

فضل الصدق في السنة النبوية المطهرة:

جاءت أحاديث كثيرة في السُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة تبيِّن لنا فضل ومنزلة الصدق وجزاء الصادقين، منها: أن الصدق طريق إلى الجنة، وأنه طمأنينة، ومنجاة، وسبب من أسباب دخول الجنة، وفيما يأتي بيان ذلك:

---

(١) سورة القمر: الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة النساء: الآية: ٦٩.

(٣) سورة مريم: الآية: ٤١.

(٤) سورة مريم: الآية: ٥٦.

(٥) سورة مريم: الآية: ٥٤.

(٦) سورة الأعراف: الآية: ١٠٥.

(٧) سورة يوسف: الآية: ٤٦.

(٨) سورة الأحزاب: الآية: ٢٢.

١ - الصدق طريق إلى الجنة:

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[١].

قال الإمام النووي - رحمه الله: قال العلماء: معناه أنَّ الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كلِّ مذموم، والبر اسم جامع للخير كلِّه، وقيل: البر الجنة، ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة، وأمَّا الكذب فيوصل إلى الفجور، وهو الميل عن الاستقامة، وقيل: الانبعاث في المعاصي قوله ﷺ: (وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)[٢].

قال الإمام النووي - رحمه الله: "قال العلماء: هذا فيه حثٌّ على تحري الصدق، وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب، والتساهل فيه، فإنَّه إذا تساهل فيه كثر منه؛ فعرف به، وكتبه الله لمبالغته صديقًا إن اعتاده، أو كذابًا إن اعتاده، ومعنى يكتب هنا يحكم له بذلك، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين وعقابهم، والمراد إظهار ذلك للمخلوقين إمَّا بأن يكتبه في ذلك؛ ليشتهر بحظه من الصفتين في الملأ الأعلى، وإمَّا بأن يلقي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، كما يوضع له القبول والبغضاء، وإلا فقدر الله تعالى - "[٣].

٢ - الصدق طمأنينة:

فعن أبي الحوراء السعدي، قال: قلت للحسن بن علي: ما حفظت من رسول الله ﷺ؟ قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ»[٤].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" حديث رقم (٦١٦١) ٣/ ١٢٤٤، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله حديث رقم (٦٨٠٣) ٢/ ١١٠٦.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٦/ ١٦٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٦/ ١٦٠.

(٤) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب اعقلها وتوكل - حديث رقم (٢٧٠٨) ٢/ ٦٤١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٥١٨).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ:(دع ما يريبك)، أي: اترك ما تشك في كونه حسنًا أو قبيحًا أو حلالًا أو حرامًا، (إلى ما لا يريبك)، أي: واعدل إلى ما لا شك فيه، يعني: ما تيقنت حسنه وحله، (فإن الصدق طمأنينة)، أي: يطمئن إليه القلب ويسكن، (وإن الكذب ريبة)، أي: يقلق له القلب ويضطرب[1].

٣ – الصدق منجاة:

أخرج ابن أبى الدنيا عن منصور بن المعتمر أنَّ النبي ﷺ قال: (تَحَرُّوا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْهَلَكَةَ فِيْهِ، فَإِنَّ فِيْهِ النَّجَاةَ)[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: (تحروا الصدق)، أي: قوله والعمل به، (وإن رأيتم أن فيه الهلكة) ظاهرًا،(فإن فيه النجاة) باطنًا باعتبار العاقبة[3].

وعن ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ الأَمَانَةِ، وصِدْقُ حَدِيثٍ، وحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وعِفَّةُ طُعْمٍ»[4].

٤ – الصدق سبب من أسباب دخول الجنة:

فعن عبادة بن الصامت أنَّ النبي ﷺ قال: "اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنُ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ"[5].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ:(اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ)، أي: لا تكذبوا في شيء من حديثكم إلا إن ترتب على الكذب مصلحة، (وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ) فإنَّ الوفاء بالوعود

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ١٣.

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا في مكارم الأخلاق – باب في الصدق وما جاء في فضله وذم الكذب حديث رقم (١٣٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (٢٣٩٩).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٩٠٢.

(٤) مسند أحمد – حديث رقم (٦٦٥٢) ١١/ ٢٣٣، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٧١٨).

(٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الحدود حديث رقم (٨٠٦٦) ٤/ ٣٩٩، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩٠١، ٢٤١٦).

والعهود محبوب مطلوب، (وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ) إنَّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها، (وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ) من فعل الحرام، (وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ)، أي: كفوها عن النظر إلى كلِّ محرم، (وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ)، أي: امنعوها عن تعاطي ما لا يجوز تعاطيه شرعًا[1].

ثالثًا: من أقوال السَّلف في الصِّدق:

قال إبراهيم الخواص: "الصدق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه"[2].

وقال محمد بن سعيد المروزي: "إذا طلبت الله بالصدق، آتاك الله تعالى - مرآة بيدك، تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة"[3].

وقال أبو سليمان الداراني: "اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى - غاية طلبتك"[4].

وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق، والحياء، وحسن الخلق، والشكر"[5].

وقال بشر بن الحارث: "من عامل الله بالصدق استوحش من الناس"[6].

وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقًا، فقال له: "لو كنت صادقًا لعرفت الصادقين"[7].

وعن محمد بن علي الكناني قال: "وجدنا دين الله تعالى - مبنيًا على ثلاثة أركان: على الحقِّ، والصدق، والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول"[8].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٣٢٤.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٢٩٠.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٨٧.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٦) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٧) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٨) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

وقال الثوري في قوله تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1]، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى -، ولم يكونوا بها صادقين[2].

وأوحى الله تعالى - إلى داود - عليه السلام - يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته[3].

وقال بعضهم: أجمع الفقهاء، والعلماء على ثلاث خصال أنَّها إذا صحت ففيها النجاة، ولا يتم بعضها إلا ببعض، الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى - في الأعمال، وطيب المطعم[4].

أنواع الصدق:

إنَّ للصدق أنواعًا عديدة، فليس الصدق قاصرًا على الصدق في القول فحسب، بل هناك الصدق في القول، والصدق في النية، والصدق في العزم، والصدق في الأعمال، وبيانها كالآتي:

١ - الصدق في القول:

فحقٌّ على كلِّ عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة أنَّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»[5].

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٦٠.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٨٧.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٣٨٧.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس حديث رقم (٢٧٣٣) ١/ ٥١٣، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه حديث رقم (٦٧٩٩) ٢/ ١١٠٥.

والصدق مطلوب في كل كلمة تخرج من فم المؤمن، حتى لو كان الكلام على سبيل المزاح، وذلك لما أخرجه أبو داود عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»(١).

ولذلك فإنَّنا نجد أنَّ الإسلام قد انتشر في أواسط أفريقيا، بل وفي كلِّ أقطار الأرض بصدق المسلمين في بيعهم وشرائهم، لدرجة أنَّ الناس كانوا يعجبون من صدق المسلمين وتسامحهم، ممَّا جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا.

فما أحوج الأمة لتلك الأخلاق والمعاملات التي جاء بها الإسلام لسعادة البشرية كلها.

٢ - الصدق في النية والإرادة:

وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذبًا، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"(٢).

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في حسن الخلق حديث رقم (٤٨٠٢) ٢/ ٨٠٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٤٨٠٠).

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب من قاتل للرياء والسمعة فاستحق النار حديث رقم (٥٠٣٢) ٢/ ٨٣٥.

القارئ، والمتصدق، والمجاهد، لما قال القارئ: قرأت القرآن، والمتصدق تصدقت، والمجاهد جاهدت في سبيلك، إنَّما كذبهم الله عزَّ وجلَّ - في إرادتهم ونيتهم لا في نفس القراءة، والصدقة، والجهاد.

فهؤلاء نيتهم كانت وجهتها إلى الدنيا، وليس في عملهم أو نيتهم شيء لله عزَّ وجلَّ -.

٣ - الصدق في العزم، والوفاء به:

أمَّا الأول فنحو أن يقول: إن أتاني الله مالًا تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد، وأمَّا الثاني فنحو: أن يصدق في العزم، وتسخوا النفس بالوعد؛ لأنَّه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال - تعالى -: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

٤ - الصدق في الأعمال: وهو أن تستوي سريرته وعلانيته، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك.

وكان أحد الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب غير خاشع[2].

وقال مطرف: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عزَّ وجلَّ -: هذا عبدي حقًّا[3].

من فوائد الصدق[4]:

(١) الصّدق طريق الأبرار إلى الجنّة.

(٢) الصّادقون هم أحباب اللّه المقرّبون.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: ٢٣.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي - التاسع والثلاثون من شعب الإيمان - الخامس والأربعون من شعب الإيمان وهو باب في إخلاص العمل لله رقم (٦٩٦٦) ٥/ ٣٦٤، الزهد لأحمد بن حنبل - زهد أبي الدرداء - رقم ١/ ١٤٢.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل - أخبار مطرف بن الشخير - ١/ ٢٣٩.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٦/ ٢٥١٦.

(٣) مدح اللّه أنبياءه وخلّاصه بأنّهم مصدّقون وصادقون ويوم القيامة ينفعهم صدقهم.

(٤) الصّادقون يحبّهم النّاس ويثقون بهم ويأتمنونهم في سائر معاملاتهم.

(٥) الصّادق يعتزّ بنفسه ويرفع نفسه بين أفراد مجتمعه.

(٦) الصّدق يرفع الأعمال ويعلي شأنها.

الشُّكْرُ، ومَنْزِلَةُ الشَّاكِرِينَ

إنَّ المتأمل والمتدبر في نعم الله عزَّ وجلَّ - علينا يجد أنَّها في هذه الحياة الدنيا كثيرة، لا تعدُّ، ولا تحصى، وهذا النِّعم لا بُدَّ على الإنسان أن يقابلها بالشكر كي تدوم، ويبارك الله له فيها، فالشكر لله على نعمه وآلائه عبادة من العبادات التي يتقرب بها العبد لخالقه جلَّ وعلا -، والشكر يكون باللسان، والقلب، والجوارح، فاللسان ينطق، والقلب يتأمل ويتفكر، والجوارح تعمل، وفيما يأتي بيان حقيقة الشكر، وفضله من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

الشكر في القرآن الكريم:

لقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ - بشكره على نعمه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وبيَّن - سبحانه أنَّ بشكر النعم تكون الزيادة والبركة فيما أنعم علينا؛ منها: قوله تعالى -: ﴿ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1].

يذكِّر - تعالى - عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء؛ فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة[2].

وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾، أمر الله تعالى - بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير؛ فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٤٥.

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1].

قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾، أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُم﴾، أي: كفرتم النعم، وسترتموها، وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها[2].

وقال – عزَّ وجلَّ –: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3].

قوله تعالى –: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾، ذكر أنَّ من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالًا لا علم لكم بشيء.

وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها: لا تعلمون شيئًا ممَّا أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم، الثاني: لا تعلمون شيئًا ممَّا قضى عليكم من السعادة والشقاء، الثالث: لا تعلمون شيئًا من منافعكم، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾، أي: التي تعلمون بها وتدركون؛ لأنَّ الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون، وإنَّما أعطاهم ذلك بعدما أخرجهم، أي: وجعل لكم السمع؛ لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار؛ لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة؛ لتصلوا بها إلى معرفته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمه، الثاني: يعني تبصرون آثار صنعته؛ لأنَّ إبصارها يؤدي إلى الشكر[4].

وأخبر – سبحانه أنَّ رضاه تبارك وتعالى – في شكره؛ فقال – تعالى –: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية:٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٣٧.

(٣) سورة النحل: الآية:٧٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٥١.

(٥) سورة الزمر: الآية:٧.

وأخبر - سبحانه وتعالى - إنَّما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته؛ فقال - تعالى -: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1].

وأثنى الله سبحانه وتعالى - على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر؛ فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[2].

ووصف الله تعالى - الشاكرين بأنهم قليل من عباده؛ فقال - تعالى -: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[3].

الشكر في السنة النبوية:

انظروا إلى النبي ﷺ خير خلق الله، وحبيب رب العالمين، ومصطفاه الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من يحرك باب الجنة - صلوات الله عليه وسلامه كيف كان يشكر الله على نعمه.

فعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ»[4].

قال القاضي: الشكر معرفة إحسان المحسن، والتحدث به، وسميت المجازاة على فعل الجميل شكرًا؛ لأنَّها تتضمن الثناء عليه، وشُكْرُ العبدِ اللهَ - تعالى - اعترافه بنعمه، وثناؤه عليه، وتمام مواظبته على طاعته، وأمَّا شكر الله تعالى أفعال عباده فمجازاته إياهم عليها، وتضعيف ثوابها، وثناؤه بما أنعم به عليهم، فهو المُعطي، والمُثني - سبحانه، والشكور من أسمائهـ سبحانه وتعالى - بهذا المعنى، والله أعلم[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية:١٧٢.

(٢) سورة الإسراء: الآية:٣.

(٣) سورة سبأ: الآية: ١٣.

(٤) صحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة حديث رقم (٧٣٠٤) ٢/ ١١٩٢.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي: ١٧/ ١٦٣.

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال لمعاذ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"[1].

فالعبد أحوج شيء إلى مولاه في طلب إعانته على فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، قال يعقوب - عليه السلام - في الصبر على المقدور﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[2]، وما ذكر من هذه الوصايا النبوية لا ينافي القيام بالأسباب، فإنَّها من جملة سؤال الله، والاستعانة به، فإنَّ من طلب رزقه بسبب المعاش المأذون فيها رزق من جهته، فهو منه تعالى -، وإن حرم فهو لمصلحة لا يعلمها، ولو كشف الغطاء لعلم أنَّ الحرمان خير من العطاء، والكسب الممدوح المأجور فاعله عليه هو ما كان لطلب الكفاية له ولمن يعوله، أو الزائد على ذلك إذا كان يعده لقرض محتاج، أو صلة رحم، أو إعانة طالب علم، أو نحوه من وجوه الخير، لا لغير ذلك، فإنَّه يكون من الاشتغال بالدنيا، وفتح باب محبتها، الذي هو رأس كل خطيئة[3].

حقيقة الشكر:

وحقيقة الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافًا وعلى قلبه: شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادًا وطاعة.

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح: أمَّا الشكر بالقلب فهو: أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة، وأمَّا باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأمَّا بالجوارح: فهو استعمال نعم الله عزَّ وجلَّ - في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه؛ فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب تفريع أبواب الوتر - باب في الاستغفار حديث رقم (١٥٢٤) ١/ ٢٥٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (١٥٢٢).

(٢) سورة يوسف: الآية: ١٨.

(٣) سبل السلام شرح بلوغ المرام: ٤/ ١٧٧.

أنبياء الله عزَّوجلَّ - والشكر:

ها هو نبي الله نوح - عليه السلام - قال الله تعالى - عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[1].

قال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله؛ فسماه الله عبدًا شكورًا[2].

وعن مجاهد في قوله تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾قال: لم يأكل شيئًا إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه؛ فأثنى الله عليه بأنَّه كان عبدًا شكورًا[3].

وها هو خليل الرحمن سيدنا إبراهيم - عليه السلام -، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾[4].

وهذا نبي الله موسى - عليه السلام -، قال - تعالى -: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[5].

أي: اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية، وبتكلمي إياك بدون واسطة، (فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ)، أي: خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة، (وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ)، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم.

اعملوا آل داود شكرًا: قال - تعالى -: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٣.

(٢) الزهد: لابن المبارك ١/ ٣٢٩.

(٣) الشكر: لابن أبي الدنيا: ص ٧٠.

(٤) سورة النحل: الآيتان: ١٢١،١٢٠.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ١٤٤.

مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[1].

وهذا هو الحبيب ﷺ سيد الشاكرين:

فعن أبي أيوب أنَّ النبي ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ، وَسَقَى وَسَوَّغَهُ وَجَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا»[2].

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنَّ النبي ﷺ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[3].

وأخرج مسلم في صحيحه أنَّ النبي ﷺ: "كَانَ إِذَا عَطَسَ حَمِدَ اللهَ، فَيُقَالُ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَيَقُولُ: "يَهْدِيكُمُ اللهُ، وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ"[4].

سلفنا الصالح وشكر الله عزَّوجلَّ -:

لقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة في الشكر، وحمد الله تعالى - على نعمه، وشكره تعالى - في السراء والضراء، ومن ذلك:

صِدِّيق الأمة سيدنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من دعائه: "اللهم أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم"[5].

---

(١) سورة سبأ: الآيات: ١٠ - ١٣.

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأطعمة - باب ما يقول الرجل إذا طعم حديث رقم (٣٨٥٣) ٢/ ٦٤٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٣٨٥١).

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الأدب - باب فضل الحامدين حديث رقم (٣٩٣٥) ١/ ٥٤٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٣٨٧١).

(٤) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب تشميت العاطس - حديث رقم (٦٢٩٦) ٣/ ١٢٦٧.

(٥) الشكر: لابن أبي الدنيا، ص ٤٠.

فاروق الأمة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لبس قميصًا فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي"(١).

وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: "يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها"(٢).

وعنه أيضًا – أنَّه قال لرجل من أهل حمدان: "إنَّ النعمة موصولة بالشكر، والشكر متعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرنٍ، فلن ينقطع المزيد من الله عزَّ وجلَّ – حتى ينقطع الشكر من العبد"(٣).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه"(٤).

ومر وهيب بن الورد القرشي على قوم يضحكون ويمرحون يوم الفطر فقال: "إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين.. وإن كان هؤلاء لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين"(٥).

وقال يونس بن عبيد: "قال رجل لابن تيمية: كيف أصبحت؟ قال أصبحت بين نعمتين لا أدري أيُّهما أفضل، ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي؟(٦).

وعن سليم بن عامر قال: سمعت عبد الله بن قرط الأزدي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ على المنبر يقول: في يوم أضحى، ورأى على الناس أنواع الثياب يا لها من نعمة ما أسبغها، ويا لها من كرامة ما أظهرها، إنَّه ما زال عن جادة قوم

---

(١) الشكر: لابن أبي الدنيا، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق: ص ١١.

(٣) المرجع السابق: ص ١١.

(٤) المرجع السابق: ص ٣٣.

(٥) المرجع السابق: ص١٤.

(٦) المرجع السابق: ص ١٨.

شيء أشد عليهم من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعم بشكر المُنعَم عليه للمُنعِم[1].

وعن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه أنَّه قال: لجليس له يومًا اشكر المُنعِم عليك، وأنعم على الشاكر لك، فإنَّه لا نفاذ للنعم إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير[2].

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات كتابًا عن المعتصم بالله إلى عبد الله بن طاهر، فكان في فصل منه: لو لم يكن من فضل الشكر إلا أنَّه لا يرى إلا بين نعمة مقصورة عليه، أو زيادة منتظرة منه[3].

وقال الفضيل بن عياض: "خلتان لا أبيع إحداهما بشيء، قول الناس قد أحسنتَ لو أعطيت رجلًا ألف دينار، فقال لك أحسنت جزاك الله خيرًا، كان الذي أعطاك خيرًا من الذي أخذ، والأخرى لا تشتريها بشيء قول الناس قد أسأت"[4].

وقال أعرابي لعبد الله بن جعفر: لا ابتلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يقصر عنها شكرك[5].

بالشكر تحفظ النِّعم:

أخبرنا المصطفى ﷺ أنَّ الشكر يحفظ النعم، وذلك لما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال «إِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - يَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[6].

---

(١) فضيلة الشكر لله على نعمته: للخرائطي، ص٦٦.

(٢) المرجع السابق: ص٦٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٤) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٦) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب حديث رقم (٧١٠٨) ٢/ ١١٥١.

وقال ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهَا إِلَّا كَانَ ذَلِكَ الْحَمْدُ أَفْضَلُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ، وَإِنْ عَظُمَتْ»(١).

وعن ثوبان أنَّ النبي ﷺ قال: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ»(٢).

الشكر عند المصيبة، وجزاؤه:

فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ"(٣).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله: (إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ)، أي: الإنسان المسلم ذكرًا أو أنثى، (قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ) الموكلين بقبض أرواح الخلائق: (قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي)، أي: روحه، (فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ) أن نتيجته كالثمرة تنتجها الشجرة، (فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي) عند ذلك، (فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ)، أي: أثنى عليك بالجميل،(وَاسْتَرْجَعَ)، أي: قال: إنا لله وإن إليه راجعون، قال الطيبي: رجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على فضل المؤمن المصاب الحامد، وقال أوّلًا: ولد عبده، أي: فرع شجرته، ثُمَّ ترقى إلى ثمرة فؤاده، أي: نقاوة خلاصته، فيقول الله تعالى) لملائكته أو لمن شاء من خلقه، (ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ) ليسكنه في الآخرة،(وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ)، أي: البيت المنعم به على أنَّه ثواب الحمد، وفيه أنَّ المصائب لا ثواب فيها، بل في الصبر عليها، وعليه جمع لكن نوزع فيه(٤).

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير حديث رقم (٧٧٩٤) ٨/ ١٩٣، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٥٦٢).

(٢) سنن ابن ماجه كتاب النكاح – باب أفضل النساء حديث رقم (١٩٢٩) ١/ ٢٧٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (١٨٨٣).

(٣) سنن الترمذي – كتاب الجنائز – باب فضل المصيبة إذا احتسب حديث رقم (١٠٣٧) ١/ ٢٧٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٠٢١).

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٢٥٧.

وعن صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

وسائل تحقيق الشكر:

يتحقق شكر الله تعالى - على النِّعمة بأمور:

أولها: معرفة النعمة، بأن يعرف أنَّها نعمة، ويعرف قدرها، ويعرف وجه كونها نعمة، ويستحضرها في الذهن ويميزها؛ إذ كثير من الناس تحسن إليه، وهو لا يدري، وقد نبه النبي ﷺ إلى معرفة قدر النعم بقوله: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»(٢).

والثاني: معرفة أنَّها من الله تعالى -، فمن لم يقر بالله، أو لم يقر بأنَّ النعم منه، لم يتصور شكره له، وإذا عرف أنَّها من الله أحبه عليها.

والثالث: قبول النعمة بإظهار الفقر والحاجة إليها، ومعرفة أنَّ وصولها إليه بغير استحقاق من العبد، ولا بذل ثمن، بل بمحض فضل الله تعالى -.

والرابع: الثناء على المُنعِم بها، وعدم كتمانها، فإنَّ كتمانها كفران لها، والثناء إمَّا عام، كوصفه تعالى - بالجود والكرم والبر والإحسان، وإمَّا خاص، وهو التحدث بتلك النعمة، وإسناد التفضل بها إلى المنعم بها، وحمده عليها، قال الله تعالى -: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٣)، وقال النبي ﷺ: «... التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ...»(٤).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير - حديث رقم (٧٦٩٢) ٢/ ١٢٥٨.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب القناعة - حديث رقم (٤٢٨١) ١/ ٦٠٩، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢١٧).

(٣) سورة الضحى: الآية:

(٤) مسند أحمد - أول مسند الكوفيين - حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ - حديث رقم (١٨٤٤٩) ٣٠/ ٣٩٠، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٩٧٦).

والخامس: ترك استعمالها فيما يكرهه المنعم بها، والعمل بما يرضيه فيها.

والسَّادس: فعل الطاعات شكرًا على النعم، كما يشير إليه قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[1].

وورد عن المغيرة بن شعبة أنَّه قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[2].

قال الإمام النووي - رحمه الله: "قال القاضي: الشكر معرفة إحسان المحسن، والتحدث به، وسميت المجازاة على فعل الجميل شكرًا؛ لأنها تتضمن الثناء عليه، وشكر العبد الله تعالى اعترافه بنعمه، وثناؤه عليه، وتمام مواظبته على طاعته، وأما شكر الله تعالى أفعال عباده فمجازاته إياهم عليها، وتضعيف ثوابها، وثناؤه بما أنعم به عليهم، فهو المعطى والمثنى سبحانه، والشكور من أسمائه سبحانه وتعالى بهذا المعنى، والله أعلم"[3].

وقال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "فمن عظمت عليه نعم الله وجب عليه أن يتلقاها بعظيم الشكر، لاسيما أنبياءه وصفوته من خلقه الذين اختارهم، وخشيةُ العباد لله على قدر علمهم به"[4].

من فوائد الشكر[5]:

(١) من كمال الإيمان وحسن الإسلام إذ إنّه نصف والنّصف الآخر الصبر.

(٢) اعتراف بالمنعم والنعمة.

(٣) سبب من أسباب حفظ النعمة بل المزيد.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب الصبر عن محارم الله حديث رقم (٦٥٤٨) ٣/ ١٣١٣.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١٧/ ١٦٢.

(٤) شرح صحيح البخاري: ٣/ ٣٦٤.

(٥) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٦/ ٢٤١٩.

(٤) لا يكون باللّسان فقط بل اللّسان يعبّر عمّا في الجنان وكذلك يكون بعمل الجوارح والأركان.

(٥) كثرة النّعم من المنعم لا يمكن أن يؤدّي الإنسانَ حقّها إلّا بالشّكر عليها.

(٦) يكسب رضا الرّبّ ومحبّته.

(٧) الإنسان الشّكور قريب من النّاس حبيب إليهم.

(٨) فيه دليل على سموّ النّفس ووفور العقل.

(٩) الشّكور قرير العين، يحبّ الخير للآخرين ولا يحسد من كان في نعمة.

فبالشكر تحفظ النعم وتدوم، وبالشكر يكون المزيد من الله سبحانه وتعالى، فمن شكره زاده، فما أحوجنا إلى أن نشكر الله عزَّ وجلَّ - على هذه النعم الظاهرة والباطنة في لحظة من لحظات حياتنا، كي نسعد في الدنيا والآخرة، وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه اللهم آمين.

الصَّبْرُ وَجَزَاءُ الصَّابِرِينَ

الصبر خُلق من الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي أمرنا بها ربنا - جلَّ وعلا -، وحثَّنا عليه نبينا ﷺ، وعليه فينبغي على العبد المسلم عند المصيبة أن يتحلى بالصبر، ويعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أعلى جزاء الصابرين، وفيما يأتي نبيِّن حقيقة الصبر، وفضله من خلال القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة.

حقيقة الصبر:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، وسُئِل عنه الجنيد بن محمد فقال: تجرع المرارة من غير تعبس، وقال ذو النون: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصصي البلية، وإظهار الغني مع حلول الفقر بساحات المعيشة، وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وقيل: هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى، وقال أبو عثمان الصبار: هو الذي عود نفسه الهجوم على المكاره، وقيل: الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية، ومعنى هذا أنَّ لله على العبد عبودية في عافيته، وفي بلائه فعليه أن يُحسِن صحبة العافية بالشكر، وصحبة البلاء بالصبر»[1].

الصبر في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[2].

قال أبو حيان الأندلسي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: خطاب للنبي ﷺ، أو لكلِّ من تتأتى منه البشارة، أي: على الجهاد بالنصر، أو على الطاعة

(١) عدة الصابرين: ص ٨ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة: الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

بالجزاء، أو على المصائب بالثواب، أقوال: والأحسن عدم التقييد، أي: كلّ من صبر صبرًا محمودًا شرعًا، فهو مندرج في الصابرين.

قالوا: والصبر من خواص الإنسان؛ لأنَّه يتعارض فيه العقل والشهوة، وهو بدني وهو: إمَّا فعلي، كتعاطي الأعمال الشَّاقة، وإمَّا احتمال، كالصبر على الضرب الشديد، ونفسي، وهو قمع النفس عن مشتهيات الطبع، فإن كان من شهوة الفرج والبطن، سمي عفة، وإن كان من احتمال مكروه، اختلفت أساميه باختلاف المكروه، ففي المصيبة يقتصر عليه باسم الصبر، ويضاده الجزع[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

قال مالك بن أنس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، قال: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها[3].

وقال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان، حدثني أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال: "تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا" ثم تلا النبي ﷺ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[6].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٣٩٢ وما بعدها.

(٢) سورة الزمر: الآية: ١٠.

(٣) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٤١.

(٤) المرجع السابق: ١٥/ ٢٤١ وما بعدها.

(٥) سورة آل عمران: الآية: ١٤٦.

(٦) سورة السجدة: الآية: ٢٤.

الصبر في السُّنَّة النَّبويَّة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا أنَّ النبي ﷺ قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً؟ قَالَ: «النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، إِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَدَعَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٣).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله: (أشد الناس بلاء الأنبياء)، قالوا ثُمَّ من يا رسول الله ؟ قال (ثم الصالحون)؛ لأن أعظم البلاء سلب المحبوب، وحمل المكروه، والمحبوبات مسكون إليها، ومن أحب شيئًا شُغل به، والمكروه مهروب منه، ومن هرب من شيء أدبر عنه، والأمثلون أحباء الله، فيسلبهم محبوبهم في العاجل؛ ليرفع درجتهم في الآجل(٤).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»(٥).

قوله: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ): أي عظمة الأجر، وكثرة الثواب، (مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ) بكسر العين المهملة، وفتح الظاء فيهما، ويجوز ضمها مع سكون الظاء، فمن كان ابتلاءه أعظم

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المرضى – باب ما جاء في كفارة المرض حديث رقم (٥٧٠٥) ٣/ ١١٧٢.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – حديث رقم (٧٣٠٨) ٢/ ١١٩٣.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الإيمان – حديث رقم (١٢١) ١/ ١٠٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٩٩٢).

(٤) فيض القدير: ١/ ٦٦٤.

(٥) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في الصبر على البلاء – حديث رقم (٢٥٧٦) ٢/ ٦١٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٩٦).

فجزاءه أعظم، (ابْتَلَاهُمْ)، أي: اختبرهم بالمحن والرزايا، (فَمَنْ رَضِيَ)، أي: بما ابتلاه الله به، (فَلَهُ الرِّضَا) منه تعالى - وجزيل الثواب.

قال السندي: قوله: فمن رضي فله الرضا، أي: رضا الله تعالى - عنه جزاء لرضاه، أو فله جزاء رضاه، وكذا قوله فله السخط، ثُمَّ الظاهر أنَّه تفصيل لمطلق المبتلين لا لمن أحبهم، فابتلاهم إذا الظاهر أنَّه تعالى - يوفقهم للرضا، فلا يسخط منهم أحد - (وَمَنْ سَخِطَ) بكسر الخاء، أي: كره بلاء الله، وفزع ولم يرض بقضائه، (فَلَهُ السَّخَطُ) منه تعالى - وأليم العذاب ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[1]، والمقصود الحثّ على الصبر على البلاء بعد وقوعه لا الترغيب في طلبه للنهي عنه[2].

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[3].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «... وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[4].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[5].

---

(١) سورة النساء: الآية: ١٢٣.

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٥/ ٢٦٠.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير - حديث رقم (٧٦٩٢) ٢/ ١٢٥٨.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة - حديث رقم (١٤٩٢) ١/ ٢٧٨.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة - حديث رقم (٣٠٣٢) ٢/ ٥٨٠.

وعن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ"[2].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ"[3].

قال يونس بن زيد: سألتُ ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم أن تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه[4].

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى –: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[5] قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عمَّا نهوا عنه[6].

وقال علقمة في قوله تعالى –: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[7]، هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنَّها من عند الله؛ فيسلم لها ويرضى[8].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المرضى – باب ما جاء في كفارة المرض – حديث رقم (٥٧٠٠) ٣/ ١١٧١، صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض – حديث رقم (٦٧٣٠) ٢/ ١٠٩٥.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب العمل الذي يبتغى به وجه الله حديث رقم (٦٥٠٠) ٣/ ١٣٠٤.

(٣) صحيح البخاري – كتاب المرضى – باب فضل من ذهب بصره حديث رقم (٥٧١٤) ٣/ ١١٧٣.

(٤) الدر المنثور: للسيوطي ١/ ٣٧٨.

(٥) سورة الرعد: الآية: ٢٤.

(٦) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: للسفاريني ٢/ ٤١٠.

(٧) سورة التغابن: الآية: ١١.

(٨) الرضا عن الله بقضائه: لابن أبي الدنيا، ص ٤٧.

وعن أم سلمة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا"، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ"(١).

من أقوال السَّلف في الصبر:

جاءت آثار كثيرة عن السَّلف الصالح – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – تبيِّن لنا فضل الصبر، وجزاء الصابرين؛ منها:

ما وجد في رسالة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليك بالصبر، واعلم أنَّ الصبر صبران: أحدهما: أفضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى –، واعلم أنَّ الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأنَّ التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر(٢).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل"(٣).

وقال أيضًا: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له"(٤).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى، والعلاوة: ما يحمل فوق العدلين على البعير(٥)، وأشار به إلى قوله تعالى –: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٦).

---

(١) صحيح مسلم – باب الجنائز – باب ما يقال عند المصيبة – حديث رقم (٢١٦٦) ١/ ٣٦١.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/ ٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٦٢.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٦٢.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٦٢.

(٦) سورة البقرة: الآية: ١٥٧.

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] بكى، وقال: واعجباه أعطى وأثنى، أي: هو المعطي للصبر، وهو المثنى[2].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر[3].

درجات الصبر (أقسام الصبر):

ينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

١ - صبر على المأمور: هو الصبر على الطاعة.

٢ - وصبر عن المحظور: أي: صبر عن المعصية.

٣ - وصبر على المقدور: أي: صبر على ما قدره الله تبارك وتعالى - من المحن والمصائب والابتلاءات.

القسم الأول: الصبر على المأمور:

وهو الصبر على طاعة الله عزَّ وجلَّ - ورسوله ﷺ، وهذا أجلُّ أنواع الصبر، من أجل ذلك أمر الله عزَّ وجلَّ - نبينا محمد ﷺ أن يصبر، كما صبر أولوا العزم من الرسل؛ فقال - سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4].

فالصبر على الطاعة هو أعلى درجات الصبر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ..."[5].

---

(١) سورة ص: الآية: ٤٤.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/ ٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٦٢.

(٤) سورة الأحقاف: الآية: ٣٥.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب التواضع - حديث رقم (٦٥٨١) ٣/ ١٣١٩.

هذا هو الصبر على الطاعة، التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ - "... وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"(١).

فالدرجة الأولى والعالية من درجات الصبر أن تصبر نفسك على طاعة الله عزَّ وجلَّ -.

القسم الثاني: الصبر عن المحظور:

أي: صبر عن المعصية، وهذا هو صبر المحبين لرب العالمين - سبحانه وتعالى -، فالعبد المحب لله يصبر عن المعصية إجلالًا لسيده ومولاه؛ لأنَّه لا يحب أن يراه الله على معصية.

أمَّا عن شؤم المعصية في الدنيا: فعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنَّ النبي ﷺ قال: "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"(٢).

القسم الثالث: الصبر على المقدور:

أي: ما قضاه الله عزَ وجلَّ - وقدره عليك من المحن والمصائب والبلايا، وهذا صبر الصديقين، فالصبر على البلاء هو التطبيق العملي الذي يبيِّن حب العبد لربه، والإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان التي لا يصح إيمانك إلا به، كما جاء في حديث

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب التواضع - حديث رقم (٦٥٨٠) ٣/ ١٣١٨.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الفتن - باب العقوبات حديث رقم (٤١٥٥) ١/ ٥٨٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٠٩١).

عمر بن الخطاب، وفيه أنَّ جبريل - عليه السلام - سأل النبي ﷺ عن الإيمان؛ فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢).

فالصبر الجميل على البلاء هو: الصبر الذي لا شكوى معه، الصبر الذي لا هلع فيه، ولا شكوى فيه من الخالق إلى المخلوقين، فاشك إلى الله لا حرج، فإلى من تشكو إن لم تشكو حالك إلى أرحم الراحمين - سبحانه وتعالى -.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(٣).

مواقف إيمانية عن الصبر والصابرين:

١ - أم سليم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وصبرها على موت ولدها:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اشْتَكَى ابْنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: فَمَاتَ، وَأَبُو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فَلَمَّا رَأَتِ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ هَيَّأَتْ شَيْئًا، وَنَحَّتْهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: كَيْفَ الْغُلَامُ، قَالَتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَرَاحَ، وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، قَالَ: فَبَاتَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» قَالَ سُفْيَانُ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلاَدٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ(٤).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب معرفة الإيمان - حديث رقم (١٠٢) ١/ ٢٣.

(٢) سورة يوسف: الآية: ١٨.

(٣) صحيح البخاري - كتاب المرضى - باب ما جاء في كفارة المرض - حديث رقم (٥٧٠١) ٣/ ١١٧١.

(٤) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٦٤٧٦) ٢/ ١٠٤٩.

٢ - قصة المرأة التي كانت تصرع على عهد النبي ﷺ:

فعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: "أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا"[1].

من فوائد الصبر والمصابرة[2]:

(١) ضبط النّفس عن السّأم والملل، لدى القيام بأعمال تتطلّب الدّأب والمثابرة خلال مدّة مناسبة، قد يراها المستعجل مدّة طويلة.

(٢) ضبط النّفس عن العجلة والرّعونة، لدى تحقيق مطلب من المطالب المادّيّة أو المعنويّة.

(٣) ضبط النّفس عن الغضب والطّيش، لدى مثيرات عوامل الغضب في النّفس، ومحرّضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتّزان في القول أو في العمل.

(٤) ضبط النّفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النّفس.

(٥) ضبط النّفس عن الطّمع لدى مثيرات الطّمع فيها.

(٦) ضبط النّفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها.

(٧) ضبط النّفس لتحمّل المتاعب والمشقّات والآلام الجسديّة والنّفسيّة، كلّما كان في هذا التّحمّل خير عاجل أو آجل.

(٨) دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٩) يورث هداية في القلب.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المرضى - باب فضل من يصرع من الريح - حديث رقم (٥٧١٢) ٣/ ١١٧٣، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب ثواب المؤمن فيما يصيبه حديث رقم (٦٧٣٦) ٢/ ١٠٩٦.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٦/ ٢٤٧١ - ٢٤٧٢.

أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الاسْتِقَامَةِ

من الأخلاق الإسلامية التي أمرت بها شريعتنا الإسلامية الغراء خُلق الاستقامة، والاستقامة تكون في الأقوال والأعمال، وبها تكون النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أنَّ المولى - جلَّ وعلا - قد أمر بها نبيه ﷺ، وكذلك المصطفى ﷺ حثَّ أمته على الاستقامة، وفيما يأتي بيان فضل الاستقامة في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وحقيقتها، وما هي سُبل ووسائل تحقيق الاستقامة؟

الاستقامة في القرآن الكريم:

إنَّ المتأمل في القرآن الكريم، والمتدبر لآياته يجد أنَّ المولى - سبحانه وتعالى - قد أمر عباده بالاستقامة على منهجه في آيات كثيرة من كتابه العزيز؛ منها:

١ - أنَّ الاستقامة أمر الله تعالى - بها في كتابه العزيز:

أمر الله عزَّ وجلَّ - عباده بالاستقامة، وبيّن لهم جزاء وثواب الاستقامة على طريقه ومنهجه في الدنيا والآخرة؛ فقال - جلَّ وعلا -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يقول - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى - على ما شرع الله لهم[2].

---

(١) سورة فصلت: الآيتان: ٣٠،٣١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٢٠.

وقال الإمام الطبري – رحمه الله: يقول – تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده لا شريك له، ويرثوا من الآلهة والأنداد، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ على توحيد الله، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر ونهى[1].

قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "استقاموا: أخلصوا العمل لله"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: "استقاموا على محبته وعبوديته؛ فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة"[3].

وقال الحسن – رحمه الله: "استقاموا على أمر الله؛ فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته"[4].

وقال مجاهد، وعكرمة رحمهما الله: "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا"[5].

وقال سفيان الثوري – رحمه الله: "عملوا على وفاق ما قالوا"[6].

وقال الربيع – رحمه الله: "اعرضوا عمَّا سوى الله"[7].

وقال الفضيل بن عياض: "زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية"[8].

وكان الحسن – رحمه الله إذا قرأ هذه الآية قال: "اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة"[9].

وأورد الإمام الماوردي رحمه الله في تفسيره عند قول الله تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ خمسة أوجه: أحدها: ثم استقاموا على أنَّ الله ربهم وحده، وهو

---

(١) تفسير الطبري: ٢١/ ٤٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٥٨.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ١٠٤.

(٤) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

(٥) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

(٦) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

(٧) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

(٨) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

(٩) المرجع السابق: ١٥/ ٣٥٨.

قول أبي بكر ومجاهد، والثاني: استقاموا على طاعته، وأداء فرائضه، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

والثالث: استقاموا على إخلاص الدين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية، والسدي.

والرابع: استقاموا في أفعالهم، كما استقاموا في أقوالهم، والخامس: استقاموا سرًّا، كما استقاموا جهرًا.

ثُمَّ قال: ويحتمل سادسًا: أنَّ الاستقامة أن يجمع بين فعل الطاعات، واجتناب المعاصي؛ لأنَّ التكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرغبة، ونهى عن معصية يدعو إلى الرهبة[1].

٢ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - بيَّن لنا أنَّ ثواب الاستقامة الجنَّة:

قال - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: يقول - تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على تصديقهم بذلك، فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، يقول - تعالى ذكره: هؤلاء الذين قالوا هذا القول، واستقاموا أهل الجنة وسكانها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها أبدًا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، يقول: ثوابًا منا لهم آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها[3].

---

(١) تفسير النكت والعيون: للماوردي ٥/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) تفسير الطبري: ٢٢/ ١١١.

(٣) المرجع السابق: ٢٢/ ١١١.

٣ - أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر بها المصطفى ﷺ، فقال - سبحانه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْٓاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يأمر - تعالى - رسوله ﷺ، وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي؛ فإنَّه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم - تعالى - أنَّه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء[2].

قال ابن عيينة، وجماعة: "معناه استقم على القرآن، وقال الضحاك: استقم بالجهاد".

وقال مقاتل: "امض على التوحيد، وقال جماعة: استقم على أمر ربك بالدعاء إليه".

وقال ابن عطية: "أمر بالاستقامة، وهو عليها، وهو أمر بالدوام والثبوت، والخطاب للرسول، وأصحابه الذين تابوا من الكفر، ولسائر الأمة، فالمعنى: وأمرت مخاطبة تعظيم"[3].

وقال بعض العلماء: الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك[4].

الاستقامة في السُّنَّة المطهَّرة:

إنَّ المتأمل في سنة المصطفى ﷺ يجد أنَّه صلوات الله عليه وسلامه أمرنا بالاستقامة على منهج الله عزَّ وجلَّ -، كما جاء في القرآن الكريم، والسُّنَّة الشَّريفة ﷺ في أحاديث كثيرة؛ منها:

١ - أمر النبي ﷺ بالاستقامة:

فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»[5].

---

(١) سورة هود: الآية: ١١٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٦١.

(٣) تفسير البحر المحيط: لأبي حيان ٥/ ٢٢٣.

(٤) جامع العلوم والحكم: ص١٩٣.

(٥) سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها - باب المحافظة على الوضوء حديث رقم (٢٩٠) ١/ ٤٥، وصححه الألباني في صحيح سن ابن ماجه حديث رقم (٢٧٨).

قال الإمام ابن عبد البر – رحمه الله: قوله: (استقيموا)، أي: لا تزيغوا وتميلوا عمَّا سن لكم، وفرض عليكم، فقد تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها، وليتكم تطيقون ذلك[1].

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله: "والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السَّداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها، فالتفريط والإضاعة.

ثُمَّ قال – رحمه الله: "فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة"[2].

٢ – الاستقامة وصية النبي ﷺ لأصحابه:

إنَّ المتأمل في وصايا النبي ﷺ يجد أنَّه قد أوصى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ –، وأمته من بعدهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ومن هذه الوصايا: الوصية بالاستقامة في أحاديث كثيرة؛ منها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّه قال: "إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَرَادَ سَفَرًا فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْصِنِي فَقَالَ: «اعْبُدِ اللَّهَ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا»، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ زِدْنِي، قَالَ: «إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ»، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ زِدْنِي. قَالَ: «اسْتَقِمْ وَلْتُحَسِّنْ خُلُقَكَ»"[3].

ففي هذا الحديث أوصى النبي ﷺ بالاستقامة بصيغة الأمر؛ ممَّا يدل على وجوب الاستقامة على منهج الله عزَّ وجلَّ – وسنته ﷺ.

---

(١) التمهيد: ٢٤/ ٣١٨.

(٢) مدارج السالكين:٢/ ١٠٥.

(٣) المستدرك للحاكم – كتاب الإيمان – حديث رقم (١٧٩) ١/ ١٢١، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣١٥٨).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي أنَّه قال: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ؟ قَالَ: " قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ"[1].

قوله: (آمَنْتُ بِاللَّهِ): يشمل الإيمان بوجود الله عزَّ وجلَّ -، وبربوبيته، وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه، وبأخباره، وكل ما يأتي من قبله عزَّ وجلَّ - تؤمن به، فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين الله، ولا تحد عنه، لا يمينًا ولا شمالًا لا تقصر ولا تزد.

وقوله: (آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ): دليل على أنَّ الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان، وأنَّ من شرط الأعمال الصالحة - أي: من شرط صحتها وقبولها - أن تكون مبنية على الإيمان، فلو أنَّ الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي، ولكن باطنه خراب، وفي شك واضطراب، أو في إنكار وتكذيب، فإنَّ ذلك لا ينفعه، ولهذا اتفق العلماء - رحمهم الله على أنَّ من شروط صحة العبادة وقبولها: أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله، أي: معترفًا به، وبجميع ما جاء من قبله تبارك وتعالى -.

وقال القاضي عياض - رحمه الله: هذا من جوامع كلمه ﷺ، وهو مطابق لقوله تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾، أي: وحدوا الله وآمنوا به، ثُمَّ استقاموا، فلم يحيدوا عن التوحيد، والتزموا طاعته سبحانه إلى أن توفوا على ذلك.

وقال القشيري - رحمه الله: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها.

وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنَّها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، ولذلك قال ﷺ: استقيموا ولن تحصوا، وقال الواسطي: الخصلة التي بها كملت المحاسن، وبفقدها قبحت المحاسن الاستقامة[2].

٣ - الحثُّ على استقامة الجوارح:

فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكَفِّرُ اللِّسَانِ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ، اعْوَجَجْنَا"[3].

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في حفظ اللسان حديث رقم (٢٥٩٢) ٢/ ٦١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤١٠).

(٢) الديباج على مسلم: ١/ ٥٥.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في حفظ اللسان حديث رقم (٢٥٨٧) ٢/ ٦١٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٠٧).

وعن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أَنَّها قالت: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّه قال: "خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطًّا ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثُمَّ تَلَا ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾" [2] [3].

من أقوال السلف في الاستقامة:

سُئِل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الاستقامة؛ فقال: ألا تشرك بالله شيئًا، يريد الاستقامة على التوحيد[4].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب[5].

وقال على بن أبى طالب، وابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: "استقاموا أدوا الفرائض"[6].

وقال مجاهد – رحمه الله: "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله"[7].

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه حديث رقم (١٨٤٧) ١/ ٣٠٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ١٥٣.

(٣) سنن الدارمي – باب في كراهية أخذ الرأي حديث رقم (٢٠٢) ١/ ٧٨، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح حديث رقم (١٦٦).

(٤) مدارج السالكين: ٢/ ١٠٨.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ١٠٩.

(٦) المرجع السابق: ٢/ ١٠٩.

(٧) المرجع السابق: ٢/ ١٠٩.

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا معشر القراء استقيموا، فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: "أعظم الكرامة لزوم الاستقامة"(٢).

وقال أيضًا: "استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة"(٣).

كيف نحقق الاستقامة؟:

وبعد أن تعلمنا عن فضل الاستقامة، ومكانتها في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومفهوم الاستقامة عند سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - بقى لنا أن نعرف كيف نحقق الاستقامة؟، كما أرادها الله جلَّ وعلا -، ورسوله ﷺ، وكيف نستقيم على المنهج؟، كما كان سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم -.

هناك وسائل كثيرة وطرق إذا سلكها العبد يتوصل بها لتحقيق الاستقامة، ومنها: الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ -، والمسارعة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ -، والتعايش مع القرآن، والإخلاص، ومجاهدة النفس، والدعاء، واختيار الصحبة الصالحة، وفيما يأتي بيان هذه الوسائل بشيء من التفصيل:

١ - الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ -:

فإنَّ من أعظم أسباب الاستقامة أن يعتصم العبد بربه عزَّ وجلَّ - ؛ ليوفقه إلى الاستقامة، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: الاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية، والعُدَّة في مباعدة الغَواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد(٥).

---

(١) ذم الكلام وأهله: للهروي ٢/ ٣٨٨، فتح الباري: ١٣/ ٢٨٢.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ١١٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية: ١٠١.

(٥) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨٦.

وقال الطاهر بن عاشور – رحمه الله: وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: من يتمسّك بالدّين فلا يخش عليه الضّلال، فالاعتصام – هنا – استعارة للتَّمسّك، وفي هذا إشارة إلى التمسّك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الَّذين لم يشهدوا حياة رسول الله ﷺ[1].

٢ – المسارعة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ –:

من أعظم أسباب الاستقامة المسارعة والمبادرة إلى الطاعات والقربات لله عزَّ وجلَّ –، والتزام طاعته، قال – تعالى –: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2].

قال الإمام الطبري – رحمه الله: يعني بذلك – جلَّ ثناؤه: ولو أنَّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم؛ لإيتائنا إياهم على فعلهم ما وعِظُوا به من طاعتنا، والانتهاء إلى أمرنا "أجرًا"، يعني: جزاء وثوابًا عظيمًا، وأشد تثبيتًا لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم، لهدايتنا إياهم صراطًا مستقيمًا، يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وذلك الإسلام[3].

فيجب على العبد أن يسارع إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ، فقد قال – تعالى –: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[4]، وقال – تعالى –: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5].

٣ – التعايش مع القرآن:

القرآن الكريم دستور هذا الأمة الخالد الذي أنزله ربنا – تبارك وتعالى – من فوق سبع سماوات على حبيبه المصطفى ﷺ؛ ليكون دستورًا ومنهجًا تسير عليه الأمة إلى

---

(١) التحرير والتنوير: ٤/ ٢٩.

(٢) سورة النساء: الآيتان: ٦٦ – ٦٨.

(٣) تفسير الطبري: ٨/ ٥٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية: ١٤٨.

(٥) سورة آل عمران: الآية:١٣٣.

أن تلقى ربها - جلَّ وعلا -، والعيش مع القرآن الكريم يكون بالتلاوة والحفظ والفهم والتدبر والعمل، ففي ذلك كله السعادة في الدنيا والآخرة، قال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ ﴾[1].

فالتعايش مع القرآن الكريم، وقراءته، وتدبره، من أعظم الأسباب في تحقيق الاستقامة على منهج الله عزَّ وجلَّ -، ورسوله ﷺ.

٤ - الإخلاص، ومجاهدة النفس:

ومن أسباب تحقيق الاستقامة الإخلاص في العمل لله عزَّ وجلَّ -، ومجاهد النفس في البعد عن المعاصي وعن فتن الشهوات والشبهات، قال - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

فكلما اجتهد العبد في طاعة الله، كلما وفقه الله لطاعته، وثبت قدمه على صراط مستقيم، قال بعض السلف: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتلذذت بها عشرين سنة حتى إني لأدخل في الصلاة فأحمل هم خروجي منها.

٥ - الدعاء:

ومن الأمور التي تحقق بها الاستقامة الإكثار من الدعاء وسؤال الله تعالى - التوفيق للاستقامة على منهجه وهدى نبيه المصطفى ﷺ، يقول الله سبحانه وتعالى - في الحديث القدسي: (... يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ...)[3].

---

(١) سورة المائدة: الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) العنكبوت: الآية: ٦٩.

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم - حديث رقم (٦٧٣٧) ٢/١٠٩٦.

وقوله: "فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ"، أي: اطلبوا مني الهداية الموصلة إليَّ؛ مع أنَّه سبحانه يهدي من يشاء بحسن الرعاية، وجميل العناية إظهار الافتقار، والإشعار بأنَّه لا هداية قبل سؤاله إياه، فربما قال: إنما أوتيته على علم عندي، فيضل بذلك، ويشقى، فإذا سأل ربه الأمور الدنيوية، والأخروية؛ فقد اعترف على نفسه بالعبودية، ولمولاه بالربوبية، وهذا مقام شريف، ومشهد لطيف، وفيه دليل لأهل السنة والجماعة على أنَّ المهتدي من هداه الله تعالى -، وبإرادته اهتدى من اهتدى لا بما سواه، وأنَّ غير المهتدي لم يُرِد الله هدايته، فلم يهتد لذلك، ولو أرادها له لاهتدى[1].

ولا تنسَ أنَّ سيد الأولين والآخرين البشير النذير والسراج المنير الشافع المشفع الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد ﷺ لم يفتر لسانه أبدًا عن هذا الدعاء: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[2].

٦ - اختيار الصحبة الصالحة:

ومن أعظم الوسائل والطرق العملية لتحقيق الاستقامة اختيار الصحبة الصالحة التي تأخذ بيد الإنسان للخير، وتحذره من الشرِّ، وتبعده عنه، فكما قيل: المرء بقرينه.

وقال بعضهم: قل لي من تصاحب أقل لك من أنت؟ فالصحبة الصالحة الذين يُذَكِّرون الإنسان إذا نسي، ويأمرونه بما يجب عليه، وينكرون عليه إذا انحرف، ويعينونه إذا كَسُلَ، قال - تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

---

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية: محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهري (ت: ١٣٦٧هـ)، ١/ ٥٤، ط/ دار ابن كثير - دمشق.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا معاذ - حديث رقم (٣٨٦٤) ٢/ ٩٠٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٢٢).

(٣) سورة التوبة: الآية: ٧١.

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[1].

من فوائد (الاستقامة)[2]

(١) الاستقامة من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) بها ينال الإنسان الكرامات ويصل إلى أعلى المقامات.

(٣) استقامة القلوب استقامة للجوارح.

(٤) المداومة عليها أفضل من كثير من الأعمال الّتي يتطوّع بها.

(٥) صاحبها يثق به النّاس، ويحبّون معاشرته.

(٦) الاستقامة أعظم الكرامة.

(٧) دليل اليقين ومرضاة ربّ العالمين.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الذبائح والصيد - باب المسك - حديث رقم (٥٥٩٢) ٣/ ١١٥٣، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب مجالسة الصالحين حديث رقم (٦٨٦٠) ٢/ ١١١٣.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٢/ ٣١٩.

الْحَيَاءُ مِنَ الإيمَانِ

الحياء خُلق من الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي أمرنا بها ربنا - جلَّ وعلا -، وحثَّنا عليها نبينا ﷺ، وفيما يأتي نبيِّن حقيقة الحياء، وفضله من خلال القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة المُطهَّرة.

حقيقة الحياء:

قال ذو النون - رحمه الله: «الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك، والحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق»(١).

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله: «خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل»(٢).

وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله: «من استحيى من الله مطيعًا استحيى الله منه وهو مذنب»(٣).

الحياء في القرآن الكريم:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الحياء: قال الله تعالى -: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٤)، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٥)، وقال - تعالى -: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٦)، والحياء من الحياة، ومنه

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٧٠.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٧١.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٥٩.

(٤) سورة العلق: الآية: ١٤.

(٥) سورة النساء: الآية: ١.

(٦) سورة غافر: الآية: ١٩.

الحيا للمطر، لكن هو مقصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتمّ[1].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾[2].

قال الإمام أبو حيان الأندلسي - رحمه الله: الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، ومحله الوجه، ومنبعه من القلب، واشتقاقه من الحياة، وضده: القحة، والحياء، والاستحياء، والانخزال، والانقماع، والانقلاع، متقاربة المعنى، فتنوب كلُّ واحدة منها مناب الأخرى[3].

بين أحضان الجنة خلقت هذه القيمة الأخلاقية (الحياء) مجسدة في فعل آدم - عليه السلام -، وزوجه، ولعلها أول الخلال الإنسانية التي نزعت إليها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ذلك أنَّ آدم - عليه السلام -، وزوجه أسكنهما الله الجنة، وأمرهما ألا يقربا شجرة منها: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، فخالفا أمر ربهما بسبب وسوسة الشيطان وإغرائه، وأكلا من تلك الشجرة، ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[5]، أي: انكشفت لهما، ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[6] لستر العورة استحياء من ربهما، وهذا ما جاء على لسان آدم عندما انطلق موليًا، ليغطي عورته، وقد ناداه ربه:(أي آدم أمني تفر؟ قال: لا، ولكني استحيتك يارب)[7].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٥٨ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٦.

(٣) تفسير البحر المحيط: ١/ ١١٨.

(٤) سورة البقرة: الآية: ٣٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية: ٢٢.

(٦) سورة الأعراف: الآية: ٢٢.

(٧) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية: بإشراف د/ مرزوق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ٢٥/ ١٤، ط/ دار رواح بالرياض.

ومن إشارات القرآن إلى الحياء، ومكانته قول الله تعالى -:﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1].

فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ: (لباس التقوى الذي ذكره الله في القرآن هو الحياء)[2].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾: استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمت الحسن؛ لأنَّ مَنْ اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومِنْ أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحييًا، ومَنْ كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فَحَسُنَ سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجة الإيمان ونوره.

وإنما قلنا: عنى ب ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾استشعارَ النفس والقلب ذلك؛ لأنَّ «اللباس» إنَّما هو ادِّراع ما يلبس، واجتياب ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به، فكلُّ من ادَّرع شيئًا واجتابهُ حتى يُرَى عَيْنه أو أثرُه عليه، فهو له «لابس»، ولذلك جعل - جلَّ ثناؤهـ الرجال للنساء لباسًا، وهنَّ لهم لباسًا، وجعل الليل لعباده لباسًا[3].

وقال - تعالى -: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾[4].

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنَّه كان من صفتها الحياء، فهي تمشي مشي من لم يعتد الخروج والدخول، والثاني: لأنَّها دعته لتكافئه، وكان الأجمل عندها أن تدعوه من غير مكافأة، والثالث: لأنَّها رسول أبيها[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ٢٦.

(٢) موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية: ٢٥/ ١٥.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ١٢/ ٣٧١.

(٤) سورة القصص: الآيات: ٢٠ - ٢٥.

(٥) زاد المسير في علم التفسير: للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ٦/ ٢١٤، ط/ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ.

الحياء في السُّنَّة المُطهَّرة:

الحياء إحساس رقيق، وشعور دقيق، يبدو في العين مظهره، وعلى الوجه أثره، ومن حرمه حرم الخير كله، ومن تحلى به ظفر بالعزة والكرامة، ونال الخير أجمع.

الحياء أصل لكل خير، وهو أفضل وأجلُّ الأخلاق، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية؛ لأنَّ الحيوان لا حياء له، فمن لا حياء له ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، صورته صورة إنسان، وداخلته داخلة حيوان، كما أنَّه ليس معه من الخير شيء إذا تخلى من الحياء، ولولا هذا الخلق لم يُقرَى الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم تؤد الأمانة، ولم تقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجلُ الجميلَ فآثره، والقبيحَ فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيء من الأمور المفروضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا؛ فإنَّ الباعث على هذه الأفعال إمَّا ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وأمَّا دنيوي علوي، وهو حياء فاعلها من المخلوقين.

يتبيَّن بهذا أنَّه لولا الحياء إمَّا من الخالق أو من المخلوق لم يفعل الإنسان شيئًا من هذه المكارم التي وصفتها[1].

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تبيِّن لنا فضل ومكانة هذا الخُلق في الإسلام؛ منها: أن الحياء مفتاح كلِّ خير، ومفتاح لكل الطاعات، والحياء من الإيمان، والحياء من مفاتيح الزينة والبهاء، والحياء هو الحياة، ومغلاق لكل شر، ومفتاح محبة اللَّه تعالى -، ومن مفاتيح الأمن يوم القيامة، ومن مفاتيح الجنة، وفيما يأتي بيانها بشيء من التفصيل:

١ - الحياء مفتاح كلِّ خير:

فعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ)، أو قال: (الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ)[2].

---

(١) الحياء: للشيخ/ خالد بن عثمان السبت، ص٩.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب شعب الإيمان - حديث رقم (١٦٦) ١/ ٣٨.

قال الإمام النووي – رحمه الله: "وأمَّا كون الحياء خيرًا كله، ولا يأتي إلا بخير فقد يشكل على بعض الناس، من حيث إنَّ صاحب الحياء قد يستحى أن يواجه بالحق من يجله؛ فيترك أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك ممَّا هو معروف في العادة.

وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة؛ منهم: الشيخ أبو عمرو بن الصلاح – رحمه الله: أنَّ هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازًا لمشابهته الحياء الحقيقي، وإنَّما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ"[1].

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ:(الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)؛ لأنَّ من استحيا من الناس أن يروه يفعل قبحًا دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد، فلا يهمل فرضًا، ولا يعمل ذنبًا.

قال بعضهم: الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم قلائد المحامد، ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق، وهو اسم جامع يدخل فيه الحياء من الله؛ لأنَّ ذمه فوق كل ذم، ومدحه فوق كل مدح[3].

وقال الإمام الخطابي – رحمه الله: قوله ﷺ:(الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)، معناه: أنَّ من استحيا من الناس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعية له إلى أن يكون أشد حياء من ربه وخالقه، ومن استحيا من ربه فإنَّ حياءه زاجر له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه؛ لأنَّ كل ذي فطرة صحيحة يعلم أنَّ الله تعالى – النافع له والضار والرزاق والمحي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي: ٢/ ٥.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب الحياء – حديث رقم (٦١٨٥) ٣/ ١٢٤٧، صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب شعب الإيمان – حديث رقم (١٦٥) ١/ ٣٨.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ١٠٣٥.

والمميت، فإذا علم ذلك فينبغي له أن يستحيي منه عزَّ وجلَّ، وهو قوله عليه السلام -: (دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ)، معناه: أنَّ الحياء من أسباب الإيمان وأخلاق أهله، وذلك أنَّه لما كان الحياء يمنع من الفواحش، ويحمل على الصبر والخير، كما يمنع الإيمان صاحبه من الفجور، ويقيده عن المعاصي، ويحمله على الطاعة صار كالإيمان لمساواته له في ذلك، وإن كان الحياء غريزة، والإيمان فعل المؤمن؛ فاشتبها من هذه الجهة[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[2].

قال القاضي عياض، وغيره: إنَّما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأنَّه قد يكون تخلقًا واكتسابًا، كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثًا على أفعال البر، ومانعًا من المعاصي[3].

٢ - الحياء مفتاح لكل الطاعات:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ»[5].

البذاء: فحش الكلام أو عدم الحياء. الجفاء: التباعد من الناس والغلظة عليهم.

---

(١) شرح صحيح البخاري: للإمام أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، ٩/ ٢٩٨، ط/ مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م - الطبعة: الثانية - تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب أمور الإيمان حديث رقم (١٠) ١/ ٨، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب شعب الإيمان حديث رقم (١٦٢) ١/ ٣٧.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٩٨.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب أمور الإيمان - حديث رقم (١٠) ١/ ٨.

(٥) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الحياء - حديث رقم (٢١٤٠) ٢/ ٥٢٠، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٠٠٩).

٣ - الحياء من الإيمان:

أخرج الحاكم عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النبي ﷺ: «الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»(١).

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله ﷺ:(إنَّ الحياء والإيمان قرنا جميعًا)، أي: جمعهما الله ولازم بينهما، فحيثما وجد أحدهما وجد الآخر، (فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)؛ لتلازمهما، كما تقرّر، وذلك لأنَّ المكلف إذا لم يستحي من الله لا يحفظ الرأس وما وعى، ولا البطن وما حوى، ولا يذكر الموت والبلى، كما في الحديث المار، بل ينهمك في المعاصي، وذلك بريد الكفر(٢).

٤ - الحياء من مفاتيح الزينة والبهاء:

أخرج الإمام الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا كَانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ»(٣).

وعن سعيد بن يزيد أنَّ رجلًا قال يا رسول الله: أوصني؟ فقال ﷺ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»(٤).

٥ - الحياء هو الحياة:

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ

---

(١) الحاكم في المستدرك - كتاب الإيمان - وأما حديث معمر - حديث رقم (٥٨) ١/ ٧٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٦٠٣).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٥٦٦.

(٣) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الفحش والتفحش حديث رقم (٢١٠٢) ٢/ ٥١٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٧٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق - باب ذكر الحياء وما جاء فيه حديث رقم (٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢٥٤١).

المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ:(اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ)، أي: حياءً ثابتًا لازمًا صادقًا، قالوا: يا نبي الله إنَّا نستحي من الله، ولله الحمد قال: ليس كذلك، ولكن (من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس)، أي: رأسه، (وما وعى)، أي: ما جمعه الرأس من الحواس الظاهرة والباطنة، (وليحفظ البطن وما حوى)، أي: وما جمعه الجوف من القلب وغيره، وعطف ما وعى على الرأس إشارة إلى أنَّ حفظ الرأس عبارة عن التنزه عن الشرك، فلا يسجد لغيره، ولا يرفعه تكبرًا، وجعل البطن قطبًا تدور عليه سرية الأعضاء من القلب والفرج واليدين والرجلين، وعطف ما حوى على البطن إشارة إلى حفظه عن الحرام، والتحرّز من أن يملأه من المباح، ويؤيد ذلك كله قوله:(وليذكر الموت والبلى)، أي: نزولهما به، (ومن أراد الآخرة)، أي: الفوز بنعيمها (ترك) حتمًا (زينة الحياة الدنيا)؛ لأنَّهما ضرتان، فمتى أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى، (فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)، أي: أورثه ذلك الفعل الاستحياء منه تعالى – ؛ فارتقى إلى مقام المراقبة الموصل إلى درجة المشاهدة، قال بعضهم: فمن استحيا من الله حق الحياء ترك الشهوات، وتحمل المكاره والمشاق حتى تصير نفسه مدموغة؛ فعندها تظهر محاسن الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء في قلبه، ويغزر علمه بالله؛ فيعيش غنيًّا به ما عاش[2].

وقال أيضًا – رحمه الله: قوله ﷺ:(استحيوا من الله حق الحياء) بترك الشهوات والنهمات، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة؛ فعندها تطهر الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء في صدر العبد، ويقرر علمه؛ فيعيش غنيًا بالله ما عاش.

قال الإمام البيضاوي – رحمه الله: ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول.

---

(١) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ – باب استحيوا من الله حق الحياء – حديث رقم (٢٦٤٦) ٢/ ٦٢٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٥٨).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٢٩١.

وقال سفيان بن عيينة – رحمه الله: الحياء أخف التقوى ولا يخاف العبد حتى يستحيي، وهل دخل أهل التقوى في التقوى إلا من الحياء؟[1].

وعن يزيد بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الْحَيَاءُ)[2].

٦ – الحياء مغلاق لكل شر:

فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"[3].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت): إذا لم تخش العار عملتَ ما شئتَ لم يردعك عنه رادع، وسيكافئك الله على فعلك، فهو توبيخ شديد أو هو للتهديد، أي: اصنع ما شئتَ فسوف ترى غبه أو هو على حقيقته، ومعناه إذا كنتَ في أمورك آمنا من الحياء في فعلها؛ لكونه على وفق الشرع فاصنع منها ما شئتَ، ولا عليك من أحد وقد نظم بعضهم معنى الحديث، فقال:

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا وَلَمْ تَخْشَ خَالِقًا وَتَسْتَحِ مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعْ[4].

وقال الإمام الصنعاني – رحمه الله: "المراد من كلام النبوة الأولى ما اتفق عليه الأنبياء، ولم ينسخ، كما نسخت شرائعهم؛ لأنَّه أمر أطبقتْ عليه العقول.

وفي قوله ﷺ: فاصنع ما شئتَ قولان: الأول: أنَّه بمعنى الخبر، أي: صنعتَ ما شئتَ، وعبر عنه بلفظ الأمر للإشارة إلى أنَّ الذي يكف الإنسان عن مدافعة الشر هو الحياء، فإذا تركه توفرت دواعيه على مواقعة الشر حتى كأنه مأمور به، أو الأمر فيه للتهديد، أي: اصنع ما شئت فإنَّ الله مجازيك على ذلك.

---

(١) فيض القدير: ١/ ٦٢٣.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الزهد – باب الحياء حديث رقم (٤٣٢١) ١/ ٦١٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢٥٦).

(٣) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت – حديث رقم (٦١٨٨) ٣/ ١٢٤٨.

(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ١٣.

الثاني: أنَّ المراد انظر إلى ما تريد فعله فإن كان ممَّا لا يستحيي منه فافعله، وإن كان ممَّا يستحيي منه فدعه ولا تبالِ بالخلق"[1].

وقال الإمام الخطابي - رحمه الله: قوله ﷺ:(إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة)، يريد: أنَّ الحياء لم يزل مُسْتَحْسَنًا في شرائع الأنبياء الأولين، وأنَّه لم ينسخ في جملة ما نسخ من شرائعهم.

قوله:(فاصنع ما شئت) فيه وجهان: أحدهما: أن يكون خرج بلفظ الأمر على معنى الوعيد والتهديد لمن ترك الحياء، كما قال - تعالى -:(اعملوا ما شئتم)، ولم يطلقهم - تعالى - على الكفر وفعل المعاصي، بل توعدهم بهذا اللفظ؛ لأنَّه تعالى - قد بيَّن لهم ما يأتون وما يتركون، وكقوله:(من باع الخمر فليشقص الخنازير)، فلم يكن في هذا إباحة تشقيص الخنازير؛ إذ الخمر محرم شربها محظور بيعها.

والوجه الثاني: أن يكون معناه: اصنع ما شئت من أمر لا تستحيي منه تفعله، والتأويل الأول أولى، وهو الشائع في لسان العرب، ولم يقل أحد في تأويل الآية المذكورة غيره"[2].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "خُلق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنَّه ليس معه من الخير شيء"[3].

٧ - الحياء مفتاح محبة اللَّه تعالى -:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ، وَيَكْرَهُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ، وَيُبْغِضُ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ وَيُحِبُّ الْحَيِيَّ الْعَفِيفَ الْمُتَعَفِّفَ"[4].

---

(١) سبل السلام: ٤/ ٢٠٦.

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٩٩.

(٣) مفتاح دار السعادة: ص ٢٢٧.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي - التاسع والثلاثون من شعب الإيمان - فصل فيمن كان متوسعًا فلبس ثوبًا حسنًا ليرى أثر نعمة الله عليه حديث رقم (٥٩١٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٧١١).

فاللَّه تعالى – يحب الحياء وبالتالي يحب أهل الحياء، ومن أحبه اللَّه تعالى – صار سعيدًا في كلِّ حياته وعند مماته وفي قبره ويوم لقاء اللَّه تعالى –.

٨ – الحياء من مفاتيح الأمن يوم القيامة:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (١).

نلاحظ في هذا الحديث: أنَّ قوة الحياء الحقيقية متوافرة فيهم أجمعين، ويأتي منهم هذا الرجل العجيب الذي تعرض لفتنة عظيمة، ألا وهي فتنة النساء وما أدراك ما فتنة النساء؟! امرأة كاملة الأوصاف من مال وجمال ومنصب تدعوه إلى الزنى، ومن العجب أنَّها مع الجمال والمنصب هي التي تدعوه إلى الفاحشة، ولكن قوة الحياء من اللَّه تعالى – تمنعه، ويقول: إني أخاف اللَّه، فكان الجزاء من جنس العمل؛ فأظله اللَّه في ظل عرشه يوم الفزع الأكبر (٢).

٩ – الحياء من مفاتيح الجنة:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ» (٣).

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله: فصل قال صاحب المنازل: الحياء: من أول مدارج أهل الخصوص، يتولد من تعظيم منوطٍ بودٍ، إنَّما جعل الحياء من أول مدارج أهل الخصوص؛ لما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه.

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم (٢٤٢٧) ١/ ٤٠٥.

(٢) موسوعة الخطب والدروس: على بن نايف الشحود – خطبة بعنوان: الحياء هو الحياة إعداد: صلاح عبد الخالق – منشورة بموقع صيد الفوائد على شبكة الانترنت.

(٣) صحيح ابن حبان – كتاب الرقائق – باب الحياء حديث رقم (٦٠٨) ٢/ ٣٧٢.

وأول سلوك أهل الخصوص: أن يروا الحق - سبحانه حاضرًا معهم، وعليه بناء سلوكهم، وقوله: إنَّه يتولد من تعظيم منوطٍ بودٍ يعني: أنَّ الحياء حالة حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء.

والجنيد يقول: إن تولده من مشاهدة النعم ورؤية التقصير.

ومنهم من يقول: تولده من شعور القلب بما يستحيي منه، فيتولد من هذا الشعور والنفرة حالة تسمى الحياء، ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإنَّ للحياء عدة أسباب قد تقدم ذكرها، فكل أشار إلى بعضها، والله أعلم[1].

من أقوال السَّلف في الحياء:

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يخطب النّاس: "يا معشر المسلمين: استحيوا من اللّه فو الّذي نفسي بيده إنّي لأظلّ حين أذهب الغائط في الفضاء متقنّعًا بثوبي استحياء من ربّي - عزَّ وجلَّ"[2].

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه"[3].

وعن الشعبي قال: مر عمر بن الخطاب في بعض طرق المدينة فسمع امرأة تقول:

دعتني النفس بعد خروج عمرو... إلى اللذات فاطلع التلاعا

فقلت لها عجلتُ فلم تطاعي... ولو طالت إقامته رباعا

أحاذر أن أطيعك سب نفسي... ومخزاة تجللني قناعا

فقال عمر وأتى بالمرأة: إنَّ شيئًا منعك قالت الحياء والإكرام عرضي، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّ الحياء ليدل على هنات ذات ألوان، من استحيا استخفي، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقى، وكتب عمر إلى صاحب زوجها فأقفله إليها[4].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٤.

(٢) مكارم الأخلاق: لابن أبى الدنيا: ١/ ٤٠.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٠.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٤٠.

ومن كلام بعض الحكماء: "أحيوا الحياء بمجالسة من يُستحيَّا منه، وعمارة القلب: بالهيبة والحياء، فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير"[١].

وقال السرى: "إنَّ الحياء والأنس يطرقان القلب، فإن وجدا فيه الزهد والورع، وإلا رحلا[٢].

وفى أثر إلهي يقول الله عزَّ وجلَّ -: ابن آدم إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك، ومحوت من أم الكتاب زلاتك، وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة، وفي أثر آخر: أوحى الله عزَّ وجلَّ - إلى عيسى - عليه الصَّلاة والسَّلام -: عظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحيي مني: أن تعظ الناس[٣].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "وهذا الكلام يحتاج إلى شرح ومعناه: أنَّ من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته، فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحٍ خجل: فإنَّه إذا واقع ذنبًا استحيى الله عزَّ وجلَّ - من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحيي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه: ما يشينه عنده، وفي الشاهد شاهد بذلك، فإنَّ الرجل إذا اطلع على أخص الناس به، وأحبهم إليه، وأقربهم منه، من صاحب أو ولد أو من يحبه وهو يخونه، فإنَّه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني، وهذا غاية الكرم[٤].

وقد قيل: إنَّ سبب هذا الحياء: أنَّه يمثل نفسه في حال طاعته، كأنه يعصي الله عزَّ وجلَّ - فيستحيي منه في تلك الحال، ولهذا شرع الاستغفار عقيب الأعمال الصالحة، والقرب التي يتقرب بها العبد إلى الله عزَّ وجلَّ -.

وقيل: إنه يمثل نفسه خائنًا فيلحقه الحياء، كما إذا شاهد رجلًا مضروبًا وهو صديق له أو من أحصر على المنبر عن الكلام، فإنَّه يخجل - أيضًا - تمثيلًا لنفسه بتلك الحال[٥].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٧٠.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٦٠.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٦١.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٦١.

وهذا قد يقع، ولكنَّ حياء من اطلع على محبوبه وهو يخونه ليس من هذا، فإنَّه لو اطلع على غيره ممن هو فارغ البال منه لم يلحقه هذا الحياء ولا قريب منه، وإنما يلحقه مقته وسقوطه من عينه، وإنَّما سببه والله أعلم شدة تعلق قلبه ونفسه به، فينزل الوهم فعله بمنزلة فعله هو، ولا سيَّما إن قدر حصول المكاشفة بينهما، فإنَّ عند حصولها يهيج خلق الحياء منه تكرمًا، فعند تقديرها ينبعث ذلك الحياء هذا في حق الشاهد، وأمَّا حياء الرب - تعالى - من عبده: فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول، فإنَّه حياء كرم وبر وجود وجلال، فإنَّه تبارك وتعالى - حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام"[1].

وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيى هو، وفي أثر: من استحيى من الله استحيى الله منه[2].

وعن إياس بن معاوية بن قرة قال: كنتُ عند عمر بن عبد العزيز فذكر عنده الحياء فقالوا الحياء من الدين فقال عمر: بل هو الدين كله قال إياس فقلتُ حدثني أبي عن جدي قرة قال: كنتُ عند النبي ﷺ فذكر عنده الحياء فقالوا يا رسول الله: الحياء من الدين، فقال رسول الله ﷺ: بل هو الدين كله ثُمَّ قال ﷺ: إنَّ الحياء والعفاف والعي على اللسان لا على القلب والفقه من الإيمان فإنَّهنَّ يزدن في الآخرة وينقصن من الدنيا وإنَّ الشح والبذاء من النفاق، وإنَّهنَّ يزدن في الدنيا وينقصن من الآخرة، وما ينقصن من الآخرة أكثر ممَّا يزدن في الدنيا، قال إياس فأمرني عمر فأمليتها عليه وكتبها بخطه ثم صلى بنا الظهر والعصر، وإنَّها لفي كفه[3].

وعن وهب بن منبه قال: "الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة"[4].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦١.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦١، مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٣) مكارم الأخلاق: لابن أبى الدنيا ١/ ٣٨.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٤١.

وقال الحسن البصري: "الحياء والتكرم خصلتان من خصال الخير، لم يكونا في عبدٍ إلا رفعه الله بهما"[1].

وقال أيضًا: "أربع من كن فيه كان كاملًا، ومن تعلق بواحدة منهنَّ كان من صالحي قومه: دين يرشده، وعقل يسدده، وحسب يصونه، وحياء يقوده".

وقال الأصمعي: "سمعتُ أعرابيًا يقول: من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه".

وعن زاذان عن سليمان قال: "إذا أراد الله بعبد هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا ممقتًا"[2].

الفرق بين الحياء والخجل:

قال أبو هلال العسكري - رحمه الله: الفرق بين الخجل والحياء، أنَّ الخجل معنى يظهر في الوجه لغمٍ يلحق القلب عند ذهاب حجة، أو ظهور على ريبة، وما أشبه ذلك فهو شيء تتغير به الهيئة، والحياء هو الارتداع بقوة الحياء، ولهذا يقال فلان يستحيي في هذا الحال أن يفعل كذا، ولا يقال يخجل أن يفعله في هذه الحال؛ لأنَّ هيئته لا تتغير منه قبل أن يفعله، فالخجل ممَّا كان والحياء ممَّا يكون، وقد يستعمل الحياء موضع الخجل توسعًا، وقال الأنباري أصل الخجل في اللغة: الكسل والتواني وقلة الحركة في طلب الرزق، ثم كثر استعمال العرب له حتى أخرجوه على معنى الانقطاع في الكلام[3].

أقسام الحياء:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: والحياء على عشرة أوجه[4]:

١ - **حياء الجناية**: وأمَّا حياء الجناية: فمنه حياء آدم - عليه السلام - لمَّا فر هاربًا في الجنة قال الله تعالى -: أفرارًا مني يا آدم قال: لا يا رب بل حياء منك.

---

(١) مكارم الأخلاق: لابن أبى الدنيا: ١/ ٤٣.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٤٤.

(٣) الفروق اللغوية: لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ص ٢٤٤، ط/ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، الموسوعة الفقهية الكويتية: ١٨/ ٢٥٩ وما بعدها.

(٤) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦١ وما بعدها.

٢ - **حياء التقصير**: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك.

٣ - **حياء الإجلال**: هو حياء المعرفة وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

٤ - **حياء الكرم**: كحياء النبي من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطولوا الجلوس عنده، فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

٥ - **حياء الحشمة**: كحياء علي بن طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسأل رسول الله عن المذي لمكانة ابنته منه.

٦ - **حياء الاستحقار واستصغار النفس**: كحياء العبد من ربه عزَّ وجلَّ - حين يسأله حوائجه احتقار الشأن نفسه واستصغارًا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان: أحدهما: استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياه.

والثاني: استعظام مسؤوله وقهر المحبوب لهم وذلهم له، فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة أحس القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف.

٧ - **حياء المحبة**: هو حياء المحب من محبوبه حتى إنَّه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه ولا يدرى ما سببه، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومناجاته له روعة شديدة، ومنه قولهم: جمال رائع وسبب هذا الحياء، والروعة ممَّا لا يعرفه أكثر الناس.

ولا ريب أنَّ للمحبة سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك، ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق وقهر المحبوب لهم وذلهم له فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة: أحس القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف[1].

٨ - **حياء العبودية**: هو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأنَّ قدره أعلى وأجلّ منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٢ وما بعدها.

٩ - **حياء الشرف والعزة:** فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان، فإنَّه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان:

أحدهما: هذا، والثاني: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء التلوم؛ لأنَّه يستحيي من خجلة الآخذ.

١٠ - **حياء المرء من نفسه:** فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحيًّا من نفسه حتى كأنَّ له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإنَّ العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر[١].

سابعًا: درجات الحياء:

قال شيخ الإسلام الهروي - رحمه الله في (منازل السائرين) وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه، فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة، ويحمله على استقباح الجناية، ويسكته عن الشكوى.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله في شرح هذه الدرجة: يعني: أنَّ العبد متى علم أنَّ الرب - تعالى - ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة، مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده فإنَّه يكون نشيطًا فيه محتملًا لأعبائه، ولا سيَّما مع الإحسان من سيده إليه، ومحبته لسيده بخلاف ما إذا كان غائبًا عن سيده، والرب - تعالى - لا يغيب نظره عن عبده، ولكن يغيب نظر القلب والتفاته إلى نظره سبحانه إلى العبيد فإنَّ القلب إذا غاب نظره وقل التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى - إليه: تولد من ذلك قلة الحياء والقحة.

وكذلك يحمله على استقباح جنايته، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدر زائد على استقباح ملاحظة الوعيد وهو فوقه[٢].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٦٤.

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة، فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف، ولذلك فإنَّ هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله فيكون قد شكا الله إلى خلقه، ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه فإنَّ الشكوى إليه سبحانه فقر وذلة وفاقة وعبودية، فالحياء منه في مثل ذلك لا ينافيها[1].

الدرجة الثانية: حياء يتولد من النظر في علم القرب، فيدعوه إلى ركوب المحبة، ويربطه بروح الأنس، ويكره إليه ملابسة الخلق.

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله: النظر في علم القرب: تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله، فإنَّ المعية نوعان: عامة وهي: معية العلم والإحاطة، كقوله تعالى –: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[3].

وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[4].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6].

فهذه معية قرب تتضمن الموالاة والنصر والحفظ، وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد، لكنَّ هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة.

ف (مع) في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة، فمن ظنَّ شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أتي.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٥.

(٢) سورة الحديد: الآية: ٤.

(٣) سورة المجادلة: الآية: ٧.

(٤) سورة النحل: الآية: ١٢٨.

(٥) سورة البقرة: الآية: ١٥٣.

(٦) سورة العنكبوت: الآية: ٦٩.

وأمَّا القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصًا، وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة، وقربه من عابده بالإثابة[1].

الدرجة الثالثة: حياء يتولد من شهود الحضرة، وهي التي لا تشوبها هيبة، ولا تقارنها تفرقة، ولا يوقف لها على غاية:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: شهود الحضرة: انجذاب الروح والقلب من الكائنات، وعكوفه على رب البريات، فهو في حضرة قربه مشاهد لها وإذا وصل القلب إليها غشيته الهيبة وزالت عنه التفرقة؛ إذ ما مع الله سواه فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده، وهذا مقام الجمعية.

وأمَّا قوله: «ولا يوقف لها» على غاية، فيعني: أنَّ كل من وصل إلى مطلوبه وظفر به: وصل إلى الغاية إلا صاحب هذا المشهد فإنَّه لا يقف بحضرة الربوبية على غاية فإن ذلك مستحيل، بل إذا شهد تلك الروابي ووقف على تلك الربوع وعاين الحضرة التي هي غاية الغايات شارف أمرًا لا غاية له ولا نهاية والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[2]، فانتهت إليه الغايات والنهايات وليس له سبحانه غاية ولا نهاية: لا في وجوده ولا في مزيد جوده؛ إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية[3].

صور من الحياء عند سلفنا الصالح:

للحياء عند السلف الصالح رضوان الله تعالى - عليهم صور كثيرة، منها:

١ - حياء أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -:

أخرج أحمد في مسنده بسند صحيح عن أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبِي فَأَضَعُ ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّمَا هُوَ

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٥ وما بعدها.

(٢) سورة النجم: الآية: ٢٢.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٨.

زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَ اللهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي، حَيَاءً مِنْ عُمَرَ[1].

٢ - حياء أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين: استحيوا من الله فو الذي نفسي بيده إني لأظل حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعًا بثوبي استحياء من ربي - عزَّ وجلَّ - [2].

٣ - حياء عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ - فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»[3].

وسائل تحقيق الحياء:

هناك عدة وسائل يتحقق من خلالها الحياء في أبهى صوره وأشكاله، منها: تدبر القرآن الكريم، ومجاهدة النفس، وإزالة ما ينافى الحياء، والتربية على الحياء، واعتزال البيئة الفاسدة والموبوءة التي تصد عن الخُلق الحسن والتنزه عن معاشرة قليلي الحياء والتحول إلى الصحبة الصالحة، والتعبد بالتفكر في أسماء الله الحسنى التي تستوجب المراقبة والإحسان كأسمائه، ومصاحبة الصالحين ورؤيتهم والسَّماع منهم والاستمداد

---

(١) مسند أحمد - مسند الأنصار - الملحق المستدرك من مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حديث رقم (٢٥٦٦٠) ٤٢/ ٤٤٠.

(٢) مكارم الأخلاق: لابن أبي الدنيا، ص ٢٠.

(٣) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - باب من فضائل عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٦٣٦٢) ٢/ ١٠٢٧.

من حياتهم، والإكثار من النظر دومًا إلى القدوة الطيبة والمثل الأعلى في الحياء، والمحافظة على الصلوات الخمس، وفيما يأتي بيان هذه الوسائل بشيء من التفصيل:

١ - تجديد الإيمان بالله سبحانه وتعالى - في القلب:

إنَّ الحياء ثمرة الإيمان، والحياء شعبة من الإيمان، فتجديد الإيمان في القلب يقوي الحياء من الرب - سبحانه وتعالى - والإيمان يقوى ويضعف ويزيد وينقص، ويقوى بالطاعة ويضعف بالمعصية، قال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١].

فعن عبدالله بن عوف أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»[٢].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ)، أي: يكاد أن يبلى (فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ)، أيها المؤمنون (كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ)، وصفه على طريق الاستعارة شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته والعبد يتكلم بكلمة الإيمان ثم يدنسها بسوء أفعاله، فإذا عاد واعتذر فقد جدد ما أخلق وطهر ما دنس، (فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)، حتى لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره، ولا رغبة لسواه، ولهذا قال معاذ لبعض صحبه اجلس بنا نؤمن، أي: نذكره ذكرًا يملأ قلوبنا، وكان الصديق يقول كان كذا لا إله إلا الله، فقلتُ كذا لا إله إلا الله، فلا يتكلم بكلمة إلا ختمها به[٣].

وتجديد الإيمان يحتاج إلى الطاعة إلى ذكر وقراءة قرآن واستغفار وأمر بمعروف ونهي عن منكر.

---

(١) سورة الفتح: الآية: ٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب الإيمان حديث رقم (٥) ١/ ٤٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٥٩٠).

(٣) فيض القدير: ٢/ ٤١٠.

٢ - المحافظة على الصلوات الخمس:

من أعظم الوسائل التي تقوي الحياء في القلب من الله سبحانه وتعالى -.. قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[١].

٣ - الإكثار من النظر دومًا إلى القدوة الطيبة والمثل الأعلى في الحياء:

إنَّه المصطفى ﷺ فأدم النظر في سيرته وأقواله وأفعاله، فلقد كان في القمة من الحياء.

٤ - مصاحبة الصالحين ورؤيتهم والسَّماع منهم والاستمداد من حياتهم.

قال بعض الحكماء: «أحيوا الحياء بمجالسة من يُستحيَّا منه»[٢].

٥ - التعبد بالتفكر في أسماء الله الحسنى التي تستوجب المراقبة والإحسان كأسمائه: الشهيد، والرقيب، والعليم، والسميع، والبصير، والمحيط، والحفيظ.

قال حاتم الأصم: «تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكتّ فاذكر علم الله فيك»[٣].

٦ - اعتزال البيئة الفاسدة والموبوءة التي تصد عن الخلق الحسن والتنزه عن معاشرة قليلي الحياء والتحول إلى الصحبة الصالحة.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الحياء وأن يحشرنا في زمرة الأتقياء إنَّه ولي ذلك والقادر عليه.

٧ - التربية على الحياء:

فالصغير يقال له منذ الصغر: هذا عيب، هذا لا يليق، ينبغي أن تكف، أيتها البنت استتري، غطِّ ساقك، غطي ركبتك، فضلًا عمَّا هو فوق ذلك، فتجد هذا الصغير سواء كان ذكرًا أو أنثى إذا انكشف ساقه أو انكشفت ركبته بادر إلى سترها، وتغير وجهه، ولربما صدرت منه بعض الحركات التي تنبئ عن امتعاضه لانكشاف هذا العضو الذي قد تعود أنَّه من الخطأ ومن العيب أن ينكشف أمام أنظار الآخرين، فهذه أمور تنمي، فالبنت الصغيرة

---

(١) سورة العنكبوت: الآية:٤٥.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٢٦٠.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ٢/ ١٩٣.

حينما نربيها على لبس القصير، وحينما نربيها على الشاشة الفضية، وهي تشاهد المرأة في أحضان الرجل يقبلها ويداعبها ويضاحكها، وقد ظهرت بأبهى زينة![1].

٨ - إزالة ما ينافى الحياء:

أخرجوا هذه الأجهزة المدمرة من بيوتكم، أخرجوها من بيوتكم يبقى لكم الحياء والعفة والشرف، تبقى لكم مقومات الوجود، يبقى لكم الدين والأخلاق والفضيلة والشرف والعفاف، أمَّا هذه القنوات الساقطة إلا ما رحم الله عزَّ وجلَّ - فإنَّها تفري الحياء فريًا، وتفتك بالأخلاق، وتعرض الفتنة بأبهى صورها، إنَّها تحطم القيم.

إنَّ التسمر أمام هذه الشاشات من قبل الشباب والفتيات، بل من قبل العجائز والشيوخ أمر يُحطِّم كلَّ معنى حميد تربى عليه الإنسان عشرات السنين.

إنَّهم يصورون الفضيلة على أنَّها تخلف، إنَّهم يؤسسون الأسس والقواعد التي تدمر ما بقي في نفوسنا من الفضائل، إنَّهم يصورون المرأة التي تحافظ على طهرها وحيائها وحشمتها، وعفافها بالمتخلفة وبالرجعية بالانطوائية، بالمعقدة، بالمريضة، إنَّهم يصورونها بأسوأ الصور، يصورون المرأة العصرية المتمدنة بالجريئة المتهتكة.

يقول الشيخ خالد بن عثمان السبت - حفظه الله: لا زلتُ أتذكر كلمة سمعتها منذ أكثر من عشرين سنة قالها أحد الدعاة يصف بها مشهد في بلده هذه امرأة قد لبست لباسًا يلبسه من لا خلاق له على شواطئ البحار، وقد جاء المصور ليصورها ولا زال فيها بقية من حياء، فضمت فخذيها وساقيها، فماذا قال هذا المصور مستفزًا لها؟ قال لها: أنت صعيدية - كما يقال عندنا: أنت قروية - فاستفزها بهذه الكلمة، فبادرت ففرجت بين فخذيها وساقيها ليلتقط لها صورة في أبشع أحوالها وأقذرها!![2].

وممَّا ينمي هذا الخلق في نفسك أيها المسلم أن تستحضر أنَّ الملائكة يرونك، وأنَّ الله يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3] هذا الفعل الذي قد تفعله وهو لا يليق يراه

---

(١) الحياء: للشيخ/ خالد بن عثمان السبت ص٢٤.

(٢) المرجع السابق ص٢٤.

(٣) سورة ق: الآية: ١٨.

الملك ويشاهده، والملائكة يطوفون فينا صباح مساء، كما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"[1]، فينبغي للإنسان أن يستحيي من نظرهم[2].

٩ - مجاهدة النفس:

وهو أن نجاهد النفس، وأن نروضها على الأخلاق الفاضلة؛ ذلك أنَّ كل شرف وكل علو ورفعة يحتاج إلى مجاهدة ومكابدة وألوان من الصبر؛ لأنَّ أضداد ذلك تزين خلافه، والنفس فيها نوازع، فكما أنَّ الحياء غريزة وفطرة فكذلك في النفس الأمارة بالسوء داعي الهوى والنفس يحرك الإنسان ويدعوه إلى فعل ما لا يليق، فيبقى الصراع محتدمًا بين الفضيلة والرذيلة، بين داعٍ يدعوه إلى الخير وملازمة الأخلاق الفاضلة، وبين داعٍ يدعوه إلى غير ذلك[3].

١٠ - تدبر القرآن الكريم:

هو أن نتدبر كلام الله عزَّ وجلَّ - الذي تجلى الله عزَّ وجلَّ - فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى بجلباب الهيبة والعظمة والجلال، وتارة يتجلى بصفة السمع والبصر والعلم؛ فتنبعث في العبد قوة الحياء، فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله ونظراته وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مرسلة تحت حكم الهوى[4].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل صلاة العصر حديث رقم (٥٥٤) ١/ ١١٠، صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاتي الصبح والعصر حديث رقم (١٤٦٤) ١/ ٢٥٠.

(٢) الحياء: للشيخ/ خالد بن عثمان السبت، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦.

(٤) المرجع السابق: ص٢٤.

من فوائد (الحياء)[1]:

(١) من خصال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) هجر المعصية خجلًا من اللّه سبحانه وتعالى.

(٣) الإقبال على الطّاعة بوازع الحبّ للّه عزّ وجلّ -.

(٤) يبعد عن فضائح الدّنيا والآخرة.

(٥) أصل كلّ شعب الإيمان.

(٦) يكسو المرء الوقار فلا يفعل ما يخلّ بالمروءة والتّوقير ولا يؤذي من يستحقّ الإكرام.

(٧) لا يمنع من مواجهة أهل الباطل ومرتكبي الجرائم.

(٨) هو دليل على كرم السّجيّة وطيب المنبت.

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٨١٤.

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ»

التواضع خُلق من الأخلاق الإسلامية التي دعانا إليها ديننا الإسلامي الحنيف، وهو خُلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام -، والصالحين من سلف هذه الأمة، وفيما يأتي بيان فضل التواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ودرجات التواضع، وصوره.

التواضع في القرآن الكريم:

قال - تعالى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: أي: سكينة ووقارًا متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين.

وقال الحسن - رحمه الله: «علماء حلماء».

وقال محمد بن الحنفية - رحمه الله: «أصحاب وقار وعفة لا يسفهون، وإن سفه عليهم حلموا»[2].

وقال الإمام الماوردي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، فيه أربعة أقاويل: **أحدها**: علماء وحلماء، قاله ابن عباس.

الثاني: أعفاء أتقياء، قاله الضحاك.

الثالث: بالسكينة والوقار، قاله مجاهد.

الرابع: متواضعين لا يتكبرون، قاله ابن زيد[3].

---

(١) سورة الفرقان: الآية: ٦٣.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٣٢٧.

(٣) تفسير الماوردي: ٤/ ١٥٤.

وقال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة: أنَّهم إن ارتد بعضُهم فإنَّ الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه ﷺ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، ويفهم من هذه الآيات: أنَّ المؤمن يجب عليه أن لا يلين إلا في الوقت المناسب للين، وألا يشتد إلا في الوقت المناسب للشدة؛ لأنَّ اللين في محل الشدة ضعف، وخور، والشدة في محل اللين حمق، وخرق»[2].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «لما كان الذلُّ منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة على تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنَّه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنَّما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول كما في الحديث: المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل، وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذاب والنمام والبخيل والجبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة.

قال عطاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "للمؤمنين كالوالد لولده وعلى الكافرين كالسبع على فريسته"[3].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ ﴾[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٥٤.

(٢) أضواء البيان: ١/ ٤١٦.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣٢٧.

(٤) سورة الإسراء: الآيتان: ٢٣، ٢٤.

قال الزمخشري - رحمه الله: «فإن قلتَ: ما معنى ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾؟ قلتُ: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى واخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، فأضافه إلى الذل أو الذل، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول.

والثاني: أن يجعل لذله أو لذله جناحًا خفيضًا، كما جعل لبيد للشمال يدًا، وللقرة زمانًا مبالغة في التذلل والتواضع لهما، والمعنى: أنَّه جعل اللين ذلًا، واستعار له جناحًا، ثُمَّ رشح هذا المجاز بأن أمر بخفضه»[2].

وقال - تعالى -: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾[4].

التواضع في السُّنَّة النَّبويَّة:

جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ يبيِّن لنا فيها مكانة هذا الخُلق، ومنها:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[5].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[6].

---

(١) سورة الحجر: الآية: ٨٨.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٢٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية: ٢١٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية: ٣٧.

(٥) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب البغي حديث رقم (٤٣٥٤) ١/ ٦١٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة حديث رقم (٤٢٨٩).

(٦) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب العفو والتواضع - حديث رقم (٦٧٥٧) ٢/ ١٠٩٩.

وعن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: " مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا فِي رَأْسِهِ حَكَمَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ارْفَعْ حَكَمَتَهُ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قِيلَ لِلْمَلَكِ: ضَعْ حَكَمَتَهُ "[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: (ما من آدمي)، من زائدة كما سبق، وهي هنا تفيد عموم النفي، وتحسين دخول ما على النكرة، (إلا في رأسه حَكَمَة)، وهي بالتحريك ما يجعل تحت حنك الدابة يمنعها المخالفة، كاللجام والحنك متصل بالرأس، (بيد ملكٍ) موكل به،(فإذا تواضع) للحق والخلق، (قيل للملك) من قبل اللّه تعالى – (ارفع حَكَمته)، أي: قدره ومنزلته، يقال فلان عالي الحكمة، فرفعها كناية عن الأعذار، (فإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته) كناية عن إذلاله، فإن من صفة الذليل تنكيس رأسه، فثمرة التكبر في الدنيا الذلة بين عباد اللّه وفي الآخرة نار الإيثار وهي عصارة أهل النار، كما جاء في بعض الأخبار[2].

وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»[3].

من أقوال السَّلف في التَّواضع:

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حَكَمته، وقال انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض، وقال اخسأ خسأك الله فهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس حقير حتى إنَّه لأحقر عندهم من الخنزير، أيها الناس لا تُبَغِضُوا الله إلى العباد: قيل: وكيف ذلك؟ قال: يقوم أحدكم إمامًا فيطول عليهم فيبغض إليهم ما هم فيه"[4].

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير – من اسمه عبد الله حديث رقم (١٢٩٣٩) ١٢/ ٢١٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٦٧٥).

(٢) فيض القدير: ٥/ ٥٩٦.

(٣) سنن الترمذي – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – باب البناء كله وبال – حديث رقم (٢٦٦٩) ٢/ ٦٣٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٨١)، ومعنى قوله: حُلل الإيمان يعني: ما يعطى أهل الإيمان من حُلل الجنة. ينظر: سنن الترمذي: ٢/ ٦٣٣.

(٤) التواضع والخمول: لابن أبى الدنيا – ١/ ١٠٢ برقم(٧٨).

وقال جرير بن عبد الله: "انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثُمَّ إنَّ الرجل استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي فذكرتُ له ما صنعتُ، فقال: لي يا جرير تواضعْ لله في الدنيا، فإنَّه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جوير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة قلتُ: لا، قال: إنَّه ظلم الناس بعضهم في الدنيا"[1].

وقالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: إنَّكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع[2].

وقال يوسف بن أسباط - رحمه الله: "يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد[3].

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله: "وقد سُئل عن التواضع ما هو فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته"[4].

وقال عبد الله بن المبارك - رحمه الله: "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنَّه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنَّه ليس له بدنياه عليك فضل"[5].

وقال قتادة - رحمه الله: "من أعطي مالًا أو جمالًا أو ثيابًا أو علمًا، ثُمَّ لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة"[6].

وقال كعب - رحمه الله: "ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه[7].

(١) التواضع والخمول: لابن أبى الدنيا: ١/ ١٠٥ برقم (٧٩).

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٠٧ برقم(٨٠).

(٣) المرجع السابق: ١/ ١١٧برقم(٨٧).

(٤) المرجع السابق: ١/ ١١٨ برقم(٨٨).

(٥) المرجع السابق: ١/ ١١٩ برقم (٨٩).

(٦) المرجع السابق: ١/ ١١٩ برقم(٩٠).

(٧) المرجع السابق: ١/ ١٢٣ برقم(٩٣).

وقيل لعبد الملك بن مروان: أيُّ الرجال أفضل؟ قال من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة على قومه[١].

ودخل ابن السَّماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال ما أحسن ما قلتَ، فقال يا أمير المؤمنين إن امرأً آتاه الله جمالًا في خلقته، وموضعًا في حسبه، وبسط له في ذات يده فعف في جماله، وواسى من ماله، وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده[٢].

وكان سليمان بن داود - عليهما السَّلام -: "إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم، ويقول مسكين مع مساكين"[٣].

وقال بعضهم: "كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون، فكذلك فأكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة"[٤].

وعن صالح المري قال: "خرج الحسن، ويونس، وأيوب يتذاكرون التواضع فقال لهما الحسن وهل تدرون ما التواضع؟ التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلق مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلا"[٥].

وكان عيسى بن مريم يقول: "طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنائر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يورثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله عزَّ وجلَّ - يوم القيامة"[٦].

---

(١) التواضع والخمول: لابن أبى الدنيا: ١/ ١٢٥ برقم (٩٤).

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٢٧ برقم(٩٥).

(٣) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٤٢.

(٤) التواضع والخمول: ١/ ١٤٢ برقم(١٠٨).

(٥) المرجع السابق: ١/ ١٥٢ برقم(١١٦).

(٦) المرجع السابق: ١/ ١٥٣ برقم(١١٧).

وقال مجاهد – رحمه الله: "إنَّ الله تعالى – لما أغرق قوم نوح – عليه السلام – شمخت الجبال، وتطاولت، وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه"[1].

وقال أبو سليمان – رحمه الله: إنَّ الله عزَّ وجلَّ – اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبًا أشد تواضعًا من قلب موسى – عليه السَّلام – فخصه من بينهم بالكلام[2].

وقال يونس بن عبيد – رحمه الله: وقد انصرف من عرفات لم أشك في الرحمة لولا أنِّي كنت معهم، إنِّي أخشى أنَّهم حرموا بسببي[3].

ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه[4].

وقال زياد النمري – رحمه الله: الزاهد بغير تواضع، كالشجرة التي لا تثمر[5].

وقال مالك بن دينار – رحمه الله: لو أنَّ مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رحلًا، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلًا بفضل قوة أو سعي، قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكًا[6].

وقال الفضيل – رحمه الله: من أحب الرياسة لم يفلح أبدًا[7].

وقال موسى بن القاسم – رحمه الله: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلتُ: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عزَّ وجلَّ – لنا فبكى، ثُمَّ قال:

---

(١) التواضع والخمول: ١/ ١٥٤ برقم(١١٩).

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٤٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٧) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

ليتني لم أكن سبب هلاككم قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ - رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل[١].

وجاء رجل إلى الشبلي - رحمه الله فقال: له ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء، فقال له الشبلي: أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعًا[٢].

ويقال: "من يرى لنفسه قيمة، فليس له من التواضع نصيب"[٣].

وقال أبو يزيد - رحمه الله: "ما دام العبد يظن أنَّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا، وتواضع كلِّ إنسان على قدر معرفته بربه عزَّ وجلَّ - ومعرفته بنفسه"[٤].

وقال أبو سليمان - رحمه الله: "لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه[٥].

وقال عروة بن الورد - رحمه الله: "التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع[٦].

وقال يحيى بن خالد البرمكي - رحمه الله: "الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم"[٧].

وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع[٨].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٢.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

(٧) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

(٨) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

ويقال: التواضع في الخلق كلِّهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلِّهم قبيح، وفي الفقراء أقبح[1].

ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عزَّ وجلَّ - ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزَّ وجلَّ - ولا أمن إلا لمن خاف الله عزَّ وجلَّ - ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عزَّ وجلَّ -[2].

وقال أبو علي الجوزجاني - رحمه الله: "النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى - هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى - به خيرًا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى -، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزَّ وجلَّ -، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عزَّ وجلَّ"[3].

وقال يحيي بن كثير - رحمه الله: "إنَّ من رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام، وأن ترضى بالدون من شرف المجلس، وتكره المدحة والسمعة والرياء بالبر"[4].

وعن عامر بن عبد الله رحمه الله قال: "من تواضع تخشعًا رفعه الله، ومن تكبر تعظمًا وضعه الله"[5].

وعن الحسن أنَّه ذكر هذه الآية: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[6] قال: المؤمنون قوم ذلل ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى، والله ما بالقوم من مرض، وإنَّهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار،

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٤٣.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٠ - ٣٤٣.

(٤) التواضع والخمول: ١/ ١٥٤ برقم(١١٨).

(٥) المرجع السابق: ١/ ١٦٤ برقم(١٦٢).

(٦) سورة الفرقان: الآية: ٦٣.

وإنَّه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه[١].

وقال الحارث المحاسبي – رحمه الله في بيان حقيقة التواضع: «هو أن تكون إذا خرجت من بيتك فكل من استقبلك رأيت أنَّ له عليك الفضل، فإذا كان الرجل يدعي هذا ويقربه بلسانه، غير أنَّه إذا صار إلى احتمال شروطه ومحنه لم يتحملها إلا بالكره من نفسه، أيكون هذا متواضعًا؟.

قال: إذا كانت تلك الشروط من الحقوق الواجبة فلم يقبلها إلا بالكره من نفسه، فلم يبلغ هذا درجة المتواضعين، وإن كانت شروطًا دون الحقوق الواجبة ممَّا لا يحرج العبد ترك قبولها من أحد، وكان طيبًا بقبول الواجب منها، فهو طريق المتواضعين وعلى منهاجهم»[٢].

وقال ابن عطاء – رحمه الله: «هو قبول الحق ممّن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار»[٣].

وقال إبراهيم بن شيبان – رحمه الله: «الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة»[٤].

ويذكر عن سفيان الثوري – رحمه الله أنَّه قال: «أعز الخلق خمسة أنفس: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر»[٥].

---

(١) الزهد: لعبد الله بن المبارك، ١/ ١٣٤ برقم(٣٩٧)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) آداب النفوس: للإمام أبو عبد الله حارث بن أسد المحاسبي، ١/ ١٨٦ وما بعدها، ط/ دار الجيل – بيروت – سنة النشر ١٩٨٤م، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣٢٩.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٣٤٢.

(٥) المرجع السابق: ٢/ ٣٢٩ وما بعدها.

درجات التواضع:

قال شيخ الإسلام الهروي في (منازل السائرين): وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التواضع للدين، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا.

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله في شرح هذه الدرجة: التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئًا ممَّا جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل، وعزلنا النَّقل، إمَّا عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص: قدمنا القياس على النصِّ، ولم نلتفت إليه.

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال، ولم يعبؤوا بالأمر.

والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثاني: أن لا يتهم دليلًا من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أنَّ غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أنَّ الآفة منه والبلية فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنَّه ما اتهم أحد دليلًا للدين إلا وكان المتهم هو

الفاسد الذهن المأفون في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل، وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه فاعلم أنَّه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأنَّ تحته كنزًا من كنوز العلم، ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك[1].

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلًا ألبتَّة لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله، بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المقدم على الزنا، وشرب الخمر، وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داع إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار، والأئمة على نفوسهم[2].

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا، وأن لا ترد على عدوك حقًّا، وأن تقبل من المعتذر معاذيره:

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله في شرح هذه الدرجة: إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا، فعدم رضاك به أخًا، وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبدًا لنفسه عين الكبر، وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته، وسيده راض بعبوديته.

فيجيء من هذا: أنَّ المتكبر غير راض بعبودية سيده؛ إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده، وهذا شأن عبيد الملوك.

وأمَّا قبولك من المعتذر معاذيره فمعناه: أنَّ من أساء إليك ثُمَّ جاء يعتذر من إساءته فإنَّ التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًّا كانت أو باطلًا، وتكل سريرته إلى الله تعالى –، كما فعل رسول الله في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه فقبل أعذارهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى –.

وعلامة الكرم والتواضع: أنَّك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه، وقل يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضى شيء لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك[3].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٣٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٣٤.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٣٧.

الدرجة الثالثة: أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ورؤية حقك في الصحبة وعن رسمك في المشاهدة:

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله: التواضع بأن تخدم الحق – سبحانه وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعيَ العادة، كما هو باعث من لا بصيرة له غير أنَّه اعتاد أمرًا فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك[1].

وحاصله: أنَّه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة ولا عادة، بل الباعث مجرد الأمر والرأي والمحبة والهوى والعوائد: منفذة تابعة لا أنَّها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر[2].

وأمَّا نزوله عن رؤية حقه في الصحبة فمعناه: أن لا يرى لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله، فإن صحبته مع الله بالعبودية والفقر المحض والذل والانكسار، فمتى رأى لنفسه عليه حقًا فسدت الصحبة، وصارت معلولة، وخيف منها المقت، ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم، فإنَّ ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه لا باستحقاق العبيد، وأنَّهم أوجبوه عليه بأعمالهم[3].

الفرق بين التواضع والذل والمهانة:

والفرق بين التّواضع والمهانة (أو الذّلّ): أنّ التّواضع يتولّد من بين العلم باللّه سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبّته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولّد من ذلك كلّه خلق هو التّواضع وهو انكسار القلب للّه وخفض جناح الذّلّ والرّحمة لعباده فلا يرى له على أحد فضلًا ولا يرى له عند أحد حقًّا بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنّما يعطيه اللّه عزّ وجلّ – من يحبّه ويكرّمه ويقرّبه[4].

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٣٨.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٣٨.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٣٨.

(٤) نضرة النعيم: ٤/ ١٢٥٦.

وأمّا المهانة (الذّلّ) فهي: الدّناءة والخسّة وبذل النّفس أو ابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السّفل في نيل شهواتهم وتواضع طالب كلّ حظّ لمن يرجو نيل حظّه منه فهذا كلّه ضعة لا تواضع واللّه سبحانه يحبّ التّواضع ويبغض الضّعة والمهانة[1].

والتّواضع المحمود على نوعين: -

النّوع الأوّل: تواضع العبد عند أمر اللّه امتثالًا وعند نهيه اجتنابًا فإنّ النّفس لطلب الرّاحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشرود هربًا من العبوديّة وتثبت عند نهيه طلبًا للظّفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر اللّه ونهيه فقد تواضع للعبوديّة.

والنّوع الثّاني: تواضع لعظمة الرّبّ وجلاله وخضوعه لعزّته وكبريائه، فكلّما شمخت نفسه ذكر عظمة الرّبّ تعالى، وتفرّده بذلك وغضبه الشّديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة اللّه قلبه واطمأنّ لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التّواضع، وهو يستلزم الأوّل من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين معًا[2].

تواضع النبي ﷺ:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، قَالَ: وَقَالَ: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ»، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ[3]، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ»[4].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: "قوله: "لعق أصابعه الثلاث" وهذا أدب حسن، وسنة جميلة لإشعاره بعدم الشره في الطعام، وبالاقتصار على ما يحتاجه، وذلك أن الثلاث

---

(١) نضرة النعيم: ٤/ ١٢٥٦.

(٢) الروح: لابن القيم، ص ٢١٠ - ٢١١، نضرة النعيم: ٤/ ١٢٥٧.

(٣) قوله: (وأمرنا أن نسلت الصحفة): أي: نمسحها ونتتبع ما بقي فيها من الطعام، يقال: سلت الصحفة يسلتها من باب نصر ينصر إذا تتبع ما بقي فيهما من الطعام ومسحها بالأصبع ونحوها. ينظر: عون المعبود: ٩/ ٧٧٩.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب استحباب لعق الأصابع والقصعة - حديث رقم (٥٤٢٣) ٢/ ٨٨٧.

يستقل بها الظريف الخبير، وهذا فيما يمكن فيه ذلك من الأطعمة، وإلا فيستعان بما يحتاجه من أصابعه...قال الخطابي - رحمه الله: عاب قوم أفسد عقولهم الترفيه لعق الأصابع واستقبحوه، كأنهم ما علموا أن الطعام الذي علق بها، وبالصفحة جزء من المأكول، وإذا لم تستقذر كله فلا تستقذر بعضه، وليس فيه أكثر من مصها بباطن الشفة"[1].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَحِبُّوا الْمَسَاكِينَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»[2].

وأخرج البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّه مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم وقال: كانَ النَّبيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ[3].

قال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "سلام النبي ﷺ على الصبيان من خلقه العظيم، وأدبه الشريف، وتواضعه عليه السلام - وفيه تدريب لهم على تعليم السنن، ورياضة لهم على آداب الشريعة ليبلغوا حد التكليف وهم متأدبون بأدب الإسلام، وقد كان - عليه السلام - يمازح الصبيان ويداعبهم ليقتدَى به في ذلك، فما فعل شيئًا وإن كان صغيرًا إلا ليسن لأمته الاقتداء به، والاقتداء لأثره، وفي ممازحته للصبيان تذليل النفس على التواضع ونفى التكبر عنها"[4].

وقال الإمام النووي - رحمه الله: "فيه استحباب السلام على الصبيان المميزين، والندب إلى التواضع، وبذل السلام للناس كلهم، وبيان تواضعه ﷺ، وكمال شفقته على العالمين"[5].

---

(١) فيض القدير: ٥/ ١٣٨.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب مجالسة الفقراء - حديث رقم (٤٢٦٥) ١/ ٦٠٦، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢٠١).

(٣) صحيح البخاري - كتاب الاستئذان - باب التسليم على الصبيان - حديث رقم (٦٣٢٠) ٣/ ١٢٧٢.

(٤) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٧.

(٥) شرح النووي على مسلم: ١٤/ ١٤٩.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»(١).

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّه سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول على المنبر: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٣).

وعن عبدالله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ الذِّكْرَ، وَيُقِلُّ اللَّغْوَ، وَيُطِيلُ الصَّلَاةَ، وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ، وَلَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الْأَرْمَلَةِ، وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ»(٤).

عن عبيد بن عمير قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ رَعَاهَا، يَعْنِي: الْغَنَمَ، قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَأَنَا)(٥).

وعن الحسن قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَلْعَقُ أَصَابِعَهُ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»(٦).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الإجارة - باب رعي الغنم على قراريط - حديث رقم (٢٣٠٦) ١/ ٤١٨.

(٢) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب قول الله: "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها" - حديث رقم (٣٤٨٤) ٢/ ٦٨١.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ - حديث رقم (٦٢٨٧) ٢/ ١٠١٢.

(٤) السنن الصغرى للنسائي - كتاب الجمعة - باب ما يستحب من تقصير الخطبة - حديث رقم (١٤٢٥) ١/ ٢٣٣، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (١٤١٣).

(٥) الزهد: لهناد بن السري، ٢/ ٤١١ رقم(٧٩٨).

(٦) المرجع السابق: ٢/ ١١ برقم(٧٩٩).

وعن عمرو بن مرة قال: أهديَ لرسول الله ﷺ هدية، فَنَظَرَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَضَعُهَا فِيهِ، فَقَالَ: «ضَعْهُ بِالْحَضِيضِ، فَإِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَيَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُ الْعَبْدُ، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا أَعْطَى كَافِرًا مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءٍ»[1].

وعن مجاهد قال: ما أكل رسول الله ﷺ متكئًا إلا مرة ثم جلس فقال أنا عبدالله ورسوله[2].

وعن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: أُتِيّ رسول الله ﷺ برجلين ترعد فرائصهما فقال: هوِّنَا على أنفسكما فإنَّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[3].

صور من التواضع:

للتواضع صور متعددة منها: التواضع مع الله تعالى، والتواضع مع النفس، والتواضع مع الناس، وفيما يأتي بيان هذه الصور بشيء من التفصيل:

١ - التواضع مع الله:

تواضع العبد في علاقته مع ربه، ومعاملته له تنطلق من رؤيته لحقيقته وأصله، وأنَّه مخلوق عاجز، ضعيف، جاهل.. أصله هو التراب والماء المهين.

وتنطلق معاملة العبد لربه كذلك من استشعاره لعظمته سبحانه وجلاله وكماله، وعظيم فضله عليه، وأنَّه لا غنى له عنه طرفة عين.

هذه الحالة القلبية ينبغي أن يترجمها العبد في صورة تذلل ومسكنة وخضوع لله عزَّ وجلَّ -، وإظهار عظيم افتقاره وحاجته إليه، وأنَّه مهما أوتي من أشكال الصحة والقوة والجمال والجاه والمال فهو كما هو، عبد ذليل لرب جليل، وأنَّ هذه الأشياء لم تغير من حقيقته شيئًا.

وهذا ما كان يفعله رسولنا ﷺ وصحابته الكرام، ومن تبعهم بإحسان.. كانوا يظهرون خضوعهم وانكسارهم لربهم كلما ازدادوا رفعة في الدنيا.

---

(١) الزهد: لهناد بن السري: ٢/ ٤١٢ برقم(٨٠٠).

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٤١٢ برقم (٨٠١).

(٣) الآداب الشرعية: لابن مفلح ٢/ ٤٢١.

فهذا رسولنا ﷺ يدخل مكة فاتحًا بعد أن أخرجه منها أهلها.. فماذا كان حاله وقت دخوله؟!

أقبل ﷺ حتى وقف بذي طوى، وهو معتجر ببرد حبرة، فلما اجتمعت عليه خيوله، ورأى ما أكرمه الله به، تواضع لله حتى إنَّ عنثوته (ذقنه) لتمس واسطة رحله[1].

وهذا النجاشي يلبس ملابس رثة، ويجلس على التراب بعد أن بلغه انتصار المسلمين في بدر، فقال له جعفر بن أبى طالب: ما بالك تجلس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق، قال: إنما نجد فيما أنزل الله على عيسى - عليه السلام -: إنَّ حقًّا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عندما أحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله نصر نبيه، أحدثتُ هذا التواضع[2].

كيف دخل عمر بن الخطاب بيت المقدس؟!:

وهذا عمر بن الخطاب يدخل بيت المقدس فاتحًا.. فماذا كان حاله؟!

كان بينه وبين الغلام الذي معه مناوبة.. فلما قرب من الشام كانت نوبة ركوب الغلام، فركب الغلام وأخذ عمر بزمام الناقة فاستقبله الماء في الطريق، فجعل عمر يخوض في الماء، ونعله تحت إبطه اليسرى، وهو آخذ بزمام الناقة، فخرج أبو عبيدة وكان أميرًا على الشام، وقال: يا أمير المؤمنين إنَّ عظماء الشام يخرجون إليك، فلا يحسن أن يروك على هذا الحال، فقال عمر: إنَّما أعزنا الله بالإسلام، فلا نبالي بمقالة الناس[3].

وعند موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابنه عبد الله: اطرح وجهي يا بني بالأرض لعل الله يرحمني.. قال: فمسح خديه بالتراب[4].

ألا ترى في هذا الموقف مدى تذلل عمر وانكساره لربه، وهو يمسح خديه بالتراب، وكيف كانت آماله كلها متعلقة برحمته سبحانه ؟!

---

(١) الزهد: لابن المبارك، ص ٥٣.

(٢) عدة الصابرين: ص ٢١٢.

(٣) تنبيه الغافلين: للسمرقندي ص ١٤١.

(٤) الزهد: لابن المبارك، ص ١٤٦.

وعلى نفس الدرب سار عمر بن عبد العزيز الذي ما كان يسجد إلا على التراب[1].. وكان يلبس ثيابًا عجيبة عند قيامه الليل!.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: كان لعمر بن عبد العزيز سفط، فيه دراعة من شعر وغل، وكان له بيت في جوف بيت، يصلي فيه لا يدخل فيه أحد، فإذا كان في آخر الليل، فتح ذلك السفط ولبس تلك الدرعة، ووضع الغل في عنقه، فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتى يطلع الفجر، ثم يعيده إلى السفط[2].

ومن التواضع لله عزَّ وجلَّ – التواضع عند الرِفعة:

إذن فعندما نبتلى بمنصب أو جاه بين الناس علينا أن نكثر من أعمال التواضع؛ لأنَّ النفس في هذه الحالة تريد أن تشمخ وتخلع جلباب العبودية، وتلبس لباس التيه والفخر، وبالمبالغة في التواضع تعود إلى أصلها.

انظر إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد استمر في حلب الأغنام لجيرانه بعد توليه الخلافة، ويقول لهم بعد أن ظنوا أنَّه لن يستمر في ذلك: بل لعمري لأحلبها لكم، وإنِّي لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه خلق كنتُ عليه، فاستمر يحلب لهم[3].

ولما بعث عمر أبا هريرة أميرًا للبحرين دخلها وهو راكب على حمار، وجعل يقول: طرقوا للأمير، طرقوا للأمير[4].

ورئي عثمان بن عفان على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة، ورئي كذلك نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[5].

---

(١) الرسالة القشيرية: ص ١٤٦.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: لابن الجوزي ص ٢٣٥ – دار مكتبة الهلال – بيروت، وراجع ما سبق في كتاب حطِّم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا، د/ مجدي الهلالي ص١٢٢ومابعدها، ط/ مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة سنة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م٠

(٣) سير السلف الصالحين: للأصبهاني ١/ ٨٣، ط/ دار الراية – الرياض.

(٤) تنبيه الغافلين: للسمرقندي، ص ١٤٢.

(٥) الزهد: للإمام أحمد، ص ١٢٧.

قال أيوب السختياني: ينبغي للعالم أن يضع الرماد على رأسه تواضعًا لله عزَّ وجلَّ[١].

ويحكي ابن الحاج في المدخل عن الشيخ الزيات - الذي كان من أكابر العلماء الصلحاء في وقته ببلاد المغرب - أنَّه كان إذا جلس إلى الدرس يجتمع له نحو من أربعمائة أو ستمائة من الفقهاء يحضرون إليه، فإذا فرغ من مجلسه قام ودخل بيته، وأخرج ما يحتاج إليه على رأسه أو في يده من قمح أو عجين يخبزه، أو شراء خضرة أو حاجة من السوق، أو حصاد لزرعه بيده، أو غسل ثياب إلى غير ذلك من الحوائج[٢].

ومن صور التواضع لله عزَّ وجلَّ - التواضع عند ورود النعم:

قال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة من الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله، ولم يتواضع بها لله، إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار يعذبه إن شاء، أو يتجاوز عنه[٣].

ومن صور التواضع لله عزَّ وجلَّ -: كثرة السجود:

فمن خلاله يكون العبد في وضع يظهره بمظهر الذليل، المنكسر، المستكين، وهذا ما يريده الله عزَّ وجلَّ - منه، من هنا يتبيَّن لنا قوله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[٤].

فلنكثر من السجود، ولنظهر فيه انكسارنا واستكانتنا وخضوعنا لمولانا.

قال طاووس: دخل علي بن الحسين الحجر ليلة فصلى، فسمعته يقول في سجوده: عُبَيدك بفنائك، ومسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك[٥].

---

(١) أخلاق العلماء: للآجري، ص ٦٤.

(٢) المدخل: لابن الحاج ٢/ ٣١٩ وراجع ما سبق: في حطم صنمك: ج١ ص١٢٤.

(٣) الشكر: لابن أبي الدنيا، ص ٧٢.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - حديث رقم (١١١١) ١/ ١٩٩.

(٥) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب: رسالة اختيار الأولى، ص ٩٩.

ومن صور التواضع لله عزَّ وجلَّ -: التواضع عند الشدة والكرب:

قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[1].

فذمَّ - سبحانه من لا يستكين لربه عند الشدة، فمع ضرورة استكانة قلب المؤمن لربه وخشوعه له وإظهاره الفقر والمسكنة إليه في كل أحواله، إلا أنَّ هذه الحالة ينبغي أن تتأكد عند الشدة والكرب.

فهذا رسولنا ﷺ يخرج عند الاستسقاء متواضعًا، متخشعًا متمسكنًا متبذلا[2].

وحُبسَ لمطرف بن عبد الله قريب له، فلبس خلقان ثيابه، وأخذ بيده قصبة وقال: أتمسكن لربي لعله يشفعني فيه[3].

٢ - التواضع مع النفس:

حقيقة التواضع مع النفس هو استصغار المرء لها، ورؤيتها بعين النقص، كحال موسى - عليه السلام - عندما استصغر نفسه، واستكثر أن يتحمل الرسالة بمفرده: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[4]، مع أنَّ الواقع يدل على أنه عليه السَّلام - قد قام بها على خير وجه.

وهذا إبراهيم - عليه السَّلام - يقول في دعائه: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[5].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية: ٧٦.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الصلاة - باب ما جاء في صلاة الاستسقاء - حديث رقم (٥٦١) ١/ ١٦٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٥٥٨)، ونص الحديث: عَنْ هِشَامِ بْنِ إِسْحَاقَ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كِنَانَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَرْسَلَنِي الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَسْأَلُهُ عَنِ اسْتِسْقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - خَرَجَ مُتَبَذِّلاً مُتَوَاضِعًا مُتَضَرِّعًا حَتَّى أَتَى الْمُصَلَّى فَلَمْ يَخْطُبْ خُطْبَتَكُمْ هَذِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّكْبِيرِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَمَا كَانَ يُصَلِّي فِي الْعِيدِ. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، والمتبذل: التارك للزينة والهيئة الحسنة.

(٣) الجامع المنتخب من رسائل ابن رجب: رسالة اختيار الأولى، ص ٩٨.

(٤) سورة القصص: الآية: ٣٤.

(٥) سورة الشعراء: الآية: ٨٢.

قال الشوكاني – رحمه الله: وإنما قال – عليه السَّلام – ذلك هضمًا لنفسه[1].

وتأمل ما قاله يوسف – عليه السَّلام – في مناجاته لربه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2]، وكانت أحب كلمة تقال لعيسى – عليه السلام –: كان هذا المسكين[3]، وكذلك كان رسولنا ﷺ.

يقول القاضي عياض – رحمه الله: وحسبك أنَّه خُيِّر بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإنَّ الله قد أعطاك بما تواضعت له أنَّك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع[4].

ومن صور تواضعه مع نفسه قوله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ ثُمَّ جَاءَنِي الدَّاعِي لَأَسْرَعْتُ»، حين قال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[5] [6].

٣ – التواضع مع الناس:

التواضع مع الناس ينطلق من حقيقة أنَّك لست أفضل منهم مهما كانت رتبتك أو علمك أو عبادتك..

---

(١) فتح القدير: ٤/ ١٠٥.

(٢) سورة يوسف: الآية: ١٠١.

(٣) الزهد: للإمام أحمد، ص ٩٤.

(٤) الشفا: للقاضي عياض ١/ ١٠٥.

(٥) سورة يوسف: الآية: ٥٠.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ١/ ٨٠، ط/ دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨هـ، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد محمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٤٩١).

ومن صور وأعمال التواضع مع الناس:

- خدمة أهل البيت: كان ﷺ في بيته في مهنة أهله[1]، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقُمُّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق[2].

- الجلوس مع المساكين ومآكلتهم وخدمتهم:

كان داود - عليه السَّلام - يدخل المسجد فينظر أغمط حلقة من بني إسرائيل فيجلس إليهم، ثُمَّ يقول: مسكين بين ظهراني مساكين، وكذلك كان سليمان بن داود - عليهما السَّلام - إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: يا رب مسكين مع المساكين[3].

- عدم التميز بالخدمة من أجل رتبتك بين الناس:

لقد كان رسولنا الحبيب ﷺ ينقل التراب مع أصحابه عند حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخرج في يوم حار واضعًا رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار، فقال: يا غلام، احملني معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا اركب وأركب خلفك.. تريد أن تحملني على المكان الوطئ، وتركب أنت على الموضع الخشن؟! فركب خلف الغلام[4].

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب ذات ليلة شيئًا، وعنده ضيف، فماد السراج ينطفئ، فقال الضيف: هل أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: لا، ليس من الكرم استخدام الضيف، قال: هل أنبه الغلام؟ قال: لا، هي أول نومة نامها، فقام وجعل الدهن في

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب: كيف يكون الرجل في أهله حديث رقم (٦١٠٨) ٣/ ١٢٣٤.

(٢) الشفا: للقاضي عياض ١/ ١٠٧.

(٣) التواضع والخمول: لابن أبي الدنيا ص ١٤٨.

(٤) حياة الصحابة: للكاندهلوي ٢/ ٢٥٧، صلاح الأمة في علو الهمة: لسيد العفاني ٥/ ٤٣٤ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

المصباح، فقال الضيف: كيف قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال له: ذهبتُ وأنا عمر، ورجعتُ وأنا عمر[1].

٤ - خفض الجناح للمؤمنين:

عن أبى رفاعة تميم بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت يا رسول الله: يَا رَسُولَ اللهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا"[2].

وعن أنس: إن كانت الأَمَة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها[3].

- إجابة دعوة الفقراء والضعفاء:

ولو على أقل شيء، وإظهار السرور، وعدم التأفف من ذلك، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان ﷺ يردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار[4].

- السعي في قضاء حوائج الناس، ومساعدتهم:

مر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على امرأة وهي تعصد العصيدة[5]، فقال: ليس هكذا يعصد، ثم أخذ المسوط[6]، فقال هكذا، فأراها[7].

---

(١) تنبيه المغتربين: ص ٨٤١.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الجمعة - باب حديث التعليم في الخطبة - حديث رقم (٢٠٦٢) ١/ ٣٤٢.

(٣) الزهد: للإمام أحمد، حديث رقم (٩٦).

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب البراءة من الكبر والتواضع - حديث رقم (٤٣١٨) ١/ ٦١٤، وضعفه في ضعيف سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢٥٣).

(٥) العصيدة: دقيق يُلَتُّ بالسمن ويطبخ. ينظر: لسان العرب ٣/ ٢٩١.

(٦) المسوط: مَا يُخْلَطُ به من عَصاً ونَحْوِها. ينظر: لسان العرب: ١٩/ ٣٩٣.

(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ ٣١٤، وحياة الصحابة للكاندهلوي ٢/ ٥٥٠.

- عدم الافتخار على الناس بشيء:

قال يحيى بن معين - رحمه الله: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء ممَّا كان فيه من الصلاح والخير[١].

- عدم الجلوس في الصدارة بين الناس:

بل بين عامتهم، وحيث ينتهي بك المكان.. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأس التواضع أن تبدأ بالسَّلام على من لقيت من المسلمين، وأن ترضى بالدون من المجلس، وأن تكره أن تُذكَر بالبر والتقوى[٢].

- لا تخبر أحدًا بحقيقتك وبخاصة إذا ما كنتَ صاحب منصب أو شهرة، واترك الناس يعاملونك حسب ما يرون:

كان سلمان الفارسي أميرًا بالمدائن، ومر برجل من عظمائها قد اشترى شيئًا، فحسب سلمان حمالًا، فقال: تعالَ فاحمل هذا، فحمله سلمان، فجعل يتلقاه الناس ويقولون: أصلح الله الأمير، نحن نحمل عنك، فأبى أن يدفع إليهم، فقال الرجل في نفسه: ويحك إنِّي لم أسخر إلا الأمير، فجعل يعتذر إليه ويقول: لم أعرفك أصلحك الله، فقال: انطلق، فذهب به إلى منزله، ثم قال: لا أسخر أحدًا أبدًا[٣].

وقال الحسن - رحمه الله: كنتُ مع ابن المبارك يومًا فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب، ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال: ما العيش إلا هكذا.. حيث لم نُعرَف، ولم نُوقَّر[٤].

- عدم الاستنكاف عن ذكر ما ينقصنا:

من أخطاء وقعنا فيها، أو فشل صادفنا، والتعود على التلقي من الجميع، وسؤال الآخرين عما نجهل مهما كان وضعهم، كالأبناء في البيت، والمرؤوسين في العمل.. والتعود كذلك على قول: لا أدري، لما يخفى علينا من الأمور.

---

(١) التواضع والخمول: لابن أبي الدنيا ١/ ١٤٢.

(٢) الزهد: لأحمد بن حنبل ١/ ٢١٠.

(٣) تنبيه الغافلين: ١/ ١٣٧.

(٤) صفة الصفوة: لابن الجوزي ٤/ ١٣٥، ط/ دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي.

قال زاذان: خرج علينا علي بن أبى طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا وهو يمسح بطنه وهو ويقول: يا بردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم فقلتُ: لا أعلم، والله أعلم[1].

تقدير الآخرين وإشعارهم بقيمتهم:

وإبراز أعمالهم ونجاحاتهم، وبخاصة في غيابهم، وحسن الإنصات وعدم مقاطعة المتحدث، ولو كان حديثه معروفًا لدينا: حدث رجل بحديث، فاعترضه رجل، فغضب عطاء بن أبى رباح وقال: ما هذه الأخلاق، ما هذه الطباع؟ والله إنَّ الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه، ولعسى أن يكون سمعه مني، فأنصت إليه وأريه كأني لم أسمعه قبل ذلك[2].

– مؤاخاة المؤمنين مهما كانت رتبتهم، وقبول أعذار المعتذرين وإن كانت واهية، وحسن الاستماع إلى نصيحة الناصحين وعدم ردها:

وخلاصة القول: التواضع محله القلب، ولا بُدَّ من تكلف الأعمال التي تدل عليه ليزداد رسوخه في القلب.. هذه الأعمال يجمعها مفهوم رؤية المرء لنفسه بعين النقص، ولربه بالإجلال والتعظيم، وللناس بالأفضلية[3].

من فوائد التواضع[4]:

(١) التّواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين ودليل محبّة ربّ العالمين.

(٢) وهو طريق موصل إلى مرضاة اللّه وإلى جنّته.

(٣) وهو السّبيل إلى القرب من اللّه ومن ثمّ القرب من النّاس.

(٤) التّواضع عنوان سعادة العبد في الدّارين.

(٥) يحبّ اللّه المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويحيطهم بعنايته.

---

(١) أخلاق العلماء: للآجري ١/ ١١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٦٩.

(٣) حطم صمنك وكن عند نفسك صغيرًا: مجدي الهلالي، ص ١٣٦.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٤/ ١٢٦٨.

(٦) المتواضعون آمنون من عذاب اللّه يوم الفزع الأكبر.

(٧) وهو دليل على حسن الخاتمة وعلى حسن الخلق.

(٨) التّواضع يؤدّي إلى حصول النّصر والبركة في المال والعمر.

«مَنْ صَمَتَ نَجَا»

أخرج الإمام الترمذي بسند صحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ صَمَتَ نَجَا)[1].

هذه وصية عظيمة قليلة المبنى كبيرة المعنى، ولقد كان رسول الله ﷺ: أفصح خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا، حتى إنَّ كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد، ليس بمسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي ﷺ.

إنَّ اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة فإنَّه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، ثُمَّ إنَّه ما من موجود، أو معدوم خالق، أو مخلوق متخيل، أو معلوم مظنون، أو موهوم إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإنَّ كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إمَّا بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإنَّ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى، وحد له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنَّه لا تعب في

---

(١) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب - إكرام الضيف وقول الخير - حديث رقم (٢٦٨٩) ٢/ ٦٣٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٥٠١).

إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنَّه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان[1].

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله: (اللسان صغير حجمه، عظيم طاعته وجرمه)[2].

فضل الصمت، وحفظ اللسان في السنة النبوية:

انظروا إلى النبي ﷺ وهو يبيِّن لنا مكانة هذه النعمة، وكيف أنَّ الإنسان قد يحصل من خلالها الخير الكثير، وقد يحصل أيضًا بسببها الشر العظيم، وذلك حسب استخدام كل إنسان لهذه الجارحة الصغيرة، فإنَّ استخدمها في الخير عادت عليه بالخير، وإن استخدمها في الشر عادت عليه بالخسران في الدنيا والآخرة.

١ - الكلام الطيب سبب من أسباب دخول الجنة:

فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[3]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «أَطِبِ الْكَلَامَ، وَأَفْشِ السَّلَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[4].

٢ - الكلمة الطيبة يكتب الله للعبد بها رضوانه:

قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»[5].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١٠٨.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٠٨.

(٣) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في قول المعروف حديث رقم (٢١١٢) ٢/ ٥١٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٨٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب البر والصلة - حديث رقم (٧٢٧٨) ٤/ ١٧٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠١٩).

(٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب الإيمان - حديث رقم (١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم ١٦١٩، وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٨٧٨).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى)، أي: ممَّا يرضيه ويحبه، (ما يظن أن تبلغ ما بلغت) ما رضا الله بها عنه؛ (فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة)، أي: بقية عمره حتى يلقاه يوم القيامة، فيقبض على الإسلام، ولا يعذب في قبره ولا يهان في حشره، (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله) أي مما يغضبه، (ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت) من سخط الله؛ (فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة)، بأن يختم له بالشقاوة، ويعذب في قبره، ويهان في حشره حتى يلقاه يوم القيامة فيورده النار[1].

٣ – الأمر بحفظ اللسان:

فعن سفيان بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به قال: «قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ، فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»[2].

٤ – الصمت فضيلة عظيمة:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا تَجَمَّلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا»[3].

٥ – المسلم من سلم الناس من لسانه:

فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[4].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٥٧٠.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في حفظ اللسان حديث رقم (٢٥٩٢) ٢/ ٦١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤١٠).

(٣) الطبراني في الأوسط حديث رقم (٧١٠٣) ٧/ ١٤٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٠٤٨).

(٤) سنن الترمذي – كتاب الإيمان – باب ما جاء أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه حديث رقم (٢٨٣٧) ٢/ ٦٦٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦٢٨).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (من لسانه ويده) من التعدّي بأحدهما، والمراد من اتصف بذلك مع بقية أركان الدين، وخصهما؛ لأنَّ اللسان يعبر به عما في الضمير واليد أكثر مزاولة العمل بها، وقدّم اللسان لأكثريةَ عمله[1].

٦ – النجاة في حفظ اللسان:

فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ "يَا نَبِيَّ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ"[2].

٧ – استقامة اللسان:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: " لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[3].

٨ – ضمان الجنة بحفظ اللسان:

فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[4].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا"[5].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ"[6].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٣٧٨.

(٢) البيهقي في شعب الإيمان حديث رقم (٦٦٩٨) ٥/ ٢٩٣، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٣٣١، ٢٧٤١).

(٣) مسند أحمد – ومن مسند بني هاشم – مسند أنس بن مالك حديث رقم (١٣٠٤٨) ٢٠/ ٣٤٣، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٥٥٤، ٢٨٦٥).

(٤) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان – حديث رقم (٦٥٥٢) ٣/ ١٣١٤.

(٥) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في حفظ اللسان – حديث رقم (٢٥٨٧) ٢/ ٦١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٠٧).

(٦) البيهقي في شعب الإيمان – فصل في فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه، حديث رقم (٤٩٣٣) ٤/ ٢٤٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٢٠١).

وانظروا إلى هذه الوصية العظيمة:

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» ثُمَّ قَالَ: " أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى بَلَغَ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[1].

فاحذر يا أخي هذه الحصائد واحفظ لسانك، ومن حفظ اللسان، أن يحفظ لسانه عن الكذب والغش وقول الزور والنميمة والغيبة وكل قول يبعده من الله عزَّ وجلَّ – ويوجب عليه العذاب، فإنَّه يجب عليه أن يتنزه منه، نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، إنَّه على كلِّ شيء قدير.

من أقوال السَّلف في فضل الصمت، وحفظ اللسان:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: "والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان"[2].

وعن زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل يومًا على أبي بكر الصديق – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجذب لسانه، فقال عمر: مه، غفر الله لك، فقال له أبو بكر: إنَّ هذا أوردني بشر الموارد"[3].

---

(١) سنن ابن ماجه كتاب الفتن – باب كف اللسان في الفتنة – حديث رقم (٤١٠٨) ١/ ٥٧٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٠٤٤).

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١١١.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للسانه: "يا لسان قل خيرًا تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم"[1].

وقيل: "المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلم ظهرت لك حقيقته"[2].

وقال محمد بن عجلان: "إنَّما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتُسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك"[3].

وقال رجل لسلمان الفارسي أوصني: قال: لا تتكلم، قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم، قال: فإن تكلمت فتكلم بحق أو أسكت[4].

وقال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت[5].

وقال شميط بن عجلان: يا ابن آدم إنك ما سكتَّ فأنت سالم فإذا تكلمت فخذ حذرك، إمَّا لك أو عليك[6].

وقال عيسى – عليه السلام –: طوبى لمن بكى خطيئته، وخزن لسانه، ووسعه بيته[7].

وعن حميد بن هلال قال: قال عبد الله بن عمرو: دع ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن ورقك[8].

وعن وهب بن منبه قال في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه حافظًا للسانه مقبلًا على شانه[9].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١٠.

(٢) الآداب الشرعية: ٢/ ٨٧.

(٣) الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا، ص ٢٧٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(٦) المرجع السابق: ص ٢٧٩.

(٧) المرجع السابق، ص ٥٢.

(٨) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٩) المرجع السابق، ص ٦٠.

وعن يزيد بن حيان التيمي قال: كان يقال: ينبغي للرجل أن يكون أحفظ للسانه منه لموضع قدمه[١].

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه"[٢].

وعن وهيب بن الورد قال: كان يقال: "الحكمة عشرة أجزاء فتسعة منها في الصمت، والعاشرة عزلة الناس"[٣].

وعن عبد الله بن المبارك قال: قال بعضهم في تفسير العزلة: هو أن يكون مع القوم فإن خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت[٤].

وعن الأوزاعي قال: قال سليمان بن داود – عليه السلام –: إن كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب[٥].

وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؛ ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبتُ للمتكلم إن رجعتْ عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلتُ[٦].

وقيل: أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسًا وقلمًا، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء[٧].

---

(١) الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا، ص ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٢.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٦) المرجع السابق، ص ٧١.

(٧) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم[1].

وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله[2].

وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية، والأحنف بن قيس ساكت فقال له مالك: يا أبا بحر لا تتكلم فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت[3].

قال الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله بعد ذكر هذه الآثار: فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه، فاعلم أنَّ سببه كثرة آفات اللسان: من الخطأ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس، والخوض في الباطل، والخصومة، والفضول، والتحريف، والزيادة، والنقصان، وإيذاء الخلق، وهتك العورات، فهذه آفات كثيرة، وهي سيالة إلى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، الخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب، ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم، كما سيأتي تفصيله، ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة، فقد قال الله تعالى –: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[4] [5].

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١١١.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١١١.

(٤) سورة ق: الآية:١٨.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

من آفات اللسان:

إنَّ للسان آفاتًا كثيرة، ومنها:

١ - الكلام فيما لا يعني:

ينبغي على العاقل ألا يتكلم فيما لا يعنيه، ولو سبَّح ربه وذكره لكان خيرًا له، فكم من كلمة يبنى بها قصرًا في الجنة.

أخرج الترمذي بسند صحيح أنَّ النبي ﷺ قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[(١)].

قال الإمام الصنعاني - رحمه الله: «هذا الحديث من جوامع الكلم النبوية يعم الأقوال، كما روي أنَّ في صحف إبراهيم - عليه السلام - من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، ويعم الأفعال فيندرج فيه ترك التوسع في الدنيا، وطلب المناصب والرياسة، وحب المحمدة والثناء، وغير ذلك ممَّا لا يحتاج إليه المرء في إصلاح دينه، وكفايته من دنياه»[(٢)].

وقال الأوزاعي - رحمه الله: «كتب إلينا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله: أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه»[(٣)].

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله: «وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام، ولو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه حديث رقم (٢٤٨٧) ٢/ ٥٩٦، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٥٩١١).

(٢) سبل السلام: ٤/ ١٧٨.

(٣) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى -، فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضًا بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات، فإنَّك تسأل غيرك عن عبادته، مثلًا فتقول له: هل أنت صائم ؟ فإن قال: نعم كان مظهرًا لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا كان كاذبًا، وإن سكت كان مستحقرًا لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه، فقد عرضته بالسؤال إمَّا للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه، وسؤالك عما حدث به غيرك، فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟، وكذلك ترى إنسانًا في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدُق وقع في الكذب وكنتَ السبب فيه، وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها، والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري فيجيب عن غير بصيرة، ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس، فإنَّ هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر»[1].

٢ - السب وبذاءة اللسان:

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللِّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»[2].

قال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله: "(لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّان) أي: الوقاع في أعراض الناس بنحو ذم أو غيبة...(وَلَا اللِّعَان) أي: الذي يكثر لعن الناس بما يبعدهم من رحمة ربهم إما صريحًا كأن يقول: لعنة الله على فلان، أو كناية كغضبه عليه أو أدخله

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١٤.

(٢) الحاكم في المستدرك - كتاب الإيمان حديث رقم (٣٠) ١/ ٥٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠١٤).

النار ذكره الطيبي (وَلَا الْفَاحِش) أي: ذي الفحش في كلامه وفعاله قال ابن العربي: والفحش: الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين (وَلَا الْبَذِيءِ) أي: الفاحش في منطقه وإن كان الكلام صدقًا"[1].

وقال ﷺ: «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَأَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ»[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (الربا اثنان وسبعون بابا أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه)، أي: استحقاره والترفع عليه والوقيعة فيه، قال القاضي: الاستطالة في عرضه أن يتناول منه أكثر مما يستحقه على ما قيل له، وأكثر مما رخص له فيه، ولذلك مثله بالربا، وعده من عداده، ثُمَّ فضله على جميع أفراده؛ لأنَّه أكثر مضرة وأشد فسادًا، فإن العِرض شرعًا وعقلًا أعز على النفس من المال وأعظم منه خطرًا، ولذلك أوجب الشارع بالمجاهرة بهتك الأعراض ما لم يوجب بنهب الأموال[3].

ودخلوا على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل فسألوه عن سبب تهلل وجهه قال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين[4].

وقال سهل بن عبدالله التستري: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق[5].

وقال معروف الكرخي: "كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عزَّ وجلَّ"[6].

---

(١) فيض القدير: ٥/ ٤٥٩.

(٢) الطبراني في الأوسط حديث رقم (٧١٥١) ٧/ ١٥٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٥٣٧).

(٣) فيض القدير: ٤/ ٦٦.

(٤) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: للسفاريني ١/ ٥٤.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٥٤.

(٦) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: للسفاريني: ١/ ٥٤.

أين نحن من هؤلاء؟:

قال مورق العجلي – رحمه الله: "تعلمتُ الصمت في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قط إذا غصبتُ، أندمُ عليه إذا زال غضبي"(١).

وقيل: "أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة، أربعين سنة"(٢).

وقيل: "ما تكلم الربيع بن خثيم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسًا وقلمًا، فكل ما تكلم به كتبه، ثم يحاسب نفسه عند المساء"(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله: "إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت، ويهرب من الناس، فاقتربوا منه، فإنَّه يلقن الحكمة"(٤).

وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: "يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم"(٥).

وقال الحسن البصري – رحمه الله: "من كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن كثر كلامه كثر كذبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه"(٦).

وكان الربيع بن خيثم يقول: "لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك من الخير، وتعوذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك للقرآن"(٧).

وقال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: "ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كُتب عليه حتى أنينه في مرضه، فلما مرض الإمام أحمد بن حنبل قيل له: إن طاووسًا كان يكره أنين المرض فتركه"(٨).

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٥٣.

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٢١.

(٤) الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا، ص ٢٨٨.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٦) المرجع السابق: ٣/ ١١٥.

(٧) الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا، ص ٨٥، إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٨) المرجع السابق، ص ٨٤.

وقال سلمة بن دينار: "ينبغي للمؤمن أن يكون أشد حفظًا للسانه منه لموضع قدمه"[1].

وحكي أنَّ بعض الحكماء رأى رجلًا يكثر الكلام ويقل السكوت؛ فقال: (إنَّ الله تعالى - إنَّما خلق لك أذنين ولسانًا واحدًا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به)[2].

فعلى العاقل أن يحفظ لسانه، وأن يتحلى بطول الصمت، فإن فيه النجاة.

(١) الصمت وآداب اللسان: لابن أبي الدنيا: ص ٦٠.

(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك: للماوردي ١/ ١٩.

الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، وَثَمَرَاتُهُ

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله عزَّ وجلَّ - ويرضاه سواء كان ظاهرًا أم باطنًا، ومن هذه العبادات التي ينبغي على المسلم أن يعبد ربه سبحانه وتعالى - بها الخوف من الله سبحانه وتعالى -، وفيما يأتي بيان منزلة الخوف في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما هي ثمرات الخوف من الله تعالى.

الخوف من الله عزَّ وجلَّ - في القرآن الكريم:

إن المتأمل والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد أعلى منزلة الخوف منه سبحانه وتعالى -، وبيّن ما فيها من الأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا وفي الآخرة، ومنها: أن الخوف من الله جلَّ وعلا - سبب من أسباب دخول الجنة ومغفرة الذنوب، وسبب للبعد عن المعاصي، وسبب في إخلاص العمل لله عزَّ وجلَّ -، وسبب لعلو الهمة في العبادة، والخوف سبب من أسباب الانتفاع بالقرآن الكريم، وسبب من أسباب النصر على الأعداء، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - الخوف سبب من أسباب دخول الجنة ومغفرة الذنوب:

قال - تعالى -: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[١].

قال مجاهد، وإبراهيم النخعي: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه[٢].

وعن الحسن البصري قال: قالت الجنة: يا رب لمن خلقتني؟ قال: لمن يعبدني وهو يخافني[٣].

---

(١) سورة الرحمن: الآية: ٤٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٧٦، التخويف من النار: لابن رجب، ص ٢٨٧.

(٣) التخويف من النار: لابن رجب، ص ٢٨٧.

وقال أبو سليمان الداراني: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، وكل قلب ليس فيه خوف الله فهو قلب خرب[1].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

٢ - الخوف سبب للبعد عن المعاصي:

قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾[3].

وقال بعض السلف: «الخوف إذا سكن القلب أحرق موضع الشهوات منه وطرد رغبة الدنيا عنه، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا»[4].

٣ - الخوف سبب إخلاص العمل لله:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾[5].

٤ - الخوف سبب لعلو الهمة في العبادة:

قال - تعالى -: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[6].

٥ - الخوف من أسباب الانتفاع بكلام الله تعالى -:

قال - تعالى -: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[7].

---

(١) التخويف من النار: لابن رجب، ص ٢٨٧.

(٢) سورة الملك: الآية: ١٢.

(٣) سورة الأنعام: الآيتان: ١٥، ١٦.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان - باب الخوف من الله تعالى - رقم (٨٦٠) ٢/ ٢٦٨.

(٥) سورة الإنسان: الآيتان: ٩، ١٠.

(٦) سورة السجدة: الآية: ١٦.

(٧) سورة ق: الآية: ٤٥.

٦ - الخوف من أسباب النصر على الأعداء:

قال - تعالى -: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال - تعالى -: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[2].

٧ - الخوف من أسباب قبول الدعاء:

قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

الخوف من الله عز وجل - في السُّنَّة المُطهَّرة:

وردت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة تبيِّن لنا فضل ومنزلة الخوف من الله تعالى -، وأنَّه سبب في دخول الجنة، والوقاية من النار؛ منها: أنَّ الخوف من الله يقي صاحبه من النار، والخائف من الله تعالى - في ظل عرش الرحمن - عزَّ وجلَّ -، والخوف من الله من أسباب المغفرة، والخوف سبب لدخول الجنة، والخوف يجعل العبد سائرًا على طريق الهداية، والخوف يضفي المهابة على صاحبه، وفيما يأتي بيانها بشيء من التفصيل:

١ - الخوف من الله يقي صاحبه من النار:

بيَّن النبي ﷺ أنَّ الخوف من الله تعالى - سبب في الوقاية من النار، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية:٢٣.

(٢) سورة إبراهيم: الآية: ١٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية: ٥٦.

(٤) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله حديث رقم (٢٤٨١) ٢/ ٥٩٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣١١).

قال العلامة المباركفوري – رحمه الله: قوله: (لَا يَلِجُ النَّارَ)، أي: لا يدخلها، (رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، فإنَّ الغالب من الخشية امتثال الطاعة واجتناب المعصية، (حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ) هذا من باب التعليق بالمحال، (وَلَا يَجْتَمِعُ)، أي: على عبد كما في رواية غير الترمذي (غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ)، فكأنهما ضدان لا يجتمعان، كما أنَّ الدنيا والآخرة نقيضان[1].

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: " لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةُ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ"[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: (لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةُ دُمُوعٍ)، أي: قطراتها فلما أضيفت إلى الجمع أفردت ثقة بذهن السامع، (مِنْ خَشْيَةِ الله)، أي: من شدة خوف عقابه أو عتابه، (وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهْرَاقُ فِي سَبِيلِ الله) أفرد الدم وجمع الدمع تنبيها على تفضيل إهراق الدم على تقاطر الدموع، (وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ) الأثر ما يبقى بعده من عمل يجري عليه أجره من بعده[3].

٢ – الخائف من الله تعالى – في ظل عرش الرحمن – عزَّ وجلَّ –:

الخوف من الله تعالى – يظل صاحبه يوم القيامة في ظل عرش الرحمن – سبحانه وتعالى – فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[4].

---

(١) تحفة الأحوذي: ٥/ ٢١٥.

(٢) سنن الترمذي – كتاب الجهاد – باب ما جاء في فضل المرابط حديث رقم (١٧٧٠) ١/ ٤٤٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٦٦٩).

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٢/ ٦٢٧.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الآذان – أبواب صلاة الجماعة والإمامة – باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد حديث رقم (٦٦٣) ١/ ١٢٧.

فذكر النبي ﷺ من هؤلاء السبعة الذين يظلهم الرحمن - عزَّ وجلَّ - في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه.

قال الإمام ابن عبد البر - رحمه الله: "هذا أحسن حديث يروى في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها - إن شاء الله، وحسبك به فضلًا؛ لأنَّ العلم محيط بأنَّ كل من كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف، والظل في هذا الحديث يراد به الرحمة، والله أعلم[1].

٣ - الخوف من الله من أسباب المغفرة:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَ اللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ"[2].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[3].

٤ - الخوف سبب لدخول الجنة:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ»[4].

---

(١) التمهيد: ٢/ ٢٨٢.

(٢) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء - باب حديث الغار - حديث رقم (٣٥٢١) ٢/ ٦٨٩.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الجنائز - باب رجاء العبد ربه عند الموت - حديث رقم (٩٩٩) ١/ ٢٦٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٩٨٣).

(٤) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - أيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع - حديث رقم(٢٦٣٨) ٢/ ٦٢٦، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٥٠).

٥ - الخوف يجعل العبد سائرًا على طريق الهداية:

قال ذو النون المصري: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق[١].

٦ - الخوف يضفي المهابة على صاحبه:

قال عمر بن عبد العزيز: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف من كل شيء[٢].

وقال يحيى بن معاذ الرازي: على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق[٣].

ثالثًا: علامات الخوف:

قال الإمام أبو الليث السمرقندي - رحمه الله: علامة خوف الله تعالى - تظهر في سبعة أشياء:

أولها: لسانه: فيمنعه من الكذب، والغيبة، والنميمة، والبهتان، وكلام الفضول، ويجعله مشغولًا بذكر الله تعالى -، وتلاوة القرآن، ومذاكرة العلم، **والثاني:** قلبه: فيخرج منه العداوة والبهتان وحسد الإخوان؛ لأنَّ الحسد يمحو الحسنات، واعلم أنَّ الحسد من الأمراض العظيمة في القلوب ولا تداوي إلا بالعلم والعمل.

والثالث: نظره: فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها، ولا إلى الدنيا بالرغبة، بل يكون نظره على وجه الاعتبار، ولا ينظر إلى ما لا يحل له.

والرابع: بطنه: فلا يدخل بطنه حرامًا، فإنَّه إثم كبير.

والخامس: يده: فلا يمد يده إلى الحرام، بل يمدها إلى ما فيه طاعة لله تعالى -.

والسادس: قدمه: فلا يمشي في معصية لله، بل يمشي في طاعته ورضاه، وإلى صحبة العلماء والصالحين.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٧٧.

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي ٣/ ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٠٩.

والسابع: طاعته: فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى -، ويخاف من الرياء والنفاق، فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى - في حقهم: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [2].

أقسام الخوف:

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله: «القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض، واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًا لازمًا، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عزَّ وجلَّ - لم يكن محمودًا»[3].

- سلفنا الصالح والخوف من الله عزَّ وجلَّ -:

١ - خوف الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -:

- آدم - عليه السلام -: قال وهب: بكى آدم - عليه السلام - على الجنة بكاءً شديدًا، وما رفع رأسه إلى السماء بعدما أصاب الخطيئة[4].

وقال علقمة بن مرثد: لو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء داود ما عدله، ولو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين أهبط إلى الأرض ما عدله[5].

- نوح - عليه السلام -: قال وهيب بن الورد: لما عاتب الله تعالى - نوحًا - عليه السلام - في ابنه؛ فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ

---

(١) سورة الزخرف: الآية: ٣٥.

(٢) تنبيه الغافلين: ص٢٥٦ وما بعدها.

(٣) التخويف من النار: ص٢١.

(٤) مختصر منهاج القاصدين: ١/ ٢٩٩.

(٥) الرقة والبكاء: لابن أبي الدنيا ١/ ٥٩.

بِهِۦ عِلۡمٞۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]، بكى حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء[2].

- **إبراهيم - عليه السلام** -: قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان يسمع لصدر إبراهيم - عليه السلام - إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفًا من الله عزَّ وجلَّ - [3].

النبي ﷺ وخشيته من الله عزَّ وجلَّ -:

فعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: (اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا)[4].

وعن أم العلاء الأنصارية قالت: قال رسول الله ﷺ: (والله لا أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم)، وقال: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا»[5].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت؟ قال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[6].

---

(١) سورة هود: الآية: ٤٦.

(٢) مختصر منهاج القاصدين: ١/ ٢٩٩.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٩٩.

(٤) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك" حديث رقم(٣٨٤١) ٢/ ٨٩٨، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٠٢).

(٥) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل حديث رقم (٦٥٤٠) ٣/ ١٣١٢، صحيح مسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى حديث رقم (٧٢٩٥) ٢/ ١١٩١.

(٦) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الواقعة - حديث رقم (٣٦٠٩) ٢/ ٨٤٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٢٩٧)، وفى صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٢٣).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1].

٢ - خوف السَّلف الصالح - رضوان الله عليهم -:

أبو بكر الصديق وخوفه من الله تعالى -: عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عندما قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ فَأْمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ...»[2].

فاروق الأمة عمر بن الخطاب وخوفه من الله: قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله تعالى -: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[3]، فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثُمَّ قال: بل ويل أمي إن لم يغفر الله لي (ثلاثًا) ثم قبض[4].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو"[5].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: "لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار"[6].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - حديث رقم (١١١٨) ١/ ٢٠٠.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الآذان - أبواب صلاة الجماعة والإمامة - باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة حديث رقم (٦٨٣) ١/ ١٣١.

(٣) سورة الطور: الآية: ٧.

(٤) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٤.

(٥) حلية الأولياء: ١/ ٣٥، التخويف من النار: لابن رجب، ص ١٧.

(٦) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٤.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال: مالك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟[1].

الربيع بن خيثم – رحمه الله: عن مالك بن دينار قال: قالت ابنة الربيع بن خيثم: يا أبتاه، إنِّي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ قال: يا بنية، إن أباك يخاف البيات[2].

ولما رأت أم الربيع بن خيثم ما يلقى الربيع من البكاء والسَّهر نادته فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا والدتي قتلت قتيلًا. فقالت: ومن هذا القتيل يا بني؟ تتحمل على أهله فيعفوك، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لقد رحموك؟ فيقول: يا والدتي هي نفسي[3].

الحسن البصري – رحمه الله: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق بها إنسان منهم بخشبة على أي حال يكون؟، قال الرجل: على حالة شديدة، قال الحسن: حالي أشد من حالهم[4].

ومر الحسن البصري – رحمه الله بشاب وهو مستغرق في ضحكه جالس مع قوم فقال له الحسن: يا فتى هل مررت بالصراط؟ قال: لا، فقال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا، قال: فما هذا الضحك، قال: فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكًا[5].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٤١٠.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٤١٠.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ١٨٧.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ١٨٥.

من فوائد (الخوف)[1]:

(١) الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار.

(٢) الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

(٣) دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٤) يثمر محبّة اللّه وطاعته.

(٥) سبب لسعادة العبد في الدّارين.

(٦) دليل على صفاء القلب وطهارة النّفس.

(٧) سبب لهداية القلب.

(٨) يبعد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والسّيّئات.

(٩) يجعل الإنسان يخلص عمله للّه تعالى، وأن لا يضيّعه بالتّرك أو المعصية.

(١٠) يورث المسلم الشّفقة علي الخلق.

(١١) يحمل الإنسان المسلم على التّخلّق بالأخلاق الحسنة وتجنّب الكبر والعجب.

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٩٠٠.

العِفَّةُ، وكَيفِيَّةُ تَحقِيقِهَا

من الأخلاق الإسلامية التي دعانا إليها ديننا الإسلامي الحنيف خُلق العفة، والمتأمل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يجد العديد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تأمرنا بالعفة، وفيما يأتي بيان ذلك:

حقيقة العفة:

قال الراغب الأصفهاني – رحمه الله: العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف هو المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر.

وقال أيضًا: العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية، وهي حالة متوسطة من إفراط هو الشره، وتفريط وهو جمود الشهوة[١].

وقال الكفوي – رحمه الله: العفة هي الكفُّ عمَّا لا يحلُّ[٢].

وقال الجاحظ – رحمه الله: هي ضبط النفس عن الشهوات، وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف في جميع الملذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحب المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحرس النفس، والقوة أقل منه، وهذه الحال هي غاية العفة[٣].

وقال الجرجاني – رحمه الله: العفة هي هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة، والخمود الذي هو تفريطه، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة[٤].

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص ٣١٥.

(٢) الكليات: ١/ ١٠٤٦، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.

(٣) تهذيب الأخلاق: ٢١، ٢٢.

(٤) نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم: ٧/ ٢٨٧٢ وما بعدها.

العفة في القرآن الكريم:

١ - آيات تحثُّ على العفة عن الأجر أو السؤال للحاجة:

قال - تعالى -: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ ﴾(٢).

٢ - آيات العفة فيها عن شهوة النكاح أو أسبابه:

قال - تعالى -: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾(٣).

وقال - تعالى -: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٤).

وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾(٥).

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٧٣.

(٢) سورة النساء: الآية: ٦.

(٣) سورة النور: الآية: ٣٣.

(٤) سورة النور: الآية: ٦٠.

(٥) سورة المؤمنون: الآية: ٦، ٨.

(٦) سورة المعارج: الآيتان: ٢٩،٣٠.

العفة في السُّنَّة المُطهَّرة:

جاءت في السُّنَّة النبويَّة المُطهَّرة أحاديث كثيرة تحثُّ على العفة، وتبيِّن فضلها ومكانتها؛ منها:

ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[1].

قال الإمام النووي – رحمه الله: قوله ﷺ: (وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ)، قال القاضي: يحتمل قوله أخاف الله باللسان، ويحتمل قوله في قلبه ليزجر نفسه، وخص ذات المنصب والجمال؛ لكثرة الرغبة فيها، وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال، لا سيَّما وهي داعية إلى نفسها، طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى – وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى – عليه أن يظله في ظله، وذات المنصب هي ذات الحسب والنسب الشريف، ومعنى دعته، أي: دعته إلى الزنا بها هذا هو الصواب في معناه، وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا، والثاني أنَّه يحتمل أنَّها دعته لنكاحها فخاف العجز عن القيام بحقها، أو أنَّ الخوف من الله تعالى – شغله عن لذات الدنيا وشهواتها[2].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ

(١) صحيح البخاري – كتاب الأذان – أبواب صلاة الجماعة والإمامة – باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد حديث رقم (٦٦٣) ١/ ١٢٧.

(٢) شرح النووي على مسلم: ٧/ ١٢٢.

عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1].

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: قوله ﷺ: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ)، المعنى: أنَّ من يتكلف فعل ما يؤدي إليه اجتهاده ينعم الله عزَّ وجلَّ - عليه بما لا يدخل تحت وسعه، واعلم أنَّ مستعمل العفاف داخل في زمرة المعاملين لله عزَّ وجلَّ -، فإنَّ التعفف يوجب ستر الحال عن الخلق، وإظهار الغنى لهم؛ فيصير معاملًا في الباطن ويقع له من الربح على قدر صبره وصدقه، وإنَّما جعل الصبر خير العطاء؛ لأنَّه حبس للنفس عمَّا تحب ممَّا يؤذيها، وعلى ما تكره ممَّا يقصد به صلاحها، وذلك خير ما أعطيت النفس"[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: "ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ"[3].

قال الطيبي - رحمه الله: "إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأنَّ هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تفدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أنَّ الله تعالى - يعينه عليها لن يقوم بها، وأصعبها العفاف؛ لأنَّه قمع الشهوة الجِبلية المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين، فإذا استعف وتداركه عون الله تعالى - ترقى إلى منزلة الملائكة وأعلى عليين"[4].

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[5].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة حديث رقم (١٤٩٢) ١/ ٢٧٨، صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب فضل التعفف والصبر حديث رقم (٢٤٧١) ١/ ٤١٢.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين: للإمام ابن الجوزي ١/ ٧٦١، ط/ دار الوطن بالرياض ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الجهاد - باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم - حديث رقم (١٧٥٦) ١/ ٤٤٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٦٥٥).

(٤) تحفة الأحوذي: ٥/ ٢٤٢.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان حديث رقم (٦٥٥٢) ٣/ ١٣١٤.

قال الإمام الحافظ ابن حجر – رحمه الله: "والجزم من الضمان، بمعنى: الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عمَّا لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال، وكفه عن الحرام"[1].

وعن عبد الله بن عمرو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ الأَمَانَةِ، وصِدْقُ حَدِيثٍ، وحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وعِفَّةُ طُعْمٍ»[2].

وعن عبد الله بن مسعود – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أنَّ النبي ﷺ قال: «بَرُّوا آباءَكُمْ تَبَرُّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ، وَعِفُّوا تَعِفُّ نِسَاؤُكُمْ»[3].

وفي الحديث الصحيح أنَّ هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب قائلًا له بما يأمركم هذا النبي ﷺ؟ قال فَزَعَمْتَ: «أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، وَالصِّدْقِ، وَالعَفَافِ، وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ»[4].

من أقوال السَّلف في العفة:

قال لقمان الحكيم: حقيقة الورع العفاف[5].

وقال محمد بن الحنفية: الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة[6].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٠٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الرقاق – حديث رقم (٧٨٧٦) ٤/ ٣٤٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٨٧٣).

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب البر والصلة – حديث رقم (٧٢٥٨) ٤/ ١٧٠.

(٤) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب صلة المرأة أمها ولها زوج حديث رقم (٦٠٤٦) ٣/ ١٢٢٥.

(٥) الورع: لابن أبي الدنيا، ص ٥٩.

(٦) أدب الدنيا والدين: للماوردي، ص ٣٩٣ – ٣٩٤.

وقال سفيان الثوري لأصحابه، وقد خرجوا يوم عيد: إنَّ أول ما نبدأ به في يومنا عفة أبصارنا[1].

وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا؛ فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله[2].

وقال يحيى بن معاذ الرازي: من أرض الجوارح في اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات[3].

وقال أبو محمد الجريري: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرم الله على قلبه الفوائد؛ فلا يستلذ كلامه، ولا يستحليه وإن كثر ترداده على لسانه[4].

أنواع العفَّة:

قال الإمام الماوردي - رحمه الله: "العفة والنزاهة والصيانة من شروط المروءة، والعفة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم. فأمَّا العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام، والثاني: كف اللسان عن الأعراض[5].

وأمَّا العفة عن المآثم، فنوعان أيضًا: أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة"[6].

ثمرات العفَّة:

للعفة ثمرات كثيرة، منها: النجاة من عقوبات المعاصي في الدنيا والآخرة، والفوز بثمرات التقوى العاجلة والآجلة، وطهارة الفرد، ونقاء المجتمع النجاة من الإصابة بالأمراض الخبيثة، والتدرب على مخالفة الهوى، والعفة برهان على الصبر، بل هي من الصبر، ومن ثمراتها: أن يصون العبد عرضه، وفيما يأتي بيان ذلك:

---

(١) الورع: لابن أبي الدنيا، ص ٦٣.

(٢) ذم الهوى: لابن الجوزي ١/ ٢٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٧.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٢٧.

(٥) أدب الدنيا والدين: ١/ ٤٠٦.

(٦) المرجع السابق: ١/ ٤٠٦.

١ - **النجاة من عقوبات المعاصي في الدنيا والآخرة**: فللمعاصي عقوبات دنيوية، كالوحشة في القلب، وحرمان نور العلم، وحرمان الرزق، وذهاب الغيرة والحياء والذل، وضيق الصدر، وظلمة القبر، وحرمان الطاعة، ونسيان العبد لنفسه، والتعرض للعنة الله عزَّ وجلَّ -، ولعنة رسول الله ﷺ.

٢ - **الفوز بثمرات التقوى العاجلة والآجلة**: فلا شك في أنَّ العفة من تقوى الله عزَّ وجلَّ - وقد وعد الله عزَّ وجلَّ - المتقين بثمرات طيبة..

فمن الثَّمرات العاجلة: المخرج من كلِّ ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب، والسهولة واليسر في كل أمر، وتيسير تعلم العلم النافع، وإطلاق نور البصيرة ومحبة الله عزَّ وجلَّ - ومحبة ملائكته، والقبول في الأرض، وغير ذلك.

وأمَّا الثمرات الآجلة، فمن ذلك: تكفير السيئات، وعز الفوقية فوق الخلق يوم القيامة، وميراث الجنة، والفوز بأعلى الدرجات، والسعادة بالصحبة، والمحبة مع أحبائهم في الله وهم يساقون إلى الجنة زمرًا[١].

٣ - **طهارة الفرد، ونقاء المجتمع**: فالعفيف يحيا حياة اجتماعية مستقرة يتمتع بالسمعة الطيبة، والذكر الحسن، والزواج السعيد.

٤ - **النجاة من الإصابة بالأمراض الخبيثة**: التي تلاحق أصحاب الشهوات والنزوات، كالإيدز، والزهري، والسيلان.

٥ - **التدرب على مخالفة الهوى**: فالله عزَّ وجلَّ - لم يجعل للجنة طريقًا إلا في مخالفة الهوى؛ فقال - تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢]، وقد حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات.

٦ - **العفة برهان على الصبر، بل هي من الصبر**: فالصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المعاصي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار حتى لا يتسخطها، قال ﷺ: «... وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٣].

---

(١) مواقف إيمانية: د/ أحمد فريد، ص٦٨.

(٢) سورة النازعات: الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب الصبر عن محارم الله حديث رقم (٦٥٤٨) ٣/ ١٣١٣.

٧ - ومن ثمرات العفَّة أن يصون العبد عرضه:

فمن حافظ على أعراض الناس حفظ الله عرضه، ومن عبث بأعراض الناس عبث الناس بعرضه، والجزاء من جنس العمل، وقد قيل: من كان يحرص على عرضه فليحرص على أعراض الناس[1].

من فوائد (العفة)[2]:

(١) من ثمرات الأديان ونتاج الإيمان.

(٢) حفظ الجوارح عمّا حرّم اللّه، وقيامها بما خلقت له.

(٣) حفظ الأعراض في الدّنيا، ولذّة النّعيم في الآخرة.

(٤) هي ركن من أركان المروءة الّتي ينال بها الحمد والشّرف.

(٥) نظافة المجتمع من المفاسد والمآثم.

(٦) إشاعتها في المجتمع تجعله مجتمعًا صالحًا.

(٧) دليل كمال النّفس وعزّها.

---

(١) مواقف إيمانية: د/ أحمد فريد ص٦٨ - ٩١.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٧/ ٢٨٨٨.

اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم[1]

لقد اهتمَّ الإسلام بإصلاح ذات البين حفاظًا على وحدة المسلمين، وسلامة قلوبهم، وإنَّ الإصلاح يُعتبر من أعظم وأجل الطاعات، وأفضل الصدقات، فالمُصلِح بين الناس له أجر عظيم، وثواب كريم، إذا كان يبتغي بذلك مرضاة الله تعالى -، فأجره يفوق ما يناله الصائم القائم، المنشغل بخاصَّة نفسه.

من أجل ذلك حرص الإسلام على وحدة المسلمين، وأكد على أخوَّتهم، وأمر بكلِّ ما فيه تأليف لقلوبهم، ونهى عن كلِّ أسباب العداوة، والبغضاء؛ فقد أمر بالسعي، وإصلاح ذات البين بين المتخاصمين، وحثَّ عليه، وجعل درجته أفضل من درجة الصيام، والصدقة، والصلاة، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2].

والإصلاح لا يكون إلا بين متنازِعَين متخاصِمَين، والنزاع، والخصام، والتغاضب يوجب من الشَّر، والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حثَّ الشَّارع على الإصلاح بين الناس في الدماء، والأموال، والأعراض، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة، والصيام، والصدقة، والمصلح لا بُدَّ أن يُصلِح الله سعيه وعمله[3].

وأخبر ﷺ بأن درجة المصلح بين الناس أفضل من درجة الصائمين، والمصلين، والمتصدقين، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١٦٧١)، السنة الرابعة والعشرين، ٢٨ من جمادى الأولى ١٤٣٧هـ ٨ مارس ٢٠١٦م.

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٠.

(٣) تفسير السعدي: ص ٢٠٢.

مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ"، وفي رواية: هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ"[1].

قال الطيبي - رحمه الله: "فيه حثٌّ وترغيب في إصلاح ذات البين، واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأنَّ الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثلمة في الدين، فمن تعاطى إصلاحها، ورفع فسادها، نال درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بخويصة نفسه"[2].

وإصلاح ذات البين يكون بمعنى: إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام، أو بالتّسامح والعفو، أو بالتّراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحلّ عقدة الفرقة، أمّا إصلاح ذات البين على المعنى الثّاني: فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل، والتّحابب، والتّآلف بين المسلمين، وإصلاحها يكون برأب ما تصدّع منها، وإزالة الفساد الّذي دبّ إليها بسبب الخصام والتّنازع على أمر من أمور الدّنيا[3].

ومن حِرْصِ الإسلام على اجتماع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وسلامة القلوب، أنَّه نهى عن الاختلاف، والتباعد، والمفارقة، ومن أجل ذلك رُخِص للمصلح بين الناس أن يكذب، وليس هو بآثم، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم أنَّ النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا»[4].

---

(١) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب صلاح ذات البين - حديث رقم (٢٦٩٨) ٢/ ٦٣٩، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٥٠٩).

(٢) تحفة الأحوذي: ٧/ ١٧٩.

(٣) نضرة النعيم: ٢/ ٣٦٥.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس - حديث رقم (٢٧٣٣) ١/ ٥١٣، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه حديث رقم (٦٧٩٩) ٢/ ١١٠٥.

قال ابن شهاب – رحمه الله: ولم أسمع يرخص في شيء ممَّا يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها"[1].

بل هو مأجور لسعيه في إصلاح ذات البين، وذلك لما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ»[2].

فالمتأمِّل لهذا الحديث يجده يثير قضية اجتماعية وإنسانية، لها أثرها في توجيه مسيرة الأمم والأفراد، وفي تحديد مصير كثير من الطوائف والشعوب، وهي الإصلاح بين الناس، وإشاعة أجواء المحبة فيما بينهم، وحجب كلِّ ما من شأنه أن يثير الفتن، والعداوة، والبغضاء، بين أفراد المجتمع، وزملاء العمل، أو بين أفراد الأسرة نفسها[3].

فأمَّا الكذب في الحرب فإنَّ الحرب خدعة، ومن ثَمَّ فإنَّ الأمر يستدعي التمويه على الأعداء، ويتحدث بما يقوي به أصحابه، ويكيد به عدوه، مثل أن يقول: جيش المسلمين كبير، وجاءهم مدد كثير.

وأمَّا الكذب في الإصلاح بين الناس، فمثل أن يحاول المصلح تبرير أعمال كلا المتخاصمين وأقوالهما بما يحقق التقارب، ويزيل أسباب الشقاق والخلاف، وأحيانًا ينفي بعض أقوالهما السيئة فيما بينهما، وينسب إلى كلِّ منهما من الأقوال الحسنة في حقِّ صاحبه ممَّا لم يقله، مثل أن يقول: فلان يسلم عليك ويحبك، وما يقول فيك إلا خيرًا، ونحو ذلك.

وأمَّا الكذب بين الزوجين، فقد قال ابن حجر – رحمه الله: المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنَّما هو فيما لا يُسقِط حقًّا عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها"[4]،

---

(١) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه حديث رقم (٦٧٩٩) ٢/ ١١٠٥.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الصلح – باب فضل الإصلاح بين الناس – حديث رقم (٢٧٤٧) ١/ ٥١٦، صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف – حديث رقم (٢٣٨٢) ١/ ٣٩٧.

(٣) كنوز رياض الصالحين: ٤/ ٦٠٢.

(٤) فتح الباري: ٥/ ٣٠٠.

وذلك أنَّ الكذب بينهما قد يحتاج إليه أحيانًا، بحيث يخفي كلُّ واحد منهما عن الآخر ما من شأنه أن يُوغر الصدور، أو يُولد النفور، أو يُثير النزاع والفتن، ويزرع الشقاق والإحن، فمثلًا لكلِّ واحد منهما أن يخاطب الآخر بمعسول القول ما يزيد الحب، ويسر النفس، ويجمل الحياة بينهما، وإن كان ما يُقال كذبًا.

ولأهمية الإصلاح بين الناس نجد أنَّ الله عزَّ وجلَّ - أمر به المؤمنين؛ فقال - سبحانه: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[1].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: «هو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما؛ ليرجعا إلى ما فيه من الألفة، واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به»[2].

وقال السعدي - رحمه الله: «ومتى امتثل المسلمون أمر الله، فسعوا في حصول الاتفاق، وإزالة العداوات، وأسبابها، وكانوا يدًا واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة، ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم متى عملوا على ذلك كلِّه حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء، ويستجلبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك على دينهم، وجماعاتهم، وأفرادهم، ولم يزالوا في رقي مطَّرد في دينهم ودنياهم، ومتى أخلوا بما أمرهم به دينهم، عاد الضرر العظيم، فلا يلومون إلا أنفسهم، وقد وعد الله العز والنصر لمن قاموا بالتقوى، واعتصموا بحبله وتمسكوا بدينه»[3].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: «فالصلح الجائز بين المسلمين هو يعتمد فيه رضي الله سبحانه ورضي الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا العدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم»[4].

---

(١) سورة النساء: الآية: ١١٤.

(٢) تفسير الطبري: ٤/ ٢٧٦.

(٣) الرياض الناضرة: ص٥٩.

(٤) إعلام الموقعين: ١/ ١٠٩ - ١١٠.

وقد كان من هدي النبي ﷺ السعي في الإصلاح بين الناس، وكان يعرض الصلح على المتخاصمين، وقد باشر الصلح بنفسه حين تنازع أهل قباء؛ فندب أصحابه، وقال:(اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُم)[1].

وفي حادثة الإفك انشغل النبي ﷺ بالإصلاح بين المسلمين، وترك ما كان يريد الحديث عنه من أمر عظيم، ألا وهو عِرْضُه ﷺ، وترك الحديث عن اتهام أحد أصحابه للآخر بالنفاق؛ ففي حديث الإفك:« فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذُرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا، فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ، وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، فَنَزَلَ، فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ... »[2].

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوصي من يوليه، ويقول: "رُدُّوا الخُصُومَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا، فَإِنَّ فَصْلَ القَضَاءِ يُحْدِثُ بَيْنَ القَومِ الضَّغَائِنَ"[3].

وكذلك كان السَّلف - رحمهم الله حريصين على هذا الخير ساعين فيه يقول الأوزاعي - رحمه الله:"ما خطوة أحبّ إلى الله عزَّ وجلَّ - من خطوة في إصلاح ذات البين"، وقال: "وَمَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ"[4].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح - حديث رقم (٢٧٣٤) ١/ ٥١٣.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الشهادات - باب تعديل النساء بعضهن بعضًا - حديث رقم (٢٧٠٠) ١/ ٥٠٣.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الصلح - باب ما جاء في التحلل - حديث رقم (٨٩٣١) ٥/ ٢٩٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٨٥.

ونجد أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله يكتب لطائفة من إخوانه الذين تجاوزوا في ذلك فيقول: «والذي أوجب هذا الكلام أنَّ وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم حتى ذكروا: أنَّ الأمر آل إلى قريب المقاتلة؛ فلا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله هو المسؤول أن يؤلف بين قلوبنا وقلوبكم، ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام، ويخرجنا من الظلمات إلى النور، ويجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ما أبقانا، ويجعلنا شاكرين لنعمه، مثنيين بها عليه قابليها، ويتمّمها علينا، وذكروا أنَّ سبب ذلك الاختلاف في «مسألة رؤية الكفار ربهم»، وما كنَّا نظنُّ أنَّ الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد؛ فالأمر في ذلك خفيف... ثم ذكر الجواب»[1].

ومن فوائد إصلاح ذات البين[2]:

(١) الإصلاح بين المؤمنين إذا تنازعوا واجب لا بدّ منه لتستقيم حياة المجتمع ويتّجه نحو العمل المثمر.

(٢) بالإصلاح تحلّ المودّة محلّ القطيعة، والمحبّة محلّ الكراهية، ولذا يستباح الكذب في سبيل تحقيقه.

(٣) الإصلاح بين النّاس يغرس في نفوسهم فضيلة العفو.

(٤) الإصلاح منبعه النّفوس السّامية ولذا كان النّبيّ ﷺ يخرج بنفسه ويسعى للإصلاح بين النّاس.

(٥) اكتساب الحسنات والثّواب الجزيل من جرّاء الإصلاح بين النّاس.

(٦) إصلاح ذات البين أفضل من نافلة الصّيام والصّلاة والصّدقة.

(٧) يثمر المغفرة للمتخاصمين عند المصالحة.

(٨) عدم الإصلاح يؤدّي إلى استشراء الفساد وقسوة القلوب، وضياع القيم الإنسانيّة الرّفيعة.

(٩) الإصلاح بين النّاس عهد أُخذ على المسلمين.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٦/ ٥٠٥.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٢/ ٣٧٧ – ٣٧٨.

التَّسَامُحُ الإِسْلَامِيُّ وَحَاجَةُ الأُمَّةِ إِلَيْهِ[1]

من الخصائص العامة للشريعة الإسلامية أنَّها شريعة التسامح والرحمة بين المسلمين جميعًا، وبين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، الذين ليس بيننا وبينهم حرب، ورحمة وتسامح بين الإنس والحيوان، فالتسامح من ثوابت الدّين الإسلامي، الذي جاء ليُرسي دعائم السلام في الأرض من خلال دعوة أتباعه إلى تثبيت الاتصال وتقويته بينهم وبين أهل الكتاب على قاعدة دينية راسخة، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعًا: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

فمنهج الإسلام يقوم على التسامح والرفق واللين، والرقَّة والرحمة، ولا يقوم على العنف والشدة، كما يدَّعى أعداء الإسلام، يقول الله تعالى -: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[3].

ومن هنا وضع القرآن الكريم الأسس المبنية على التسامح في الدعوة إلى الله، وتبليغ الإسلام للناس، قال - تعالى -: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[4].

هذا النموذج في عرض الرأي ينطوي على الاعتراف بالرأي الآخر، وأنَّ للمختلف شرعيته، والتسليم بتعددية الرأي والفكر والثقافة والنظر، وأنَّ هذه التعددية من نواميس

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة صوت الأزهر، العدد (٨٥١)، السنة السابعة عشرة، ٥ من ربيع الآخر ١٤٣٧هـ ١٥ يناير ٢٠١٦م.

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٦.

(٣) سورة النحل: الآية: ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية: ٦٤.

الكون، ومن سنن الاجتماع، وهو ما مارسه المسلمون في الشورى، ومن خلال مؤسسة أهل الحل والعقد، وحق المعارضة البناءة.

ومما يؤكد عظمة الإسلام، وأنه بلغ في التسامح مبلغًا عظيمًا قوله تعالى -: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[1].

فهذا هو الإسلام، وهذا ما يدعو إليه، فمن قَبِلَه كان منّا، وأمَّا من لم يقبل بالإسلام فربما يكون بحاجة إلى توضيح وتبيين، وربما إلى حوار هادئ هادف، ولهذا قال - تعالى -: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2]

فنهى الله تعالى - عن المجادلة بغير فهم وعلم من المجادل، وأمر أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن في الخلق، وحسن الحوار، وفى الرد بأدب رفيع يقصد به إظهار الحق وهداية الخلق، على أساس من الإيمان بالله الواحد الأحد.

ويظهر التسامح جليًّا في معاملة من لا يقبل بالدخول في الإسلام، فإنه لا يجبر على ذلك؛ لقوله تعالى -: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[3]، أي: لا يكره أحد على الدخول في دين الإسلام.

والعدل في المعاملة دون تمييز بسبب الدين من أعظم صور التسامح، وهذا ما أمر به ربنا - جلَّ وعلا - في كتابه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4].

وهذه الآية عامة في جميع أنواع العدل، وفي آية أخرى خصَّ الله تعالى - العدل وأمر به حتى مع المخالفين، قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ

---

(١) سورة الكافرون: الآيات: ١ - ٦.

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٦.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٥٦.

(٤) سورة النحل: الآية: ٩٠.

شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

فالمؤمن يراقب ربه جلَّ وعلا -، ويتحرى العدل مع جميع البشر، وقد نهى الله تعالى - أن يتخذ المؤمن من كفر الكافر ذريعة لظلمه وعدم العدل معه.

وجاء القرآن الكريم بالتسامح بين بني البشر جميعًا، بغض النظر عن لونهم وشكلهم، وعلى اختلاف لغاتهم وقبائلهم فهم سواء من جهة الخلق؛ حيث قال - جلَّ وعلا -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2].

وكلمة (لتعارفوا) تفتح باب المعرفة الإنسانية على مصراعيه، ليعرف الناس بعضهم بعضًا، ويتقاربوا، ويفهم أحدهم الآخر، وفي مجال الإيمان: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3] لا استعلاء بالجنس، ولا باللون، ولا بالعرق، ولا غطرسة ولا كبرياء، بل مساواة كاملة بين أبناء الإنسانية جميعًا، فالكلُّ سواسية أمام الخالق العظيم؛ لأنهم ينتمون إلى أصل واحد، ومصدر واحد، وبهذا التصور الإسلامي في النظرة البشرية يتعامل المسلم مع غيره من غير المسلمين؛ حيث تتجلى معاني التسامح فيما أمر به ربنا - جلَّ وعلا -، ومن ذلك أمره سبحانه بالإحسان إلى الوالدين وإن كانا على غير الإسلام، يقول - تعالى -: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[4].

فهذه المعاملة للوالدين مع أنهما على غير الإسلام تعكس حقيقة التسامح الذي يأمرنا به ربنا - جلَّ وعلا - ؛ لنؤكد للجميع أنَّ هذا الدين دين الفطرة ودين الرحمة والسعادة لكل البشرية.

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٨.

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(٣) سورة الحجرات: الآية: ١٣.

(٤) سورة لقمان: الآية: ١٥.

وجاءت الآيات تأمر المسلمين بالتسامح والعفو والصفح والرحمة بينهم وبين غيرهم من غير المسلمين، ومن ذلك نجد أمر ربنا - جلَّ وعلا - للنبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

وهذه الآية خطاب من الله سبحانه وتعالى - إلى النبي ﷺ وأتباعه في كلِّ عصر، فأمره الله بالصفح وترك المؤاخذة، وهذا الأمر يشمل نهيه عن الانتقام والمؤاخذة، وقرن - سبحانه وتعالى - الصفح بقول سلام، والسلام هو الأمل المنشود الذي سعى إليه المسلمون عبر تاريخهم.

وأرشد النبي ﷺ أمته إلى التحلي بالتسامح في معاملاتهم كلِّها، مع المسلمين وغير المسلمين، فعن جابر بن عبد اللّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»[2].

وأمر المسلم أن يسمح ويتسامح حتى يسمح الله له، فعن ابن عبّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللّه ﷺ: «اسْمَحْ، يُسْمَحْ لَكَ»[3].

لم يقتصر في دعوته للأمة بالتسامح على الإرشاد بالكلام فحسب، بل ضرب أروع أمثله التسامح والحلم، ليعلم أصحابه والمؤمنين من بعده والعالم بأسره كيف يتسامح الإنسان مع أخيه الإنسان، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ «أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[4].

---

(١) سورة الزخرف: الآية: ٨٩.

(٢) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع - حديث رقم (٢١١٥) ١/ ٣٨٧.

(٣) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب - حديث رقم (٢٢٣٢) ٤/ ١٠٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٩٨٢).

(٤) صحيح البخاري - كتاب فرض الخمس - باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه حديث رقم (٣١٨٥) ٢/ ٦١٤.

ولقد فاضت رحمته وسماحته البشر كلهم حتى وصلت إلى كل كائن حي فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ « قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[1].

فالمفهوم السليم للتسامح لا يعنى التفريط في الحقوق، فالحقوق مقدسة، والدفاع عنها واجب، والتمسك بها فريضة دينية، ومسؤولية وطنية، وكرامة إنسانية، وأن يكون التسامح مقترنًا بالعدل، وهو تسامح التعايش والتساكن، وليس تسامح الإكراه والإذلال، وأؤكد – هنا – أنَّ التَّطرف ليس فضيلة على الإطلاق، وليس هو المنهج الصائب في التعامل الإنساني، وهو دليل على ضيق الرؤية، والانفعال المرضي الضار بالمصالح المشروعة، والتَّطرف منهج مخالف للمنهجية الإسلامية، التي تدعو إلى الحوار البناء في إطار الدفاع عن الحق.

فما أحوج الأمة الآن إلى التسامح الإسلامي الذي دعانا إليه ربنا – جلَّ وعلا – ونبينا ﷺمع المسلمين بعضهم البعض، ومع المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب الذين ليس بيننا وبينهم حرب، تسامح بين الأفراد والمجتمعات، تسامح من أجل الاجتماع والوحدة، ونبذ الخلاف والشقاق، تسامح وتعايش بالعدل الذي أمر به الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المساقاة – باب فضل سقي الماء – حديث رقم (٢٤٠٣) ١/ ٤٤٢، صحيح مسلم – كتاب السلام – باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها – حديث رقم (٥٩٩٦) ٢/ ٩٧١.

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن المولى - سبحانه وتعالى - قد دعانا إلى التقوى وأمرنا بها، وبيّن - سبحانه وتعالى - أنها وصيته للأولين والآخرين، وهي جماع كل خير في الدنيا والآخرة، وكذلك نجد المصطفى ﷺ يبين لنا في سنته الشريفة أن التقوى سبب من أسباب دخول الجنة، والوقاية من النار، وفيما يأتي بيان مفهوم التقوى، والحث عليها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما هي ثمرات التقوى في العاجلة في الدنيا، وثمرات التقوى الآجلة في الآخرة؟

حقيقة التقوى:

التقوى لغة: هي الاسم من قولهم اتّقى، والمصدر الاتّقاء، وكلاهما مأخوذ من مادّة (و ق ى) الّتي تدلّ على دفع شيء عن شيء بغيره، والثّلاثيّ من هذه المادّة «وقى» يقال: وقيت الشّيء أقيه وقيًا، والوقاية ما يقي الشّيء، والاتّقاء اتّخاذ الوقاية، وهو بمعنى التّوقّي، يقال: توقّيت الشّيء واتّقيته بمعنى، ومعنى قولهم: اتّق اللّه:

توقّه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية، وقول المصطفى ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[1]، كأنّه أراد اجعلوها (أي شقّ التّمرة) وقاية بينكم وبينها (النّار).

وقال الرّاغب - رحمه الله ما خلاصته: الوقاية: حفظ الشّيء ممّا يؤذيه ويضرّه، وهي بهذا المعنى مصدر مثل الوقاء، يقال: وقيت الشّيء أقيه وقاية ووقاء، وعلى ذلك قوله عزَّ وجلَّ -: - ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2]، والتّقوى جعل النّفس في وقاية ممّا يخاف، هذا تحقيقه، ثُمَّ يسمّى الخوف تارة تقوى، والتّقوى خوفًا، حسب تسمية مقتضى الشّيء بمقتضيه، والمقتضي للشّيء بمقتضاه، ويقال: اتّقى فلان بكذا: إذا جعله وقاية

(١) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة - حديث رقم (١٤٣٨) ١/ ٢٦٧.

(٢) سورة الدخان: الآية: ٥٦.

لنفسه، وعلى ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[1]، وفيه تنبيه على شدّة ما ينالهم، وأنّ أجدر شيء يتّقون به من العذاب يوم القيامة هو وجوههم[2].

التقوى اصطلاحًا:

قال الرّاغب - رحمه الله: التّقوى في تعارف الشّرع: حفظ النّفس عمّا يؤثم وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه[3].

وقال الجرجانيّ - رحمه الله: التّقوى في الطّاعة يراد بها الإخلاص، وفي المعصية يراد بها التّرك والحذر[4].

وقيل هي: الاحتراز بطاعة اللّه عن عقوبته، وصيانة النّفس عمّا تستحقّ به العقوبة من فعل أو ترك.

وقيل: هي المحافظة على آداب الشّريعة، ومجانبة كلّ ما يبعد المرء عن اللّه تعالى -، وقيل: هي ترك حظوظ النّفس ومباينة الهوى.

قال الحليميّ - رحمه الله: حقيقة التّقوى فعل المأمور به والمندوب إليه، واجتناب المنهيّ عنه والمكروه المنزّه عنه؛ لأنّ المراد من التّقوى وقاية العبد نفسه من النّار، وهو إنّما يقي نفسه من النّار بما ذكرت[5].

التقوى في القرآن الكريم:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم يأمرنا الله عزَّ وجلَّ - فيها بالتقوى؛ منها:

قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة الزمر: الآية: ٢٤.

(٢) مقاييس اللغة: ٦/ ١٣.

(٣) المفردات: ص ٥٣٠.

(٤) التعريفات: ١/ ٩٠.

(٥) التعريفات: ١/ ٦٥، والمفردات، ص ٥٣٠، ويراجع: نضرة النعيم: ٤/ ١٠٨٠.

(٦) سورة آل عمران: الآية: ١٠٢.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف[1].

وروي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: لا يتقي العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه[2].

وقال مجاهد - رحمه الله: أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم[3].

وعن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى[4].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: لم تنسخ ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم[5].

وقال الإمام الطبري - رحمه الله: «يعني بذلك - جلَّ ثناؤه - يا معشر من صدق الله ورسوله اتقوا الله، خافوا الله وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه حق تقاته حق خوفه، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ولا تموتن أيها المؤمنون بالله ورسوله إلا وأنتم مسلمون لربكم مذعنون له بالطاعة مخلصون له الألوهية والعبادة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[6].

وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾[7].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٨ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٨.

(٣) تفسير البغوي: ١/ ٣٣٣.

(٤) الدر المنثور: للسيوطي ٢/ ٢٨٣.

(٥) الدر المنثور: ٢/ ٢٨٣.

(٦) تفسير الطبري: ٤/ ٢٧.

(٧) سورة الأحزاب: الآيتان: ٧٠، ٧١.

قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾، أي: قصدًا وحقًا، وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، أي: صوابًا.

وقال قتادة، ومقاتل: يعني قولوا قولًا سديدًا في شأن زينب وزيد ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل.

وقال عكرمة، وابن عباس أيضًا: القول السداد: لا إله إلا الله.

وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره.

وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض، والقول السداد يعم الخيرات، فهو عام في جميع ما ذكر، وغير ذلك، وظاهر الآية يعطي أنَّه إنَّما أشار إلى ما يكون خلافًا للأذى الذي قيل في جهة الرسول، وجهة المؤمنين، ثم وعد - جلَّ وعزَّ - بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة»[1].

وقال - سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، يقول - تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ووحدوه اتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وقوله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾، يقول: ولينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[3].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٢٥٣.

(٢) سورة الحشر: الآية: ١٨.

(٣) تفسير الطبري: ٢٨/ ٥٢.

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، وقال - سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾، من الله تعالى - بأن من اتقاه علمه، أي: يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانًا، أي: فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل»[3].

ولأهمية التقوى في حياة المسلم والمسلمة فقد وصى الله تبارك وتعالى - بها من قبلنا وإيانا؛ فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[4].

قال أبو حيان الأندلسي - رحمه الله: وصينا: أمرنا أو عهدنا إليهم وإليكم، ومن قبلكم: يحتمل أن يتعلق بأوتوا وهو الأقرب، أو بوصينا، والمعنى: أنَّ الوصية بالتقوى هي سنة الله مع الأمم الماضية، فلستم مخصوصين بهذه الوصية[5].

ويقول الشيخ محمد علي الصابوني: «أكد الله تعالى - الأمر بتقوى الله في موطنين: في أول الآية وفي آخرها يشير إلى عظيم حق الله على عباده، كما قرن - تعالى - بين التقوى وصلة الرحم؛ ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فالناس جميعًا من أصل واحد وهم أخوة في الإنسانية والنسب، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة ومدمرة تلتهم الأخضر واليابس وتقضي على الكهل والوليد، فافتتاح هذه السورة الكريمة العظيمة بالأمر بالتقوى في موضعين يدل على عظم وأهمية تقوى الله سبحانه ابتداء، ولما للآيات البينات في هذه السورة من أهمية كبرى في حياة المؤمنين[6].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٩٧.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٨٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٣/ ٤٠٦.

(٤) سورة النساء: الآية: ١٣١.

(٥) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٣٥٧.

(٦) تفسير آيات الأحكام: للشيخ/ محمد على الصابوني ١/ ١٨٩.

التقوى في السُّنَّة النَّبويَّة:

جاءت أحاديث كثيرة في السنة النبوية المطهرة يأمرنا فيها النبي ﷺ بتقوى الله عزَّ وجلَّ - في السِّر والعلن، ومنها:

١ - أمر النبي ﷺ بالتقوى في أحاديث كثيرة؛ منها:

ما جاء عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[١].

قال العلامة المباركفوري - رحمه الله: قوله (اتق الله)، أي: بالإتيان بجميع الواجبات، والانتهاء عن سائر المنكرات، فإنَّ التقوى أساس الدين، وبه يرتقي إلى مراتب اليقين، (حيث ما كنت)، أي: في الخلاء وفي النعماء والبلاء، فإنَّ الله عالم بسر أمرك، كما أنَّه مطلع على ظواهرك، فعليك برعاية دقائق الأدب في حفظ أوامره ومراضيه، والاحتراز عن مساخطه ومساويه، واتقوا الله إنَ الله كان عليكم رقيبا[٢].

وقال الإمام المناوي - رحمه الله: (اتق الله) بامتثال أمره وتجنب نهيه، (حيثما كنت)، أي: وحدك أو في جمع، فإن كانوا أهل بغي أو فجور فعليك بخويصة نفسك، أو المراد في أي زمان ومكان كنت فيه رآك الناس أم لا، فإنَّ الله مطلع عليك، واتقوا الله إنَّ الله كان عليكم رقيبًا، والخطاب لكل من يتوجه إليه الأمر؛ فيعم كل مأمور، وأفراد الضمير باعتبار كل فرد، وما زائدة بشهادة رواية حذفها، وهذا من جوامع الكلم، فإنَّ التقوى وإن قل لفظها كلمة جامعة، فحقه تقدس - أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر بقدر الإمكان، ومن ثَمَّ شملت خير الدارين؛ إذ هي تجنب كل منهي عنه، وفعل كل مأمور به، فمن فعل ذلك فهو من المتقين الذين أثنى عليهم في كتابه المبين[٣].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس حديث رقم (٢١١٥) ٢/ ٥١٦، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للإمام محمد عبد الرحيم بن عبد الرحمن المباركفوري، ٦/ ١٠٤، ط/ دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) فيض القدير: ١/ ١٥٦.

وعن سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُمَامَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(١).

٢ - التقوى سبب من أسباب دخول الجنة:

فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: الفَمُ وَالْفَرْجُ، وسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، قَالَ: تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»(٢).

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "فائدة جليلة جمع النبي بين تقوي الله وحسن الخلق؛ لأنَّ تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو إلى محبته"(٣).

وقال الطيبي - رحمه الله: "قوله تقوى الله: إشارة إلى حسن المعاملة مع الخالق بأن يأتي جميع ما أمره به، وينتهي عن ما نهى عنه، وحسن الخلق إشارة إلى حسن المعاملة مع الخلق، وهاتان الخصلتان موجبتان لدخول الجنة، ونقيضهما لدخول النار، فأوقع الفم والفرج مقابلًا لهما، أما الفم فمشتمل على اللسان وحفظه ملاك أمر الدين كله، وأكل الحلال رأس التقوى كله"(٤).

٣ - التقوى وصية النبي ﷺ لأصحابه:

فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ أَوْصِنِي فَقَالَ سَأَلْتَ عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ قَبْلِكَ «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شيء، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما ذُكر في فضل الصلاة، باب منه حديث رقم (٦١٩) ١/ ١٧٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٦١٦).

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق حديث رقم (٢١٣٥) ٢/ ٥١٩.

(٣) الفوائد: لابن القيم، ص٥٤.

(٤) تحفة الأحوذي: ٦/ ١٢٠.

فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرٌ لَكَ فِي الأَرْضِ»[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله ﷺ: (أوصيك بتقوى الله)، بأن تطيعه فلا تعصه، وتشكره فلا تكفره، والتقوى أس كل فلاح ونجاح في الدارين.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله: "ليس في العالم خصلة للعبد أجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأدنى بالحال، وأنجع للآمال من هذه الخصلة التي هي التقوى، وإلا لما أوصى الله بها خواص خلقه، فهي الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقتصر دونها، قد جمع الله فيها كل نصح ودلالة وإرشاد وتأديب وتعليم، فهي الجامعة لخيري الدارين الكافية لجميع المهمات المبلغة إلى أعلى الدرجات"[2].

وقال أيضًا – رحمه الله: قوله ﷺ: (أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس كل شيء)؛ إذ التقوى وإن قل لفظها جامعة لحق الحق والخلق، شاملة لخير الدارين؛ إذ هي تجنب كل منهي، وفعل كل مأمور، كما مر غير مرة، ومن اتقى الله حفظه من أعدائه، ونجاه من الشدائد، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأصلح عمله، وغفر زلله، وتكفل له بكفلين من رحمته، وجعل له نورًا يمشي به بين يديه وقبله، وأكرمه وأعزه ونجاه من النار، إلى غير ذلك مما مر ويأتي ببراهينه[3].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "سِتَّةَ أَيَّام ثُمَّ اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدُ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ وَلَا تَقْبِضْ أَمَانَةً وَلَا تَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ"[4].

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم (١١٧٧٤) ١٨/ ٢٩٧، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٣).

(٢) فيض القدير: ٣/ ٩٧.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٩٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم (٢١٥٧٣) ٣٥/ ٤٥٢، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢٥٤٤)، وصحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣١٦١).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: قوله(أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته)، أي: في باطنه وظاهره، والقصد الوصية بإخلاص التقوى، وتجنب الرياء فيها، قال حجة الإسلام: وإذا أردنا تحديد التقوى على موضع علم السر نقول: الحد الجامع تبرئة القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير كذلك وقاية بينك وبين كل شر، قال: وهنا أصل أصيل، وهو أنَّ العبادة شطران: اكتساب، وهو فعل الطاعات، واجتناب، وهو تجنب السيئات وهو التقوى، وشطر الاجتناب أصلح وأفضل وأشرف للعبد من الاكتساب، يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم، واشتغل المنتبهون أولو البصائر والاجتناب إنَّما همتهم حفظ القلوب عن الميل لغيره تعالى –، والبطون عن الفضول، والألسنة عن اللغو، والأعين عن النظر إلى ما لا يعنيهم[1].

٤ – بالتقوى تكن أعبد الناس:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ يَأْخُذُ مِنْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُهُنَّ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّهُنَّ فِيهَا ثُمَّ قَالَ: اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ"[2].

قال القاري – رحمه الله: قوله ﷺ: (اتق المحارم)، وهي شاملة لجميع المحرمات من فعل المنهيات، وترك المأمورات تكن أعبد الناس؛ إذ لا عبادة أفضل من الخروج عن عهدة الفرائض، وعوام الناس يتركونها، ويعتنون بكثرة النوافل، فيضيعون الأصول ويقومون بالفضائل، فربما يكون على شخص قضاء صلوات ويغفل عن أدائها ويطلب علمًا أو يجتهد عملًا في طواف وعبادات نفل، أو يكون على أحد من الزكاة أو حقوق الناس فيطعم الفقراء أو يبني المساجد والمدارس ونحوها، ولعلَّ التعبير بالاتقاء اعتناء لجانب الاحتماء على قاعدة الحكماء في معالجة الداء بالدواء[3].

(١) فيض القدير: ٣/ ٩٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب من اتق المحارم فهو أعبد الناس، حديث رقم (٢٤٧٥) ٢/ ٥٩٣ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (٩٣).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ١٥/ ٦٢.

مفهوم التقوى عند السَّلف:

ورد عن سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين والصالحين من هذه الأمة آثار كثيرة تبيِّن معنى التقوى، وتحث عليها؛ منها:

قال الإمام ابن رجب – رحمه الله: "وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيهِ منه،فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه وغضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه"(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ليس تقوى الله بصيام النهار، وبقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله عزَّ وجلَّ – "(٢).

وقال طلق بن حبيب – رحمه الله: "التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجوا ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله"(٣).

وقال محمد بن يوسف المقري – رحمه الله: "التقوى مجانبة كل ما يبعدك عن الله تبارك وتعالى – "(٤).

وقال ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: "التقوى ألا ترى نفسك خيرًا من أحد"(٥).

وقال ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –: "المتقي هو الذي يتقي الشرك والكبائر والفواحش"(٦).

وقال بكر بن عبيد الله رحمه الله: "لا يكون الرجل تقيًّا، حتى يكون تقي المطعم، تقي الغضب"(٧).

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ٢١٠.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٩٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٧٥.

(٤) الكشف والبيان: ١/ ١٤٣.

(٥) المرجع السابق: ١/ ١٤٣.

(٦) المرجع السابق: ١/ ١٤٣.

(٧) المرجع السابق: ١/ ١٤٣.

وقال الجنيد – رحمه الله: "ليس المتقي الذي يحب للناس ما يحب لنفسه، إنَّما المتقي الذي يحب للناس أكثر ما يحب لنفسه"[1].

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فينادي منادٍ.. أين المتقون؟ فيقومون في كنف الرحمن، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر.

قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك، وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرون إلى الجنة"[2].

وقال الحسن البصري – رحمه الله: "ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام"[3].

وقال سفيان الثوري – رحمه الله: "إنَّما سموا متقين؛ لأنَّهم اتقوا ما لا يُتقى"[4].

وسُئل أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التقوى فقال: "هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت ؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلتَ عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى"[5].

وقال ابن رجب – رحمه الله: "وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه"[6].

وقال عون بن عبدالله رحمه الله: "تمام التقوى أن تبتغي علم ما لم تعلم منها إلى ما علمت منها"[7].

---

(١) الكشف والبيان: ١/ ١٤٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٦٨٦، تفسير ابن كثير: ١/ ١٦٤، الدر المنثور: للسيوطي ١/ ٦١.

(٣) الدر المنثور: للسيوطي ١/ ٦١.

(٤) جامع العلوم والحكم: ١/ ٧٤.

(٥) الدر المنثور: للسيوطي ١/ ٦١.

(٦) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٦٠.

(٧) المرجع السابق: ١/ ١٦٠.

التقوى وصية الأنبياء والصالحين لأقوامهم:

فقد قال نوح لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[1].

وقال هود لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[2].

وقال صالح لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

وقال لوط لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[4].

وقال شعيب لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾[5].

وهكذا كان دأب جميع رسل الله مع أقوامهم، وعلى هذا سار الصالحون في كل زمان[6].

التقوى وصية الصحابة والتابعين والصالحين:

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبه: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله عزَّ وجلَّ -، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ - أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[7].

وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ابنه عبد الله: فإنِّي أوصيك بتقوى الله عزَّ وجلَّ - فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

---

(١) سورة الشعراء: الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الشعراء: الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الشعراء: الآية: ١٤٢.

(٤) سورة الشعراء: الآية: ١٦١.

(٥) سورة الشعراء: الآية: ١٧٧.

(٦) الجامع في شرح الأربعين النووية: د/ محمد يسرى، ٢/ ٧١٣، ط/ دار الحديث بالقاهرة.

(٧) سورة الأنبياء: الآية: ٩٠.

واستعمل على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا على سرية فقال له: أوصيك بتقوى الله عزَّ وجلَّ - الذي لا بُدَّ لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة[1].

وكتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عزَّ وجلَّ - التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها، فإنَّ الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

وقال رجل ليونس بن عبيد - رحمه الله أوصني فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد: أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلا ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك، والسَّلام[2].

وعن التقوى وأهميتها يقول الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: "فصل: السعيد من لازم التقوى: اعلم أنَّ الزمان لا يثبت على حال، كما قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[3]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي.

فالسعيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عزَّ وجلَّ -، فإنَّه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأنَّ جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة، حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف (يوقف) على الحدود.

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٦١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٦٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ١٤٠.

والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنَّها ستحول، وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم[١].

وقال - رحمه الله في موضع آخر: فصل: لا تبع عزَّ التقوى بذل المعاصي: بالله عليك يا مرفوع القدر بالتقوى، لا تبع عزها بذل المعاصي! وصابر عطش الهوى في هجير[٢] المشتهى، وإن أمض[٣] وأرمض[٤]، فإن بلغت النهاية من الصبر، فاحتكم وقل، فهو مقام "من لو أقسم على الله لأبره".

تالله لولا صبر عمر، ما انبسطت يده بضرب الأرض بالدرة[٥]، ولولا جد أنس بن النضر في ترك هواه، وقد سمعت من آثار عزمته: "لئن أشهدني الله مشهدًا؛ ليرين الله ما أَصْنَعُ" فأقبل يوم أُحُدٍ يقاتل حتى قُتل، فلم يعرف إلا ببنانه[٦]، فلولا هذا العزم، ما كان انبساط وجهه يوم حلف: والله، لا تكسر سن الربيع.

بالله عليك، تذوق حلاوة كف الكف عن المنهيِّ؛ فإنها شجرة تثمر عز الدنيا وشرف الآخرة، ومتى اشتد عطشك إلى ما تهوى، فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الري الكامل، وقل: قد عيل صبر[٧] الطبع في سنيه العجاف[٨]، فعجل لي العام الذي فيه أغاث وأعصر.

---

(١) صيد الخاطر: للإمام جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ١/ ١٣٧، ط/ دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م - تحقيق: حسن المساحي سويدان.

(٢) الهجير: شدة الحر وهو هنا شدة الشهوة.

(٣) أمض: آلم.

(٤) أرمض: أحرق لشدة حرّه.

(٥) الدرة: سوط أو عصا لينة للتأديب.

(٦) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير باب قول الله تعالى -: من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا - حديث رقم (٢٨٤٢) ٢/ ٥٤٦.

(٧) عيل الصبر: فُقد.

(٨) العجاف: الهزلي.

بالله عليك، تفكر فيمن قطع أكثر العمر في التقوى والطاعة، ثم عرضت له فتنة في الوقت الأخير، كيف نطح مركبه الجرف[1] فغرق وقت الصعود! أف والله للدنيا - لا بل للجنة - إن أوجب نيلها إعراض الحبيب![2].

علامات التقوى:

قال الإمام مالك - رحمه الله: حدثني وهب بن كيسان أنَّ بعض فقهاء أهل المدينة كتب إلى عبد الله بن الزبير: إنَّ لأهل التقوى علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، من رضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وشكر على النّعماء، وصدق في اللّسان، ووفّى بالوعد والعهد، وتلا لأحكام القرآن، وإنّما الإمام سوق من الأسواق، فإن كان من أهل الحقّ حمل إليه أهل الحقّ حقّهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم[3].

وقال الحسن البصري - رحمه الله: إنَّ لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخُلق، وسعة الخُلق مما يقرب إلى الله تعالى - [4].

وعن ابن المبارك - رحمه الله قال: قال داود لابنه سليمان - عليه السَّلام -: يا بني إنَّما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما أتاه، ولحسن زهده فيما فاته.

وعن سعيد بن أبي سعيد المقبري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغنا أنَّ رجلًا جاء إلى عيسى فقال: يا معلم الخير كيف أكون تقيًا لله كما ينبغي له قال: بيسير من الأمر تحب الله بقلبك كله، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك، قال: من ابن جنسي يا معلم الخير قال: ولد آدم كلهم، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد، فأنت تقي لله حقًّا[5].

---

(١) الجرف: الساحل الصخري.

(٢) صيد الخاطر: ١/ ١٥٤ وما بعدها.

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول: للإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ١١/ ٧٠٣، ط/ مكتبة دار البيان - تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط.

(٤) حلية الأولياء: ٢/ ١٤٣.

(٥) الدر المنثور: ١/ ٦٢.

وعن عون بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فواتح التقوى حسن النية، وخواتمها التوفيق، والعبد فيما بين ذلك بين هلكات وشبهات، ونفس تحطب على سلوها، وعدو مكيد غير غافل ولا عاجز[1].

وأخرج ابن أبي الدنيا عن شبيب بن شيبة قال: تكلم رجل من الحكماء عند عبد الملك بن مروان فوصف المتقي فقال: رجل آثر الله على خلقه، وآثر الآخرة على الدنيا، ولم تكرثه المطالب، ولم تمنعه المطامع، نظر ببصر قلبه إلى معالي إرادته فسما لها ملتمسًا لها، فزهده مخزون يبيت إذا نام الناس ذا شجون، ويصبح مغمومًا في الدنيا مسجون قد انقطعت من همته الراحة دون منيته، فشفاؤه القرآن، ودواؤه الكلمة من الحكمة والموعظة الحسنة، لا يرى منها الدنيا عوضًا، ولا يستريح إلى لذة سواها، فقال عبد الملك: أشهد أنَّ هذا أرجأ بالًا منا، وأنعم عيشًا[2].

صفات المتقين:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبيِّن لنا صفات المتقين وأوصافهم، ومنها:

١ - قوله سبحانه وتعالى - في كتابه العزيز: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: إنَّ الله تعالى - لما أمر المؤمنين أولًا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثُمَّ حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى - بيان حكمته في ذلك، وهو أنَّ المراد إنَّما هو طاعة الله عزَّ وجلَّ -، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه، وإتباع ما شرع، فهذا هو البر

(١) الدر المنثور: ١/ ٦٣.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٦٣.

(٣) سورة البقرة: الآية: ١٧٧.

والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة أن لم يكن عن أمر الله وشرعه[1].

في هذه الآية الكريمة يبيِّن الله سبحانه صفات ومواصفات للمتقين فهم: مؤمنون بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

يؤتون المال على حبه: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، للمال لحاجتهم إليه، وفي فك رقاب العبيد تقربًا إلى الله، يقيمون الصلاة كما وردت عن نبيهم – عليه السلام –، يؤتون الزكاة المستحقة عليهم، يوفون بعهودهم إذا عاهدوا سواء كان العهد مع الله سبحانه وتعالى – أو مع عباد الله صابرين في البأساء والضراء وعند لقاء الأعداء.

صادقون مع الله، ومع أنفسهم، و مع الناس في عبادتهم وإيمانهم ومعاملاتهم[2].

٢ – ومن صفات المتقين تعظيم شعائر الله عزَّ وجلَّ –:

كما قال – سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[3].

قال الإمام القرطبي – رحمه الله: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأنَّ حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال – عليه الصلاة والسلام – في صحيح الحديث: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وأشار إلى صدره[4].

٣ – الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ،والعفو عن الناس:

قال – تعالى –: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٨.

(٢) آيات التقوى في القرآن الكريم: د/ حسين علي خلف الجبوري، ص٥٨.

(٣) سورة الحج: الآية: ٣٢.

(٤) تفسير القرطبي: ١٢/ ٥٦.

(٥) سورة آل عمران: الآيتان: ١٣٣، ١٣٤.

٥ - الإيمان بما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أمور الغيب:

قال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾[١].

ثمرات التقوى:

إنَّ للتقوى ثمرات كثيرة؛ منها ثمرات عاجلة في الدنيا، وثمرات آجلة في الآخرة، وبيان ذلك كالآتي:

أ - ثمرات التقوى العاجلة:

للتقوى العديد من الثمرات العاجلة في الدنيا، منها: تفريج الكربات، والسهولة واليسر في كل أمر، وتيسير العلم النافع، وحصول البصيرة، ومعية الله ونصرته وتأييده، ونزول البركات من السماء وخروج الخيرات من الأرض، والبشرى الصالحة في الحياة وعند الممات، وحفظ الذرية الضعاف بعد موت عائلهم، والتقوى سبب ومفتاح القبول، وسبب في النجاة من عذاب النار، والانتفاع بالقرآن الكريم وبما فيه من هداية الفلاح والنجاح، والوصول إلى ولاية الله عزَّ وجلَّ، وغير ذلك من الثمرات العاجلة للمتقين، وقد جاء بيانها واضحًا جليًا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وفيما يأتي بيان ذلك:

١ - تفريج الكربات:

قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾[٢].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة، وقيل: المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه، قاله علي بن صالح[٣].

وقال الكلبي - رحمه الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾، بالصبر عند المصيبة، ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من النار إلى الجنة، وقال الحسن: مخرجًا ممَّا نهى الله عنه، وقال أبو العالية: مخرجًا من كلِّ شدة[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآيات: ١ - ٣.

(٢) سورة الطلاق: الآيتان: ٢ - ٣.

(٣) تفسير الطبري: ١٨/ ١٦٠ وما بعدها.

(٤) المرجع السابق: ١٨/ ١٦٠ وما بعدها.

وقال الربيع بن خيثم - رحمه الله: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، من كل شيء ضاق على الناس، وقال الحسين بن الفضل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الفرائض، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، من العقوبة،» ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثواب، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: يبارك له فيما آتاه[1].

وقال سهل بن عبدالله رحمه الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في إتباع السنة، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب[2].

وقال عمر بن عثمان الصدفي - رحمه الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيقف عند حدوده، ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو[3].

٢ - السهولة واليسر في كل أمر:

قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[4].

قال مقاتل: ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرًا في توفيقه للطاعة.

٣ - تيسير العلم النافع:

قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[5].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: هذا وعد من الله تعالى - بأنَّ من اتقاه علمه، أي: يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانًا، أي: فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[6] [7].

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ١٦٠ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق: ١٨/ ١٦٠ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق: ١٨/ ١٦٠ وما بعدها.

(٤) سورة الطلاق: الآية: ٤.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٢٨٢.

(٦) سورة الأنفال: الآية: ٢٩.

(٧) تفسير القرطبي: ٣/ ٤٠٦.

وقال الإمام البيضاوي - رحمه الله: كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث لاستقلالها، فالأولى حثّ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم بشأنه، وليس معنى الآية: أنَّ العلم يحصل بغير التعلم، وإنَّما العلم بالتعلم؛ لأنَّ العطف يقتضي المغايرة هنا والاستقلال[1].

٤ - حصول البصيرة:

قال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[2].

قال الإمام الخطيب الشربيني - رحمه الله في تفسيره: قوله تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ﴾، أي: بالأمانة، وغيرها ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾، أي: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾، أي: يسترها ما دمتم على التقوى ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾، أي: يمح ما كان منكم غير صالح عينًا وأثرًا، وقيل: السيئات الصغائر، والذنوب الكبائر، وقيل: المراد ما تقدّم وما تأخر؛ لأنَّها في أهل بدر، وقد غفر الله تعالى - لهم[3].

وقال الفخر الرازي - رحمه الله: قوله: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾، والمعنى: أنَّه تعالى - يفرق بينكم وبين الكفار، ولما كان اللفظ مطلقًا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار؛ فنقول: هذا الفرقان إمَّا أن يعتبر في أحوال الدنيا أو في أحوال الآخرة، أمَّا في أحوال الدنيا فإمَّا أن يعتبر في أحوال القلوب، وهي الأحوال الباطنة، أو في الأحوال الظاهرة.

أمَّا في أحوال القلوب فأمور: أحدها: أنَّه تعالى - يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة.

وثانيها: أنَّه يخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح، كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[4].

---

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٥٨١.

(٢) سورة الأنفال: الآية: ٢٩.

(٣) تفسير السراج المنير: للإمام/ محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، ١/ ٤٤٧، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) سورة الزمر: الآية: ٢٢.

وثالثها: أنَّه يزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، ويزيل المكر والخداع عن صدورهم، مع أنَّ المنافق والكافر يكون قلبه مملوءًا من هذه الأحوال الخسيسة والأخلاق الذميمة، والسبب في حصول هذه الأمور أنَّ القلب إذا صار مشرقًا بطاعة الله تعالى - زالت عنه كل هذه الظلمات؛ لأنَّ معرفة الله نور، وهذه الأخلاق ظلمات، وإذا ظهر النور فلا بُدَّ من زوال الظلمة.

وأمَّا في الأحوال الظاهرة، فإنَّ الله تعالى - يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال - تعالى -: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وكما قال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2]، وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك، وأمَّا في أحوال الآخرة، فالثَّواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة وكل هذه الأحوال داخلة في الفرقان[3].

٥ - معية الله ونصرته وتأييده:

قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4]، وهي معيته بالتأييد والنصر والتسديد.

قال قتادة: ومن يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

قال الإمام الطبري - رحمه الله: يعني - جلَّ ثناؤه بذلك: واتقوا الله أيها المؤمنون في حُرُماته وحدوده أن تعتَدُوا فيها، فتتجاوزوا فيها ما بيَّنه وحدَّه لكم، واعلموا أنَّ الله يُحب المتقين، الذين يتقونه بأداء فَرائضه، وتجنب محارمه[5].

---

(١) سورة المنافقون: الآية: ٨.

(٢) التوبة: الآية: ٣٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ١/ ٢١٤٠.

(٤) سورة البقرة: الآية: ١٩٤.

(٥) تفسير الطبري: ٣/ ٥٨٢.

٦ - نزول البركات من السماء وخروج الخيرات من الأرض:

قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾، أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات، ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: قطر السماء ونبات الأرض[٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[٣].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها، ﴿غَدَقًا﴾، أي: كثيرًا، والمراد بذلك سَعَة الرزق...

والقول الثاني: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجًا، كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٤] [٥].

٧ - البشرى الصالحة في الحياة وعند الممات:

قال - تعالى -: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ٩٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٥١.

(٣) سورة الجن: الآية: ١٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية: ٤٤.

(٥) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٤٧ وما بعدها.

(٦) سورة يونس: الآيات: ٦٢ - ٦٣.

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: يخبر – تعالى – أنَّ أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا: أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا(١).

٨ – حفظ الذرية الضعاف بعد موت عائلهم:

قال – تعالى –: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾(٢).

عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قال: هذا في الرجل يَحْضُره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تَضر بورثته، فأمر الله تعالى – الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضَّيْعَةَ(٣).

وقال محمد بن المنكدر – رحمه الله: إنَّ الله عزَّ وجلَّ – ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ الله وستره، وقال سعيد بن المسيب لابنه: يا بني إنِّي لأزيد في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، وتلا الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾(٤ ٥).

وعن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قال: إنَّ الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٧٨.

(٢) سورة النساء: الآية: ٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٢٢.

(٤) سورة الكهف: الآية: ٨٢.

(٥) البحر المديد: للإمام أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، ٤/ ١٨٥، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية: ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م

(٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ٣/ ٣٠٦، ط/ دار الفكر بيروت.

٩ - التقوى سبب ومفتاح القبول:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١].

قال بعض السلف: لو أعلم أنَّ الله يتقبل منى سجدة بالليل وسجدة بالنهار لطرتُ شوقًا إلى الموت، إنَّ الله عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لأن أستيقن أنَّ الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها، إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢] [٣].

١٠ - التقوى سبب النجاة من عذاب النار:

قال - تعالى -: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[٤].

١١ - الانتفاع بالقرآن الكريم وبما فيه من هداية:

قال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[٥].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: خصّت الهداية للمتَّقين، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنَّه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٨].

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٢٧.

(٢) سورة المائدة: الآية: ٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٨٥.

(٤) فصلت: الآية: ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآيتان: ١ - ٢.

(٦) سورة فصلت: الآية: ٤٤.

(٧) سورة الإسراء: الآية: ٨٢.

(٨) سورة يونس: الآية: ٥٧.

وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نورًا للمتقين.

وقال الشعبي - رحمه الله: هدى من الضلالة.

وقال سعيد بن جبير - رحمه الله: تبيان للمتَّقين، وكل ذلك صحيح[1].

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله: خص الله تعالى - المتقين بهدايته، وإن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم؛ لأنَّهم آمنوا وصدقوا بما فيه، وروي عن أبى رَوق أنَّه قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: كرامة لهم، يعني إنَّما أضاف إليهم إجلالًا لهم وكرامة لهم وبيانًا لفضلهم[2].

١٢ - الفلاح والنجاح:

قال - تعالى -: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

١٣ - الوصول إلى ولاية الله عزَّ وجلَّ -:

قال - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[4].

ذكر - جلَّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنَّه ولي المتقين، وهم الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، وذكر في موضع آخر أنَّ المتقين أولياؤه، فهو وليهم، وهم أولياؤه؛ لأنَّهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٦٣.

(٢) تفسير القرطبى: ١/ ١٦١.

(٣) سورة المائدة: الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الجاثية: الآية: ١٩.

(٥) سورة يونس: الآية: ٦٢.

ثم بيَّن المراد بأوليائه في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، كقوله في آية الجاثية هذه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

١٤ - الفوز وغفران الذنوب:

قال - تعالى -: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[3].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[4].

١٥ - الحصول على الرحمة والهداية والمغفرة من الله عزَّ وجلَّ -:

قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5].

١٦ - النجاة من كيد الحاقدين والحاسدين:

قال - تعالى -: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[6].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يرشدهم - تعالى - إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر، والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه[7].

---

(١) سورة يونس: الآية: ٦٣.

(٢) أضواء البيان: ٧/ ٢٠١.

(٣) سورة النور: الآية: ٥٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان: ٧٠ - ٧١.

(٥) سورة الحديد: الآية: ٢٨.

(٦) سورة آل عمران: الآية: ١٢٠.

(٧) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٩٠.

١٧ - الكرم إنَّما يكون بالتقوى:

فعَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قال: "الْحَسَبُ الْمَالُ وَالْكَرَمُ التَّقْوَى"(١).

١٨ - المتقين يسهل لهم الله العلم:

قال - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: "وعد من الله تعالى - بأنَّ من اتقاه علمه، أي: يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانًا، أي: فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل"(٣).

١٩ - التقوى ثوابها الجنة:

قال - تعالى -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٤)، وقال - تعالى -: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٥)، وقال - تعالى -: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾(٦)، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(٧).

٢٠ - محبة الله تعالى:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٨).

قال الإمام الطاهر ابن عاشور - رحمه الله: "وجملة: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) تعليل للأمر بالاستقامة، وموقع (إنّ) أولها، للاهتمام وهو مؤذن بالتعليل؛ لأن (إنّ) في مثل

---

(١) الحاكم في المستدرك - كتاب النكاح - حديث رقم (٢٦٩٠) ٢/ ١٧٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣١٧٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٨٢.

(٣) تفسير القرطبى: ٣/ ٤٠٦.

(٤) سورة آل عمران: الآية: ١٣٣.

(٥) سورة الشعراء: الآية: ٩٠.

(٦) سورة ق: الآية: ٣١.

(٧) سورة القلم: الآية: ٣٤.

(٨) سورة التوبة: الآية: ٧.

هذا تغني غناء فاء، وقد أنبأ ذلك، التعليل، أنّ الاستقامة لهم من التقوى وإلاّ لم تكن مناسبة للإخبار بأنّ الله يحبّ المتّقين. عقب الأمر بالاستقامة لهم، وهذا من الإيجاز؛ ولأنّ في الاستقامة لهم حفظًا للعهد الذي هو من قبيل اليمين"[1].

٢١ - رحمة الله تعالى - في الدنيا والآخرة:

قال - تعالى -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقال - تعالى -: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

قال الإمام الفخر الرازي - رحمه الله: " قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا، وفيه ثلاثة أقوال: قيل اتقوا مخالفته على رجاء الرحمة، وقيل: اتقوا لترحموا، أي ليكون الغرض بالتقوى رحمة الله، وقيل: اتقوا لترحموا جزاء على التقوى"[4].

٢٢ - سبب لعون الله ونصره وتأييده:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[5]، وقال - تعالى -: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[6].

٢٣ - حصن الخائف وأمانه من كل ما يخاف ويحذر، من سوء ومكروه في الدنيا والآخرة:

قال - تعالى -: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[7].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٢٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ١٥٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية: ١٥٥.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ١٤/ ٥.

(٥) سورة النحل: الآية: ١٢٨.

(٦) سورة التوبة: الآية: ٣٦.

(٧) سورة الأعراف: الآية: ٣٥.

ب - ثمرات التقوى الآجلة:

إن المتأمل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يجد أن هناك العديد من الثمرات الآجلة في الآخرة للتقوى، منها: تكفير السيئات وعظيم الأجر في الجنات والنجاة من عذاب النار، والمرتبة العليا فوق الخلق يوم القيامة، ونيل الدرجة العليا في الجنة، وحسن العاقبة، والصداقة الرابحة في يوم القيامة، والصداقة الرابحة في يوم القيامة، الاستقبال الطيب من الملائكة يوم القيامة، المقام الأمين عند الله عزَّ وجلَّ -، الحشر مع وفد الرحمن - تبارك وتعالى -، وفيما يأتي بيان ذلك:

١ - تكفير السيئات وعظيم الأجر في الجنات والنجاة من عذاب النار:

قال - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يذهب عنهم المحذور، ويجزل لهم الثَّواب على العمل اليسير[2].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[3].

٢ - المرتبة العليا فوق الخلق يوم القيامة:

قال - تعالى -: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4].

---

(١) سورة الطلاق: الآية: ٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/ ١٥٢.

(٣) سورة المائدة: الآية: ٦٥.

(٤) سورة البقرة: الآية: ٢١٢.

٣ - نيل الدرجة العليا في الجنة:

قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[١]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾[٢].

٤ - حسن العاقبة:

قال - تعالى -: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٣].

قال الإمام الطاهر ابن عاشور - رحمه الله: "(وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) عطف على جملة (لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا) المعلّل بها أمره بالاصطبار للصلاة، أي إنا سألناك التقوى والعاقبة، وحقيقة العاقبة: أنها كل ما يعقب أمرًا ويقع في آخره من خير وشر، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير. فالمعنى: أنّ التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير، واللام للملك تحقيقًا لإرادة الخير من العاقبة لأنّ شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة، وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضًا للتقوى"[٤].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥].

٥ - الصداقة الرابحة في يوم القيامة:

قال - تعالى -: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٦].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي أعداء، يعادي بعضهم بعضًا ويلعن

(١) سورة القمر: الآيتان: ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة النبأ: الآية: ٣١.

(٣) سورة طه: الآية: ١٣٢.

(٤) التحرير والتنوير: ١٦/ ٣٤٣.

(٥) سورة القصص: الآية: ٨٣.

(٦) سورة الزخرف: الآية: ٦٧.

بعضهم بعضًا. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما"[1].

٦ - الاستقبال الطيب من الملائكة يوم القيامة:

قال - تعالى -: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته، وقال في حق الفريقين: ﴿وَسِيقَ﴾ بلفظ واحد، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين"[3].

٧ - المقام الأمين عند الله عزَّ وجلَّ -:

قال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾[4].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا فآمنوا وعملوا الصالحات بعد اجتناب الشرك والمعاصي في مجلس آمين لا يلحقهم فيه خوف بحال.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذا هو المقام الأمين[5].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٦/ ١٠٩.

(٢) سورة الزمر: الآية: ٧٣.

(٣) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢٨٤ وما بعدها.

(٤) سورة الدخان: الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: للجزائري ٥/ ١٩.

٨ - الحشر مع وفد الرحمن - تبارك وتعالى -:

قال - تعالى -: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[١].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: يخبر - تعالى - عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عمَّا عنه زجروهم، أنَّه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه، والوفد هم القادمون ركبانًا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأمَّا المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنَّهم يساقون عنفًا إلى النار[٢].

- وسائل تحقيق التقوى:

تتحقق التقوى بأمور كثيرة، منها: محبة الله عزَّ وجلَّ، ومراقبة الله عزَّ وجلَّ - في السِّر والعلانية، ومعرفة سبيل مغالبة الهوى ومجانبة الرديء وطاعة المولى سبحانه وتعالى، معرفة طرق الشيطان المريد في إضلال العبيد والحذر منها، وعداوة الشيطان لبنى الإنسان من وجوه عدة، ذكر الله عزَّ وجلَّ - على كلِّ حال، ومصاحبة الصالحين والعلماء العاملين بالكتاب والسُّنَّة، وتذكر الآخرة وعاقبة المتقين في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان ذلك:

١ - محبة الله عزَّ وجلَّ:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله: "فالمحبة شجرة في القلب، عروقها الذل للمحبوب وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا"[٣].

وقال ابن رجب - رحمه الله: "ومحبة الله سبحانه وتعالى - على درجتين:

---

(١) سورة مريم: الآية: ٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٦٨.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: للإمام ابن القيم، ١/ ٤٠٩، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢ - ١٩٩٢م.

أحدهما: فرض لازم، وهى أن يحب الله سبحانه وتعالى - محبة توجب له محبة ما فرضه الله عليه، وبغض ما حرمه عليه، ومحبة لرسوله المبلغ عنه أمره ونهيه، وتقديم محبته على النفوس والأهلين، والرضا بما بلغه عن الله من الدين، وتلقى ذلك بالرضى والتسليم، ومحبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة، وعمومًا لله عزَّ وجلَّ -، وبغض الكفار والفجار جملة وعمومًا لله عزَّ وجلَّ - وهذا القدر لابُدَّ منه في تمام الإيمان الواجب، ومن أخل بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذلك، قال الله عزَّ وجلَّ -: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1]، وكذلك ينقص من محبته الواجبة بحسب ما أخل به من ذلك، فإنَّ المحبة الواجبة تقتضى فعل الواجبات، وترك المحرمات.

الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهى أن ترتقي المحبة إلى محبة ما يحبه من نوافل الطاعات، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، وإلى الرضا بما يقدره ويقضيه ممَّا يؤلم النفوس من المصائب، وهذا أفضل مستحب مندوب إليه»[2].

أخرج البخاري في صحيحه عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: قال: "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[3] [4].

وقال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله: "اعلم أنَّ المحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى - ما لم يمتحنها بالعلامات، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة،

---

(١) سورة النساء: الآية: ٦٥.

(٢) مجموع رسائل ابن رجب: ٣/ ٣٠٤ وما بعدها.

(٣) سبق تخريجه ص٢٤٥.

(٤) فتح الباري: ١/ ٥٠ - ٥٩.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح"[1].

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله عزَّ وجلَّ -:

- قراءة القرآن بالتدبر، فإنَّه جامع لمنازل السائرين وأحوال العاملين.
- الإكثار من النوافل بعد الفرائض.
- إيثار محبوباته ﷺ على محبوبات النفس، يفعل ما يحبه، وترك ما يكرهه.
- مطالعة أسمائه وصفاته ومشاهدتها بالقلب، والتقلب في رياض معانيها.
- دوام ذكره سبحانه وتعالى - بالقلب وللسان، وعلى كل حال.
- تذكر نعمه وإحسانه وبره ولطفه بعبده، فالقلوب مفطورة على محبة من أحسن إليها.
- المناجاة في الثلث الآخر من الليل، وقت النزول الإلهي.
- مجالسة المحبين الصادقين واكتساب طريقتهم، والتأدب بآدابهم.
- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين رضا الرب.
- التفكر في مصنوعاته سبحانه وتعالى - الدالة على كمال صانعها، فالقلوب تحب الكمال.
- التطلع إلى ما أعده الله عزَّ وجلَّ - لأهل محبته في الجنات من الإكرام والإنعام.
- الاجتهاد في الطاعات وتكميلها وتحسينها.

٢ - مراقبة الله عزَّ وجلَّ - في السِّر والعلانية:

قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٣٠.

(٢) سورة النساء: الآية: ١.

وأنشد الإمام أحمد – رحمه الله:

إِذَا مَـا خَلَـوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًـا فَلَا تَقُلْ خَلَـوْتُ وَلَكِـنْ قُـلْ عَلَـيَّ رَقِيـبُ
وَلَا تَحْسَـبَنَّ اللـهَ يَغْفُـلُ سَـاعَةً وَلَا أَنَّ مَـا يَخْفَـى عَلَيْـهِ يَغِيـبُ

وقال وهيب بن الورد – رحمه الله: خف الله على قدرته عليك، واستحى منه على قدر قربه منك[1].

٣ – معرفة سبيل مغالبة الهوى ومجانبة الرديء وطاعة المولى سبحانه وتعالى:

قال – تعالى –: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

٤ – معرفة طرق الشيطان المريد في إضلال العبيد والحذر منها، وعداوة الشيطان لبني الإنسان من وجوه عدة؛ منها:

- أنَّه قد عادى آبانا الأول آدم – عليه السَّلام –، وإذا عادى الأصل فإنه سيعادي الفرع، وكما قيل: عدو جدك لا يودك.
- أنَّ عداوته لبني الإنسان بسبب الدين لا بسبب الدنيا، فهو يريد أن يضلهم ضلالًا بعيدًا ويأمرهم بالفحشاء والمنكر.
- أنَّ عداوته شديدة؛ لأنَّه يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما قال ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ)[3].
- أنَّ عداوته قوية تمكن منا؛ لأنَّه يرانا – هو وقبيله ولا نراه، قال – تعالى –: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ص ١٨١.

(٢) سورة النازعات: الآيات: ٣٧ – ٤١.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الأحكام – باب الشهادة تكون عند الحاكم – حديث رقم (٧٢٥٩) ٣/ ١٤٤٨، صحيح مسلم – كتاب السلام – باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرمًا له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به حديث رقم (٥٨٠٧) ٢/ ٩٤٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية: ٢٧.

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1] [2].

٥ – ذكر الله عزَّ وجلَّ – على كلِّ حال:

قال الله عزَّ وجلَّ –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[3].

وعن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى كِلِّ أَحْيَانِهِ)[4].

٦ – مصاحبة الصالحين والعلماء العاملين بالكتاب والسُّنَّة:

من أهمِّ الأمور في تحقيق التقوى، والمواظبة عليها مصاحبة الصالحين والأتقياء الذين يخشون الله تبارك وتعالى –، ويقبلون على طاعته، ويخافون من عواقب الذنوب والمعاصي، وقد بيَّن لنا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من سنته الشريفة أهمية الصحبة الصالحة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: (الْمَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)[5].

وبيّن النبي ﷺ أنَّ الإنسان يوم القيامة يحشر مع من أحب، فمن أحبَّ الصالحين وأهل التقوى حشر معهم بفضل الله تعالى – وكرمه ومنته، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ: (الْمَرْءُ مَعْ مَنْ أَحَبَّ)[6].

---

(١) سورة فاطر: الآية: ٦.

(٢) الجامع في شرح الأربعين النووية: ٢/ ٧٢٦ – ٧٣٥.

(٣) سورة الرعد: الآية: ٢٨.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الحيض – باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها – حديث رقم (٨٥٢) ١/ ١٥٩.

(٥) المستدرك للحاكم – كتاب البر والصلة – حديث رقم (٧٣١٩) ٤/ ١٨٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٥٤٥).

(٦) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب علامة حب الله عزَّ وجل – حديث رقم (٦٢٣٨) ٣/ ١٢٥٧.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[1].

٧ - تذكر الآخرة وعاقبة المتقين في الدنيا والآخرة:

قال - تعالى -: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

قوله تعالى -: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: قال الضَّحَّاك: الجنة، وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علوا هو من لم يجزع من ذلها، ولم ينافس في عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غدًا ألزمهم لذل اليوم[3].

من فوائد التقوى[4]:

(١) معيّة اللّه تعالى للمتّقين.

(٢) البشرى بالتّكريم للمتّقين.

(٣) تكفير الذّنوب وتعظيم الأجر.

(٤) الوعد بالمغفرة وزوال الخوف من النّفوس.

(٥) اليسر والسّهولة في الأمر.

(٦) في التّقوى تكفير للذّنوب وتعظيم للأجر من اللّه سبحانه وتعالى -.

(٧) العون والنّصرة من اللّه للمتّقين.

(٨) الأمن من البليّة ونيل الوصال والقربة.

(٩) عزّ الفوقيّة على سائر الخلق.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب المرء مع من أحب - حديث رقم (٦٨٨٨) ٢/ ١١١٧.

(٢) سورة القصص: الآية: ٨٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٢٠.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٤/ ١١٢٠.

(١٠) الخروج من الهمّ والمحنة والوعد بالرّزق الواسع.

(١١) النّجاة من العذاب والعقوبة.

(١٢) الفوز بالجنّة.

(١٣) التّوفيق والشّهادة لهم بالصّدق.

(١٤) محبّة اللّه للمتّقين.

ومن خلال ما تقدم: يتبين لنا أن تقوى الله عزَّ وجلَّ - هي جماع كل خير، وهي أساس السعادة والنجاة والفلاح في الدنيا وفي الآخرة، فما أحوجنا إلى تحقيق تقوى الله عزَّ وجلَّ - كما أمرنا - سبحانه وتعالى -، وكما علمنا نبينا ﷺ، جعلنا الله وإياكم من المتقين اللهم آمين.

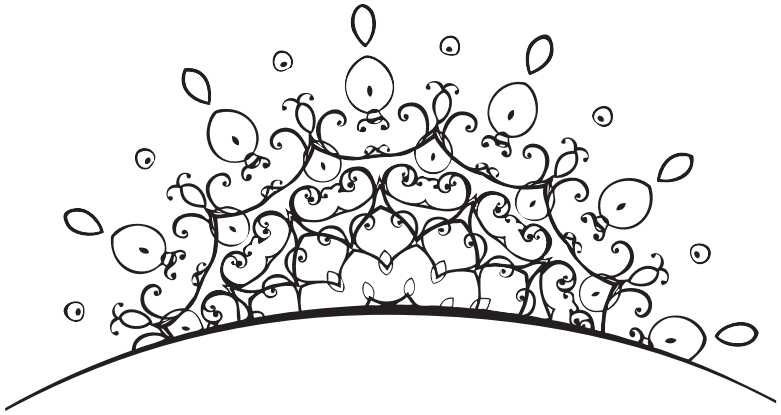

القسم الرابع

الحقوق الإسلامية

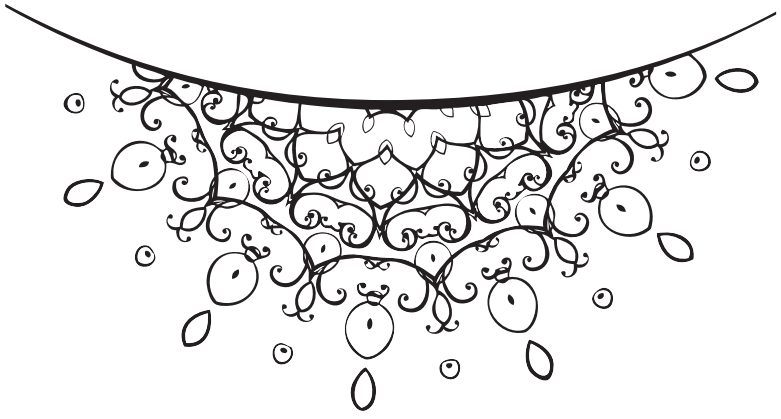

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا[1]

إنَّ المتأمِّل في كتاب الله تعالى - يجد أنَّ المولى - سبحانه قد رفع شأن الوالدين، وأمر بالإحسان إليهما، وحذَّر من عقوقهما، والإساءة إليهما، وبيَّن أنَّ حقَّهما من أعظم الحقوق بعد حقِّه جلَّ وعلا -، وجعل الأمر بالإحسان إليهما بعد الأمر بتوحيده سبحانه وتعالى - ؛ فقال - سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2].

وقال - جلَّ وعلا -: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[3].

كما نجد - أيضًا - أنَّه سبحانه قرن شكره بشكر الوالدين؛ حيثُ قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[4].

فأحقُّ النَّاس بعد الخالق المنَّان بالشُّكر والإحسان، والتزام البرِّ والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره، وهما الوالدان[5].

ونجد سيدنا ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يقرر أنَّ هناك ثلاث آيات في القرآن نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل واحدة بغير قرينتها؛ منها قول الله تعالى -: «أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ»، فمن شكر لله ولم يشكر لوالديه لم يتقبل منه شيء[6].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، السنة السادسة والعشرين، العدد (٤٧٦٦)، ٢ من رجب ١٤٢٩هـ ٢٠ من مارس ٢٠١٨م.

(٢) سورة النساء: الآية: ٣٦.

(٣) سورة الإسراء: الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة لقمان: الآية: ١٤.

(٥) تفسير القرطبي: ٥/ ١٨٢.

(٦) تنبيه الغافلين: للإمام الشيخ/ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت:٣٧٣هـ)، ص٦٦، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: عبداللطيف حسن عبدالرحمن.

والنَّاظر في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يجد الأحاديث الكثيرة التي تُبيِّن فضل بر الوالدين والإحسان إليهما، والتحذير من عقوقهما، ومنها أنَّه من أحبِّ الأعمال إلى الله، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(١).

كما أوصانا بحسن صحبة الوالدين، وبيّن أنَّ برَّ الأمِّ مقدم على برِّ الأب، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(٢).

وبيّن أنَّ بر الوالدين سبب في تفريج الكربات، ونجد ذلك واضحًا جليًّا في قصة أصحاب الغار، التي أخرجها البخاري في صحيحه، وفيها أنَّ أحدهم دعا الله بعمله الصالح، وهو بره والديه؛ حيث قال: "... اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي، وَإِنَّهُ نَاءَ بِيَ الشَّجَرُ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالحِلاَبِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصِّبْيَةِ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ..." (٣).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل الصلاة لوقتها - حديث رقم (٥٢٦) ١/ ١٠٦، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال - حديث رقم (٢٦٣) ١/ ٥١.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب: من أحق الناس بحسن الصحبة - حديث رقم (٦٠٣٧) ٣/ ١٢٢٤، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب بر الوالدين وأنهما أحق به حديث رقم (٦٦٦٤) ٢/ ١٠٨٥.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب إجابة دعاء من بر والديه حديث رقم (٦٠٤٠) ٣/ ١٢٢٤، صحيح مسلم - كتاب الرقاق - باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال - حديث رقم (٧١٢٥) ٢/ ١١٥٣.

كما أخبرنا أنَّ رضا الربِّ - سبحانه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما، وذلك كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنَّ النبي ﷺ قال: "رِضَاءُ اللَّهِ فِي رِضَاءِ الْوَالِدِ وَسَخَطُ اللَّهِ في سخط الوالد"(١).

ومن عظيم برِّ الوالدين، والأمر بالإحسان إليهما نجد أنَّ النبي ﷺ قدمه على الجهاد في سبيل الله، وذلك في أحاديث كثيرة؛ منها ما جاء عن عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال، قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أُجَاهِدُ؟ قَالَ: «لَكَ أَبَوَانِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(٢).

وجاء أحدهم إلى النبي ﷺ فقال: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فَجِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ، قَالَ: «أَلَكَ وَالِدَةٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اذْهَبْ فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا»(٣).

كما أنَّ برَّ الوالدين لا يقتصر على حال حياتهما، ولكنَّه يمتد بعد الوفاة أيضًا، وقد وضح ذلك النبي ﷺ في أحاديث كثيرة؛ منها ما جاء عن أبي أسيد "مالك بن ربيعة الساعدي" قال: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ، وَأَنَا عِنْدَهُ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَوَيَّ قَدْ هَلَكَا، فَهَلْ بَقِيَ لِي بَعْدَ مَوْتِهِمَا مِنْ بِرِّهِمَا شَيْءٌ؟، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عُهُودِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ رَحِمِهِمَا الَّتِي لَا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا»، قَالَ الرَّجُلُ: مَا أَكْثَرَ هَذَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَطْيَبَهُ، قَالَ: «فَاعْمَلْ بِهِ»(٤).

وحذَّرنا من عقوق الوالدين والإساءة إليهما، وبيَّن أنَّه كبيرة من الكبائر، وذلك كما في الصحيحين عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا،

---

(١) صحيح ابن حبان - باب حق الوالدين - حديث رقم (٤٢٩) ٢/ ١٧٢.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب لا يجاهد إلا بإذن الأبوين - حديث رقم (٦٠٣٨) ٣/ ١٢٢٤، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب بر الوالدين وأنهما أحق به حديث رقم (٦٦٦٨) ٢/ ١٠٨٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب البر والصلة - حديث رقم (٧٢٤٨) ٤/ ١٦٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الألباني: حسن صحيح. ينظر: صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٤٨٥).

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الأدب - باب صل من كان أبوك يصل - حديث رقم (٣٧٩٥) ١/ ٥٢٨، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه حديث رقم (٣٧٣١).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ"[1].

وقد علق الإمام ابن حجر الهيتمي - رحمه الله على هذا الحديث فقال: "فانظر كيف قرن الإساءة إليهما، وعدم البر والإحسان إليهما بالإشراك بالله تعالى - وأكد ذلك بأمره بمصاحبتهما بالمعروف، وإن كانا يجاهدان الولد على أن يشرك بالله تعالى -، قال - تعالى -: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾[2].

فإذا أمر الله تعالى - بمصاحبة هذين بالمعروف، مع هذا القبح العظيم الذي يأمران ولدهما به، وهو الإشراك بالله تعالى -، فما الظنُّ بالوالدين المسلمين لا سيَّما إن كانا صالحين، تالله إنَّ حقَّهما لمن أشدِّ الحقوق وآكدها، وإنَّ القيام به على وجهه أصعب الأمور وأعظمها، فالمُوَفَّق من هُدِي إليه، والمحروم حقًّا من صُرِف عنه [3].

ومن فوائد (بر الوالدين)[4]: أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وأفضل العبادات وأجلّ الطّاعات، وطريق موصّل إلى الجنّة، وسبب في تفريج الكرب.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب إثم من أشرك بالله حديث رقم (٧٠٠٥) ٣/ ١٣٩٦.

(٢) سورة لقمان: الآية: ١٥.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر: ٢/ ٦٥١.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٣/ ٧٧٩.

صلةُ الأرحامِ تزيدُ في الأعمار وتُباركُ الأرزاقَ

لقد حرص الإسلام على تقوية الروابط، والأواصر بين الأقارب والأرحام، ومن ذلك أنْ أوجبَ الإسلام صلةَ الأرحام وحرّم قطيعتها، وبيّن أن الرحم تزيد في الأعمار وتبارك الأرزاق، وهي سببٌ من أسباب دخول الجنة، وأنَّ قطيعة الرحم كبيرة من الكبائر، ولذلك يجب على المسلم أن يجتهد في صلة أرحامه بكل ما يستطيع من البر، والإحسان، والمودة، وأنْ يحذر من الإساءة إليهم وقطيعتهم، وفيما يأتي بيان مكانة صلة الرحم في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وما هي الرحم التي تجب صلتها وتحرم قطيعتها، وبيان خطورة قطيعة الرحم.

صلة الرحم في القرآن الكريم:

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أمرنا بصلة الأرحام، وحذرنا من قطيعتها، وبيّن - سبحانه أنها من الحقوق الإسلامية التي أرساها ديننا الإسلامي الحنيف سواء كانت هذه الرحم مسلمة أم غير مسلمة، وقد ورد الأمر بصلة الأرحام في العديد من المواضع في القرآن الكريم، منها: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ يقول: اتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام وصلوها.

وعن الضحاك قال: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها[2].

وقال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

(١) سورة النساء: الآية: ١.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٥٤.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾[1].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأنَّ لهم عقبى الدار، وهي العاقبةُ والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدَّث كذَب، وإذا ائتُمن خان ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، ويراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عزَّ وجلَّ - ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه»[2].

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهر في صلة الأرحام وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ قيل: في قطع الرحم، وقيل: في جميع المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سوء الحساب: الاستقصاء فيه، والمناقشة، ومن نوقش الحساب عُذّب، وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: معنى يصلون ما أمر الله به: الإيمان بجميع الكتب، والرسل كلهم، الحسن: هو صلة محمد ﷺ، ويحتمل رابعا: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ويخشون ربهم فيما أمرهم بوصله، ويخافون سوء الحساب في تركه، والقول الأول يتناول هذه الأقوال»[3].

---

(١) سورة الرعد: الآيات: ١٩ - ٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٢٠ وما بعدها.

(٣) تفسير القرطبي: ٩/ ٣١٠.

صلة الرحم في السنة النبوية:

إن الناظر في السنة النبوية المطهرة يجد أن هناك العديد من الفضائل لصلة الرحم، منها: أن صلة الرحم تزيد في العمر، وتبارك في الرزق، وأنها دليل على الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن من وصل رحمه وصله الله عزَّ وجلَّ -، وأن أفضل الصدقة، الصدقة على الأرحام، ومضاعفة ثواب الصدقة على ذوي الأرحام، وأن صلة الرحم سبب من أسباب دخول الجنة، وغير ذلك من الفضائل الكثير، وفيما يأتي بيان هذه الفضائل بشيء من التفصيل:

١ - صلة الرحم تزيد في العمر، وتبارك في الرزق:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَو يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[(١)].

قال الإمام الطبري - رحمه الله: فإن قيل: كيف ينسأ له في أجله، وقد قال تعالى: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وقال النبي ﷺ: (إن ابن آدم يكتب في بطن أمه أثره وأجله ورزقه)؟

فالجواب: أنه إن فعل ذلك به جزاء له على ما كان له من العمل الذي يرضاه، فإنه غير زائد في علم الله تعالى شيئًا لم يكن له عالمًا قبل تكوينه، ولا ناقص منه شيئًا، بل لم يزل عالمًا بما العبد فاعل، وبالزيادة التي هو زائد في عمره بصلة رحمه، والنقص الذي هو بقطعه رحمة من عمره ناقص قبل خلقه لا يعزب عنه شيء من ذلك[(٢)].

وقال الإمام الخطابي - رحمه الله: قوله: (ينسأ له في أثره) معناه يؤخر في أجله ويسمى الأجل أثرًا؛ لأنه تابع للحياة وسابقها[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم - حديث رقم (٦٠٥١) ٣/ ١٢٢٦، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - حديث رقم (٦٦٨٨) ٢/ ١٠٩٠.

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٠٤.

(٣) المرجع السابق: ٩/ ٢٠٤.

وعن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – أن النبي ﷺ قال: "صلةُ الرحمِ، وحسنُ الخلقِ، وحسنُ الجوارِ، يَعْمُرْنَ الدِّيارَ، ويَزِدْنَ في الأَعْمَارِ"(١).

وعن عمرو بن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "صِلةُ القرابةِ مَثراةٌ في المال، مَحبَّة في الأَهلِ، مَنسأةٌ في الأجلِ"(٢).

ومما قاله العلماء في معنى زيادة العمر وبسط الرزق الواردين في هذه الأحاديث ما يلي:

١ – أن المقصود بالزيادة أن يبارك الله تعالى – في عمر الإنسان الواصل، ويهبه قوة في الجسم، ورجاحة في العقل، ومضاء في العزيمة، فتكون حياته حافلة بجلائل الأعمال.

٢ – أن الزيادة على حقيقتها فالذي يصل رحمه يزيد الله له في عمره، ويوسع له في رزقه.

قال الإمام النووي – رحمه الله: "وأما التأخير في الأجل، ففيه سؤال مشهور، وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة، لا تزيد ولا تنقص، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣).

وأجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها:

الأول: أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، وبالتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة، وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان – التاسع والثلاثون من شعب الإيمان – السادس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في صلة الأرحام حديث رقم (٧٩٦٩) ٦/ ٢٢٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٦٧).

(٢) الطبراني في المعجم الأوسط – باب العين – باب من اسمه محمود حديث رقم (٧٨١٠) ٨/ ١٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٦٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية:٣٤.

علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[1].

فبالنسبة إلى علم الله تعالى - وما سبق له قدرة لا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة وهو مراد الحديث»[2].

فصلة الرحم تكون بالزيارة والعطف، والسؤال عن الأقارب، والكتابة إليهم والاستفسار عنهم إذا كانوا في جهة بعيدة، وتذكرهم في الأعياد والمواسم، وإرسال بعض الهدايا لهم، ومساعدتهم عند الحاجة. وهي واجبة في الإسلام، وثوابها كثير عند الله تعالى -[3].

٢ - صلة الرحم دليل على الإيمان بالله واليوم الآخر:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[4].

٣ - من وصل رحمه وصله الله عزَّ وجلَّ -:

فعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أن النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: أَنَا اللَّهُ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ»[5].

---

(١) سورة الرعد: الآية: ٣٩.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ١٩/ ٨٨.

(٣) الإسلام منقذ للإنسانية: محمد عطية الإبراشي، ص ٣١.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب إكرام الضيف حديث رقم (٦٢٠٦) ٣/ ١٢٥٠.

(٥) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في قطيعة الرحم حديث رقم (٢٠٣١) ٢/ ٥٠١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٠٧)، وصحيح الجامع حديث رقم (٤٣١٤).

٤ - أفضل الصدقة الصدقة على الأرحام:

فعن أم كلثوم بنت عقبة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أن النبي ﷺ قال: "أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ على ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ"(١).

ومعنى الحديث: أن أفضل الصدقة على ذي الرحم الذي أضمر العداوة في كشحه؛ لأنها تكون صلة وصدقة لذي رحم مقاطع.

قال الإمام ابن عبد البر - رحمه الله: "قيل: في تأويل الكاشح ها هنا القريب، وقيل: المبغض المعادي، فإنه طوى كشحه على بغضه وعداوته، وهو الصحيح والله أعلم"(٢).

وقال الإمام المناوي - رحمه الله: قوله ﷺ:(أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح) فالصدقة عليه أفضل منها على ذي رحم غير كاشح لما فيه من قهر النفس للإذعان لمعاديها"(٣).

٥ - مضاعفة ثواب الصدقة على ذوي الأرحام:

فعن سلمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»(٤).

قال الإمام المناوي - رحمه الله: "وفئة التصريح بأن العمل قد يجمع ثواب عملين لتحصيل مقصودهما به، فلعامله سائر ما ورد في ثوابهما بفضل الله ومنته"(٥).

---

(١) الحاكم في المستدرك - كتاب الزكاة حديث رقم (١٤٧٥) ١/ ٥٦٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١١١٠).

(٢) التمهيد: ١/ ٢٠٧.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ٣٧٠.

(٤) سنن الترمذي - كتاب الزكاة - باب ما جاء في فضل الصدقة على ذي القرابة حديث رقم(٦٦٠) ١/ ١٨٥، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٨٩٢) وصحيح الجامع حديث رقم (٣٨٥٨).

(٥) فيض القدير: ٤/ ٢٥٣.

٦ - صلة الرحم سبب من أسباب دخول الجنة:

فعن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلاَمَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ»[١].

وقال ﷺ: «أطِبِ الكلام، وأَفْشِ السلام، وصِلِ الأرحام، وصَلِّ بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»[٢].

٧ - صل رحمك وإن قطعك:

فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ. فَقَالَ: يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ"[٣].

وقوله: (صِلْ مَنْ قَطَعَكَ) بأن تفعل معه ما تعد به واصلًا، فإن انتهى فذاك، وإلا فالإثم عليه"[٤].

وعن عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»[٥].

قال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "يعني: ليس الواصل رحمه من وصلهم مكافأة لهم على صلة تقدمت منهم إليه فكافأهم عليها بصلة مثلها، وقد روي هذا المعنى عن

---

(١) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب أفشوا السلام - حديث رقم (٢٦٧٣) ٢/ ٦٣٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٨٥) وصحيح الجامع حديث رقم (٧٨٦٥).

(٢) أبو نعيم في الحلية ٩/ ٥٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠١٩).

(٣) أحمد في مسنده حديث رقم (١٧٣٣٤) ٢٨/ ٥٧٠، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٥٣٦).

(٤) فيض القدير: ٤/ ٢٥٩.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب ليس الواصل بالمكافئ حديث رقم (٦٠٥٨) ٣/ ١٢٢٧.

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ليس الواصل أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن الواصل أن تصل من قطعك". هذا حقيقة الواصل الذي وعد الله عباده عليه جزيل الأجر"[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: «يا رسولَ الله، إن لي قرابة، أصلِهُم ويقطعونني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئُون إليَّ، وأحلُم عنهم، ويجهلون عليَّ؟ قال: لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهُم الملَّ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دُمتَ على ذلك»[2].

قال الإمام النووي – رحمه الله: "ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه، وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم؛ لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف المل، وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم، والله أعلم"[3].

فالرسول النبيل ﷺ يحث على أن تكون الصلة بين الأقارب مستمرة، فإذا قطعها أحدهم لسبب من الأسباب: كالغيرة، والحقد، والنزاع المالي، وصلها المسلم الكامل. فالصلة لا تكون بالمكافأة المالية فحسب، ولكنها تكون بالعمل على بقائها، وإزالة ما يحدث من نزاع أو خلاف. فأكثر الطاعات ثوابًا صلة الأقارب، والعطف عليهم[4].

---

(١) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٠٩ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها حديث رقم (٦٦٨٩) ٢/ ١٠٩٠.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٦/ ١١٥.

(٤) الإسلام منقذ للإنسانية، محمد عطية الإبراشي، ص٣١ وما بعدها.

- الرحم التي تجب صلتها وتحرم قطيعتها:

اختلف العلماء في حدِّ الرحم التي تجب صلتها، وتحرم قطيعتها على قولين:

الأول: قالوا بأن الرحم التي تجب صلتها خاصة بكل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما ذكرًا، والآخر أنثى، حرمت مناكحتها، وعلى هذا القول لا يدخل أولاد الأعمام، ولا أولاد الأخوال في الأرحام.

الثاني: قالوا بأن الرحم تطلق على الأقارب الذين يجمعك وإياهم نسب واحد، سواء كان ذا محرم، أم بينك وبينه توارث، أم لا، وهذا هو الصواب الذي رجحه النووي، والقرطبي، وابن حجر، وغيرهم، ويستدل بصحة هذا القول بحديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: (إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا)[1].

فالرحم التي توصل ثلاثة أنواع:

١ - **رحم عامة:** وهم من تربطك بهم علاقة الإسلام، وهؤلاء كما يقول الإمام القرطبي: يجب مواصلتهم بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة لهم وترك مضارتهم.

٢ - **رحم خاصة:** وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، وتجب لهم من الحقوق ما للعامة وزيادة كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن أحوالهم، وتعاهدهم في أوقات ضروراتهم.

٣ - **رحم القريب غير المسلم:** فأجاز الإسلام صلتهم بالبر، والإحسان إليهم، وليس ذلك بمحرم ولا منهي عنه؛ لأن مجرد فعل المعروف معهم وصلتهم لا يستلزم المودة، والتحابب المنهي عنه، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر حديث رقم (٦٦٥٧) ٢/ ١٠٨٣.

(٢) سورة الممتحنة: الآية: ٨.

قال العلماء: وحقيقة الصلة العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى - عبارة عن لطفه بهم، ورحمته إياهم، وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته.

وقال القاضي عياض - رحمه الله: "ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة.

وقال الإمام النووي - رحمه الله: "واختلفوا في حَدِّ الرحم التي تجب صلتها، فقيل: هو كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما ذكرًا، أو أنثى حرمت مناكحتها، وقيل: هو عام في كل رحمٍ من ذوي الأرحام في الميراث، يستوي في ذلك المحرم وغيره وهو الصواب"(١).

وقال أيضًا - رحمه الله: "صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيادة والسلام، وغير ذلك"(٢).

التحذير من قطيعة الرحم، وبيان خطورة ذلك:

لقد بينت فيما سبق فضل صلة الرحم في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة، والرحم التي تجب صلتها، وتحرم قطيعتها، وفيما يأتي بيان خطورة قطيعة الرحم، وتحذير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من قطيعة الرحم، وبيان أنها كبيرة من الكبائر، وأن من قطع رحمه قطعه الله عزَّ وجلَّ -، وأنه لا يدخل الجنة قاطع رحم كما أخبر بذلك النبي ﷺ، ومما جاء في القرآن الكريم في وعيد قطيعة الرحم قول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أمَا ترضين أنْ

(١) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١١٣.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٠١.

(٣) سورة محمد: الآيتان: ٢٢، ٢٣.

أَصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطعَكِ، قالت: بلى، قال: فذاك لكِ، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[2].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: "لأن البغي من الكبر، وقطيعة الرحم من الاقتطاع من الرحمة، والرحم القرابة ولو غير محرم بنحو إيذاء أو صد أن هجر فإنه كبير كما يفيده هذا الوعيد الشديد، أما قطيعتها بترك الإحسان فليس بكبير. قال الحليمي: بيّن بهذا الخبر أن الدعاء بما فيه إثم غير جائز؛ لأنه جرأة على الله، ويدخل فيه ما لو دعا بشرٍ على من لا يستحقه أو على نحو بهيمة، وقال في الإتحاف: فيه تنبيه على أن البلاء بسبب القطيعة في الدنيا لا يدفع بلاء الآخرة ولو لم يكن إلا حرمان مرتبة الواصلين"[3].

وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» قال سفيان: يعني قاطع رحم"[4].

قال الإمام النووي – رحمه الله: "هذا الحديث يتأول تأويلين سبقا في نظائره في كتاب الإيمان أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد في النار، ولا يدخل الجنة أبدًا، والثاني: معناه ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى"[5].

---

(١) سورة محمد: الآيتان: ٢٢،٢٣.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب النهى عن البغي حديث رقم (٤٩٠٤) ٢/ ٨٢٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (٤٩٠٢)، وصحيح الجامع حديث رقم (٥٧٠٤).

(٣) فيض القدير: ٥/ ٦١١.

(٤) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها حديث رقم (٦٦٨٤) ٢/ ١٠٩٠.

(٥) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١١٣ وما بعدها.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ)[1]. أي: قريب بنحو إساءة أو هجر، فعمله لا ثواب فيه، وإن كان صحيحًا، وسبق أنه لا تلازم بين الصحة وعدم القبول، وهذا وعيد شديد يفيد أن قطعها كبيرة أي: إن كان بما ذكر بخلاف قطعها بترك الإحسان أو نحوه، فليس بكبيرة، بل ولا صغيرة كما قاله العلامة الولي العراقي..."[2].

وروي عن محمد الباقر أن أباه زين العابدين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: لا تصاحب قاطع الرحم، فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله في ثلاثة مواضع:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3].

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[4].

٣ - ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾[5].

آية سورة القتال: اللعن فيها صريح، والرعد: اللعن فيها بطريق العموم؛ لأن ما أمر الله به أن يوصل يشمل الأرحام وغيرها، والبقرة: اللعن فيها بطريق الاستلزام، إذ هو من لوازم الخسران، وقد نقل الإمام القرطبي - رحمه الله في تفسيره اتفاق الأمة على وجوب صلة الرحم وحرمة قطعها[6].

---

(١) أحمد في مسنده حديث رقم (١٠٢٧٢) ١٦/ ١٩١، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٥٣٨).

(٢) فيض القدير: ٢/ ٥٤٠.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٧.

(٤) سورة الرعد: الآية: ٢٥.

(٥) سورة محمد: الآية: ٢٢، ٢٣.

(٦) الزواجر عن اقتراف الكبائر: ٢/ ١٣٨.

من فوائد (صلة الرحم)[1]:

(١) علامة كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) تحقّق السّعة في الأرزاق والبركة في الأعمار.

(٣) اكتساب رضى الرّبّ ثمّ محبّة الخلق.

(٤) تقوية أواصر العلاقات الاجتماعيّة بين أفراد الأسرة الواحدة والأسر المرتبطة بالمصاهرة والنّسب حتّى يعمّ المجتمع كلّه.

(٥) استصحاب معيّة النّصر، والتّأييد من اللّه القويّ العزيز للواصل.

(٦) للأرحام حقّ وإن كانوا كفّارا، أو فجّارا، أو مبتدعة.

(٧) تقوّي الصّلة بقرب العلاقة وهي للأقرب أقوى منها للأبعد.

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٧/ ٢٦٣٢.

تَذْكِيرُ الأَبْرارِ بِحُقُوقِ الجَارِ

من الحقوق الإسلامية التي أوصت بها شريعتُنا الإسلاميةُ الغرّاءُ حقَّ الجَارِ، والوصيةَ به، والإحسانَ إليه، وحذَّرت من الإساءة إليه، أو التعرضَ له بسوءٍ، وقد جاء ذلك واضحًا في العديد من آياتِ القرآن الكريم، وأحاديث النبيِّ ﷺ في السنة النبوية المطهرة، وفيما يأتي بيانُ وصيةِ القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة بالجار، وحقوقه في الإسلام.

الوصيةُ بالجار في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة.

وقال بعضهم: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني المسلم، ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني المرأة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ يعني الرفيق في السفر[2].

الوصيةُ بالجار في السنة النبوية:

إنِّ المتأمل في السنة النبوية المطهرة يجد أن هناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي أمر فيها النبي ﷺ بالإحسان إلى الجار، وحذر من الإساءة إليه، وبيّن أن له حقوقًا كثيرة

---

(١) سورة النساء: الآية: ٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٩٨.

منها: الإحسان إليه، وكف الأذى عنه، واحتمال الأذى منه، ومشاركته في الأفراح، ومواساته في الأحزان، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن ابن عمر وعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قالا: قال رسول الله ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[1].

قوله ﷺ: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ): قال العلائي - رحمه الله: الظاهر أن المراد جار الدار لا جار الجوار؛ لأن التوارث كان في صدر الإسلام بجوار العهد ثم نسخ (حَتَّى) أنه لمَّا أكثر على في المحافظة على رعاية حقه (ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) أي: سيحكم بتوريث الجار من جاره بأن يأمرني عن الله به.

قيل: بأن يجعل له مشاركة في المال، بفرض سهمٍ يعطاه مع الأقارب، أو بأن ينزل منزلة من يرث بالبر والصلة.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله: "والأول أولى؛ لأن الثاني استمر، والخبر مشعر بأن التوريث لم يقع، فمن التزم شرائع الإسلام تأكد عليه إكرام جاره لعظيم حقه"[2].

وقال أيضًا: "أي: يأمر عن الله بتوريث الجار من جاره، واختلف في المراد بهذا التوريث فقيل: يجعل له مشاركة في المال بفرض سهم معطاه مع الأقارب، وقيل: المراد أن ينزل منزلة من يرث بالبر والصلة، والأول أظهر"[3].

وقال ابن أبي جمرة - رحمه الله: "الميراث على قسمين حسي ومعنوي فالحسي هو المراد هنا، والمعنوي ميراث العلم، ويمكن أن يلحظ هنا أيضًا فإن حق الجار على الجار أن يعلمه ما يحتاج إليه، والله أعلم"[4].

وقال الإمام ابن حجر - رحمه الله: "واسم الجار يشمل: المسلم، والكافر، والعابد، والفاسق، والصديق، والعدو، والغريب، والبلدي، والنافع، والضار، والقريب

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب الوصية بالجار - حديث رقم (٦٠٨٢) ٣/ ١٢٣١، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه حديث رقم (٦٨٥٢) ٢/ ١١١٢.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: ٥/ ٥٧١.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ٤٤١.

(٤) المرجع السابق: ١٠/ ٤٤١.

والأجنبي، والأقرب دارًا، والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأول كلها، ثم أكثرها وهلم جرًا إلى الواحد وعكسه"[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الأصحاب عند الله: خَيْرُهم لصاحبه، وخَيْرُ الجيران عند الله: خيرُهم لجاره»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[3].

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله: "قوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" المراد بقوله: يؤمن الإيمان الكامل، وخصه بالله واليوم الآخر إشارة إلى المبدأ والمعاد أي: من آمن بالله الذي خلقه وآمن بأنه سيجازيه بعمله فليفعل الخصال المذكورات"[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ: قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جارُه بَوائِقَهُ»[5]، والبوائق: الغوائل والشرور، والمفرد: بائقة.

قال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "هذا الحديث شديد في الحض على ترك أذى الجار، ألا ترى أنه عليه السلام أكد ذلك بقسمه ثلاث مرات أنه لا يؤمن من لا يؤمن جاره بوائقه، ومعناه أنه لا يؤمن الإيمان الكامل، ولا يبلغ أعلى درجاته من كان بهذه الصفة، فينبغي لكل مؤمن أن يحذر أذى جاره، ويرغب أن يكون في أعلى درجات الإيمان،

(١) فتح الباري: ١٠/ ٤٤١.

(٢) الحاكم في المستدرك - كتاب البر والصلة حديث رقم (٧٢٩٥) ٤/ ١٨١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي قي التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٢٧٠)، وصحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٥٦٨).

(٣) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان حديث رقم (٦٥٥٣) ٣/ ١٣١٤.

(٤) فتح الباري: ١٠/ ٤٤٦.

(٥) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تحريم إيذاء الجار حديث رقم (١٨١) ١/ ٤٠.

وينتهي عما نهاه الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه، وقال أبو حازم المنزي: كان أهل الجاهلية أبر بالجار منكم هذا قائلهم يقول: ناري ونار الجار واحدة، وإليه قبلي القدر ما ضر جارًا لي أجاوره أن لا يكون لبابه سِتر أعمى إذا ما جورتي برزت حتى يواري جارتي الخدر"[1].

قوله: (باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه)، وفيه: "والله لا يؤمن"، وقد حمل هذا على كمال الإيمان، وهو في موقعه؛ لأنه خبر عنه بعد الإيمان، فلا يصح على إطلاقه، وكذا حمل قوله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، وأمثاله على كمال الإيمان، وهذا فيما يظهر تأويل في غير موضعه لأن المطلوب الأمر، أو النهي وكل منهما متوجه إلى المؤمنين كلهم، ولا يختص بهما كامل الإيمان بل ناقص الإيمان أولى بالأمر والنهي من الكامل، فافهم"[2].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:«يَا أبا ذَر، إذا طَبَخْتَ مَرَقَة فَأَكثِرْ مَاءَها، وتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ منها»[3].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: "فحَضَّ عليه السلام على مكارم الأخلاق؛ لما رُتِّبَ عليها من المحبة، وحسن العشرة، ودفع الحاجة والمفسدة؛ فإن الجار قد يتأذى بقتار قِدْرِ جاره، وربما تكون له ذريةٌ فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لا سيما إن كان القائم ضعيفًا، أو أرملةً، فتعظم المشقة، ويشتد منهم الألم والحسرة"[4].

وعن الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا ؟ قَالُوا: حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، قَالَ: فَقَالَ:

---

(١) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٢٢.

(٢) حاشية السندي على صحيح البخاري، محمد بن عبد الهادي السندي المدني، الحنفي، ٤/ ٢٧، ط/ دار الفكر، بيروت.

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه حديث رقم (٦٨٥٥) ٢/ ١١١٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ١٨٥.

مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ قَالُوا: حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: لأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ:« أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:« أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ». قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ:« أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»[2].

قال المهلب – رحمه الله: "في حديث عبد الله ترتيب الذنوب في العظم، وقد يجوز أن يكون بين الذنبين المرتبين ذنب غير مذكور، وهو أعظم من المذكور، وذلك أنه لا خلاف بين الأمة أن عمل قوم لوط أعظم من الزنا، وكان ﷺ إنما قصد بالتعظيم من الذنوب إلى ما يخشى مواقعته وبه الحاجة إلى بيانه وقت السؤال كما فعل في الإيمان بوفد عبد القيس وغيرهم، وإنما عظم الزنا بحليلة الجار، وإن كان الزنا عظيمًا؛ لأن الجار له من الحرمة والحق ما ليس لغيره، فمن لم يراع حق الجوار فذنبه مضاعف؛ لجمعه بين الزنا وبين خيانة الجار الذي وصى الله تعالى – بحفظه"[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيلَ: يا رسولَ الله إنَّ فُلانةَ تُصلي الليلَ، وتصومُ النهار وفي لسانها شيءٌ تؤذي جيرانها سليطة، قال: ((لا خير فيها، هي في النار))، وقيل له: إنَّ فلانة تُصلي المكتوبةَ، وتصومُ رمضانَ، وتتصدَّقُ بالأثوارِ[4]،

وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي أحدًا، قال: (هي في الجنة)[5].

---

(١) أحمد في مسنده مسند الأنصار بقية حديث المقداد بن الأسود – حديث رقم (٢٣٨٥٤) ٣٩/ ٢٧٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٠٤٣).

(٢) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب قتل الولد خشية أن يأكل معه حديث رقم (٦٠٦٧) ٣/ ١٢٢٩، صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب كون الشرك أقبح الذنوب حديث رقم (٢٦٧) ١/ ٥٢.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٨/ ٤٣٠.

(٤) بالأثوار: هو اللبن الجامد المستحجر.

(٥) الحاكم في المستدرك – كتاب البر والصلة حديث رقم (٧٣٠٤) ٤/ ١٨٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٥٦٠).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ يومًا لأصحابه: «مَنْ يأخُذْ عَنِّي هؤلاء الكلمات فيعمل بِهِنَّ، أو يُعَلِّمَ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟ قال أبو هريرة، فقلتُ: أنا يا رسولَ الله، فأخذ بيدي وَعَدَّ خَمْسًا، فقال: اتَّقِ المحارِمَ تَكُنْ أَعبدَ الناسِ. وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأَحْسِنْ إِلى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وأَحِبَّ للناس ما تحبُ لنفسك تكن مُسْلِمًا ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب»[1].

قوله: (وأَحْسِنْ إِلى جَارِكَ) بالقول والفعل، والجار المجاور لك، وما قرب من منزلك عرفًا (تَكُنْ مُؤْمِنًا) أي كامل الإيمان، فإذا لم تقدر على الإحسان إليه فكف عن أذاه، وإن كان مؤذيًا لك فيلزمك الصبر حتى يجعل الله لك فرجًا قال الراغب: والإحسان يقال: للإنعام على الغير وللإحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملًا حسنًا"[2].

قال العلماء: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقّان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الّذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرّحم، فله حقّ الجوار، وحقّ الإسلام، وحقّ الرّحم، وأمّا الّذي له حقّان فالجار المسلم. له حقّ الجوار وحقّ الإسلام. وأمّا الّذي له حقّ واحد فالجار المشرك، وجاء بذلك حديث لكنّه ضعيف، وهذا التّقسيم موافق لما جاءت به الآيات والأحاديث بالنّسبة لحقّ المسلم وحقّ القريب وحقّ الجار، كما أنّه موافق للتّقسيم العقلي الاستقرائيّ وعلى هذا فللجار الكافر مهما كان كفره حقّ الجوار في الإحسان إليه وترك إيذائه»[3].

حقوقُ الجارِ في الإسلام:

لقد شرع الإسلامُ للجار حقوقًا عظيمةً، منها: الإحسان إليه، وأن يحب لجاره ما يحب لنفسه من الخير، وكفُّ الأذى عنه، واحتمال الأذى منه، ومواساته بالمال والطعام إذا احتاج، أو افتقر، وألا يمنع جاره من غرس خشبة في جداره، ونصحه وتوجيهه،

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس حديث رقم (٢٤٧٥) ٢/ ٥٩٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٠٥)، وصحيح الجامع حديث رقم (١٠٠).

(٢) فيض القدير: ١/ ١٦٢.

(٣) السلوك الاجتماعي في الإسلام: حسن أيوب، ص٢٨٢ - ٢٨٣، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٦٧٦.

وتعظيم حرمة الجار وصيانة عرضه وعدم خيانته، ومشاركته في أفراحه وأحزانه، وأن يعرض عليه البيت قبل غيره إذا أراد التحول عنه، وغيرها.

قال الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله: "وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه"(١).

وفيما يأتي بيان هذه الحقوق بشيء من التفصيل:

الحقُّ الأول: الإحسان إليه:

فقد أمر الله سبحانه وتعالى – في كتابه العزيز بالإحسان إلى الجيران، فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»(٣). فالإحسان إلى الجار أمرٌ مطلوبٌ، ولو كان شيئًا يسيرًا، بل حتى ولو كان كراع شاة، أو مرق لحم.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٢١٣.

(٢) سورة النساء: الآية: ٣٦.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره حديث رقم (٦٠٨٧) ٣/ ١٢٣١، صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب الحث على إكرام الجار والضيف حديث رقم (١٨٢) ١/ ٤٠.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»[1].

قال المهلب - رحمه الله: "فيه الحض على التهادي والمتاحفة ولو باليسير؛ لما فيه من استجلاب المودة، وإذهاب الشحناء، واصطفاء الجيرة، ولما فيه من التعاون على أمر العيشة المقيمة للإرماق، وأيضًا فإن الهدية إذا كانت يسيرة فهي أدل على المودة، وأسقط للمئونة، وأسهل على المهدي لإطراح التكليف"[2].

وقال الإمام ابن حجر - رحمه الله "أي: لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئًا، ولو أنها تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب، ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد فكأنه قال لتوادد الجارة جارتها بهدية، ولو حقرت فيتساوى في ذلك الغني والفقير، وخص النهي بالنساء؛ لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالًا في كل منهما"[3].

الحقُّ الثاني: أن يحب لجاره ما يحب لنفسه من الخير:

إنَّ من الإحسان إلى الجيران سلامة القلب عليهم، وحبُّ الخير لهم، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "والذي نفْسِي بِيدِهِ، لا يُؤمِنُ عبدٌ حتى يُحِبَّ لِجارِهِ ما يُحِبُّ لِنفسِهِ"[4].

وفي هذا تأكيد حق الجار، وأن الذي لا يحب لجاره ما يحب لنفسه من الخير، فإنه ناقص الإيمان، وفي هذا غاية التحذير، ومنتهى التنفير عن إضمار السوء للجار قريبًا كان، أو بعيدًا.

ومن الإحسان إلى الجار: الحرص على بذل الخير له قليلًا كان، أو كثيرًا، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب لا تحقرن جارة لجارتها حديث رقم (٦٠٨٦) ٣/ ١٢٣١، صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة حديث رقم (٢٤٢٦) ١/ ٤٠٥.

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٧/ ٨٥.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ٤٤٥.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم - حديث رقم (١٧٩) ١/ ٤٠.

(٥) سورة الطلاق: الآية: ٧.

الحقُّ الثالث: كفُّ الأذى عنه:

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جارَهُ"[1].

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، قالوا: وَمَنْ ذَاكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: الْجَارُ لا يَأْمَنْ جَارَهُ بَوَائِقَهُ، قالوا: وما بَوَائِقُهُ؟ قال: شَرُّهُ"[2]. أي: لا يأمن شره وخطره، وفي رواية لمسلم قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمَن جارُه بوائقه»[3].

قال الإمام ابن بطال – رحمه الله: "وهذا الحديث شديدٌ في الحضِّ على ترك أذى الجار، ألا ترى أنه عليه السلام أكَّد ذلك بقَسَمِهِ ثلاث مراتٍ أنه لا يؤمن مَنْ لا يأمن جاره بوائقه، ومعناه: أنه لا يؤمن الإيمان الكامل، ولا يبلغ أعلى درجاته مَن كان بهذه الصفة، فينبغي لكل مؤمن أن يحذَرَ أذى جاره، ويرغب أن يكون في أعلى درجات الإيمان، وينتهي عما نهاه الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضياه وحضَّا العبادَ عليه"[4].

وهذا فيه تعظيم حق الجار، ووجوب كف الأذى عنه، وأن إضراره من كبائر الذنوب، وعظائم المعاصي وقد عظم الله عزَّ وجلَّ – إلحاقَ الأذى بالجار، وغلَّظ فيه العقوبة.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظمُ؟ فقال: (أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك) قلت: ثم أي؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك) قلت: ثم أيّ؟ قال: (أن تزاني بحليلة جارك)[5].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان حديث رقم (٦٥٥٣) ٣/ ١٣١٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب الإيمان – حديث رقم (٢٥) ١/ ٥٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧١٠٢).

(٣) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان تحريم إيذاء الجار – حديث رقم (١٨١) ١/ ٤٠.

(٤) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٩/ ٢٢٢.

(٥) سبق تخريجه: ص٤١٦.

قال الإمام بدر الدين العيني – رحمه الله: «وإنما عظَّمَ الزنا بحليلة جاره، وإن كان الزنا كلُّه عظيمًا؛ لأن الجار له من الحرمة والحق ما ليس لغيره»[1].

وروي أن رجلًا جاء إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: (إن لي جارًا يؤذيني، ويشتمني، ويضيِّق عليّ، فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اذهب فإنْ عصَى اللهَ فيك، فأطعِ اللهَ فيه)[2].

وشكا بعضهم كثرة الفأرة في داره، فقيل له: لو اقتنيت هرًا؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دُورِ الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي!![3].

فاتقوا الله عباد الله، وأحسنوا إلى جيرانكم، مُرُوهُم بالمعروف وَانهُوهُم عن المنكر، ابذُلوا لهم الخير ما استطعتم، ورُدُّوا عنهم الشر ما مَلَكتُم، تلطَّفُوا إليهم بالهدية والزيادة، فإن لم تجدوا خيرًا تبذلُونه فلا أقلّ من كفّ الشر عنهم.

الحقّ الرابع: احتمال الأذى منه:

قال الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله: "واعلم أنه ليس حقُّ الجوار كفُّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى، فإن الجار أيضًا قد كفَّ أذاه، فليس في ذلك قضاء حقه، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لا بد من الرفق، وإسداء الخير، والمعروف، إذ يقال: إنَّ الجار الفقير يتعلق بجاره الغنيِّ يوم القيامة فيقول: يا رب سَلْ هذا لِمَ مَنعنِي معروفَهُ وسَدَّ بابَهُ دُونِي"[4].

ولهذا تحمَّلَ السلفُ الصالحِ – رضوان الله عليهم – إيذاءَ جيرانهم، وصبروا على ذلك: فقد كان لمالك بن دينار – رحمه الله جارٌ يهوديٌّ، فحوَّل اليهوديُّ مستحمَّهُ إلى جوار بيت مالك..، وكان الجدارُ متهدمًا.. فكانت تدخل منه النجاسات..، ومالك يقوم على تنظيف هذه النجاسات..، وهو صابر على هذا الإيذاء.. وطالت المدة.. حتى أن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٣٤/ ٢٢١.

(٢) إحياء علوم الدين: ٢/ ٢١٢.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢١٣.

(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢١٣.

اليهوديَّ ضاق صبرُهُ من صَبْرِ مالك - رحمه الله حتى قال له: يا مالكُ لقد آذيتُكَ كثيرًا.. وأنت صابرٌ.. فما الذي حملك على هذا؟ فقال: قال رسولنا محمد ﷺ: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه) فندم اليهودي وأسلم، وحسن إسلامه.

الحقُّ الخامس: مواساته بالمال والطعام إذا احتاج، أو افتقر:

قال الإمام أبو الليث السمرقندي - رحمه الله: "تمام حُسنِ الجوار في أربعة[1]:

أولها: أن يواسيه بما عنده.

ثانيها: أن لا يطمع فيما عنده.

ثالثها: أن يمنع أذاه عنه.

رابعها: أن يصبر على أذاه».

فينبغي على المسلم الحق أن يتفقد جارَهُ، وأن يُواسيه بما عنده من مال، إن كان محتاجًا، فقد جاء عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليس المؤمن الذي يشبعُ، وجارُه جائع)[2].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال له: "يا أبا ذر إذا طبخت قِدْرًا فأكثر المرقة، وتعاهد جيرانك، أو أقسم بين جيرانك"[3].

وروي عن سفيان الثوري أنه قال: عشرة أشياء من الجفاء:

أولها: رجل أو امرأة يدعو لنفسه، ولا يدعو لوالديه والمؤمنين.

والثاني: رجل يقرأ القرآن، ولا يقرأ في كل يوم مائة آية.

والثالث: رجل دخل المسجد وخرج، ولم يصل ركعتين.

---

(١) تنبيه الغافلين: ص٩٤.

(٢) الأدب المفرد للبخاري - باب لا يشبع دون جاره حديث رقم (١١٢) ١/ ٤١، ط/ دار البشائر الإسلامية - بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد حديث رقم (١١٢)، وصحيح الجامع حديث رقم (٥٣٨٢).

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب الوصية بالجار والإحسان إليه حديث رقم (٦٨٥٥) ٢/ ١١١٢.

والرابع: رجل يمر على المقابر، ولم يسلم عليهم، ولم يدع لهم.

والخامس: رجل دخل مدينة في يوم الجمعة ثم خرج، ولم يصل الجمعة.

والسادس: رجل أو امرأة نزل في محلتهما عالم، ولم يذهب إليه أحد ليتعلم منه شيئًا عن العلم.

والسابع: رجلان ترافقا، ولم يسأل أحدهما عن اسم صاحبه.

والثامن: رجل دعاه رجل إلى ضيافة، فلم يذهب إلى الضيافة.

والتاسع: شاب يضيع شبابه وهو فارغ، ولم يطلب العلم والأدب.

والعاشر: رجل شبعان وجاره جائع، ولا يعطيه شيئًا من طعامه[1].

الحق السادس: ألا يمنع جاره من غرس خشبة في جداره:

إذا احتاج الجار إلى ذلك، فينبغي أن يسمح له بغرس هذه الخشبة، ولا يمنعه من الانتفاع بها، فقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: (لاَ يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ)، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَاللَّهِ لأَرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ)[2].

أي: لأصرحنَّ ولأحدثنَّ بها بينكم مهما ساءكم ذلك، وأوجعكم.

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله: "عندنا أنه يجوز للجار أن يضع خشبة في جدار جاره عند الحاجة إلى ذلك بشرط ألا يضير بالحائط، فإن امتنع الجار أجبره الحاكم على ذلك، وهذا قول الشافعي في القديم إلا أنه قال لا يحكم عليه الحاكم بذلك، وقال أكثر العلماء: لا يجوز إلا بإذن المالك، وفي الحديث حجة لنا"[3].

الحق السابع: نصحه وتوجيهه:

ومن حقوق الجار في الإسلام نصحه وتوجيهه، فإذا رآه منحرفًا، أو رآه محتاجًا إلى نصيحته وإرشاداته، ونصحه وتوجيهه ضمن الأمور الواجبة له..، والحقوق التي ينبغي

---

(١) تنبيه الغافلين: ص٩٤.

(٢) صحيح البخاري – كتاب المظالم والغصب – باب: لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره حديث رقم (٢٥٠٣) ١/ ٤٦٢.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين: ١/ ٩٤٠.

أن يفعلها المسلم لجاره المسلم، وهي كما نص عليها حديث النبي ﷺ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ». قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:« إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»(١).

قال الإمام المناوي – رحمه الله: "(حق المسلم على المسلم ست إذا لقيته فسلم عليه) ندبًا؛ لأنه إذا لم يسلم عليه فقد احتقره، (وإذا دعاك فأجبه) إلى مأدبته وجوبًا للعرس وندبا لغيره حيث لا عذر، (وإذا استنصحك فانصح له) وجوبًا وابذل الجهد، (وإذا عطس وحمد الله فشمته) بأن تقول له: يرحمك الله ندبًا، (وإذا مرض فعده) أي زره في مرضه، (وإذا مات فاتبعه) حتى تصلي عليه فإن صحبته إلى الدفن فأفضل، ومعنى هذه الجمل أن من حق الإسلام ذلك، وله حقوق أخرى"(٢).

الحقُّ الثامن: تعظيم حرمة الجار، وصيانة عرضه، وعدم خيانته:

فينبغي على الجار تعظيم حرمة جاره، وصيانة عرضه، وعدم خيانته، وقد جاء في السنة النبوية المطهرة ما يبين لنا تعظيم حرمة الجار، وصيانة عرضه، ومن ذلك ما جاء عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (ما تقولون في الزنا)؟ قالوا: حرامٌ حرَّمَهُ اللهُ ورسولُه، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: (لأن يزنيَ الرجلُ بعشر نسوةٍ، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره). قال: (ما تقولون في السرقة)؟ قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرامٌ، قال: (لأن يسرق الرجل من عشرة بيوت، أيسر عليه من أن يسرق من جاره)(٣).

الحق التاسع: مشاركته في أفراحه وأحزانه:

فإذا كان عند جاره مناسبة سارة، فينبغي له أن يذهب إليه، وأن يشاركه ويقاسمه فرحه، ما لم يكن فيه معصية، وإذا أَلَمَّتْ به نازلةٌ فينبغي له أن يحضره، وأن يشاركه

(١) صحيح مسلم – كتاب السلام – باب من حق المسلم للمسلم رد السلام – حديث رقم (٥٧٧٨) ٢/ ٩٤٠.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: ١/ ١٠١٢.

(٣) أحمد في مسنده مسند الأنصار بقية حديث المقداد بن الأسود – حديث رقم (٢٣٨٥٤) ٣٩/ ٢٧٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٠٤٣).

ويقاسمه حُزنه، ويواسيه بالكلمة الطيبة الصالحة، ويشد من أزره، وكل هذا من حق المسلم أصلًا على أخيه المسلم، والجارُ أولى بهذه الحقوق من غيره.

الحقّ العاشر: أن يعرض عليه البيت قبل غيره إذا أراد التحول عنه:

فإذا أراد أن ينتقل من داره فليعرضها على جاره قبل غيره، فقد يرغب في شرائها، وكذلك أي أرضٍ أو عقارٍ، وقد قال النبي ﷺ: (من كانت له أرضٌ فأراد بيعها فليعرضها على جاره)[1].

من فوائد (حق الجار)[2]:

(١) حفظ حقّ الجّار من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

(٢) تعظيم حقّ الجار.

(٣) حسن العلاقة بين الجيران ترضي اللّه عزَّ وجلَّ - وتسخط الشّيطان، وسوؤها يسخط اللّه عزَّ وجلَّ - ويرضي الشّيطان.

(٤) اسم الجار يشمل عموم أنواع المجتمع فإذا حسنت العلاقة بين الجيران وسادهم الحبّ والوئام سعد المجتمع كلّه.

(٥) إنّ جار الخير يعود خيره عليه وعلى جيرانه وجار السّوء يعود سوؤه عليه وحده.

(٦) المكافأة على الإحسان بأحسن منه.

(٧) حسن الجوار ليس بكفّ أذاك عن جيرانك بل بتحمّل أذاهم وقضاء حوائجهم وكشف كربهم.

(٨) الملكان المجاوران لك أشدّ الجيران قربا فاحفظ حقّهما فلا يريا منك إلّا خيرًا.

(٩) حسن الجوار باب من أبواب الجنّة وسوؤه باب من أبواب النّار.

---

(١) سنن ابن ماجه كتاب الشفعة - باب من باع رباعًا فليؤذن شريكه حديث رقم (٢٥٨٨) ١/ ٣٦١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٥٣٨)، وصحيح الجامع حديث رقم (٦٥١٢).

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٥/ ١٦٧٦.

عِنَايَةُ الإِسْلَامِ بِالْيَتِيمِ[1]

لقد حثَّ الإسلام على العناية باليتيم، وأمر بالإحسان إليه، والسَّعي في شؤونه، والمحافظة على حقوقه الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، وقد جاء ذلك واضحًا جليًّا في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويِّة المطهَّرة في مواضع متعددة؛ منها: أنَّ القرآن نهى عن قهر اليتيم وإذلاله في قوله تعالى -: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[2].

وهذا مقابل لقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ لا محالة، أي: فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النَّقص المعتاد لليُتم، فكن أنت مُكرِمًا للأيتام رفيقًا بهم، فجمع ذلك في النَّهي عن قهره؛ لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام، ولأنَّه إذا نهى عن قهر اليتيم مع كثرة الأسباب لقهره؛ لأنَّ القهر قد يصدر من جراء القلق من مطالب حاجاته، فإنَّ فلتات اللسان سريعة الحصول[3].

كذلك جاء الأمر بالحفاظ على ماله والتحذير من تبديده وإضاعته في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[4]، وقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[5]، أي: كان إثمًا عظيمًا وظلمًا بيّنًا.

ووجه تخصيص حقّ اليتيم في ماله بالحفظ: أنَّ ذلك الحقّ مظنّة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنة انعدام المدافع عنه؛ لأنَّه ما من ضعيف عندهم إلاّ وله من الأقارب

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، السنة السادسة والعشرين، العدد (٤٧٦٧)، ١٦ من رجب ١٤٢٩هـ ٢ من أبريل ٢٠١٨م.

(٢) سورة الضحى: الآية: ٩.

(٣) التحرير والتنوير: لابن عاشور ٣٠/ ٤٠١.

(٤) سورة الإسراء: الآية: ٣٤.

(٥) سورة النساء: الآية:٢.

والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده، فأمّا اليتيم فإنّ الاعتداء عليه إنَّما يكون من أقرب النّاس إليه، وهو وليّه؛ لأنَّه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلاّ أقرب النّاس إليه، وكان الأولياء يتوسّعون في أموال أيتامهم، ويعتدُون علَيها، ويضيعون الأيتام؛ لكيلا ينشأوا نشأة يعرفون بها حقوقهم، ولذلك قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[1]؛ لأنّ اليتيم مظنّة الإضاعة، فلذلك لم يوص الله تعالى - بمال غير اليتيم، لأنَّ صاحبه يدفع عن نفسه، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه[2].

هذا، وقد حذَّر - سبحانه من أكل ماله، وبيَّن الوعيد الشديد فيه؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[3].

وهذه الآية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم، وذلك كله رحمة من الله تعالى - باليتامى؛ لأنَّهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته، وكثرة عفوه وفضله؛ لأنَّ اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى[4].

أيضًا ربط - جلَّ وعلا - بين الأمر بتوحيده وعبادته، وبين الأمر بالإحسان إلى اليتامى، فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾[5].

وأمر - سبحانه بالإحسان إلى اليتيم في جميع الأمم السَّابقة، وجعل الإحسان إلى اليتامى ميثاقًا جامعًا من المواثيق التي أخذها على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[6].

---

(١) سورة الضحى: الآية: ٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ١٦٤.

(٣) سورة النساء: الآية: ١٠.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ٩/ ١٦٢.

(٥) سورة النساء: الآية: ٣٦.

(٦) سورة البقرة: الآية: ٨٣.

والمتأمِّل في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يجد عنايتها باليتيم، والإحسان إليه، ورعايته، ومن ذلك: أنَّ النبي ﷺ بيَّن أنَّ كفالة اليتيم سبب من أسباب دخول الجنة، وأنَّ كافله معه في الجنة، وذلك في قوله: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى"[1].

وقوله: (أنا وكافل اليتيم)، أي: القيم بأمره ومصالحه هبة من مال نفسه أو من مال اليتيم، (في الجنة هكذا)، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما، أي: الكافل في الجنَّة مع النبي لا أنَّه في درجته، أو المراد في سرعة الدخول، أو هو إشارة إلى الانضمام والاقتراب[2].

ولما جاء إليه الرجل يشكو قسوة قلبه قال له: "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُلَيَّنَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمْهُ"[3].

وبيَّن - عليه الصلاة والسلام - أنَّ أكل مال اليتيم من الكبائر في قوله: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ»[4].

قال الإمام ابن بطال - رحمه الله: "أكل مال اليتيم من الكبائر، وقد أخبر الله أن من أكله ظلمًا أنه يأكل النار ويصلى السعير، وهذا عند أهل السنة إن أنفذ الله عليه الوعيد؛ لأنه عندهم في مشيئة الله، قال سعيد بن جبير: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾[5] أمسك الناس فلم يخالطوا اليتامى في طعامهم حتى نزلت: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾[6] [7]،

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب فضل من يعول يتيمًا - حديث رقم (٦٠٧٢) ٣/ ١٢٢٩.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير: للمناوي ١/ ٧٦٧.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الجنائز - جماع أبواب التعزية - باب ما يستحب من مسح رأس اليتيم وإكرامه حديث رقم (٧٣٤٦) ٤/ ٦٠.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها - حديث رقم (٢٧٢) ١/ ٥٢.

(٥) سورة النساء: الآية: ١٠.

(٦) سورة البقرة: الآية: ٢٢٠.

(٧) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٨/ ١٨٥.

ومن فوائد (كفالة اليتيم)[1]:

(١) صحبة الرّسول ﷺ في الجنّة، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا.

(٢) كفالة اليتيم صدقة يضاعف لها الأجر إن كانت على الأقرباء (أجر الصّدقة وأجر القرابة).

(٣) كفالة اليتيم والإنفاق عليه دليل طبع سليم وفطرة نقيّة.

(٤) كفالة اليتيم والمسح على رأسه وتطييب خاطره يرقّق القلب ويزيل عنه القسوة.

(٥) كفالة اليتيم تعود على الكافل بالخير العميم في الدّنيا فضلًا عن الآخرة.

(٦) كفالة اليتيم تساهم في بناء مجتمع سليم خال من الحقد والكراهيّة، وتسوده روح المحبّة والودّ.

(٧) في إكرام اليتيم والقيام بأمره إكرام لمن شارك رسول اللّه ﷺ في صفة اليتم، وفي هذا دليل على محبّته ﷺ.

(٨) كفالة اليتيم تزكي المال وتطهّره وتجعله نعم الصّاحب للمسلم.

(٩) كفالة اليتيم من الأخلاق الحميدة الّتي أقرّها الإسلام وامتدح أهلها.

(١٠) كفالة اليتيم دليل على صلاح المرأة إذا مات زوجها فعالت أولادها وخيريّتها في الدّنيا وفوزها بالجنّة ومصاحبة الرّسول ﷺ في الآخرة.

(١١) في كفالة اليتيم بركة تحلّ على الكافل وتزيد من رزقه.

فنحن في حاجة إلى امتثال أمر ربنا - جلَّ وعلا -، وهدي نبينا ﷺ في الإحسان إلى اليتيم، ورعايته، والقيام على تدبيره أموره، والحذر من إضاعة حقوقه المالية والاجتماعية والنفسية حتى ننال الأجر العظيم، والثواب الجزيل، ونسعد في الدنيا والآخرة.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٨/ ٣٢٦٤.

رِعَايَةُ الشَّرِيعَةِ لِلْمُسِنِّينَ[1]

لقد اهتمت الشريعة الإسلامية بالإنسان من قبل ولادته وحتى وفاته، وذلك من خلال تنظيم القواعد والآداب والضوابط التي تحكم كلَّ مرحلة من مراحل حياته، ومنها مرحلة الشيخوخة، فقد أشار القرآن إليها حينما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾[2]، فجعلها مرحلة عناية واهتمام وتقدير وتوقير.

ومن رعاية الإسلام للمسنين أن حثَّ على تكريمهم، والإحسان إليهم قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3].

كما أنَّ رعاية الشيوخ والمسنين من التَّراحم والتَّعاون الذي حثَّ عليه الإسلام، فهي باب عظيم من أبواب التراحم في الدنيا، وكسب الثواب في الآخرة، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ شَيْءٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[4].

"وإنما جعل المؤمنين كجسد واحد؛ لأنَّ الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء، فباجتماع الأعضاء يتأذى الكلُّ بتأذي البعض، وكذلك أهل الإيمان يتأذى بعضهم بتأذي البعض"[5].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، السنة السادسة والعشرين، العدد (٤٧٩٤)، ٧ من صفر ١٤٤٠هـ ١٦ من أكتوبر ٢٠١٨م.

(٢) سورة غافر: الآية: ٦٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية: ٧٠.

(٤) سبق تخريجه: ص٦٨.

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي ١/ ٤٤٢.

كما حثَّ النبي ﷺ على إكرام المسنين، ورعايتهم، ورغب في ذلك، وذلك فيما جاء عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»[1].

أي: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره في المجالس، والرفق به، والشفقة عليه، ونحو ذلك، كلُّ هذا من كمال تعظيم الله لحرمته عنده، «وحامل القرآن»، أي: وإكرام حافظه وسماه حاملًا له؛ لما يحمل لمشاق كثيرة تزيد على الأحمال الثقيلة[2].

ودعا إلى توقير الكبير واحترامه، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[3].

وأرشدنا أن يُسلِّم الصَّغير على الكبير، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، وَالمَارُّ عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ»[4].

وأعطاهم الإسلام المكانة المتميزة، وذلك فيما بينه ﷺ من ثواب ذي الشيبة المسلم؛ حيث قال: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[5].

أي: يصير الشعر نفسه نورًا يهتدي به صاحبه، والشيب وإن كان ليس من كسب العبد، لكنَّه إذا كان بسبب من نحو جهاد، وخوف من الله ينزل منزلة سعيه[6].

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في تنزيل الناس منازلهم - حديث رقم (٤٨٤٥) ٢/ ٨١٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود - حديث رقم (٤٨٤٣).

(٢) عون المعبود: ١٣/ ١٣٢.

(٣) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في رحمة الصبيان - حديث رقم (٢٠٤٣) ٢/ ٥٠٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩١٩).

(٤) صحيح البخاري - كتاب الاستئذان - باب تسليم القليل على الكثير - حديث رقم (٦٣٠٤) ٣/ ١٢٦٩.

(٥) سنن الترمذي - كتاب فضائل الجهاد - باب ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله حديث رقم (١٧٣٤) ١/ ٤٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٦٣٤).

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير: للمناوي ٢/ ٨٢١.

ورعاية المسنين صورة من صور التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وبر الوالدين مظهر من مظاهر هذه الرعاية، وهم أولى بها من غيرهم بالدرجة الأولى، والبر بهم سبب من أسباب دخول الجنة، كما قد يكون العقوق سببًا لدخول النار، وفي ذلك يقول - سبحانه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»(٣).

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا تقبل منها واحدة بغير قرينتها. الأولى: قول الله تعالى: "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه. الثانية: قول الله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" فمن أقام ولم يؤد الزكاة لم يقبل منه. الثالثة: قول الله تعالى: "أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ" فمن شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه(٤).

ويجب على الدولة الاهتمام بالمسنين، فهذه مسئولية كبيرة أرشد إليها الإسلام، وقد قال ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ

(١) سبق تخريجه: ص٦٩.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٣) سبق تخريجه: ص٣٩٦.

(٤) تنبيه الغافلين: ص٦٦.

زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قَالَ: - وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1].

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[2].

ومن رعاية الإسلام للمسنين أن أرشد إلى حُسن التعامل معهم وحذر من الإساءة إليهم حتى في أوقات الحروب، فقد عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ، أَوْ جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، قَالَ: اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا، وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا"[3].

«وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى -، والرفق باتباعهم، وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره وما يستحب»[4].

ومن رعاية الشريعة الإسلامية لهم أن شرعت لهم ما يناسبهم في جانب العبادات والمعاملات، ومن ذلك أمر النبي ﷺ التخفيف في الصلاة مراعاة لحال الضعفاء وكبار السن، وذلك فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر - حديث رقم (٧٢٢٥) ٣/ ١٤٤١، صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل - حديث رقم (٤٨٢٨) ٢/ ٨٠٥.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار - حديث رقم (٣٨٠) ١/ ٧٢.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث - حديث رقم (٤٦١٩) ٢/ ٧٥٣.

(٤) شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٣٧.

قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ، فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»[1].

وهذا التكريم والإحسان يشمل المسلم وغير المسلم، فعن أسماء قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»[2].

من خلال ما ذكرنا يتبيَّن لنا أنَّ الشريعة الإسلامية كرَّمت المسنين، وحثت على رعايتهم وبرهم والإحسان إليهم في صور عديدة، ومواضع شتى، فعلينا أن نقوم بهذه الرعاية، وبهذه الحقوق، كما أمرنا الإسلام كي نسعد في الدنيا والآخرة.

(١) صحيح البخاري - كتاب الأذان - أبواب صلاة الجماعة والإمامة - باب: إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء - حديث رقم (٧٠٨) ١/ ١٣٦.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها - باب الهدية للمشركين - حديث رقم (٢٦٥٧) ١/ ٤٩٤.

عِيَادةُ المَرِيضِ آدابٌ وأحكامٌ

عيادةُ المريض أدبٌ من الآداب الإسلامية التي أرشدنا إليها دينُنَا الإسلامي الحنيف، وحقٌّ من حقوق المسلم على المسلم، وعملٌ من الأعمال الصالحة، وسببٌ من أسباب دخول الجنة، وغير ذلك من الفضائل الكثيرة التي سنتعرف عليها من خلال هذا المقال، وذلك كما يأتي:

١ - أنها من حق المسلم على المسلم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حق المسلم على المسلم خمسٌ: ردُّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»(١).

٢ - أنها من أسباب دخول الجنة، فعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا، أو زارَ أخًا له في الله، نادَاهُ مُنادٍ أن طِبْتَ وطابَ ممشاك، وتبوَّأتَ من الجنة منزلًا»(٢).

٣ - أنها من أسباب الرحمة، ففي مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة، حتى يجلس، فإذا جلس اغتمس فيها»(٣).

٤ - أن دعاء المريض مستجاب، فعن عمر بن الخطاب، قال: قال لي النبي - ﷺ -: « إذا دخلتَ على مريضٍ، فمُرْهُ أن يدعو لك، فإنَّ دعاءه كدعاء الملائكة»(٤).

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب الأمر باتباع الجنائز - حديث رقم (١٢٥١) ١/ ٢٣٣.

(٢) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في زيارة الإخوان - حديث رقم (٢١٣٩) ٢/ ٥٢٠، وصححه الألباني في صحيح الترمذي حديث رقم (٢٠٠٨)، وصحيح الجامع حديث رقم (٦٣٨٧).

(٣) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم - مسند جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (١٤٢٦٠) ٢٢/ ١٦٢، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٤٧٧).

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الجنائز - باب ما جاء في عيادة المريض - حديث رقم (١٥٠٨) ١/ ٢١١، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه حديث رقم (١٤٦٣).

٥ – أن الدعوة للمريض مستجابة، فعن ابن عباس عن النبي – ﷺ – قال: « من عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»[١].

أما عن آداب عيادة المريض، فقد جاء في الموسوعة الفقهية: "من آداب عيادة المريض: أن لا يطيل الجلوس إلا إذا علم أنه لا يشق عليه ويأنس به، وأن يدنو منه، ويضع يده على جسمه، ويسأله عن حاله، وينفس له في الأجل بأن يقول ما يسر به، ويوصيه بالصبر على مرضه، ويذكر له فضله إن صبر عليه، ويسأل منه الدعاء فدعاؤه مجاب كما ورد.

ومن الآداب: أن يستصحب معه ما يستروح به كريحان، أو فاكهة، وأن يتصدق عليه إن كان محتاجًا لذلك، وأن يرغبه في التوبة والوصية إن لم يتأذ بذلك، وإن لم تظهر عليه أمارات موت على الأوجه، وأن يتأمل حال المريض وكلماته، فإن رأى الغالب عليه الخوف أزاله عنه بذكر محاسن عمله له"[٢].

ومن آداب عيادة المريض: أن تكون الزيارة في وقت قابل لها بحيث لا يشق على المريض فيه، وهي غير مقيدة بوقت يمضي من ابتداء مرضه، وهو قول الجمهور، ولأي مرض كان.

وتشرع عيادة المريض للمسلمين كافة، يستوي في ذلك من يعرف المريض، ومن لا يعرفه، ويستوي في ذلك القريب والأجنبي، إلا أنها للقريب ومن يعرفه آكدُ وأفضل لعموم الأحاديث، فالجار هو القريب من محله، بحيث تقضي العادة بودّه وتفقده، ولو مرة"[٣].

---

(١) سنن أبي داود – كتاب الجنائز – باب الدعاء للمريض عند العيادة – حديث رقم (٣١٠٨) ٢/ ٥٤٠، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٣١٠٦)، وصحيح الجامع حديث رقم (٦٣٨٨).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣١/ ٧٨.

(٣) المرجع السابق: ٣١/ ٧٩.

كما تجوز عيادة الكافر خاصة إن رُجِي إسلامه، لما روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن غلامًا ليهود كان يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال: أسلم، فأسلم"[1]، وتجوز عيادة الذمي؛ لأنه نوع بر في حق أهل الذمة، وما نهينا عن ذلك"[2].

ومن الآداب: الدعاء للمريض، فقد كان ﷺ إذا عاد مريضًا يدعو له بالشفاء والعافية، فقد ورد عن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:« تشكيت بمكة فجاءني النبي ﷺ يعودني، فوضع يده على جبهتي، ثم مسح يده على وجهي وبطني، ثم قال: اللهم اشف سعدًا وأتم له هجرته، قال: فما زلت أجد برده على كبدي فيما يخال إليَّ حتى الساعة»[3].

وقد أمر ﷺ كل من يعود أخاه المسلم أن يدعو له ما لم يحضر أجله، فقد روي عن ابن عباس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – عن النبي ﷺ، قال:« ما من مسلم يعود مريضًا لم يحضر أجله، فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم أن يشفيك إلا عوفي»[4].

وكان النبي ﷺ إذا أتى مريضًا، أو أتي به إليه، قال:" اذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»[5].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب المرضى – باب عيادة المشرك – حديث رقم (٥٧١٧) ٣/ ١١٧٤.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية: ٣١/ ٧٧.

(٣) السنن الكبرى للنسائي – كتاب الفرائض – ميراث الابنة الواحدة المنفردة – حديث رقم (٧٥٠٤) ٤/ ٣٥٧.

(٤) مسند أحمد بن حنبل – مسند العشرة المبشرين بالجنة – مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة – مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٢١٣٧) ٤/ ٤٠، وصححه الألباني في حديث رقم (٣٠٨٢).

(٥) سنن الترمذي – كتاب الدعوات – باب في دعاء المريض – حديث رقم (٣٩١٣) ٢/ ٩١٣، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٥٦٥)، وصحيح الجامع حديث رقم (١٢٢٢).

ومن فوائد عيادة المريض[1]:

(١) في عيادة المريض إرضاء للمولى - عزَّ وجلَّ - وتمتّع بمعيّته طيلة مدّة العيادة.

(٢) في عيادة المريض تذكير بالآخرة، وترقيق للقلب.

(٣) عائد المريض تصلّي عليه الملائكة وتستغفر له إلى ثاني أيّام العيادة.

(٤) في العيادة اتّباع لسنّة المصطفى ﷺ واتّباع لأمره واقتداء بهديه.

(٥) في العيادة رجاء شفاء المريض ببركة دعاء العائد له.

(٦) في عيادة المريض تحقيق للتّواصل بين المسلمين وتحقيق للألفة بينهم.

(٧) في عيادة المريض جبر لخاطر أهله وإشاعة روح المحبّة بين النّاس.

(٨) في عيادة المريض رجاء بركة دعاء المريض للعائد فإنّه ممّن تجاب دعوتهم.

(٩) في عيادة المريض تطييب لخاطره ورفع لروحه المعنويّة ممّا يعجّل له بالشّفاء.

(١٠) في عيادة المريض ما يجعل العائد كأنّه في غرفة الجنّة يريح شذاها رضى وحبورًا.

(١١) عيادة المريض تبشّر صاحبها بدخول الجنّة وخاصّة إذا كان العائد ممّن يشيّع الجنائز ويطعم المساكين.

(١٢) عائد المريض تغمره الرّحمة ويخوض فيها.

(١٣) عيادة المريض تبعد صاحبها عن النّار سبعين خريفًا.

(١٤) عيادة الذّمّيّ أو المشرك رجاء أن يهديه اللّه للإسلام.

(١٥) ببركة العيادة تعمّ المودّة والتّراحم بين المسلمين، إذ تحبّب العائد فيمن يعوده وربّما دفعته لأن يسقط عنه ديونه.

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٧/ ٣٠٦٨ وما بعدها.

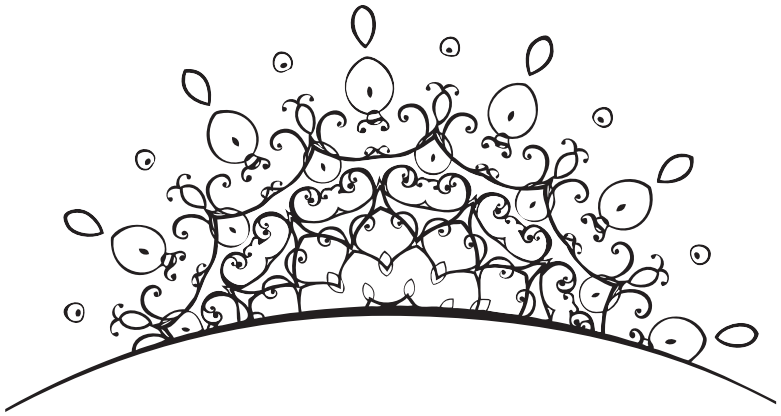

القسم الخامس

أدب إسلامية

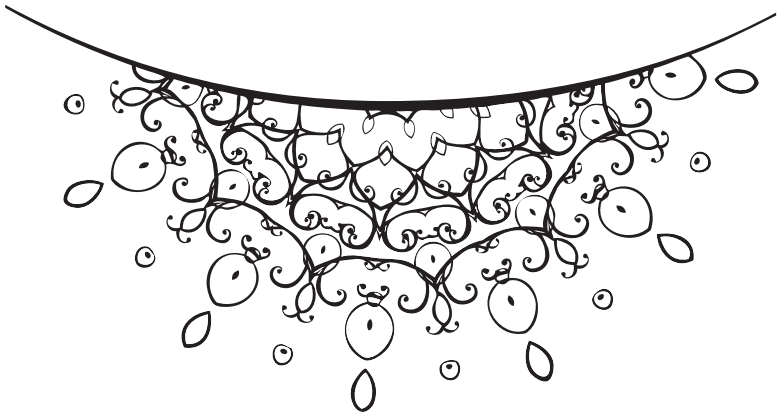

أَدَبُ الْحِوَارِ فِي الإِسْلَامِ [1]

الخلاف واقع بين الناس في مختلف الأعصار والأمصار، وهو سنَّة الله في خلقه، فهم مختلفون في: ألوانهم، وألسنتهم، وطباعهم، ومُدركاتهم، ومعارفهم، وعقولهم، وكلُّ ذلك آية من آيات الله، نبَّه عليها القرآن الكريم في قوله تعالى -: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[٢].

وهذا الاختلاف الظاهريّ دالٌّ على الاختلاف في الآراء، والاتجاهات، والأعراض، قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[٣].

والناظر والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن هناك العديد من الآيات القرآنية التي اهتمت بالحوار وآدابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٤]. أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح {بِالْحِكْمَةِ} أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة صوت الأزهر، العدد (٨٧٠)، السنة السابعة عشرة، ٢٠ من شعبان ١٤٣٧هـ ٢٧ من مايو ٢٠١٦م، العدد (٨٧١)، السنة السابعة عشرة، ٢٧ من شعبان ١٤٣٧هـ ٣ من يونيو ٢٠١٦م.

(٢) سورة الروم: الآية: ٢٢.

(٣) سورة هود: الآية: ١١٩.

(٤) سورة النحل: الآية: ١٢٥.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به[1].

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلًا ونقلًا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها[2].

ونجد أن الحوار جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة، ومن ذلك: قوله تعالى ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3]. أي يراجعه في الكلام ويجاوبه. والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب. ويقال: كلمته فما أحار إلي جوابًا، وما رجع إلي حويرًا ولا حويرة ولا محورة ولا حوارًا؛ أي ما رد جوابًا[4].

وقوله عزَّ وجلَّ -: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[5].

وقوله سبحانه ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[6].

لذلك فإنَّ المتأمِّل في شريعتنا الإسلامية الغراء يجد أنَّها قد ساقت من المبادئ السَّامية، والآداب العالية، والهدايات الرفيعة، ما ينظم الخلافات، والمحاورات،

---

(١) تفسير السعدي: ١/ ٤٥٢.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٤٥٢.

(٣) سورة الكهف: الآية: ٣٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٤٠٣.

(٥) سورة الكهف: الآية: ٣٧.

(٦) سورة المجادلة: الآية: ١.

والمناظرات التي تحدث بين النَّاس، وما يجعلها تدور في إطار من المنطق السَّليم، والفكر القويم، والجدال بالتي هي أحسن، ومن هذه المبادئ والآداب والأسس التي جاءت بها شريعة الإسلام لضبط المحاورات، والمناقشات التي تدور بين النَّاس ما يلي:

١ - التزام الصِّدق، وذلك بأن يكون الحوار بينهم قائمًا على الصِّدق، وتحري الحقائق، بعيدًا عن الكذب، والسَّفسطة، والأوهام، والحوار البناء هو الذي يُقصد به الوصول إلي الحقِّ، والعدل، ومكارم الأخلاق، هو الذي يكون لحمته، وسداه الصدق، والعفاف في السُّلوك.

٢ - التزام الموضوعية، ويكون ذلك بعدم الخروج عن الموضوع الذي هو محلُّ الخلاف أو النزاع، فإنَّ كثيرًا من النَّاس إذا ناقشوا غيرهم في موضوع معين خلطوا بين الأمور ليظلّ الحقُّ غائبًا عن دنيا الناس.

أمَّا المحاورة في أحضان شريعة الإسلام فإنَّها تقوم على الموضوعية، فمثلًا المحاورات التي حدثت بين الرسل وأقوامهم، ترى أنَّ الرّسل - عليهم الصلاة والسلام - كان جوابهم على مخالفيهم منتزعًا من أقوال هؤلاء المخالفين دون أي خروج عن موضوع النزاع.

٣ - التواضع والالتزام بأدب الحديث، وتجنب الغرور، والتزام الأسلوب المهذب الخالي من كلِّ ما لا يليق بالمحاور، ومن ذلك الحوار الذي دار بين نبي الله سليمان - عليه السلام -، وبين الهدهد، قال - تعالى -: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

(١) سورة النمل: الآيات: ٢٠ - ٢٧.

٤ - أن يقوم الحوار على الحقائق الثابتة لا الإشاعات الكاذبة، ومن أوجب الواجبات لكي يكون الحوار بين الناس مفيدًا، ونافعًا، وترجى من ورائه النتائج الطيبة، والعواقب الحميدة أن يقوم على الحقائق الثابتة لا الإشاعات الكاذبة، وأن يُبنى على المعلومات الصحيحة، لا على الأخبار المضطربة.

ومن التوجيهات الحكيمة والآداب السديدة التي ربى عليها النبي ﷺ أتباعه، أنَّه: نهاهم عن إشاعة الكلام السيء فيما بينهم، وأمرهم أن ينشروا القول الحسن، وذلك فيما أخرجه أبو داود في سننه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»(١).

٥ - ومن أدب الحوار حصره في مكان محدود، فالمحاورات ينبغي أن تكون في أماكن محدودة الحضور، قالوا: وذلك أجمع للفكر والفهم، وأقرب لصفاء الذهن، وأسلم لحسن القصد، وإنَّ في حضور الجمع الغفير ما يحرك دواعي الرياء، والحرص على الغلبة بالحق أو بالباطل، وممَّا استدل به على ذلك قوله تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٢).

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله: «والمعنى: أنَّ التي أعظكم بها قيامكم وتشميركم لطلب الحقِّ، وليس بالقيام على الأقدام، والمراد بقوله: «مثنى»، أي: يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ، والمراد به فرادى أن يتفكر الرجل وحده، ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده، وليخل بغيره، ولينظر، وليستشر؛ فيستدل بالمصنوعات على صانعها، ويصدق الرسول على اتباعه، وليقل الرجل لصاحبه هلم فلنتصادق»(٣).

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في رفع الحديث من المجلس - حديث رقم (٤٨٦٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود حديث رقم (٤٨٦٠) ٢/ ٨١٦.

(٢) سورة سبأ: الآية: ٤٦.

(٣) زاد المسير: ٦/ ٤٦٥.

٦ – أن يكون الهدف الوصول إلى الحقيقة، وذلك بأن يقصد بكلِّ طرف من الأطراف إظهار الحقِّ والصواب في الموضوع الذي هو موضع الخلاف، حتى ولو كان الإظهار على يد الطرف الآخر المخالف.

إنَّ إتباع الحقِّ، والسعي للوصول إليه، والحرص على الالتزام، هو الذي يقود الحوار إلى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا التواء.

٧ – تحديد مسألة الحوار، وهذا الأدب من الأهمية بمكان، بحيث توضع مسألة معينة ومحددة يقوم الحوار حولها، فليس هناك تعميم، بحيث توضع الألفاظ في مواضعها السليمة، وتقرر فيه الأمور تقريرًا – لحمته وسداه الصدق والعدل، وتوزن فيه الأفعال بميزان القسط، الذي لا يُظلم فيه أحد من المتحاورين، وما من أمَّة يفشو فيها التعميم بلا بينة، ويكثر فيها عدد السفهاء إلَّا وأمرهم فرطًا، فإن التعميم شغب.

٨ – إقامة الحجَّة بمنطق سليم، فمن أهم مبادئ الحوار، وآدابه إبراز الدليل الناصع، والبرهان الساطع، والمنطق السليم الذي يلقم المكابر أو المعاند حجرًا، ويجعله لا يستطيع أن يمضى في جداله.

٩ – أن يقوم الحوار على مبدأ العدالة بمعناها الواضح والشامل، كمبدأ إنساني أقره الإسلام، وجعله قاعدة من قواعد الحكم بين الناس، وهو يقوم على إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، والعدالة الإسلامية تحمي المسلمين، وغير المسلمين، وتفرض على أُولِي الأمر حماية حقوق الإنسان دون تمييز أو تحيز، وهذا يقوي ثقة الإنسان بنفسه، وفي النظام السياسي الذي يعيش في كنفه، وهذا يدفعه إلى المطالبة بحقوقه وممارستها من دون حرج أو خوف، يقول – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]. أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال، وقال بعض السلف: ما

(١) سورة المائدة: الآية: ٨.

عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض»[1].

ففي الآية أمر الله تعالى - المؤمنين أن يكونوا قوامين لله تعالى - بسائر حقوقه عليهم من الطاعات، وأن يكونوا شهداء بالعدل لا يحيفون ولا يجورون في شيء سواه كان المشهد عليه وليًا أو عدوًا، ونهاهم أن يحملهم بغض قوم أو عداوتهم على ترك العدل وقد أمروا به، ثم أمرهم بالعدل وأعلمهم أن أهل العدل هم أقرب الناس إلى التقوى، لأن من كانت ملكة العدل صفة له كان أقدر على أداء الحقوق والواجبات، وعلى ترك الظلم واجتناب المنهيات، ثم أمرهم بالتقوى مؤكدًا شأنها؛ لأنها ملاك الأمر، وأعلمهم بأنه خبير بما يعملون لتزداد ملكة مراقبة الله تعالى - في نفوسهم فيفوزون بالعدل والتقوى معًا»[2].

١٠ - إعطاء حرية الرأي لكلِّ طرف من أطراف الحوار في أن يقبل، أو يرفض ما يُعرض عليه من آراء، وأفكار، وعقائد، وموضوعات شتى، وعلى الآخرين أن يحترموا هذه الحرية.

١١ - احترام الرأي الصائب، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، والاعتراف بمنزلته ومقامه، فيخاطب بالعبارات اللائقة، والألقاب المستحقة، والأساليب المهذبة، إنَّ تبادل الاحترام يقود إلى قَبُول الحقِّ، والبعد عن الهوى، والانتصار للنفس، أمَّا انتقاص الرجال، وتجهليها فأمر معيب.

فأسمى وأشرف ألوان الحوار احترام الرأي الصواب، رأي العقلاء المخلصين حتى لو كان صاحب هذا الرأي لحدث السن، ولينظر المحاور إلى بعض الفقهاء عندما يقول: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

١٢ - التسامح، وهو خُلق إنساني أصيل دعا إليه الإسلام؛ لأنَّه يرفع الحرج في العلاقات بين الناس، ويجعل الإنسان يترفع عن الكُره، والبغضاء، وروح الثَّأر والانتقام، وهي صفات تُفسد وتُدمِّر الحياة البشرية في الأرض، وتقطع سُبل التفاهم والتعاون بين

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٢.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لأبي بكر الجزائري، ١/ ٦٠٢ وما بعدها.

الناس، وفي مقابل ذلك يدعو - سبحانه إلى العفو، والتسامح، ونسيان الأحقاد، والعمل بالحسنى، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

١٣ - المساواة، وهي في الإسلام تعني إلغاء الفروق بين بني الإنسان بسبب اللّون أو الجنس أو الدين أو اللغة أو المال أو العلم، وإنّما يكون التمايز بين ذلك بالعمل الصالح الذي عليهم جميعًا بالفائدة، ولكن أجره على ذلك، والمساواة بهذا المعنى تبث الثقة بين الناس، وتدفع إلى التعايش، والتعاون.

وإذا كان الإسلام قد رفض المراء وتوعّد الممارين فإنّه أمر بالحوار سبيلًا للوصول إلى الحقّ وتبيّن الرّأي السّديد؛ لأنّ ذلك كما يقول الإمام الغزاليّ - رحمه الله: تعاون على طلب الحقّ - وهو من الدّين - شريطة أن يتحلّى المتحاورون بما يلي:

١ - ألّا يشتغل به وهو من فروض الكفايات - من لم يتفرّغ من فروض الأعيان.

٢ - ألّا يرى المناظر (أو المحاور) فرض كفاية آخر أهمّ منه في وقته ومكانه.

٣ - أن يكون المحاور أو المناظر يفتي برأيه لا بمذهب فلان أو فلان.

٤ - أن يكون الحوار أو المناظرة في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع لأنّ الصّحابة - رضوان اللّه عليهم - ما تشاوروا إلّا فيما تجدّد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه.

٥ - أن تكون المناظرة (الحوار) في الخلوة أحبّ إليه وأهمّ من المحافل وبين أظهر الأكابر والسّلاطين، لأنّ في حضور الجمع ما يحرّك دواعي الرّياء ويوجب الحرص على أن ينصر كلّ واحد نفسه محقّا كان أو مبطلًا.

٦ - أن يكون الحوار في طلب الحقّ، وذلك كناشد ضالّة لا يفرّق بين أن تظهر الضّالّة على يديه أو على يد من يعاونه.

٧ - أن يرى محاوره معينًا له لا خصمًا وأن يشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحقّ.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان: ٣٤، ٣٥.

٨ - ألّا يمنع مناظره أو محاوره من الانتقال من حجّة إلى حجّة ومن دليل إلى دليل، ومن تفحّص مشاورات الصّحابة - رضوان اللّه عليهم - ومفاوضات السّلف، وجدها من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كلّ ما يخطر لهم وينظرون فيه.

٩ - ألّا يناظر أو يحاور إلّا من يتوقّع الاستفادة منه ممّن هو مشتغل بالعلم[1].

فما أحوجنا اليوم لأدب الحوار كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأن نتحلى بأدب الحوار التي من شأنها أن يكون الحوار جادًا مثمرًا؛ وذلك من خلال الصدق، والكلمة الطيبة، احترام الرأي الآخر، وغير ذلك مما سبق بيانه.

(١) إحياء علوم الدين: ١/ ٤٤ وما بعدها، نضرة النعيم: ٢/ ١٥١ وما بعدها.

أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ[1]

وصية النبي ﷺ لأحد أصحابه لما سأله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك، فاللسان صغير حجمه، عظيم طاعته، وجرمه، فبكلمة باللسان يرضى عنك الرحمن - سبحانه، وبكلمة يسخط عليك، وبكلمة تدخل الجنة، وبكلمة تدخل النار، وبكلمة تصلح بين اثنين، وبكلمة تفرق بين الأفراد والمجتمعات، وبكلمة تُكثِر الحسنات، وبكلمة تُكثِر السيئات، فما أحوجنا إلى المحافظة على اللسان بإطلاقه في الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وسائر أعمال الخير، وأن نكف ألسنتنا عن الشرِّ من الغيبة، والنميمة، والكذب، والوقوع في أعراض الناس، والكلام فيما لا يعني، وإشاعة الفوضى في البلاد والعباد.

ولذلك نجد النبي ﷺ لما سُئِل أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[2]. أي: المسلم الكامل، وليس المراد نفي الإسلام عمن لم يكن بهذه الخصلة بدليل قوله في الحديث قبله: "أي المسلمين خير"، والمعنى من لم يؤذ مسلمًا بقول، ولا فعل، وخص اليد بالذكر؛ لأن معظم الأفعال بها. قال النووي: ثم إن كمال الإسلام والمسلم يتعلق بخصال أخر كثيرة، وإنما خص المذكور للحاجة الراهنة"[3].

وقال المهلب: "يريد المسلم المستكمل لأُمور الإسلام خلاف قول المرجئة، والمراد بهذا الحديث الحض على ترك أذى المسلمين باللسان واليد والأذى كله، ولهذا قال الحسن البصري: الأبرار هم الذين لا يؤذون الذّر والنمل"[4].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١١٨٦)، السنة الثالثة والعشرين، ١٢ من صفر ١٤٣٧هـ ٢٤ من نوفمبر ٢٠١٥م.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده حديث رقم (١٠) ١/ ٨.

(٣) الديباج على مسلم: ١/ ٥٧، وشرح النووي على مسلم: ٢/ ١٠.

(٤) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١/ ٦٢.

وقال الإمام ابن رجب – رحمه الله: "والمراد بذلك المسلم الكامل الإسلام، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فإنه ينتفي عنه كمال الإسلام الواجب، فإن سلامة المسلمين من لسان العبد ويده واجبة، فإن أذى المسلم حرام باللسان وباليد، فأذى اليد: الفعل، وأذى اللسان القول.

والظاهر: أن النبي ﷺ إنما وصف بهذا في هذا الحديث؛ لأن السائل كان مسلمًا قد أتى بأركان الإسلام الواجبة لله عزَّ وجلَّ –، وإنما يجهل دخول هذا القدر الواجب من حقوق العباد في الإسلام، فبين له النبي ﷺ ما جهله"(١).

وبيّن أن الكلمة الطيبة سبب في رضوان الله تعالى – عن العبد، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(٢).

قال الإمام ابن بطال – رحمه الله: "ما أحق من علم أن عليه حفظةً موكلين به، يحصون عليه سقط كلامه وعثرات لسانه، أن يحزنه ويقل كلامه فيما لا يعنيه، وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندمه من قول الزور والخوض في الباطل، وأن يجاهد نفسه في ذلك ويستعين بالله ويستعيذ من شر لسان"(٣).

وسبب في دخول الجنة، وذلك فيما جاء عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرْفَةً، قَدْ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(٤).

---

(١) فتح الباري: لابن رجب ١/ ٣٣.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان – حديث رقم (٦٥٥٦) ٣/ ١٣١٤.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ١٨٧ وما بعدها.

(٤) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في قول المعروف – حديث رقم (٢١١٢) ٢/ ٥١٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٨٤).

ولما جاءه سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ، فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا"(١).

وضمان الجنة بحفظ اللسان فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(٢).

قوله: (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ) يعني لسانه فلم يتكلم بما يكتبه عليه صاحب الشمال (وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ) يعني فرجه فلم يستعمله فيما لا يحل له (أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ). ودل بهذا الحديث أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج، فمن وقى شرهما فقد وقى أعظم الشر"(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: (إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا)(٤).

قوله "تُكَفِّرُ": أي: تواضع وتذلل، وأصله أن يومىء الرجل برأسه وينحني إذا أراد تعظيم صاحبه"(٥).

وفي الأثر: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»(٦).

---

(١) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في حفظ اللسان – حديث رقم (٢٥٩٢) ٢/ ٦١٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤١٠).

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان – حديث رقم (٦٥٥٢) ٣/ ١٣١٤.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١٠/ ١٨٦.

(٤) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في حفظ اللسان – حديث رقم (٢٥٨٧) ٢/ ٦١٥، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٠٧).

(٥) غريب الحديث: للخطابي ٢/ ٤٤٢، الفائق في غريب الحديث والأثر: للزمخشري ٣/ ٢٦٩.

(٦) سنن الترمذي – كتاب الإيمان – باب ما جاء في حرمة الصلاة حديث رقم (٢٨٢٥) ٢/ ٦٦٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٦١٦).

ولننظر إلى وصية النبي ﷺ والتي يبيِّن فيها أنَّ أكثر حصائد النار من اللسان، وذلك فيما جاء عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: "بَخٍ، لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ تُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَلْقَى اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ: فَالْإِسْلَامُ، فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَأَمَّا عَمُودُهُ: فَالصَّلَاةُ، وَأَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ وَقِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكَفِّرُ الْخَطَايَا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}، أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْلَكِ ذَلِكَ لَكَ كُلِّهِ؟" قَالَ: فَأَقْبَلَ نَفَرٌ، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ يَشْغَلُوا عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ شُعْبَةُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَوْلُكَ أَوَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْلَكِ ذَلِكَ لَكَ كُلِّهِ؟ قَالَ: فَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّا لَنُؤَاخَذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟"[1].

فيجب على كل مسلم أن يحذر هذه الحصائد، وأن يحفظ لسانه من الكذب، والغشِّ، وقول الزور، والغيبة، والنَّميمة، وكلِّ قول يغضب الله تعالى -.

ولننظر إلى سلفنا الصالح - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كيف كان حالهم مع اللسان؟، وكيف كانوا يدركون خطره؟، فهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان، وكان يخاطب لسانه قائلًا: يا لسان قل خيرًا تغنم واسكت عن شرٍّ تسلم من قبل أن تندم[2].

ودخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يجذب لسانه، فقال عمر: مه، غفر الله لك، فقال له أبو بكر: إن هذا أوردني بشرِّ الموارد[3].

---

(١) سنن ابن ماجه كتاب الفتن - باب كف اللسان في الفتنة - حديث رقم (٤١٠٨) ١/ ٥٧٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٠٤٤).

(٢) المعجم الكبير للطبراني - من اسمه عبد الله طرق حديث عبد الله بن مسعود ليلة الجن مع رسول الله حديث رقم (١٠٢٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٢٠١).

(٣) موطأ مالك - كتاب الكلام - باب فيما جاء فيما يخاف من اللسان - رقم (١٨٢٥) ١/ ٣٨٤.

فإذا كان هذا هو حال صديق الأمة الأكبر، المبشر بالجنة، صاحب النبي، ورفيقه في الغار خير، رجال هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ويقول عن لسانه أنَّه أورده المهالك، فكيف حالنا نحن في هذه الأيام؟ التي كثُر فيها السباب، والشتائم، والقذف، والغيبة، والنَّميمة، والكذب، وشهادة الزور، وترويج الإشاعات الكاذبة، ونشر الفوضى في البلاد والعباد ما أحوجنا إلى وصية النبي ﷺ التي يقول فيها: (مَنْ صَمَتَ نَجَا)[1].

قال شميط بن عجلان: يا ابن آدم إنَّك ما سكتَّ فأنت سالم، فإذا تكلمت فخذ حذرك، إمَّا لك أو عليك[2].

وقال محمد بن عجلان: إنَّما الكلام أربعة: أن تذكر الله، وتقرأ القرآن، وتُسأل عن علم فتخبر به، أو تكلم فيما يعنيك من أمر دنياك[3].

وقيل: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهرت لك حقيقته.

وقال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت[4].

وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية - رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت، فقال له مالك: يا أبا بحر لا تتكلم فقال له: أخشى الله إن كذبت، وأخشاك إن صدقت[5].

فالسعيد في هذه الحياة من حفظ لسانه، واغتنم لحظات عمره في طاعة الله تبارك وتعالى.

لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ[6]

---

(١) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب - إكرام الضيف وقول الخير - حديث رقم (٢٦٨٩) ٢/ ٦٣٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٥٠١).

(٢) حلية الأولياء: ٣/ ١٢٩.

(٣) مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا: ٥/ ٣١٥.

(٤) حسن السمت في الصمت: للسيوطي، ص ٤١.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ١١١.

(٦) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١٦٧)، السنة الرابعة والعشرين، ٢٠ من جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ ٢٩ مارس ٢٠١٦م، والعدد (١٦٧٧)، السنة الرابعة والعشرين، ١٢ من رجب ١٤٣٧هـ ١٩ من أبريل ٢٠١٦م.

ذات يوم والنبي ﷺ بين أصحابه؛ إذ دخل عليه أحد الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِنِي، قَالَ: «لاَ تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لاَ تَغْضَبْ»[1]، وفي رواية قال: "لَا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ"[2].

فالغضب جمرة من نار في جوف ابن آدم، وهو تغيُّر يحصل عند فوران دم القلب؛ ليحصل عنه التشفي في الصدر.

"والغضب غليان دم القلب المؤذي عنه خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل له منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المُحرَّمة، كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة، كالقذف، والسَّبِّ والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر كما جرى لجبلة بن الأيهم"[3].

وكثيرًا ما نسمع أنَّ والدًا قتل ولده، أو ولدًا قتل والده فضلًا عن غيرهم بسبب الغضب، وكم ضاع من خير وأجر وفضل بسبب الغضب، وكم حلَّت من مصيبة ودمار وهلاك بسبب الغضب، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن وائل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي لَقَاعِدٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ يَقُودُ آخَرَ بِنِسْعَةٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا قَتَلَ أَخِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟» - فَقَالَ: إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَعْتَرِفْ أَقَمْتُ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةَ - قَالَ: نَعَمْ قَتَلْتُهُ، قَالَ: «كَيْفَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَهُوَ نَخْتَبِطُ مِنْ شَجَرَةٍ، فَسَبَّنِي، فَأَغْضَبَنِي، فَضَرَبْتُهُ بِالْفَأْسِ عَلَى قَرْنِهِ، فَقَتَلْتُهُ... "[4].

والغضب منه ما هو محمود، وهو ما كان الله عندما تنتهك محارمه، وهذا ثمرة من ثمرات الإيمان؛ إذ إنَّ الذي لا يغضب في هذا المحلِّ ضعيف الإيمان قال - تعالى - عن

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب - حديث رقم (٦١٨٤) ٣/ ١٢٤٧.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف - باب من اسمه إبراهيم - حديث رقم (٢٣٥٣) ٣/ ٢٥، ط/ دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٣٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم: ١/ ١٤٧.

(٤) صحيح مسلم - كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات - باب صحة الإقرار بالقتل - حديث رقم (٤٤٨١) ٢/ ٧٢٨.

موسى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – بعد علمه باتخاذ قومه العجل ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وكان النبي ﷺ لا يغضب إلا أن تنتهك محارم الله، وذلك كما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – »[2].

وما أكثر ما تنتهك محارم الله تعالى – في هذا الزمان علنًا وسرًّا، فكثير من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة لا همَّ لها سوى نشر الرذيلة، ومحاربة الفضيلة، وإشاعة الفاحشة، وبث الشبهات، وتزيين المنكر، وإنكار المعروف، والاستهزاء بالدين وشعائره، فهذا كلُّه ممَّا يُوجِب الغضب لله تعالى – وهو من الغضب المحمود، وعلامة على قوة الإيمان، وهو ثمرة لحفظ الأوطان، وسلامة الأبدان، وتظهر ثمرة الغضب هنا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرّدِّ على الشبهات، أمَّا السكوت المطبق مع القدرة على التغيير فسبب للهلاك، وكذلك من الغضب المحمود: الغضب لما يحدث للمسلمين من سفك للدماء، وانتهاك للأعراض، واستباحة للأموال، وتدمير للبلدان بلا حقٍّ[3].

وأمَّا الغضب المذموم، وهو ما كان في سبيل الباطل، والشيطان، كالحمية الجاهلية، والغضب بسبب تطبيق الأحكام الشرعية، وانتشار حلق تحفيظ القرآن الكريم، ومعاداة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بسبب محاربتهم للرذيلة، وكذا الدفاع عن المنكرات، كالتبرج والسفور، وسفر المرأة بلا محرم، ويظهر ذلك جليًّا في كتابة بعض كُتَّاب الصحف؛ فتجد أحدهم يغضب بسبب ذلك، ولا همَّ له سوى مسايرة العصر !!

---

(١) سورة الأعراف: الآية: ١٥٠.

(٢) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح – حديث رقم (٦١٩٥) ٢/ ٩٩٩.

(٣) الغضب آداب وأحكام: د/ نايف الحمد ص٦.

سواء وافق الشرع المطهر أو خالفه، فالحقُّ عندهم ما وافق هواهم، والباطل ما حدَّ من مبتغاهم.

فينبغي على المسلم أن يسعى في علاج الغضب، فالله عزَّ وجلَّ - ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء، ومن هذه الأدوية: الاستعاذة بالله من الشيطان: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].

و»الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنَّها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كلِّ جبَّار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أنَّ الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان... ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبهما هلك من هلك، وفسد من فسد، وإذا كان الحقد والحسد والغضب، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب، فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه!؛ ليحذر ذلك ويتقيه، ويمطيه عن القلب إن كان، وينفيه، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه، فإنَّ من لا يعرف الشرَّ يقع فيه، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشرَّ ويقصيه»[2].

فينبغي على المسلم أن يسعى في علاج الغضب، فالله عزَّ وجلَّ - ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء، ومن هذه الأدوية: الاستعاذة بالله من الشيطان: قال - تعالى -: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا غَضْبَى، فَأَخَذَ الْمِفْصَلَ مِنْ أَنْفِي فَعَرَكَهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُوَيِّشُ، قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ بِطَرَفِ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنَ الشَّيْطَانِ»[4].

(١) سورة فصلت: الآية: ٣٦.

(٢) الإحياء: ٣/ ١٦٤.

(٣) سورة فصلت: الآية: ٣٦.

(٤) عمل اليوم والليلة لابن السني - حديث رقم (٦٢١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (٤٤٣٣).

فيستحب أن تقول ذلك، فإن لم يزل بذلك، فاجلس إن كنت قائمًا، واضجع إن كنت جالسًا، وأقترب من الأرض التي منها خلقت؛ لتعرف بذلك ذلَّ نفسك، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون، فإنَّ سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة[1]، وذلك لما أخرجه أبو داود في سننه بسند صحيح عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله قال: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ»[2].

والوضوء من الأدوية التي أوصى بها النبي ﷺ لعلاج الغضب، وذلك فيما جاء عن عطية السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ"[3].

وأن يستحضر عند الغضب الأجر العظيم لكظم الغيظ، فمن استحضر الثواب الكبير الذي أعده الله تعالى – لمن كظم غيظه وغضبه كان سببًا في ترك الغضب والانتقام للذّات، ومن ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده أنَّه ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله: "ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة، وذلك؛ لأنَّ أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم، والمؤلم إن كان ممَّا يمكن دفعه أثار الغضب، وإن كان ممَّا لا يمكن دفعه أثار الحزن، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز"[5].

---

(١) الإحياء: ٣/ ١٧٤.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب ما يقال عند الغضب – حديث رقم (٤٧٨٤) ٢/ ٨٠٦، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٧٤٨٢).

(٣) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب ما يقال عند الغضب – حديث رقم (٤٧٨٦) ٢/ ٨٠٦، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود حديث رقم (٤٧٤٨).

(٤) مسند أحمد بن حنبل – مسند المكيين – حديث معاذ بن أنس الجهني – حديث رقم (١٥٦٣٧) ٢٤/ ٣٩٨.

(٥) الاستقامة: ٢/ ٢٧٢.

والإكثار من ذكر الله، قال – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1]، فمن اطمئن قلبه بذكر الله تعالى – كان أبعد ما يكون عن الغضب.

والعمل بوصية النبي ﷺ لمَّا قال له الرجل أوصني، قال (لا تغضب) فردد مرارًا قال (لا تغضب)[2]، وهنيئًا لمن امتثل هذه الوصية، وعمل بها، ولا شك أنَّها وصية جامعة مانعة لجميع المسلمين.

والتأمُّل في نتائج الغضب، فكثير الغضب تجده مصابًا بأمراض كثيرة، كالسكري، والضغط، والقولون العصبي، وغيرها، ممَّا يعرفها أهل الاختصاص، كما أنَّه بسببه تَصْدُرُ من الغاضب تصرفات قولية أو فعلية يندم عليها بعد ذهاب الغضب، ومنها: أن يعلم أنَّ القوة في كظم الغيظ، فليس الشديد بالصرعة، ولكن من يملك نفسه عند الغضب، ومن كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

والتأسي بهديه ﷺ في الغضب، ومنها ما جاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ»، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، حَتَّى «نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ»، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، «فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[3].

ومن التأسي أن نجعل غضبنا لله، وإذا انتهكت محارم الله، وهذا هو الغضب المحمود، فقد غضب ﷺ لما أخبروه عن الإمام الذي يُنفِّر الناس من الصلاة بطول قراءته، وغضب لما رأى في بيت عائشة سترًا فيه صور ذوات أرواح، وغضب لما كلمه

---

(١) سورة الرعد: الآية: ٢٨.

(٢) سبق تخريجه: ص٤٥٣.

(٣) صحيح البخاري – كتاب فرض الخمس – باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم – حديث رقم (٣١٨٥) ٢/ ٦١٤، صحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة – حديث رقم (٢٤٧٦) ١/ ٤١٣.

أسامة في شأن المخزومية التي سرقت، وقال: أتشفع في حد من حدود الله؟[1]، وغضب لما سُئل عن أشياء كرهها، وغير ذلك، فكان غضبه ﷺ لله، وفي الله.

والإكثار من الدعاء، فهو سلاح المؤمن، فدائمًا يطلب من ربه أن يخلِّصه من الشرور والآفات والأخلاق الرديئة، ويتعوذ بالله أن يتردى في هاوية الكفر أو الظلم بسبب الغضب، ولأنَّ من الثلاث المنجيات: العدل في الرضا والغضب، وكان من دعائهـ عليه الصلاة والسلام -: «اللهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي اللهُمَّ أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ، يَعْنِي فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحُكْمِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرَدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[2].

قال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله، إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقِّ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له، وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبد الله أوصني؟ قال: لا تغضب، قال: لا أقدر قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك[3].

ومن مضار (الغضب)[4]:

(١) يغضب الرّحمن الرّحيم ويرضي الشّيطان الرّجيم.

(٢) الصّبر عليه أشدّ وأصعب من مجاهدة العدوّ.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان - حديث رقم (٦٨٧٥) ٣/ ١٣٧٠، صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب قطع السارق الشريف وغيره حديث رقم (٤٥٠٥) ٢/ ٧٣٢.

(٢) السنن الصغرى للنسائي - كتاب السهو - نوع آخر - حديث رقم (١٣١٣)١/ ٢١٣، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (١٣٠٤).

(٣) إحياء علوم الدين: ٣/ ١٧٦.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ١١/ ٥٠٩٧.

(٣) يؤول إلى التّقاطع وإفساد ذات البين.

(٤) يتولّد منه الحقد والحسد وهذا نقص في العقل والدّين.

(٥) كثيرًا ما يعقبه الاعتذار والنّدم، وقد يكون بعد فوات الأوان.

(٦) يجعل صاحبه لا يستفيد من الموعظة والعبرة.

(٧) قد يؤثّر على البدن حتّى يعمي البصر ويصمّ الآذان، ويخرس اللّسان، ويعجز الإنسان، بل قد يموت الإنسان وتزهق نفسه بالكلّيّة.

(٨) نفرة الخلق عنه وخوفهم من القرب منه.

وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا [1]

إنَّ المتأمل في نعم الله تعالى - على عباده يجد أنَّها لا تعدُّ، ولا تحصى، نعم ظاهرة، ونعم باطنة، ومن هذه النعم: نعمة اللسان فاللسان هو أداة التعبير والخطاب والبيان، وهو مع صغر حجمه إلا أنَّه عظيم طاعته وجرمه، فربَّما بكلمة يرضى عنك الرحمن، وبكلمة يسخط عليك، ومن آفات اللسان التي كثرت وانتشرت انتشار النار في الهشيم الغيبة، هذا الداء العضال الذي تعاني منه كثير من الأفراد والمجتمعات، والغيبة كما ذكر العلماء أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواه ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته[٢].

وقد حذرنا ربنا - جلَّ وعلا - منها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

يقول - تعالى - ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأنَّ بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليتجنب كثير منه احتياطًا»[٤].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ﴾ قال: حرّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرّم المَيْتة، وعن

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١٦٩٤)، السنة الرابعة والعشرين، ١٣ من ذي القعدة ١٤٣٧هـ ١٦ من أغسطس ٢٠١٦م، والعدد (١٧٠٣)، السنة الرابعة والعشرين، ١٧ من المحرم ١٤٣٨هـ ١٨ من أكتوبر ٢٠١٦م.

(٢) الإحياء: ٣/ ١٤٤.

(٣) سورة الحجرات: الآية: ١٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٦.

قتادة رحمه الله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ يقول: كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حيّ»[1].

وحذرنا المصطفى ﷺ من الغيبة، وبيَّن لنا عظيم خطرها وضررها على الإنسان المسلم في الدنيا وفى الآخرة، فعن عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: رأيتُ النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ، وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[3].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ»[4].

وبيّن لنا حد الغيبة فيما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[5].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢/ ٣٠٧.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الفتن - باب حرمة دم المؤمن وماله حديث رقم (٤٠٦٧) ١/ ٥٦٧، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٤٤١).

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر - حديث رقم (٦١٣٣) ٣/ ١٢٣٩، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظن - حديث رقم (٦٧٠١) ٢/ ١٠٩١.

(٤) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها - حديث رقم (٦٧٠٤) ٢/ ١٠٩٢.

(٥) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الغيبة - حديث رقم (٦٧٥٨) ٢/ ١١٠٠.

قال الإمام النووي – رحمه الله: "اعلم أنَّ الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا في الناس، حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس، وذكرك أخاك بما يكره عام سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو خادمه أو ثوبه أو مشيه وحركته وبشاشته وعبوسته وطلاقته أو غير ذلك، ممَّا يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك ونحو ذلك، وضابطه: أنَّ كلَّ ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة، ومن ذلك المحاكاة بأن يمشي متعرجًا أو مطأطأ أو على غير ذلك من الهيئات مريدًا حكاية هيئة من ينقصه بذلك"[1].

وربما نجد الكثير من الناس اليوم ربما يستهين بكلمة، ويقول هذه كلمة بسيطة، ويظن أنَّه لن يحاسب عليها أو أنها ليست ذنبًا كبيرًا، وربَّما هذه كبيرة من الكبائر قد تؤدي به إلى الخلود في النار، والعياذ بالله إن لم يتب منها، ولنتأمل في هذا الحديث عن عائشة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قالت: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا» [2].

فيه أنَّ هذه الغيبة لو كانت ممَّا يمزج بالبحر لغيرته عن حاله مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزرة خلطت بها؟[3].

وأنَّ من الشر تحقير المسلم لأخيه المسلم، وربما يكون أفضل عند الله تعالى – منه فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ، وَعِرْضُهُ، وَدَمُهُ حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»[4].

---

(١) الأذكار: ص ٣٨٢.

(٢) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في الغيبة – حديث رقم (٤٨٧٧) ٢/ ٨١٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٤٨٧٥).

(٣) تحفة الأحوذي: ٧/ ١٧٧.

(٤) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم ظلم المسلم – حديث رقم (٦٧٠٦) ٢/ ١٠٩٢.

وأخبر ﷺ أنَّ من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته، ومن ذلك ما جاء عن أبي برزة الأسلميّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»[1].

وقوله: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه)، فيه تنبيه على أنَّ غيبة المسلم من شعار المنافق لا المؤمن، (ولا تتبعوا عوراتهم)، أي: لا تجسسوا عيوبهم ومساويهم (فإنَّه)، أي: الشأن (يتبع الله عورته) ذكره على سبيل المشاكلة، أي: يكشف عيوبه وهذا في الآخرة، وقيل: معناه يجازيه بسوء صنيعه (يفضحه) من فضح، كمنع، أي: يكشف مساويه (في بيته)، أي: ولو كان في بيته مخفيًّا من الناس[2].

وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما بعد: فإني أوصيك بذكر الله عزَّ وجلَّ –، فإنَّه دواء، وأنهاك عن ذكر الناس؛ فإنَّه داء، وعن عون بن عبد الله قال: ما أحسب أحدًا تفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه، وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا رأيتم الرجل مولعًا بعيوب الناس ناسيًا لعيبه فاعلموا أنَّه قد مُكِر به[3].

وقال الحسن: «ذكر الغير ثلاثة: الغيبة، والبهتان، والإفك، وكلّ في كتاب اللّه فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وقال – رحمه اللّه: واللّه للغيبة أسرع في دين الرّجل من الأكلة في الجسد"[4].

فالغيبة كما ذكره العلماء، وهي: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواه ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته، ولكن مع أنَّ الغيبة حرام وكبيرة من الكبائر، كما أوضحنا إلا أنَّه هناك مواضع تباح فيها، وفي ذلك يقول الإمام النووي – رحمه الله: "اعلم أنَّ الغيبة وإن

(١) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في الغيبة – حديث رقم (٤٨٨٢) ٢/ ٨٠١٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٤٨٨٠).

(٢) عون المعبود: ١٣/ ١٥٣.

(٣) ذم الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا: ص٦٠ – ٧٠.

(٤) الإحياء: ٣/ ١٤٤.

كانت محرمة فإنَّها تُباح في أحوال للمصلحة، والمجوز لها غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو أحد ستَّة أسباب[1]:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو له قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكر: أنَّ فلانًا ظلمني، وفعل بي كذا، وأخذ لي كذا، ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: ظلمني، أبي أو أخي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك، أم لا ؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي ودفع الظلم عني؟، ونحو ذلك.

وكذلك قوله: زوجتي تفعل معي كذا، أو زوجي يفعل كذا، ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط أن يقول: ما تقول في رجل كان من أمره كذا، أو في زوج أو زوجة تفعل كذا، ونحو ذلك، فإنَّه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز، لحديث هند الذي سنذكره إن شاء الله تعالى -، وقولها: " يَا رَسُولَ اللهِ، إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيْحٌ.."[2] الحديث، ولم ينهها رسول الله.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة للحديث والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: إذا استشارك إنسان في مصاهرته، أو مشاركته، أو إيداعه، أو الإيداع عنده، أو معاملته بغير ذلك، وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة، فإن حصل الغرض بمجرد قولك لا تصلح لك معاملته، أو مصاهرته، أو لا تفعل هذا، أو

---

(١) الأذكار: ص٤٢٩ - ٤٣١.

(٢) هذا جزء من حديث صحيح البخاري عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ آخُذَ مِنْ مَالِهِ سِرًّا؟ قَالَ: «خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ»، صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم - حديث رقم (٢٢٥٠) ١/ ٤٠٨.

نحو ذلك، لم تجز الزيادة بذكر المساوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه فاذكره بصريحه.

ومنها: إذا رأيت من يشتري عبدًا معروفًا بالسرقة أو الزنا أو الشرب أو غيرها، فعليك أن تبيِّن ذلك للمُشترِي إن لم يكن عالمًا به، ولا يختص بذلك، بل كل من علم بالسلعة المبيعة عيبًا وجب عليه بيانه للمُشترِي إذا لم يعلمه.

ومنها: إذا رأيت متفقهًا يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم خفت أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليك نصيحته ببيان حاله، ويشترط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، أو يلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنَّه نصيحة وشفقة، فليتفطن لذلك.

ومنها: أن لا يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إمَّا بأن لا يكون صالحًا لها، وإمَّا بأن يكون فاسقًا أو مغفلًا، ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولي من يصلح أو يعلم ذلك منه؛ لتعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مُجاهِرًا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، أو مصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر ممَّا ذكرناه.

السادس: التَّعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب: كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى[1].

وللغيبة كفارة، وهي كما بينها الإمام النووي – رحمه الله بقوله:" اعلم أنَّ كل من ارتكب معصية لزمه المبادرة إلى التوبة منها، والتوبة من حقوق الله تعالى – يشترط فيها ثلاثة أشياء:

أن يقلع عن المعصية في الحال، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم ألا يعود إليها، والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع: وهو رد المظلمة إلى صاحبها

(١) الأذكار: ص٤٢٩ – ٤٣١.

أو طلب عفوه عنها والإبراء منها؛ فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة؛ لأنَّ الغيبة حقٌّ آدميٌّ، ولا بُدَّ من استحلاله من اغتابه.

وهل يكفيه أن يقول: قد اغتبتك فاجعلني في حلٍّ، أو لا بُدَّ أن يبيِّن ما اغتابه به؟ فيه وجهان لأصحاب الشافعي: أحدهما: يشترط بيانه، فإن أبرأه من غير بيانه، لم يصح، كما لو أبرأه عن مال مجهول، والثاني لا يشترط؛ لأنَّ هذا ممَّا يتسامح فيه، فلا يشترط علمه، بخلاف المال، والأول أظهر؛ لأنَّ الإنسان قد يسمح بالعفو عن غيبة دون غيبة، فإن كان صاحب الغيبة ميتًا أو غائبًا؛ فقد تعذر تحصيل البراءة منها، لكن قال العلماء: ينبغي أن يكثر من الاستغفار له والدعاء، ويكثر من الحسنات.

واعلم أنَّه يُستحب لصاحب الغيبة أن يبرئه منها، ولا يجب عليه ذلك؛ لأنَّه تبرع وإسقاط حق، فكان إلى خيرته، ولكن يُستحب له استحبابًا متأكدًا من الإبراء؛ ليخلص أخاه المسلم من وبال هذه المعصية، ويفوز هو بعظيم ثواب الله تعالى - في العفو ومحبة الله سبحانه وتعالى -، قال - تعالى -: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، وطريقه في تطبيب نفسه بالعفو أن يُذكِّر نفسه أنَّ هذا الأمر قد وقع، ولا سبيل إلى رفعه، فلا ينبغي أن أفوت ثوابه وخلاص أخي المسلم، وقد قال الله تعالى -: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2] [3].

ومن مضار الغيبة[4]: أن صاحب الغيبة يعذّب في النّار بأكل النّتن القذر، وينال عقاب اللّه في قبره، وتذهب أنوار إيمانه وآثار إسلامه، وهي معول هدّام وشرّ مستطير، وتؤذي وتضرّ وتجلب الخصام والنّفور، ومرض اجتماعيّ يقطع أواصر المحبّة بين المسلمين، ودليل على خسّة المغتاب ودناءة نفسه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٣٤.

(٢) سورة الشورى: الآية: ٤٣.

(٣) الأذكار: ص٤٣٦.

(٤) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ١١/ ٥١٧٧.

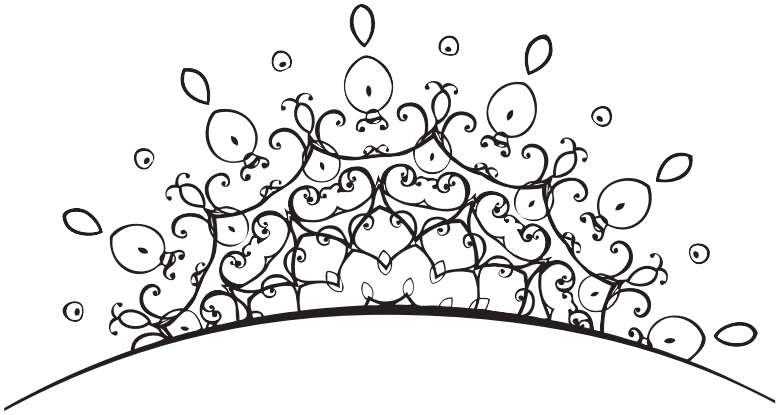

القسم السادس

متفرقات

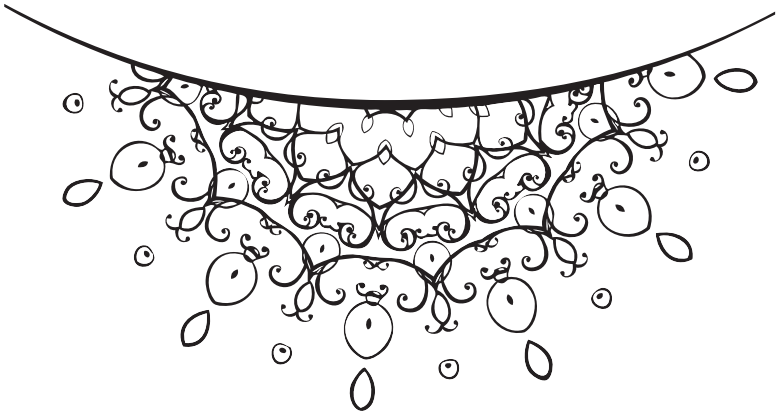

الْمَنْهَجُ النَّبَوِيُ فِي الدَّعْوَةِ [1]

إنَّ الدعوة إلى الله تعالى - هي سبيل الأنبياء والمرسلين، ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين، من العلماء الناصحين، والدعاة الصادقين، قال - عزَّ وجلَّ - مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]، وقال - تعالى -: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٣].

ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، للدعوة إليه سبحانه، تذكيرًا للغافل، وتعليمًا للجاهل، وردًّا للشارد عن منهج الله عزَّ وجلَّ -، ودعوةً له للرجوع إليه سبحانه، كما قال - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[٤]، وقال - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾[٥]، وقال - تعالى -: ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[٦].

فما أحوج الأمة الإسلامية الآن في هذه الأيام التي كثرت فيها الفتن إلى المنهج النبويِّ في الدعوة إلى الله؛ ليكون الداعي على بصيرة بما يدعو، فالدعوة إلى الله تعالى - من أشرف الأعمال وأجلها، قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٧].

---

(١) أصل هذا الموضوع تحقيق صحفي في جريدة الأهرام المسائي، السنة الخامسة والعشرين، ٢٩ رمضان ١٤٣٦هـ ١٦ يونيو ٢٠١٥م.

(٢) سورة يوسف: الآية: ١٠٨.

(٣) سورة النساء: الآية: ١٦٥.

(٤) سورة يونس: الآية: ٢٥.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٢٢١.

(٦) سورة إبراهيم: الآية: ١٠.

(٧) سورة فصلت: الآية: ٣٣.

فكيف كان منهج النبي ﷺ؟ وما هي الوسائل التي استخدمها النبيﷺ في دعوته مع الشباب والشيوخ والنساء والأطفال؟ وكيف كان منهج النبي ﷺ في التعامل مع غير المسلمين؟

دخل أعرابي المسجد والنبي ﷺ وأصحابه به فبال الأعرابي في المسجد فقام الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - لينهوه عن هذا الفعل، فقال لهم النبيﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»(١).

من هذا الموقف العظيم تتبيَّن لنا حكمة النبي ﷺ في الدعوة إلى الله ورحمته بالمدعوين والمخالفين، مع ما للمسجد من حرمة وقدسية ومكانة عظيمة، ومع ذلك لم ينهر النبي ﷺ الأعرابي على فعله هذا، وبعد أن انتهى انظر ماذا قال له النبي ﷺ بعدما دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ(٢).

فما أحوج الأمة وعلى وجه الخصوص الدعاة إلى الله تعالى - في هذه الأيام التي كثرت فيها الفتن والاختلافات والتشرذم إلى منهج النبي ﷺ في الدعوة قولًا وعملًا وفهمًا وتطبيقًا في الواقع المعاصر، لا أن تتحوَّل الخطابة والدعوة والإرشاد إلى كلمات نرددها على المنابر وفي الدروس، وإنَّما أن يكون قدوة في أسلوبه، وصاحب حكمة ورأفة ورحمة بالمدعوين، والتَّسامح مع المسلمين وغير المسلمين، حتى تصل صورة الإسلام إلى العالم كلِّه في أبهى صورة كما علمنا المصطفي ﷺ.

والمتأمِّل في منهج النبي ﷺ يجد أنَّه قد اتخذ عدَّة أساليب؛ منها:

١ - مراعاة حال المدعوين:

فمن منهج النبي ﷺ مراعاته ﷺ لحال المدعوين، فالدعوة إلى الله كالدواء لابُدَّ من وضعه في محله، ولا يمكن وضعه في المحل المناسب إلا بعد معرفة حال المريض، وما يناسبه من الدواء، فما يصلح لمريض قد لا يصلح لآخر، ومن الأمثلة على ذلك ما

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب قول النبي ﷺ: "يسروا ولا تعسروا" - حديث رقم (٦١٩٦) ٣/ ١٢٤٩.

(٢) سبق تخريجه: نفس الصفحة.

رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[1].

فلما رأى رسول الله ﷺ ضعف أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نصحه أن لا يقترب من الإمارة.

ولما رأى في خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القوة، جعله قائدًا مُقدمًا في ذلك على من هم أفضل منه، كأبي بكر، وعمر، وغيرهما - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أجمعين، ولمَّا أخطأ خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتل بني خزيمة، قال ﷺ على الملأ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ» مَرَّتَيْنِ[2].

ولم يعزله رغم فعله هذا، لما رأى فيه من القوة على الأعداء، الأمر الذي يحتمل منه مثل هذا الخطأ.

فينبغي على الدعاة إلى الله أن يراعو حال المدعوين، فكل له طريقة في الدعوة، وأسلوب في الحوار يختلف عن غيره، ومن الأخطاء التي نراها في كثير من الخطباء أن ترى أحدهم يحفظ خطبة جمعة، أو موعظة، ثم يلقيها في كل زمان ومكان، على كلِّ المدعوين، رغم اختلاف مستوياتهم الإيمانية، والعلمية، والعقلية.

٢ - الرفق والرحمة بالمدعوين:

فمن منهج النبي ﷺ الرفق والرحمة بالمدعوين، وقد بيَّن لنا - صلوات الله عليه وسلامه أنَّ الرفق والرحمة من أسس التعامل في الإسلام بين المسلمين بعضهم البعض، وبين المسلمين وغيرهم، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، قالت: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي

(١) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب كراهة الإمارة بغير ضرورة - حديث رقم (٤٨٢٣) ٢/ ٨٠٤.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأحكام - باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد - حديث رقم (٧٢٧٦) ٣/ ١٤٥٢.

الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَقَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ"(١).

وعن عائشة، زوج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»(٢).

والنبي ﷺ هو نبي الرحمة أرسله ربه تبارك وتعالى - رحمة للعالمين، قال - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٣).

فما أحوج الدعاة إلى الله تعالى - اليوم إلى الرحمة والرفق تأسيًا بالنبي ﷺ سيد الدعاة في دعوته، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَ اللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»(٤).

فانظر أخي الداعية كيف كان رفق النبي ﷺ في الدعوة بمن لا يعلم، ومع هذا الرفق فكان النبي ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله ممن يعلم.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الدعوات - باب الدعاء على المشركين - حديث رقم (٦٤٦٨) ٣/ ١٢٩٩، صحيح مسلم - كتاب السلام - باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم - حديث رقم (٥٧٨٤) ٢/ ٩٤١.

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل الرفق - حديث رقم (٦٧٦٧) ٢/ ١١٠١.

(٣) سورة التوبة: الآية:١٠٧.

(٤) صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام في الصلاة - حديث رقم (١٢٢٧) ١/ ٢١٥.

وانظر إلى رحمته ﷺ في الدعوة التي هي أساس عظيم من مناهج دعوته صلوات الله عليه وسلم - فيما جاء عن سُلَيْم بن عَامِرٍ أَنَّ أَبَا أُمَامَةَ حدثه أَنَّ غُلامًا شَابًّا أتى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي الزِّنَا، فَصَاحَ النَّاسُ فَقَالَ: «مَهْ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَقِرُّوهُ ادْنُ»، فَدَنَا حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ؟ أَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: «اللهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»[1].

فما أحوج الدعاة اليوم إلى تعلم هذا الرفق واللين والرحمة في الدعوة إلى الله، كما كان منهج النبي ﷺ في دعوته.

٣ - البدء بالأهم في الدعوة قبل المهم:

فكان من منهج النبي ﷺ التسلسل في الدعوة، والبدء بالأهم قبل المهم، والأهم هو توحيد الله عزَّ وجلَّ -، والتحذير من الشرك، ثم بعد ذلك العبادات والمعاملات والأخلاق، فأساس الدعوة هو التوحيد الخالص لله تعالى -، والتَّجرد من الشرك، ونرى ذلك واضحًا في قصة معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أرسله النبي ﷺ لدعوة أهل اليمن، وذلك فيما جاء عن ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»[2].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار - حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو - حديث رقم (٢٢٢١١) ٣٦/ ٥٤٥، وإسناده صحيح.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا - حديث رقم (١٥٢١) ١/ ٢٨٤.

فمن – هنا – يتعلم الداعية أنَّه لا بُدَّ أن يبدأ في دعوته بتصحيح العقائد، وتصفية العقيدة من الشوائب والشرك بالله، ثم بعد ذلك يبدأ بأمور العبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها، ممَّا أمر به الإسلام؛ فيكون عنده هذا التسلسل الدعوي الذي علمه النبي ﷺ لأصحابه وأمته ﷺ.

٤ – التَّسامح في الدعوة مع المسلمين، وغيرهم:

ومن منهج النبي ﷺ التَّسامح في الدعوة مع المسلمين وغير المسلمين ومن ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قال: "قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ بْنَ خَصَفَةَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: "اللهُ" فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ "قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ قَالَ: "وأَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ " قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ... "[1].

ومن تسامح النبي ﷺ – أيضًا – ما فعله يوم فتح مكة، فِيمَا حَكَى الشَّافِعِيُّ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ: "مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟ " قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: "اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"[2].

٥ – الصبر وتحمل الأذى في سبيل تبليغ رسالته:

صبر النبي ﷺ وتحمل الأذى في سبيل تبليغ رسالته محتسبًا ذلك عند ربه تبارك وتعالى – من أجل إنقاذ البشرية من الضلال، والخروج بهم من الظلمات إلى النور، ومع ما وقع له من أذى – صلوات الله عليه وسلامه لم يدع على قومه، بل كان دائمًا يدعو الله تعالى – لهم بالهداية، وأن يُخرِج الله تعالى – من أصلابهم من يوحد الله تعالى –، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه أنَّ النبي ﷺ قال: فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ،

---

(١) مسند أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم – مسند جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (١٤٩٢٩) ٢٣/ ١٩٣.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي – كتاب السير – جماع أبواب السير – باب فتح مكة حرسها الله تعالى – حديث رقم (١٨٧٣٩) ٩/ ١١٨.

فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1].

ومكَر به أهل مكة وأرادوا قتْله، فآوى إلى الغار فأكرَمه الله في الغار، وحارَبوه بعد أن ترَك لهم مكة يوم بدر فنصره الله عليهم، فعفا عن أسْراهم وحارَبوه في أحد حتى أصابته الحجارة فوقَع لشقه فأصيبت رَباعِيته، وشُجَّ وجهه، وكُلِمت شفتُه، فلم يَزِد على قوله:(اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي؛ فَإِنَّهُم لَا يَعْلَمُونَ)[2]. فما أحوج الدعاة إلى الله تعالى - اليوم إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل تبليغ الدعوة إلى الله تعالى - كما كان منهج النبي ﷺ في دعوته.

كانت هذه بعض الملامح والصور من منهج النبي ﷺ في الدعوة، فما أحوج الدعاة اليوم إلى الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ في الدعوة؛ حتى تحقق الدعوة ثمارها المرجوة منها.

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء - حديث رقم (٣٢٦٧) ٢/ ٦٣٢.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي - فصل في حدب النبي ﷺ على أمته ورأفته، حديث رقم (١٣٧٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (١٦٣٦).

الْهَدْيُ النَّبَوِيُّ فِي حُبِّ الأَوْطَانِ وَسُبُلُ تَحْقِيقِهُ[1]

إنَّ ديننا الإسلامي الحنيف هو خاتم الأديان، قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٢]، وهو الدين الذي لا يقبل الله من العباد غيره، قال – تعالى –: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣]، وهو الدين الذي ارتضاه الله لنا، قال – تعالى –: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٤].

وممَّا حثَّ عليه الإسلام، وأمرنا به نبينا ﷺ حب الأوطان، وخير من يعلمنا حب الوطن هو المصطفي ﷺ، انظر ماذا قال – صلوات الله عليه وسلامه عندما أخرجه أهل مكة تعبيرًا عن حب الوطن، وذلك فيما أخرجه سنن الترمذي عن أبي سلمة، عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري، قال: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الحَزْوَرَةِ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ"[٥].

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة اللواء الإسلامي على ثلاثة أجزاء، الجزء الأول بعنوان (معلمنا ﷺ في حب الوطن)، في السنة الرابعة، الإصدار الثاني، العدد (١٧٦)، ٢٨ من شوال ١٤٣٦هـ ١٣ من أغسطس ٢٠١٥م، ونُشر الجزء الثاني بعنوان (تربية الصغار على حب الأوطان)، في السنة الرابعة، الإصدار الثاني، العدد (١٧٧)، ٥ من ذي القعدة ١٤٣٦هـ ٢٠ من أغسطس ٢٠١٥م، ونُشر الجزء الثالث بعنوان (المفهوم الحقيقي لحب الأوطان)، في السنة الرابعة، الإصدار الثاني، العدد (١٨٣)، ١٧ من ذي الحجة ١٤٣٦هـ ١ أكتوبر ٢٠١٥م.

(٢) سورة آل عمران: الآية:١٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

(٤) سورة المائدة: الآية:٣.

(٥) سنن الترمذي – كتاب المناقب – باب في فضل مكة حديث رقم (٤٣٠٤) ٢/ ٩٨٩، وصححه الترمذي في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٩٢٥).

وفي ذلك دلالة واضحة على حبِّ النبي ﷺ الشديد لبلده ووطنه مكة، كما تدلُ علَى شدةِ حزنِه لمفارقته له، إلا أَنَّه اضطُرَّ إلى ذلك.

ومن الهدي النبوي في حب الأوطان ما بيَّنه لنا النبي ﷺ في حادث الهجرة النبوية، ففي بداية نزول الوحي عليه بغار حراء ذهبَ مع زوجتِه خديجة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - إلى ورقة بن نوفل، وقصَّ عليه ما حدث معه من أمر نزول جبريل - عليه السلام - فقال له: "لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"(١).

وفي قوله ﷺ:(أو مخرجي هم) استفهام إنكاري على وجه التفجع والتألم، وكأَنَّه ﷺ استبعد أن يخرجوه من وطنه الذي يحبه، من جوار حرم الله، وبيته من غير سبب، ممَّا يدل على مدى حبِّ النبي ﷺ لوطنه وتألمه الشديد لما علم بأنهم سيخرجوه منه.

ومن الهدي النبوي في حب الأوطان: الدعوة للوطن الذي يحبه، فكان النبي ﷺ يدعو للمدينة، ومن ذلك ما جاء صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ، أَوْ أَشَدَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ»(٢).

إنَّه يدعو الله أن يحبِّب إليه المدينةَ أكثرَ من حبِّه لمكة؛ فحبُّ مكة فطرةٌ؛ لأنَّها وطنه، أمَّا حبُّ المدينة فمنحةٌ وهِبة، فسأل النبي - ﷺ - ربَّه أن يحبِّبها إليه حبًّا يفوق حبَّه لمكة؛ لما لها من الفضل في احتضان الدعوة، ونشر الرسالة.

ومن الهدي النبوي أيضًا في حبِّ الأوطان ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَّكَهَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ زَادَ الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ عَنْ حُمَيْدٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير عن حميد حركها من حبها"(٣).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ - حديث رقم (٤٢٢) ١/ ٧٩.

(٢) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة - حديث رقم (٣٩٧٤) ٢/ ٧٧٧.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الحج - أبواب العمرة - باب من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة - حديث رقم (١٨٣٠) ١/ ٣٣٧.

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن، والحنين إليه"[1].

فحب الوطن في الإسلام: هو محبة الفرد لوطنه وبلده، وتقوية الرابطة بين أبناء الوطن الواحد، وقيامه بحقوق وطنه المشروعة في الإسلام، ووفاؤه بها، ولا يعني هذا الحب للوطن العصبيةَ، التي يُراد بها تقسيمُ الأمة إلى طوائفَ متناحرةٍ، متباغضة، متنافرة، يَكِيد بعضها لبعض.

وجاء في موسوعة فقه القلوب[2]: والمؤمن حقًّا لا يقعد به حب الوطن، وإلف المكان، وأواصر النسب، والقربى والصحبة في دار عن الهجرة منها إذا ضاقت به في دينه، وعجز فيها عن الإحسان والعبادة، فالالتصاق بالأرض في هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان، ولون من اتخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان، وذلك مدخل من مداخل الشرك الخفية في قلب الإنسان: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[3].

وليعلم الجميع أنَّ مصلحة الدين مقدمة على حبِّ الأرض والمال، قال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4].

فما أحوج المسلمين أفرادًا وجماعات، ورجالًا ونساءً، وصغارًا وكبارًا، إلى التربية على حبِّ الأوطان، كما علمنا الإسلام، وكما أرشدنا إلى ذلك نبينا ﷺ، ويتحقق حبُّ الأوطان بأن يُربَّي المسلم منذ صغره على حبِّ وطنه حتى إذا كبر دعاه هذا الحب إلى

(١) فتح الباري: ٣/ ٦٢١.

(٢) موسوعة فقه القلوب: للتويجري ٩/ ٣٥٠.

(٣) سورة الزمر: الآية: ١٠.

(٤) التوبة: الآيتان: ٢٣، ٢٤.

رد الجميل، والإحسان إلى وطنه الذي ربي ونشأ فيه، ويتحقق حبُّ الأوطان أيضًا بأن يحرص المسلم على مد جسور المودة والرحمة والأخوة والألفة والتراحم بين أبناء الوطن جميعًا، ويكونوا جميعًا يدًا واحدة، كما أمر الإسلام بقوله ﷺ: «الْمُسْلِمُ لِلْمُسْلِمِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» (١).

وقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(٢).

ويتحقَّق حبُّ الأوطان أيضًا بغرس الانتماء الإيجابي للوطن، من خلال خطب الجمعة والدروس في المساجد، والمعاهد والمدارس والجامعات، وعبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، على كلِّ هؤلاء أمانة تجاه الوطن، وغرس حبّ الانتماء إليه لدى أبناء الوطن، ويتحقَّق حبُّ الأوطان أيضًا بتربية أبناء الوطن على تقدير خيرات الوطن ومعطياته، والمحافظة على مرافقه ومُكتسباته التي من حق الجميع أن ينعم بها، وأن يتمتع بحظه منها كاملًا غير منقوص.

نسأل الله تعالى – أن يحفظنا، وأن يحفظ بلادنا من كل مكروه وسوء، اللهم احفظ بلادنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم احفظ بلادنا من كيد الكائدين، وعبث العابثين، وعدوان المعتدين يا رب العالمين.

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا – حديث رقم (٦٠٩٥) ٣/ ١٢٣٢، صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم – حديث رقم (٦٧٥٠) ٢/ ١٠٩٩.

(٢) سبق تخريجه: ص٦٨.

سَعَادَةُ الأُمَّةِ وَسُبُلُ تَحْقِيقِهَا[1]

يتساءل كثير من المسلمين اليوم عن كيفية تحقيق السعادة للأمة في هذه الأيام التي كثرت فيها الفتن والابتلاءات والمحن، وكثر فيها الشقاق والخلاف، فما هو السبيل لتحقيق السعادة للأمة؟، هل يكون تحقيق السعادة في المال؟ أو في الجاه والمنصب والسلطان؟، أو بماذا يا ترى تكون السعادة الحقيقية؟

إنَّ سعادة الأمة الحقيقية لا تكون إلا في التزامها بدينها الذي شرفها الله تعالى - به، وهو الإسلام، وهو النِّعمة العظيمة التي رضيها لنا ربنا - جلَّ وعلا -، وهو الدين الذي لا يقبل الله تعالى - من العباد غيره، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]، وقال - تعالى -: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4].

من أجل ذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالدخول في الإسلام والالتزام به من جميع جوانبه، قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[5].

ولكي تتحقق السعادة للأمة لابُدَّ من الالتزام بالإسلام في جانب العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، فلا صلاح ولا سعادة للأمة إلا من خلال شرع الله تعالى - قولًا وعملًا وفهمًا، كما أمر الله تعالى -، وكما علمنا النبي ﷺ.

---

(١) أصل هذا الموضوع تحقيق صحفي في جريدة الأهرام المسائي، السنة الخامسة والعشرين، ٤ رمضان ١٤٣٦هـ ٢١ يونيو ٢٠١٥م.

(٢) سورة آل عمران: الآية:١٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ٨٥.

(٤) سورة المائدة: الآية:٣.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٢٠٨.

وحينما نتأمل كتاب الله عزَّ وجلَّ - نجد أنَّ لفظ السعادة لم يذكر إلا مقترنًا بأصحاب الجنة في موضع واحد في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(١).

وتوجد أسباب عديدة لتحقيق هذه السعادة على مستوى الفرد والمجتمع يسعد بها الإنسان في الدنيا والآخرة منها:

١ - الإيمان بالله تعالى - والتزام الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام قولًا وعملًا وفهمًا:

قال - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ﴾(٢).

فالحياة الطيبة السعيدة لا تكون إلا من خلال التزام شرع الله تعالى - قولًا وعملًا وفهمًا.

وقال - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٣)، وقال - تعالى -: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٤).

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله عند تفسير قوله تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، هذا وعد من الله تعالى - لمن عمل صالحًا، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى -، وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأنَّ هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه

---

(١) سورة هود: الآية:١٠٨.

(٢) سورة النحل: الآية:٩٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية:٨٢.

(٤) سورة النور: الآية: ٥٥.

الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت[1].

وفي الإعراض عن شرع الله تعالى - وهدي النبي ﷺ يكون الشقاء في الدنيا والآخرة للأفراد والمجتمعات، وتكثر الفتن والابتلاءات والمحن، قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾[2].

وبالأخلاق الفاضلة تكون السعادة للأمة، فالنبي ﷺ كان أحسن خُلقًا وجاء - صلوات الله وسلامه عليه لتهذيب الأخلاق وتربية الأمة عليها قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[3].

وصلاح الأخلاق هو أساس صلاح الأفراد والمجتمعات، فالأزمة الحقيقية التي تعاني منها الأمم والشعوب في هذه الأيام هي أزمة أخلاقية، فالسعادة الحقيقية لا تكون إلا بالتزام شرع الله تعالى - في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ولمَّا سُئِلت أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ"[4].

قال الإمام ابن رجب - رحمه الله: "يعني أنَّه كان يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمَّه القرآن كان فيه سخطه"[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٠١.

(٢) سورة طه: الآيات:١٢٤ - ١٢٧.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الشهادات - باب: بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقًا بها - حديث رقم (٢٠٥٧١) ١٠/ ١٩١.

(٤) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار - الملحق المستدرك من مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - حديث رقم (٢٤٦٠١) ٤١/ ١٤٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٨١١).

(٥) جامع العلوم والحكم: ص ١٦٥.

فما أحوجنا إلى التزود بالإيمان والعمل الصالح، والتحلي بالأخلاق الفاضلة أفرادًا وجماعات، فالأزمة الحقيقية التي تعانيها الأمة في هذه الأيام هي أزمة أخلاق، وفي صلاح الأخلاق يكون صلاح وسعادة الأمة.

٢ - الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: قال - تعالى -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون...»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[٣].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الوسائل التي بها تحقق السعادة للفرد والمجتمع من خلال التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، قال - تعالى -: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١١٠.

(٢) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٠٦.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان - حديث رقم (١٨٦) ١/ ٤١.

(٤) سورة العصر: الآيات: ١ - ٣.

٣ - الاعتصام بالكتاب والسنة:

ففي الاعتصام بهما السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]، وقال - تعالى -: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ"[٤].

فالاعتصام بالله تعالى -، والتمسك بسنة نبيه ﷺ، والعمل بها فيه السعادة للفرد والمجتمع والأمة كلها، فما أحوجنا في هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا إلى الاعتصام بهما، ففي ذلك النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

٤ - الحذر من التفرق والاختلاف، والعمل على اتحاد الأمة، فالاتحاد قوة والتفرق ضعف:

ففي التفرق والاختلاف بين الأفراد والمجتمعات يكون الشقاء وتكثر الفتن، وفي الاتحاد تكون القوة، كما بيَن ذلك ربنا - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦].

فهذه نهي من الله جلَّ وعلا - لعباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع والاختلاف والتفرق، مبيِّنًا أنَّه سبب الفشل، وذهاب القوة، ونهي عن الفرقة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية:١٠١.

(٢) سورة آل عمران: الآية:١٠٣.

(٣) سورة الحج: الآية:٧٨.

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم - كتاب العلم - فأما حديث عبد الله بن نمير - حديث رقم (٣١٩) ١/ ١٧٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٢٣٢).

(٥) سورة الأنعام: الآية:١٥٣.

(٦) سورة الأنفال: الآية:٤٦.

فما أحوج الأمة الآن إلى نبذ الفرقة والخلاف والاتحاد صفًّا واحدًا في مواجهة أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

٥ - من وسائل تحقيق السعادة للأمة تقوى الله عزَّ وجلَّ -:

فتقوى الله عزَّ وجلَّ - هي جماع كل خير، ورأس كل فضيلة، ولذلك أمر الله جلَّ وعلا - بها الأولين والآخرين، قال - تعالى -: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[1].

قال الإمام أبو حيان الأندلسي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، وصينا: أمرنا أو عهدنا إليهم وإليكم، والمعنى: أنَّ الوصية بالتقوى هي سنة الله مع الأمم الماضية فلستم مخصوصين بهذه الوصية[2].

وبيَّن ربنا - تبارك وتعالى - أنَّ خير الزاد الذي ينفع العبد في الآخرة هو التقوى، فقال - سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾[3].

وبالتقوى يكون نزول البركات من السماء وخروج الخيرات من الأرض، قال - تعالى -: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[4].

وبالتقوى يكون تفريج الكربات، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[5].

---

(١) سورة النساء: الآية:١٣١.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٣/ ٢٩٧.

(٣) سورة البقرة: الآية:١٩٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية: ٩٦.

(٥) سورة الطلاق: الآيات:٢ - ٣.

وبالتقوى يكون التيسير، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾[1]، وبالتقوى يكون تيسير العلم النافع، قال - تعالى -: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[2]، وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ..."[3].

وعن أبى ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[4].

وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد: أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلا ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك والسلام[5].

فما أحوجنا جميعًا إلى أن نتقى الله تعالى - في أنفسنا وأهلنا وأعمالنا، فبالتقوى تكون السعادة الحقيقية للفرد والمجتمع في الدنيا وفي الآخرة.

كانت هذه بعض الوسائل التي بها تتحقق السعادة للأمة إن تمسكت بها، كما أمر الله عزَّ وجلَّ -، وكما علمنا النبي ﷺ.

---

(١) سورة الطلاق: الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٨٢.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب: من اتقى المحارم فهو أعبد الناس - حديث رقم (٢٤٧٥) ٢/ ٥٩٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٠٥).

(٤) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في معاشرة الناس - حديث رقم (٢١١٥) ٢/ ٥١٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٩٨٧).

(٥) جامع العلوم والحكم: ص ٢١٣ - ٢١٥.

مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

جاءت آيات كثيرة في كتاب ربنا - سبحانه وتعالى - تبيِّن لنا أنَّه سبحانه تكفل للناس كلهم بالرزق، وأنَّه سبحانه هو الرازق - جلَّ وعلا -، يرزق المسلم والكافر، يرزق الجن والإنس، يرزق الحيوانات والطيور والجمادات.

- الرزق في القرآن الكريم:

قوله تعالى -: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

عن الحسن البصري قال: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقوامًا أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا».

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: «يقسم - تعالى - بنفسه الكريمة أنَّ ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه، كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا حدَّث بالشيء يقول لصاحبه: إنَّ هذا لحق كما أنَّك هاهنا»[2].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾[3].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله: «أخبر - تعالى - أنَّه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها، وأنَّه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها»[4].

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٢٠.

(٣) سورة هود: الآية: ٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٠٥.

قيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله، فقيل له: الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرض له والسماء له، فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض وأنشد قائلًا:

وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ وَاللهُ رَازِقِي ... وَرَازِقُ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
تَكَفَّلَ بِـالأَرْزَاقِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِم ... وَلِلضَّبِ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْحُوتِ فِي الْبَحْرِ

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: «ومعنى الآية: أنَّه تعالى – خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذبه أشدَّ العذاب، وأخبر أنَّه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم»[2].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[3].

وقال – تعالى –: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[4].

الله تبارك وتعالى – هو الرَّزَّاق، الذي خلق الأرزاق، وأعطى الخلائق أرزاقها، وأوصلها إليهم، وتكفل بأقوات المخلوقات كلها، والذي وسع الخلق كلهم برزقه ورحمته، فلم يخص بذلك مؤمنًا دون كافر، ولا وليًا دون عدو، بل يسوق رزقه عزَّ وجلَّ –

---

(١) سورة الذاريات: الآيات: ٥٦ – ٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٢٥.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الزهد – باب الهم بالدنيا – حديث رقم (٤٢٤٦) ١/ ٦٠٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤١٨٢).

(٤) سورة الجمعة: الآية: ١١.

إلى الضعيف الذي لا حيلة له، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المرة السوي: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] [2].

الرزق في السُّنَّة النَّبويَّة:

جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تبيِّن لنا أنَّ الرزق بيد الله سبحانه وتعالى، وأنَّه تعالى - المتكفل برزق الخلق جميعًا، ومنها:

١ - الرزق مكتوب والإنسان في رحم أمه:

فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»[3]. فالعبد مأمور بالسعي والاكتساب مع اليقين بأنَّ الله هو الرازق، وأنَّ رزقه مكتوب.

وعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[4].

٢ - الرزق يطلبك كما يطلبك أجلك:

فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»[5].

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٢٠.

(٢) موسوعة فقه القلوب: للتويجري ١/ ١٧٥.

(٣) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة - حديث رقم (٣٢٤٤) ٢/ ٦٢٩، صحيح مسلم - كتاب القدر - باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله حديث رقم (٦٨٩٣) ٢/ ١١٨.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الحيض - باب قول الله عزَّ وجلَّ -: مخلقة وغير مخلقة - حديث رقم (٣١٩) ١/ ٦٦.

(٥) صحيح ابن حبان - كتاب الزكاة - باب ما جاء في الحرص وما يتعلق به ذكر الإخبار عما يجب على المرء من قلة الجد في طلب الرزق - حديث رقم (٣٢٣٨) ٨/ ٣١.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: "لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ يَمُوتُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقٍ هُوَ لَهُ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ مِنَ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الْحَرَامِ"[1].

من أقوال السَّلف عن الرزق:

قال عيسى - عليه السلام -: «لا تهتموا بالرزق فإنَّ الذرة على صغرها تؤتى كل يوم برزقها[2].

وقال أيضًا - عليه السلام -: «عجبتُ لمن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بلا عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بالعمل»[3].

وكان يحيى بن معاذ: «يقسم أنَّه لا تسكن الحكمة قلبًا فيه ثلاث خصال: هم الرزق، وحسد الخلق، وحب الجاه»[4].

أنواع الرزق:

ورِزق الله لعباده نوعان:

الأول: رزق عام، ينتفع به البَرُّ والفاجر، ويشمل الإنسان والحيوان والجان، وهو رزق الأبدان، وقد قسم الله وتكفل برزق كل واحد من هؤلاء، كما قال - سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[5].

فلتطمئن هذه النفوس إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علمًا بذواتها وصفاتها وأسرارها، ورزقها يطلبها كأجلها أينما كانت.

الثاني: رزق رزقه الله من يشاء من عباده، على يد أنبيائه ورسله، وهو الإيمان والتوحيد، الذي يرزقه الله من يستحقه ويشكره، والله واسع الفضل، كثير الإحسان، يؤتيه من أتى بأسبابه.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب البيوع - باب الإجمال في طلب الدنيا وترك طلبها بما لا يحل - حديث رقم (١٠١٨٤) ٥/ ٢٦٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٣٢٣).

(٢) إيقاظ الهمم شرح الحكم: لابن عجيبة ١/ ١٩٧.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٩٧.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٩٧.

(٥) سورة هود: الآية: ٦.

وهو - سبحانه العليم بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾[1] [2].

مفاتيح الرزق في القرآن والسُّنَّة:

١ - الاستغفار والتوبة:

قال الله تعالى -: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[3].

قال القرطبي - رحمه الله: «هذه الآية دليل على أنَّ الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار»[4].

قال الشعبي: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت ؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[5] وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا[6].

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله: «إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٢) موسوعة فقه القلوب: ١/ ١٧٥ - ١٧٧.

(٣) سورة نوح: الآيات: ١٠ - ١٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٣٠٢.

(٥) سورة التوبة: الآية: ٩١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٣٠٢.

الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها»[1].

وجاء رجل إلى الحسن فشكا إليه الجَدْب، فقال: استغفر الله، وجاء آخر فشكا الفقر، فقال له: استغفر الله، وجاء آخر فقال: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال: استغفر الله، فقال أصحاب الحسن: سألوك مسائل شتى وأجبتهم بجواب واحد، وهو الاستغفار، فقال رحمه الله: ما قلت من عندي شيئًا، إنَّ الله يقول: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[2].

٢ - التوكل على الله: أخرج الإمام ابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[3].

٣ - عبادة الله، والتفرغ لها، والاعتناء بها: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[4].

٤ - المتابعة بين الحج والعمرة: فعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا: يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ، وَالذُّنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[5].

قال أهل العلم: إزالة المتابعة بين الحج والعمرة للفقر، كزيادة الصدقة للمال.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٣٣.

(٢) سورة نوح: الآيات: ١٠ - ١٢.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب التوكل واليقين - حديث رقم (٤٣٠٣) ١/ ٦١٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢٣٩).

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الزهد - باب الهم بالدنيا - حديث رقم (٤٢٤٦) ١/ ٦٠٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤١٨٢).

(٥) السنن الصغرى للنسائي - كتاب مناسك الحج - فضل المتابعة بين الحج والعمرة - حديث رقم (٢٦٤٢) ٢/ ٤٣٢، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي حديث رقم (٢٦٢٩).

٥ - **صلة الرحم**: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١)، وفي رواية: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُعَظِّمَ اللهُ رِزْقَهُ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٢).

٦ - **الإنفاق في سبيل الله**: قال الله تعالى -: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٣).

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: «أي: قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه. وفيه إضمار، أي فهو يخلفه عليكم؛ يقال: أخلف له وأخلف عليه، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة»(٤).

وقال ﷺ: ((أَنْفِقْ يَا بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا))(٥).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه أنَّ النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى -: ((يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))(٦).

الله أكبر ما أعظمه من ضمان بالرزق، أنفقْ أُنفق عليك.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب - باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم - حديث رقم (٦٠٥١) ٣/ ١٢٢٦، صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - حديث رقم (٦٦٨٨) ٢/ ١٠٩٠.

(٢) مسند أحمد - ومن مسند بني هاشم - مسند أنس بن مالك - رضي الله عنه حديث رقم (١٢٥٨٨) ٢٠/ ٤٣.

(٣) سورة سبأ: الآية: ٣٩.

(٤) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٠٧.

(٥) شعب الإيمان للبيهقي - الثالث عشر من شعب الإيمان - باب التحريض على صدقة التطوع - حديث رقم (٣٠٦٧) ٥/ ٤٢.

(٦) صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف - حديث رقم (٣٣٥٥) ١/ ٣٩٣.

٧ - الإحسان إلى الضعفاء والفقراء وبذل العون لهم:

قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَ بِضُعَفَائِكُمْ»(١).

فمن رغب في رزق الله له، وبسطه عليه، فلا ينسَ الضعفاء والمساكين، فإنَّما بهم ترزق ويُعطى لك، ولهذا كان - عليه الصَّلاة والسَّلام - يقول: «ابْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»(٢).

٨ - المهاجرة في سبيل الله، والسَّعي في أرض الله الواسعة:

قال الله تعالى -: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾(٣).

قال الإمام الفخر الرازي - رحمه الله: «يقال: راغمت الرجل إذا فعلت ما يكرهه ذلك الرجل، واشتقاقه من الرغام وهو التراب، فإنَّهم يقولون: رغم أنفه، يريدون به أنَّه وصل إليه شيء يكرهه، وذلك لأنَّ الأنف عضو في غاية العزة، والتراب في غاية الذلة، فجعلوا قولهم: رغم أنفه كناية عن الذل.

إذا عرفت هذا فنقول: المشهور أنَّ هذه المراغمة إنَّما حصلت بسبب أنَّهم فارقوا وخرجوا عن ديارهم(٤).

وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سببًا لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأنَّ من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه،

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب - حديث رقم (٢٩٣٣) ٢/ ٥٦٢.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الجهاد - باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين - حديث رقم (١٨٠٣) ١/ ٤٥٥، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (١٧٠٢).

(٣) سورة النساء: الآية: ١٠٠.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ١١/ ١٣.

ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب من حمله على ما قالوه والله أعلم، والحاصل كأنَّه قيل: يا أيها الإنسان إنَّك كنت إنَّما تكره الهجرة عن وطنك خوفًا من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإنَّ الله تعالى - يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سببًا لرغم أنوف أعدائك، ويكون سببًا لسعة عيشك، وإنَّما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش؛ لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنَّها تصير سببًا لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنَّها صارت سببًا لسعة العيش عليه»[1].

وقال الإمام الماوردي - رحمه الله: «في المراغم خمسة تأويلات: أحدها: أنَّه المتحوَّل من أرض إلى أرض، وهذا قول ابن عباس والضحاك، والثاني: مطلب المعيشة، وهو قول السدي، والثالث: أنَّ المراغم المهاجر، وهو قول ابن زيد، والرابع: يعني بالمراغم مندوحة عمَّا يكره، والخامس: أن يجد ما يرغمهم به؛ لأنَّ كل شخص هاجر عن قومه رغبة عنهم فقد أرغمهم، وهذا قول بعض البصريين.

وأصل ذلك الرغم وهو الذل. والرّغام: التراب؛ لأنَّه ذليل، والرُّغام بضم الراء ما يسيل من الأنف[2]، وفي قوله تعالى -: «وَسَعَةً» ثلاث تأويلات: أحدها: سعة في الرزق، وهو قول ابن عباس، والثاني: يعني من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى، وهو قول قتادة، والثالث: سعة في إظهار الدين[3].

فكم من الناس تركوا بلادًا، هي أحب البلاد لقلوبهم ولو خيروا لاختاروها على غيرها لكنه الرزق فتح الله عليهم في غير أرضهم، وفي غير بلادهم.

٩ - الصلاة أعظم أسباب مفاتيح الرزق: قال - تعالى -: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4].

(١) تفسير الفخر الرازي: ١١/ ١٣.

(٢) تفسير النكت والعيون: ١/ ٥٢٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٥٢٢.

(٤) سورة طه: الآية: ١٣٢.

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله: «وفيه وجوه: أحدها: قال أبو مسلم: المعنى أنَّه تعالى – إنَّما يريد منه ومنهم العبادة، ولا يريد منه أن يرزقه، كما تريد السادة من العبيد الخراج، وثانيها: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لنفسك ولا لأهلك، بل نحن نرزقك، ونرزق أهلك، ففرِّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من كان في عمل الله كان الله في عمله.

وثالثها: المعنى أنَّا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لأنَّا ننتفع بصلاتك، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾، بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب[1]. ثم قال – رحمه الله: واعلم أنَّه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب؛ لأنَّه تعالى – قال في وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]، أما قوله: والعاقبة للتقوى، فالمراد والعاقبة الجميلة لأهل التقوى، يعني: تقوى الله تعالى»[3].

(١) تفسير الفخر الرازي: ٢٢/ ١١٨.

(٢) سورة النور: الآية: ٣٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ٢٢/ ١١٨.

الابْتِلاءاتُ مِنَحٌ وَعَطَايَا (1)

إنَّ المُتَأَمِّلَ في حالِ كثيرٍ من الناس يَجِدُ أَنَّهم يَفْرَحونَ بالعَطَاءِ، ويَحْزَنُونَ عند الأَخْذِ، فإذا أَخَذُوا ما يُرِيدُونَ مِن أمور الدُّنْيا غَمَرَهُم الفَرَحُ والسُّرورُ، وإذا مُنِعُوا مِمَّا يُحِبُّونَ أَصَابَهُم الحُزنُ والضِّيْقُ، وما يعلمُ هؤلاءِ أَنَّهُ رُبَّما كانَ المَنْعُ هو عَيْنَ العَطَاءِ، وأنَّ العَطَاءَ في حَدِّ ذَاتِهِ رُبَّمَا كانَ هو المَنْعَ؛ لأَنَّهُ لا يُعْلَمُ أين الخَيْرُ؟، وقد بَيَّن رَبُّنَا - جلَّ وعلا - هذه الحقيقَةَ في قوله تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(٢).

كَمَا أَخْبَرَنَا - جَلَّ وعَلا - أنَّ البَلاءَ قد يَكُونُ بالخَوفِ والجُوعِ والنَّقْصِ مِن الأموالِ والأَنْفُسِ والثَّمَراتِ، ووعدنا أنَّ في الصبر عليه العَطَايَا وَالمِنَحَ العَظِيمَةَ الظَاهِرَةَ والبَاطنةَ، وذلك في قوله تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٣).

وأمَّا الحِكْمَةُ في تقديم تعريفِ هذا الابتلاءِ ففيها وجوه؛ **أحدها**: لِيوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ على الصَّبْرِ عليها إذا وَرَدَتْ؛ فيكونَ ذلك أَبْعَدَ لهم عن الجَزَعِ، وَأَسْهَلَ عليهم بعد الورود، **وثانيها**: أَنَّهُم إذا عَلِمُوا أَنَّه سَتَصِلُ إليهم تلك المِحَنُ، اشْتَدَّ خَوفُهُم، فَيَصِيْرُ ذلك الخوفُ تعجيلًا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب، **وثالثها**: أَنَّهُ - تَعَالَى - أَخْبَرَ بِوُقُوعِ ذَلِكَ الِابْتِلاءِ قَبْلَ وُقُوعِهِ، فَوُجِدَ مُخْبِرُ ذَلِكَ الْخَبَرِ عَلَى مَا أَخْبَرَ عَنْهُ؛ فَكَانَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَنِ الْغَيْبِ فَكَانَ مُعْجِزًا، **ورابعها**: أَنَّ إخلاصَ الإنسانِ حالة البلاء، ورجوعه

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١٧٢٣)، السنة الخامسة والعشرين، ٨ من جمادى الآخرة ١٤٣٨هـ ٧ من مارس ٢٠١٧م.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢١٦.

(٣) سورة البقرة: الآيتان: ١٥٥ - ١٥٧.

إلى باب الله تعالى – أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه، فكانت الحكمةُ في هذا الابتلاء ذلك[1].

وقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ لنا أنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلاءً الأنبياء ثُمَّ الصَّالحون، وأنَّ الرَّجُل يُبْتَلى على قدر دينه وإيمانه، وذلك فيما أخرجه الدارمي في سننه بسند صحيح عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ سَعْدٍ قَالَ: سُئِلَ النبي – ﷺ –: أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ صَلاَبَةً، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَلاَ يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الأَرْضِ مَا لَهُ خَطِيئَةٌ»[2].

وأنَّ مَنْ يُرِدْ اللهُ – تعالى – به خيرًا يُصِبْ منه، وإذا أَحَبَّ اللهُ قومًا ابْتَلاهم، فَفِي سننِ الترمذي بسندٍ صحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وإنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[3].

وليعلم العبد المؤمن أنَّ أمره كلَّه له خير، كما أخبر النبي ﷺ فعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ – قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[4].

فإذا صَبَرَ الإنْسَانُ وَقَابَلَ هذه الابْتِلاءاتِ والمِحَنَ بالرِّضَا والصَّبْرِ فَجَزَاؤهُ مَغْفِرَةُ الخَطَايَا والذُّنُوبِ، والرِّفْعَةُ فِي الدَّرَجَاتِ، وهذه من أَهَمِّ العَطَايَا والمِنَح التي وَعَدَ بها النَّبيُّ ﷺ فيما أخرجه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ١٣٦.

(٢) سنن الدارمي – ومن كتاب الرقاق – باب: في أشد الناس بلاء – حديث رقم (٢٧٨٣) ٢/ ٤١٢، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن والحديث صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٩٩٢).

(٣) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في الصبر على البلاء حديث رقم (٢٥٧٥) ٢/ ٦١٣، وقال الألباني: حسن صحيح. ينظر: صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٩٦).

(٤) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق – باب المؤمن أمره كله خير – حديث رقم (٧٦٩٢) ٢/ ١٢٥٨.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ"[1].

كما نَهَى ﷺ عن سَبِّ المَرَضِ، وألا يَجْزَعَ الإِنْسَانُ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ من شِدَّةٍ وَضِيْقٍ، وذلك فيما أَخْرَجَهُ مُسلمٌ في صَحِيْحِهِ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: «مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى، لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا، فَقَالَ: «لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[2].

وقد قالوا: كُلُّ مِحْنَةٍ فِي بَوَاطِنِهَا مِنَحٌ رَبَّانِيَّةٌ، واللهُ يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون، وفِي المِحَنِ تأتي المِنَحُ، وَإِنَّ مَع العُسْرِ يُسْرَا، ولَمَّا سُئِلَ سَيِّدُنَا الإمام الشافعي – رحمه الله يا أبا عبد الله، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ للرجُلِ أَنْ يُمَكَّنَ أو يُبْتَلَى؟ فقالَ: لا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى، فَإِنَّ اللهَ ابْتَلَى نوحًا وإبراهِيْمَ وموسى وعيسى ومحمدًا – صلوات الله وسلامه عليهم – أجمعين، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُم، فلا يَظُنُّ أَحَدٌ أَن يخلص من الألم البَتَّة.

(١) مسند أحمد بن حنبل – ومن مسند بني هاشم – مسند أبي هريرة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث رقم (٧٨٥٩) ١٣/ ٢٤٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٨١٥).

(٢) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض – حديث رقم (٦٧٣٥) ٢/ ١٠٩٦.

تكْرِيمُ الإسْلَامِ لِلْمَرْأَةِ (1)

لقد رفع الإسلام مكانة المرأة، وأكرمها بما لم يكرمها به دين سواه؛ فالنساء في الإسلام شقائق الرجال، وخير الناس خيرهم لأهله، وما أجملَ قولَ أمير المؤمنين عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "والله إنْ كنَّا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمرًا، حتى أنزل الله فيهنَّ ما أنزل، وقسم لهنَّ ما قسم"(٢).

ومن مظاهر تكريم المرأة في الإسلام أن سواها بالرجل في التصرفات والحقوق المالية كالبيع والشراء، وحق التملك، وأخبرنا - جلَّ وعلا - أنه خلق الذكر والأنثى، وجعل ميزان التفاضل العمل الصالح والتقوى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾(٣).

وذكرها ربنا - سبحانه في كتابه العزيز بجانب الرجل فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(٤).

وفي سبب نزول هذه الآية ما جاء عن أم سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زوج النبي ﷺ قالت: قلت للنبي ﷺ مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة

---

(١) أصل هذا الموضوع مقال منشور في جريدة عقيدتي، العدد (١١٩٢)، السنة الرابعة والعشرين، ٢٥ من ربيع الأول ١٤٣٧هـ ٥ يناير ٢٠١٦م.

(٢) صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - سورة البقرة - باب تبتغي مرضاة أزواجك - حديث رقم (٤٩٦٢) ٢/ ١٠٢٣.

(٣) سورة الحجر: الآية:١٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية: ٣٥.

بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾» إلى آخر الآية[1].

وأقرَّ الإسلام للمرأة حقَّها في التَّعليم، وذلك فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالت النساء للنبي ﷺ: «غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ» فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «وَاثْنَتَيْنِ»[2].

قال الإمام ابن بطال – رحمه الله: «وفيه: سؤال النساء عن أمر دينهن، وجواز كلامهن مع الرجال في ذلك، فيما لهن الحاجة إليه، وقد أُخِذَ العلم عن أزواج النبي ﷺ، وعن غيرهن من نساء السلف»[3].

وكرَّمها الإسلام بنتًا وأمًّا وزوجة، فهي إن كانت أمًّا فقد قرن الله حقَّها بحقِّه، فقال – تعالى –: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[4].

وجعلها المصطفى ﷺ أحقَّ النَّاس بحسن الصحبة، وذلك فيما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»[5].

وإن كانت بنتًا فحقُّها كحقِّ أخيها في المعاملة الرحيمة والعطف الأبوي تحقيقًا لمبدأ العدالة، قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[6].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل – مسند الأنصار – مسند النساء – حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ – حديث رقم (٢٦٦٠٣) ٤٤/ ٢٢٢.

(٢) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب: هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم؟ – حديث رقم (١٠١) ١/ ٢٨.

(٣) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ١/ ١٧٨.

(٤) سورة الإسراء: الآية: ٢٣.

(٥) سبق تخريجه: ص٣٩٦.

(٦) سورة النحل: الآية: ٩٠.

وإن كانت زوجة فهي من نعم الله قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[1]، وهي إن لم تكن أمًّا ولا بنتًا ولا زوجة فهي من عموم المسلمين يُبذل لها من المعروف والإحسان ما يُبذل لكلِّ مؤمن، ولها على المسلمين من الحقوق ما يجب للرجال.

ومن صور تكريم الإسلام للمرأة أن نهى الزوج عن ضرب زوجته بدون سبب؛ لأنَّها إنسان مكرم داخل في قوله تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2]، وليس حسن المعاشرة أمرًا اختياريًا، بل هو تكليف واجب، وأخرج البخاري ومسلم أنَّ النبي ﷺ: «لاَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ اليَوْمِ»[3].

قال المهلب - رحمه الله: وإنما يكره من ضرب النساء التعدي فيه والإسراف، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك، فقال: (ضرب العبد)، فجعل ضرب العبد من أجل الرق فوق ضرب الحر لتباين حالتيهم، ولأن ضرب النساء إنما جوز من أجل امتناعها على زوجها في المباضعة، واختلف في وجوب ضربها في الخدمة، والقياس يوجب إذا جاز ضربها في المباضعة جاز في الخدمة الواجبة للزوج عليها بالمعروف»[4].

وقوله: (ثم يجامعها ذلك اليوم)، تقبيح من النبي ﷺ للاضطراب وقرب التناقض لقلة الرياضة لهن بذلك؛ لأن المرأة إذا عرفت قرب الرجعة وسرعة الفيئة لم تعبأ بإيذائه، ولا يقع فيها ما ندب الله إليه من رياضتها، ويدل على ذلك طول هجران النبي ﷺ لأزواجه المدة الطويلة، ولم يكن ذلك يومًا ولا يومين ولا ثلاثة، وكذلك كان هجران النبي ﷺ والمسلمين لكعب بن مالك وصاحبيه حتى مضت خمسون ليلة»[5].

(١) سورة الرعد: الآية: ٣٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٧٠.

(٣) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب ما يكره من ضرب النساء - حديث رقم (٥٢٥٩) ٣/ ١٠٩١، صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء - حديث رقم (٧٣٥١) ٢/ ١١٩٩.

(٤) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٧/ ٣٢٥.

(٥) المرجع السابق: ٧/ ٣٢٦.

ومن تكريم الإسلام للمرأة أن قرَّر لها من الحقوق ما يكفل راحتها، وينبه على رفعة منزلتها، ثُمَّ جعل للرجل حقَّ رعايتها، ومن ذلك قوله تعالى -: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[1]، فجعلت الآية للمرأة من الحقوق مثل ما للرجل.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله: قوله تعالى -: ﴿وَلَهُنَّ﴾، أي: لهنَّ من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهنَّ، ولهذا قال ابن عباس: إنِّي لأتزين لامرأتي كما تتزين لي، وما أحبُّ أن أستنظف كلَّ حقِّي الذي لي عليها؛ فتستوجب حقَّها الذي لها علي؛ لأنَّ الله تعالى - قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، أي: زينة من غير مأثم[2].

ثم قال - رحمه الله: « قول ابن عباس: «إني لأتزين لامرأتي». قال العلماء: أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على اللبق والوفاق، فربما كانت زينة تليق في وقت ولا تليق في وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب، ألا ترى أن الشيخ والكهل إذا حف شاربه ليق به ذلك وزانه، والشاب إذا فعل ذلك سمج ومقت؛ لأن اللحية لم توفر بعد، فإذا حف شاربه في أول ما خرج وجهه سمج، وإذا وفرت لحيته وحف شاربه زانه ذلك»[3].

«والخضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة، وهو حلي الرجال على ما يأتي بيانه في سورة «النحل». ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجل فيعفها ويغنيها عن التطلع إلى غيره، وإن رأى الرجل من نفسه عجزًا عن إقامة حقها في مضجعها أخذ من الأدوية التي تزيد في باهه وتقوي شهوته حتى يعفها»[4].

ومن تكريم الإسلام للمرأة أن نجد الرسول ﷺ يسابق زوجته السيدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، وهذا من التبسط، ورفع الكلفة بينه وبين زوجته، فهو ﷺ يقتطع جزءًا من وقته ليدخل السرور على أهل بيته، ويوقف جيشًا بأكمله للبحث عن عِقد فُقِد، عِقد لزوجته عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، فيبحث النَّاس عن العِقد ولا يجدونه، ويخرج وقت صلاة الظهر ولا ماء؛ فيقول

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي: ٣/ ١٢٣.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٢٤.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ١٢٤.

المسلمون: حبسنا من أجل زوجته[1]، فهل وجدتم أحدًا يحترم المرأة ويكرمها كما أكرمها رسول الهدى؟ إنَّه يوقف الجيش من أجل زوجته مراعاةً لشعورها وتقديرًا لها.

ونجد القرآن الكريم ينتصر للمرأة فهذه خولة بنت ثعلبة كانت زوجة لأوس بن الصامت، وكان رجلًا غضوبًا قد كبر سنه، فجاء يومًا، فراجعته زوجته في أمر ما، فغضب وقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، فذهبت إلى رسول الله تستفتيه عن حالها وتشتكي إليه، فقالت السيدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلَ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي حَتَّى إِذَا كَبِرَ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. قَالَتْ: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[2] [3].

ونجد - أيضًا - تقدير الإسلام لدورها السياسي، فقد بايع رسول الله النساء في موقعة مشهودة للقاصي والداني، فكانت بيعة النساء وسطّرها القرآن الكريم بآيات قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

(١) تقول السيّدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: "فلمّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عِقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عِقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنتُ أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن، ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدتُ عُقدي بعد ما استمر الجيش". صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب حديث الإفك - حديث رقم (٤١٩٣) ٢/ ٨٢٣، صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف - حديث رقم (٧١٩٦) ٢/ ١١٧٠.

(٢) سورة المجادلة: الآية: ١.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الطلاق - باب الظهار - حديث رقم (٢١٤١) ١/ ٣٠٠، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٠٩٣).

(٤) سورة الممتحنة: الآية: ١٢.

احترام النبي ﷺ لجوارها، وذلك كما في البخاري ومسلم أنَّ أم هانئ بنت أبي طالب ذهبت إلى رسول الله عام الفتح، فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي عَلِيٌّ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنُ بْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ»، قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ: وَذَلِكَ ضُحًى"[1].

ومنحها الإسلام الاستقلال الفكري، واحترم علمها، وبيعتها، وشهادتها، ووجهة نظرها، قال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[2]، والآية تشير إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم» في عهد محمد ﷺ[3].

كانت هذه بعض مظاهر تكريم الإسلام للمرأة، وكيف أنَّه رفع شأنها، وأعلى قدرها ومكانتها، فهي كائن مستقل عن الرجال وليس ملحقًا له، وأنَّها مكلفة تكليفًا عينيًّا كالرجل تمامًا، وهذا دليل على تكريمها واستقلاليتها، وأنَّها مخاطبة بدين الله كالرجل.

(١) صحيح البخاري - كتاب الجزية - باب أمان النساء وجوارهن - حديث رقم (٣٢٠٧) ٢/ ٦٢٠، صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة الضحى - حديث رقم (١٧٠٢) ١/ ٢٨٦.

(٢) سورة الممتحنة: الآية: ١٠.

(٣) فقه السيرة: للغزالي، ص٢٦٠.

تربيةُ الأولادِ فِي الإسْلَامِ

إن الأولادَ نعمةٌ وهبةٌ من الله تبارك وتعالى الذي يَهَبُ، وهو سبحانه وتعالى الذي يمنع، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[1].

ومن هذا المنطلق وجب على من أعطاه الله تعالى - هذه الهبة، وأكرمه بهذه النعمة أنْ يحفظها، وأن يحسن رعايتها، كما أمر الله عزَّ وجلَّ -، وكما بيّن رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

قال علي بدن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدِّبُوهُم وعلِّمُوهم.

وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار.

وقال مجاهد: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله.

وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأنْ تقوموا عليهم بأمر الله، وتأمرُهم به وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قذعتهم عنها، وجزرتهم عنها.

وقال الضحاك ومقاتل: حق المسلم أن يُعلِمَ أهلَه من: قرابته، وإمائه، وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه[3].

وعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،

---

(١) سورة الشورى: الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة التحريم: الآية: ٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٨/ ١٦٧.

وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». قَالَ فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1].

قال المهلب – رحمه الله: "هذه كلها أمانات تلزم من استرعاها أداء النصيحة فيها لله، ولمن استرعاه عليها، ولكل واحد منهم أن يأخذ مما استرعى أمره ما يحتاج إليه بالمعروف من نفقة ومؤنة"[2].

وقال الإمام النووي – رحمه الله: "قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته"[3].

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[4].

قال الإمام النووي – رحمه الله: "هذا الحديث والذي بعده سبق شرحهما في كتاب الإيمان، وحاصله أنه يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون مستحلًا لغشهم فتحرم عليه الجنة ويخلد في النار، والثاني: أنه لا يستحله فيمتنع من دخولها أول وهلة مع الفائزين، وهو معنى قوله ﷺ في الرواية الثانية: "لم يدخل معهم الجنة" أي: وقت دخولهم بل يؤخر عنهم عقوبة له إما في النار، وإما في الحساب، وإما في غير ذلك، وفي هذه الأحاديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة

---

(١) صحيح البخاري – كتاب العتق – باب العبد راع في مال سيده حديث رقم (٢٥٩٧) ١/ ٤٨١، صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل حديث رقم (٤٨٢٨) ٢/ ٨٠٥.

(٢) شرح صحيح البخاري: لابن بطال ٧/ ٧٠ – ٧١.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٢١٣.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار حديث رقم (٣٨٠) ١/ ٧٢.

لهم في دينهم ودنياهم، وفي قوله ﷺ: "يموت يوم يموت وهو غاش" دليل على أن التوبة قبل حالة الموت نافعة"[1].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[3].

إن أولادنا ثمرة فؤادنا وفلذة كبدنا، ومحطُّ أنظارنا، ومنتهى آمالنا، وحَمَلَةُ اللواء من بعدنا، ومُتمموا المسيرة بعد انتهائنا، لا جَرمَ؛ اهتم الإسلام بالأولاد، وأكثر من الوصايا بتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة، حتى لا يسقط اللواء من أيديهم، ولا يقفوا دون تكميل المسيرة.

مواقف من حياة النبي ﷺ العملية في اهتمامه بتربية الأطفال وتعليمهم وتوجيههم وإرشادهم: هناك مواقف كثيرة في سنة النبي ﷺ وسيرته، تبين لنا كيف كان اهتمامه بتربية الأطفال، والعناية بهم وتوجيههم وإرشادهم منها:

ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ سَمِعَهُ مِنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: «يَا غُلاَمُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[4].

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١٢/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) السنن الكبرى للنسائي - كتاب عشرة النساء - مسألة كل راع عما استرعي - حديث رقم (٩١٧٤) ٥/ ٣٧٤، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٩٦٦)، وصحيح الجامع حديث رقم (١٧٧٤).

(٣) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب متى يؤمر الغلام بالصلاة حديث رقم (٤٩٥) ١/ ٨٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود حديث رقم (٤٩٥، ٤٩٦)، وصحيح الجامع حديث رقم (٥٨٦٨).

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأطعمة - باب التسمية على الطعام والأكل باليمين حديث رقم (٥٤٣٠) ٣/ ١١٢٦، صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما حديث رقم (٥٣٨٨) ٢/ ٨٨٣.

وعن مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَيْنا أَنا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْني وَبَيْنَهُ إِلاّ أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ ساعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ: هَلْ تَدْري ما حَقُّ اللهِ عَلى عِبادِهِ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللهِ عَلى عِبادِهِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ ساعَةً ثُمَّ قَالَ: يا مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْري ما حَقُّ الْعِبادِ عَلى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبادِ عَلى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"[1].

وعَنْ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قالَ: كُنتُ خَلفَ النَّبيِّ ﷺ - فقال: ((يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كَلماتٍ: احفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احفَظِ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سَأَلْت فاسأَلِ الله، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ، واعلم أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كَتَبَهُ الله لكَ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضرُّوكَ بشيءٍ، لم يضرُّوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ))[2].

فالتوحيد يُقَوِّي اليقينَ بالله، ويجعلُ القلوبَ تتعلق بخالقها، وبارئها وحده، ترجو رحمته، وتخشى عذابه، وتهون الدنيا كلها في ذات الله، فلا يملك أحدٌ ضرًا ولا نفعًا إلا بإذن الله، وعلى ما جرت به مشيئته وأقداره.

وانظر معي إلى لقمان الحكيم، وهو يوصي ولده ماذا قال له، اسمع لكلام ربك - سبحانه وتعالى - حكاية عنه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ

(١) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب اسم الفرس والحمار حديث رقم (٢٨٩٥) ٢/ ٥٥٥، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة حديث رقم (١٥٢) ١/ ٣٥.

(٢) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب قول النبي ﷺ: "يا حنظلة ساعة وساعة" - حديث رقم (٢٧٠٦) ٢/ ٦٤١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٥١٦)، وصحيح الجامع حديث رقم (٧٩٥٧).

سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾(١).

ما أحوجنا أيها الأخوة الأحباب إلى أن نردد مع أطفالنا قول ربنا: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾(٣).

ما أحوجنا إلى أن نردد مع أطفالنا قول نبينا ﷺ: "مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ"(٤)، وقوله ﷺ:«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٥).

وقوله ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ:« إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»(٦).

---

(١) سورة لقمان: الآيات: ١٤ – ١٦.

(٢) سورة النساء: الآية: ١٠٣.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٤٣.

(٤) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا حديث رقم (١٥٥٦) ١/ ٢٦٥.

(٥) سنن أبي داود – كتاب الصلاة – باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام حديث رقم (٥٦١) ١/ ٩٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبى داود حديث رقم (٥٦١)، وصحيح الجامع حديث رقم (٢٨٢٣).

(٦) صحيح مسلم – كتاب الطهارة – باب فضل إسباغ الوضوء حديث رقم (٦١٠) ١/ ١٢٣.

وقوله ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟». أَظُنُّهُ قَالَ قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: « فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[1].

وما أحوجنا إلى أن نردد مع أطفالنا وصية لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[2].

ما أحوجنا إلى أن نردد مع أطفالنا قول نبينا ﷺ: "الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ)[3].

وقوله ﷺ:(ليس منا مَنْ لَمْ يُجِلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويَعرف لعالمنا حقه)[4].

قال يزيد بن معاوية: "أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال له: يا أبا بحر ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين! ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك وُدَّهم، ويحبوك جُهدهم، ولا تكن عليهم ثقلًا ثقيلًا، فيملوا حياتك، ويودوا وفاتك، ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لك أنت يا أحنف، لقد دخلت عليَّ وأنا مملوء غضبًا وغيظًا على يزيد"[5].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب مواقيت الصلاة - باب الصلوات الخمس كفارة حديث رقم (٥٢٧) ١/ ١٠٧، صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا حديث رقم (١٥٥٤) ١/ ٢٦٥.

(٢) سورة لقمان: الآية: ١٧.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب من أخذ بالركاب ونحوه حديث رقم (٣٠٢٥) ٢/ ٥٧٩.

(٤) الحاكم في المستدرك - كتاب العلم - فصل في توقير العالم حديث رقم (٤٢١) ١/ ٢١١، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٠١)، وصحيح الجامع حديث رقم (٥٤٤٣).

(٥) مكاشفة القلوب: ص٢٠٩.

مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي
انْتِشَارُ الأَمْرَاضِ وَالأَوْبِئَةِ

عندما ننظر إلى حال الناس في الأيام الماضية، وتعاملهم مع الأمراض والأوبئة التي اجتاحت العالم بأسره، وخاصة فيروس (كورونا)، نجد أنهم انقسموا في تكييف هذا الأمر إلى عدة اتجاهات، فمنهم من قال: بأن هذا حرب بيولوجية من بعض الدول، ومنهم من لم يصدق الأمر ولم يعتبر به، ومنهم من قال: بأنها حرب سياسية إلى غير ذلك من الأقوال والكلام الكثير الذي سمعناه، وشاهدناه عبر الإذاعات المرئية، والمسموعة، والمقروءة.

ولكننا عندما ننظر إلى الأمر من الناحية الشرعية نجد أن انتشار هذه الأمراض والفيروسات وغيرها، إنما هي عقوبات من الله عزَّ وجلَّ - يرسلها على من يشاء بسبب الغفلة، وكثرة الذنوب والمعاصي، وانتشارها بالليل والنهار، وقد جاء ذلك واضحًا جليًّا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٦).

والمعنى: لقد عمَّ البلاءُ في أرجاء البَرِّ والبحر، وظهر الخللُ والانحرافُ، فَقَلَّ النفع والمطر، وكثرة القحط والجدب، أو التصحر، بسبب شؤم المعاصي وكثرة الذنوب، من الكفر والظلم وانتهاك المحرّمات، بعد انتشار الأمن وعموم الخير والرخاء؛ وذلك ليذيقهم الله جزاء بعض أعمالهم، وسوء أفعالهم من المعاصي والآثام، واحتجاب الخير وظهور الشر، وفي ذلك منفعة للناس؛ لأنه ربما يرجعون عن غَيِّهِم ومعاصيهم، كما جاء في آية أخرى﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٧) (٨).

---

(٦) سورة الروم: الآية: ٤١.

(٧) سورة الأعراف: الآية: ١٦٨.

(٨) التفسير الوسيط: د/ وهبة الزحيلي ٣/ ٢٠٠٥.

والمتأمل والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن الله جلَّ وعلا - أرسل الأمراض، والأوبئة، والعقوبات الكثيرة على أقوام بسبب تكذيب الأنبياء، ومحاربتهم، وعدم الإيمان بالرسالات التي جاءوا بها من عند الله تعالى -، ومن ذلك قوم نبي الله موسى - عليه السلام -: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1].

كذلك عندما كَذَّبَ قارون وفرعون وهامان (موسى) - عليه السلام - كان العقاب من الله عزَّ وجلَّ -، وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف تصويرًا بليغًا في قول الحق - جلَّ وعلا -: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

«يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المُكَذِّبة للرسل، كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، ف(عاد) قوم هود - عليه السلام - كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، و(ثمود) قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبًا من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدًا، وتمر عليها كثيرًا، و(قارون) صاحب الأموال الجزيلة، ومفاتيح الكنوز الثقيلة، و(فرعون) ملك مصر في زمان موسى، ووزيره (هامان) القبطيان الكافران بالله تعالى - ورسوله ﷺ {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} أي: كانت عقوبته بما يناسبه»[3].

كما أن من عقوبات المعاصي: زوال النعم، وتبدلها بالخوف، والجوع، وسائر أنواع الابتلاءات، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان: ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٠٠.

(٤) سورة النحل: الآية: ١١٢.

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[1].

هذا وقد بيّن لنا النبي ﷺ أن انتشار المعاصي سبب في نزول الأمراض، والأوبئة وانتشارها، وقد جاء ذلك واضحًا فيما أخرجه ابن ماجه في سننه، بسند حسن، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[2].

ففي هذا الحديث يُبَيِّنُ النبي ﷺ كيف أن انتشار المعاصي وظهورها من الزنا، والربا، والرشوة، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، وغير ذلك من الذنوب، والمعاصي، والكبائر، التي انتشرت بين الناس في زماننا، سبب في انتشار الأمراض، والأوبئة، والطاعون، والأوجاع التي لم تكن فيما مضى من أسلافنا...إلى آخر الحديث الذي فيه العديد من العقوبات الأخرى، والتي سببها - أيضًا - الذنوب والمعاصي، والبعد عن منهج الله عزَّ وجلَّ -، وسنة نبيه ﷺ.

(١) سورة الطلاق: الآيات: ٨ - ١٠.

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الفتن - باب العقوبات - حديث رقم (٤١٥٥) ١/ ٥٨٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (٤٠٩١)، وصحيح الجامع حديث رقم (٥٢٠٤).

سُرادِقَاتُ العَزاءِ وضَياعُ هَيبةِ القُرآن

القرآن الكريم هو كلام الله عزَّ وجلَّ - المُعجِز المُنزَّل على نبينا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، وقد تحدى الله عزَّ وجلَّ - به أهل الفصاحة والبيان على أنْ يأتوا بسورة من مثله، فلم يستطيعوا أن يأتوا بآية، كما تكفَّل سبحانه وتعالى بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

وللقرآن الكريم فضائل عديدة، منها: أنه هداية ونور، وشِفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، فيه الهدى لمن تمسك به وعمل بما جاء فيه، كما أنه يشفع لصاحبه يوم القيامة إذا عمل به كما أمر الله عزَّ وجلَّ -، وكما بيّنه النبي ﷺ.

لذا يجب علينا أنْ نتأدب مع القرآن الكريم، فهذا من حقوقه علينا، وإنَّ الناظر والمتأمل لسرادقات العزاء التي يتفنن فيها الناس اليوم، تجدهم يأتون بأفضل القراء، وأحدث الأجهزة الصوتية، وغير ذلك، ومع ذلك تجد معظم هذه السرادقات تضيع فيها هيبة القرآن الكريم، بسبب ما يحدث فيها من التهليل أثناء القراءة ورفع الصوت، وغير ذلك مما يتنافى مع جلال كلام الله عزَّ وجلَّ -، كما نجد - أيضًا - الضحك والمزاح، وترك الناس الاستماع للقرآن أثناء تلاوته والكلام مع هذا وذاك، وغير ذلك من المنكرات والأمور المنهي عنها.

بل ربما تجد القارئ وهو يقرأ يضحك مع هذا وذاك ويسلم على هذا وذاك، وغير ذلك مما يفعله بعض القراء هدانا الله وإياهم، وغفر لنا ولهم، ولننظر إلى الإمام مالك بن دينار - رحمه الله وهو ينادي على حَمَلَةِ القرآن سائلًا إياهم عن ثمرة القرآن في قلوبهم، وأعمالهم، وأحوالهم، فيقول: «يا حَمَلَةَ القرآن ماذا غرس القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحشّ، فيكون فيه الحبة، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز، وتخضرَّ،

(١) سورة الحجر: الآية: ٩.

وتحسن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة، أين أصحاب سورتين، ماذا عملتم فيها؟؟»[1].

من أجل ذلك يجب على القارئ توقير القرآن الكريم، وأن يقرأ بخشوع، وتدبر، وتأمل لما يقرأ، وفي ذلك يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بَاكِيًا مَحْزُونًا حَلِيمًا حَكِيمًا سِكِّيتًا، وَلاَ يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ذَكَرَ كَلِمَةً، لاَ صَخَّابًا، وَلاَ صَيَّاحًا، وَلاَ حَدِيدًا"[2].

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيمًا لحق القرآن»[3].

كما يجب على القارئ أن يعلم جيدًا أن القرآن الكريم: إما أن يكون حجة له، أو عليه، فقد جاء في الحديث: «...والقرآن حجة لك، أو عليك»[4].

وقوله: «والقرآن حجة لك أو عليك» معناه: ظاهر أي: تنتفع به إن تلوته، وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»[5].

ولننظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي حذر منه النبي ﷺ في هؤلاء الثلاثة، الذين هم أول من تسعر بهم النار، وذكر منهم: قارئ القرآن الذي قرأ من أجل الدنيا، والشهرة، والمال، وغير ذلك من حطام الدنيا الزائل، فقد جاء في الحديث: «... فيقول الله للقارئ: أَلَمْ أُعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما

(١) الزهد - للإمام أحمد، زهد محمد بن سيرين - ١/ ٣١٩.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة - باب ما قالوا: في البكاء من خشية الله رقم (٣٥٥٨٤)، ٧/ ٢٣١.

(٣) إحياء علوم الدين: ١/ ٢٧٤.

(٤) صحيح مسلم - كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء - حديث رقم (٥٥٦) ١/ ١١٤.

(٥) شرح النووي على مسلم: ٣/ ١٠٢.

علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: إن فلانا قارئٌ، فقد قيل ذاك...»[1].

قال الإمام المناوي – رحمه الله: «هذا من الأدلة الشرعية على قبح الجهل، وعلى وبال عدم العمل بالعلم، وهو استعظامٌ لما يقع يومئذ من الدهشة، والتحير في الجواب، والارتباك فيما لا حيلة في دفعه، ولا سبيل إلى التخلص منه، وأن ما يُحدِّثُ المرءُ به نفسه، ويسهله عليها تعلل بباطل، وطمع فيما لا يجدي، فأفاد أن الغفلة عن الله على ضربين: الجهل بأمر الدين فلا يعرف ما يأتي، ولا يعلم ما يذر، والسهو عما يعلم ذهابًا عن إتيان ما أمر الله به، وركوبًا لما نهى عنه بشهوة النفس، وغرور الدنيا وزخارفها، وهذا أقبح النوعين»[2].

فاتقوا الله في القرآن الكريم، وأحسنوا التلاوة، والاستماع بتدبر وخشوع، غفر الله لنا ولكم وهدانا جميعًا إلى صراطه المستقيم اللهم آمين.

(١) سنن الترمذي – كتاب الزهد – باب ما جاء في الرياء والسمعة – حديث رقم (٢٥٥٧) ٢/ ٦٠٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٨٢)، وصحيح الجامع حديث رقم (١٧١٣).

(٢) فيض القدير: ٥/ ٧٥.

تَذْكِرَةٌ عَنِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ

الموت كأسٌ، وكل الناس شاربه، والقبر بيتٌ، وكلُّ الناس داخله. اعلم أيها الأخ الحبيب أن الليل مهما طال، لا بد من طلوع الفجر، وأنَّ العمر مهما طال، لا بد من دخول القبر.

قال الإمام جمال الدين القاسمي – رحمه الله: «اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ثم الناس إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، وإما عارف منته.

أما المنهمك فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدًا، وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائمًا؛ لأنه موعد للقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب»[2].

«ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

---

(١) سورة الجمعة: الآية: ٨.

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، ١/ ٢٣٠، ط/ دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان.

فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته»[1].

فالموت أيها الأخوة حقيقة حتميةٌ لا شكَّ فيها، وتعالوا بنا لنتحدث سويًا، ونتذكر هذه القضية من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح من هذه الأمة.

الموت في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[2].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله: «يخبر تعالى إخبارًا عامًا، يعم جميع الخليقة بأنَّ كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولًا، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحدٌ على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدَّر الله وجودها في صلب آدم، وانتهت البرية، أقام الله القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها: جليلها، وحقيرها، كثيرها، وقليلها، كبيرها، وصغيرها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4].

---

(١) موعظة المؤمنين: للقاسمي ١/ ٢٣٠ – ٢٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآية: ١٨٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٣٥.

(٤) سورة الأنبياء: الآية: ٣٥.

قال الإمام الطبري – رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما خلدنا أحدًا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك رسلنا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك، لا ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكلّ حال عشت أو متّ، فأدخلت الفاء في إن وهي جزاء، وفي جوابه، لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضًا في قوله فهم لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله فهم الفاء جاز على وجهين: أحدهما: أن تكون محذوفة، وهي مرادة، والآخر أن يكون مرادًا تقديمها إلى الجزاء فكأنه قال: أفهم الخالدون إن متّ.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يقول تعالى ذكره: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت ومتجرّعة كأسها.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يقول تعالى ذكره: ونختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرخاء والسعة العافية فنفتنكم به»[1].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[3].

في هذه الآيات الكريمات إخبار من الله عز وجل لعباده في هذه الحياة الدنيا بأن الكل سيموت، والكل سيفنى، ولا يبقى إلا واحد، وهو الله جلَّ وعلا –.

قال القائل:

ولو كانت الدنيا تـدوم لأهلها لكان رسـول الله حيًا وباقيًا

ولكن المصطفى ﷺ خير خلق الله، وحبيب رب العالمين، ومصطفاه، ناداه ربه من فوق سبع سماوات بقوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[4].

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ٤٣٩.

(٢) سورة القصص: الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن: الآية: ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة الزمر: الآية: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

وكان النبي ﷺ وهو في سكرات الموت يقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات»، وقد جاء ذلك فيما أخرجه الطبراني عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «إِنَّ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ في بَيْتِي، وَيَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَإِنَّ اللَّهَ جَمَعَ بين رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، قالت: دخل عَلَيَّ أَخِي عبد الرحمن، وأنا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إلى صَدْرِي وَبِيَدِهِ سِوَاكٌ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إليه فقلتُ: آخُذُهُ لك، فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ أَنْ نعم، فَلَيَّنْتُهُ له، ثُمَّ نَاوَلْتُهُ، فَأَمَرَّهُ على ثَغْرِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أو قالت: عُلْبَةٌ فيها مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فيها ثُمَّ يَمْسَحُ بها وَجْهَهُ وَيَقُولُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ ثُمَّ يَصُبُّ على يَدِهِ ثُمَّ يقول: في الرَّفِيقِ الأعلى حتى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ ﷺ»[2].

وكانت فاطمة ابنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تقول: «واكرباه على كرب يا أبتاه» فكان يقول لها المصطفى ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[3].

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله: «اعلم أن الموت هائلٌ، وخطره عظيمٌ، وغفلة الناس عنه؛ لقلة فكرهم فيه، وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلبٍ مشغولٍ بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه، فالطريق فيه أن يُفرغَ العبدُ قلبَه عن كل شيءٍ إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكرُ الموت قلبَه، فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قلبه، وأنجع طريق فيه: أن يكثر ذكر أشكاله، وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم، وأحوالهم،

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٤٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير - حديث رقم (٧٨) ٢٣/ ٣١.

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الجنائز - باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ - حديث رقم (١٦٩٧) ١/ ٢٣٨، أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ - باب وفاته ﷺ - حديث رقم (٦٦١٣) ١٤/ ٥٩٢، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه حديث رقم (١٦٥٢)، وصحيح الجامع حديث رقم (٢٤٠٠).

ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيَّعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم، ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلًا، وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه، وتردده، وتأمله للعيش، والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل»[1].

الموت في السنة المطهرة:

أمرنا النبي ﷺ بالإكثار من ذكر الموت والاستعداد له في كل لحظة؛ لأن الموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، الموت لا يعرف شيخًا ولا شابًا، ولا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا، ولا عظيمًا ولا حقيرًا، ولا غنيًا ولا فقيرًا، الكل عند الموت يستوي لا فرق بين هذا وذاك.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "أكثروا ذكر هادم اللذات"[2] يعني: الموت.

وأخرج الترمذي عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "الكَيِّسُ مَن دان نفسه وعَمِلَ لِمَا بعد الموت، والعاجزُ من أتْبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله الأماني"[3].

وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَحِيرٍ أَنَّهُ سَمِعَ هَانِئًا مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلاَ تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٥ - ٤٥٤.

(٢) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في ذكر الموت حديث رقم (٢٤٧٧) ٢/ ٥٩٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٠٧).

(٣) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت حديث رقم (٢٦٤٧) ٢/ ٦٢٨، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي حديث رقم (٢٤٥٩).

اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[1].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ، شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ"[2].

قوله: "حياتك قبل موتك" لأن الإنسان ما دام فيه حياة يستطيع أن يعمل، وأن يجد ويجتهد في العبادة، ويحرص على مرضاة ربه U قبل أن يدركه الموت.

وانظروا إلى الوصية العظيمة التي جاء بها الأمين جبريل - عليه السلام - إلى المصطفى ﷺ، ويا لها من كلمات بليغة جليلة، لو نزلت على قلبٍ يتفكر ويتدبر.

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: "جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ"[3].

واعلم أن في ذكر الموت فوائد عديدة من ذلك: أنه يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب بالفرح والسرور في الدنيا، ويزهد فيها، ويهون المصائب.

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب: القبر أول منازل الآخرة حديث رقم (٢٤٧٨) ٢/ ٥٩٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٢٣٠٨)، وصحيح الجامع حديث رقم (١٦٨٤).

(٢) الحاكم في المستدرك - كتاب الرقاق حديث رقم (٧٨٤٦) ٤/ ٣٤١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب حديث رقم (٣٣٥٥)، وفى صحيح الجامع حديث رقم (١٠٧٧).

(٣) الحاكم في المستدرك - كتاب الرقاق حديث رقم (٧٩٢١) ٤/ ٦٠٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وإنما يعرف من حديث محمد بن حميد عن زافر عن أبي زرعة عن شيخ ثقة الشك وتلك الرواية عن سهل بن سعد بلا شك فيه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٣).

ثانيًا: التأثر في مشاهدة سكراتهم عند نزع الروح وشخوص أبصارهم عند نزع الروح، وتسللها من الجسد، وعجزهم عن الكلام عند خروجها، وتأمل صورهم بعد خروج الروح، فإن في ذلك ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الجفون من النوم، ويمنع الأبدان من الراحة، ويبعث على الجد والاجتهاد في العمل للآخرة"[1].

ويروى أن الحسن البصري دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كَربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: يا أهله عليكم بطعامكم وشرابكم، فو الله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه"[2].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[3]. أي أكثرهم له ذكرًا، وأحسن له استعدادًا، وأشدهم منه خوفًا.

ولمَّا حضرت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاةُ بكى بكاءً شديدًا، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لبُعد السفر، وقلة الزاد، وضعف اليقين، وخوف الوقوع من الصراط في النار"[4].

وقال يحيى بن معاذ الرازي – رحمه الله: "العقلاء ثلاثة: مَن ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يسكنه، وعمل لله قبل أن يلقاه"[5].

وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن صُحف موسى – عليه السلام – كانت عبرًا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبت

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، ٣/ ٥٣.

(٢) العاقبة في ذكر الموت: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي أبو محمد (المتوفى: ٥٨١هـ)، ١/ ٤٢، ط/ مكتبة دار الأقصى، الكويت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، تحقيق: خضر محمد خضر.

(٣) سورة الملك: الآية: ٢.

(٤) تسلية أهل المصائب، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، ١/ ٨٧، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ٢١٠.

لمن أيقن بالقَدَر كيف ينصب! وعجبت لمن رأى الدنيا وسرعة تقلُّبِها بأهلها كيف يطمئن إليها»[1].

حال السلف عند الموت:

انظروا أيها الإخوة الأحباب إلى حال سلف الأمة من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى - عليهم عند الموت، وكيف أنهم كانوا يعملون ويستعدون لهذه اللحظة الحاسمة التي لا بد منها لكل إنسان مهما عظم قدره.

لمَّا حضرت سيدنا بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة، قالت زوجته: واحزناه، فقال لها: بل قولي: واطرباه، غدًا ألقى الأحبة محمدًا وحزبه[2].

وقال الحسن البصري - رحمه الله: «فضح الموت الدنيا، فلم يترك لِذِي لُبٍّ فرحًا»[3].

وقال الربيع بن خيثم - رحمه الله: «ما غائب ينتظره المؤمن خيرًا له من الموت»[4].

وكان الإمام ابن سيرين - رحمه الله: «إذا ذُكر عنده الموت مات كل عضو منه»[5].

وقال كعب - رحمه الله: «من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها»[6].

روى البراء بإسناده عن الفضيل بن عياض قال: رأيت رجلًا يبكي، قلت: وما يبكيك؟ قال: أبكاني كلامه. قلت: ما هو؟ قال: كنّا وقوفًا في المقابر فأنشدوا:

أتيت القبور فساءلتُها ... أين المعظّم والمحتقر؟
وأين المدلّ بسلطانه؟ ... وأين القويّ إذا ما قدر

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب البر والإحسان - باب ما جاء في الطاعات وثوابها - ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ - حديث رقم (٣٦١) ٢/ ٧٦ .

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٨١.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٦) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

تـفـانـوا جـمـيـعًـا فـمـا مخبر ... ومـاتـوا جميعًا ومـات الخبر
فيا سائلي عـن أنـاس مضوا ... أمـا لـك فيما تـرى معتبر؟
تـروح وتـغـدو عليه الـثّـرى ... فتمحو محاسن تلك الصّور[1].

وانظر إلى الخليفة هارون الرشيد عند وفاته، قال: أريد أن أرى أكفاني التي سأدفن فيها، فمسك أكفانه بيده، وقال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾[2].

ولمَّا حضرت الخليفة المأمون الوفاة افترش رمادًا، واضطجع عليه، ثم قال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه[3].

وقيل: لمَّا حضرت الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك الوفاة ضحك، ثم فتح عينيه، وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون، لمثل هذا فليعمل العاملون[4].

ودخل المُزَنِيّ على الإمام الشافعي في مرضه الذي توفي فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله تعالى واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها[5].

وقيل لأبى حازم: ما بالنا نكرهُ الموتَ؟ فقال: لأنكم عمَّرتُم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلون من العمران إلى الخراب[6].

وإبراهيم النخعي لما حضره الموت بكى، فقيل ما يبكيك يا أبا عمران؟ قال: مالي لا أبكي وأنا أنتظر رسل ربي - عزَّ وجلَّ - لا أدري يبشروني بجنة أم بنار[7].

---

(١) أهوال القبور: لابن رجب، ص١٤٤.

(٢) الحاقة: الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٨١.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٤٨١.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٤٨٤.

(٦) المرجع السابق: ٢/ ١٤٧.

(٧) المرجع السابق: ٤/ ٤٨١.

ولمَّا حضرت معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاة قال: اللهم إني كنتُ أخافك، وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحبُّ الدنيا، وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَقِ الذِّكْر، ولمَّا اشتد به النزع، ونزع نزعًا لم ينزعه أحدٌ كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه، ثم قال: ربّ ما أخنقني حنقك، فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك[1].

وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت، والقيامة، والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة[2].

وقال إبراهيم التيمي - رحمه الله: «شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ - »[3].

وقال مطرف - رحمه الله: «رأيت فيما يرى النائم، كأنَّ قائلًا يقول في وسط مسجد البصرة: قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين[4].

وقال أشعث - رحمه الله: «كنا ندخل على الحسن: فإنما هو النار، وأمر الآخرة وذكر الموت»[5].

وعن صفية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: أن امرأة اشتكت إلى عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قساوة قلبها، فقالت: «أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرقَّ قلبُها، فجاءت تشكر عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - »[6].

قال الإمام عبد الحق الإشبيلي - رحمه الله: «واعلم رحمك الله أن كثرة الاشتغال بالدنيا، وإفراغ المجهود فيها، والميل بالكلية إليها، وحلاوة أحاديثها، ولذة أمانيها، تمنع حرارة ذكر الموت أن ترد على القلب، وأن تلج فيه؛ لأن القلب إذا امتلأ بشيء

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٨١.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٥) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

(٦) المرجع السابق: ٤/ ٤٥١.

لم يكن لشيء آخر فيه مدخل، ولا لسواه فيه مجال، ألا ترى أن الإناء إذا ملأته بشيء لم يمكنك أن تدخل عليه شيئًا آخر، ووجهك إذا صرفته إلى موضع صرفته عن موضع آخر، ومتى دام القلب على هذا لم يكن لذكر الموت فيه تأثير، ولا لترداده عليه حلاوة، وكيف يؤثر فيه وهو لا يجد مكانًا ينزل فيه، ولا موضعًا يتعلق به، قد ملأه حب الشهوات الفانية، واللذات المنصرمة، فهو شبعان ريان حيران سكران أصم أعمى، إن عرض عليه طريق هدى لم يره، أو نودي باجتناب رديء لم يسمع، فإذا أراد صاحب هذا القلب سماع الحكمة، والانتفاع بالموعظة، لم يكن له بد من تفريغه، ليجد التذكر فيه منزلًا، وتلقى الموعظة فيه محلًا قابلًا، فلا يزال يتعاهده، ويتفقده بالأذكار والأفكار، والنظر والاعتبار، آناء الليل وأطراف النهار، لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الرين، ويعود إلى حالته الأولى من الغين، وإن لم يقدر على تفريغه بمرة فرغ منه ما أمكن، وجعل مكان ما أزاله ضده فيجعل مكان الغفلة ذكرًا، ومكان الفرح حزنًا، ومكان الاغتباط ندمًا، ومكان السهو تيقظًا، ولا يزال هكذا يزيل شيئًا، ويجعل مكانه ضده، ويستعين بجعل هذا على إزالة هذا، وبإزالة هذا على جعل هذا، وبالله تعالى - يستعان على كل ما يحاول، وبمنه وتيسيره سبحانه يتناول كل ما يتناول لا رب غيره، ولا معبود سواه»[1].

وقال أيضًا - رحمه الله: «واعلم رحمك الله أن مما يعينك على الفكرة في الموت، ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به، تذكر من مضى من إخوانك، وخلانك، وأصحابك، وأقرانك، الذين مضوا قبلك، وتقدموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسمين، وعبرة للمعتبرين»[2].

وفي الجنائز والقبور والاعتبار بها وبما فيها يقول الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله: «اعلم أن الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة؛ لأنهم يظنون أنهم أبدًا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون

(١) العاقبة في ذكر الموت، عبد الحق الإشبيلي، ١/ ٤٠ - ٤١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٤١.

أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك، ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم، وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولًا عليها، فإنه محمول عليها على القرب، وكأن قد ولعله في غد أو بعد غد»[1].

رابعًا: من فوائد (تذكر الموت)[2]

(١) إنّ تذكّر الموت بصورة دائمة يجعل المسلم يعطي كلّ لحظة حقّها من الواجب، ويبتعد عن المخالفات الشّرعيّة.

(٢) ويجعل المؤمن يعمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته.

(٣) بما أنّ الموت حتم على كلّ حيّ وتبدأ بعده مرحلة السّؤال والحساب فلا بدّ من التّذكّر والتّدبّر قبل فوات الأوان.

(٤) كثير من النّاس وعلى مرّ التّاريخ يسعفهم اللّه بالحظّ ويمدّ لهم الأسباب فتتوفّر لهم الحماية الصّحّيّة والسّعادة الدّنيويّة فيستبعدون ذكر الموت من حسابهم فيبطشون ويتجبّرون ثمّ تقع الطّامّة عليهم فلا يجدون عدلًا ولا صرفًا وهؤلاء لا ينبغي أن يغترّ بما هم فيه.

(٥) أحزم النّاس وأملكهم لشأنه أكثرهم ذكرًا واستعدادًا للموت.

(٦) تذكّر الموت يدفع المرء إلى الحياء من اللّه فلا يقارف المعصية.

(٧) إنّ من أشدّ الحياء من اللّه عزَّ وجلَّ - تذكّر الموت والعمل لما بعده.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ٤٨٤.

(٢) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: ٣/ ٩٦٧.

المصادر والمراجع

١ – أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، صديق بن حسن القنوجي، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٧٨م، تحقيق: عبد الجبار زكار.

٢ – الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية: محمد منير بن عبده أغا النقلي الدمشقي الأزهري (ت: ١٣٦٧هـ)، ط/ دار ابن كثير – دمشق.

٣ – إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: للإمام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ)، ط/ مؤسسة الرسالة – الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م – تحقيق مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس.

٤ – أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن على الرازي الجصاص الحنفي (ت:٣٧٠هـ) ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/ الثالثة ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧م.

٥ – أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت: ٥٤٣هـ) ط/ دار الحديث بالقاهرة، تحقيق: الدكتور/ محمد إبراهيم الحفناوي، والدكتور/ إسماعيل محمد الشنديدي، ط/ الأولى ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٦ – إحياء علوم الدين: للإمام محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، ط/ دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٧ – أخلاق حملة القرآن للآجري ط/ دار الصفا والمروة بالإسكندرية، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ ٢٠٠٥م، أبو محمد أحمد شحاتة السكندري.

٨ – الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، ط/ دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٩ – آداب النفوس: للإمام أبو عبد الله حارث بن أسد المحاسبي، ط/ دار الجيل – بيروت – سنة النشر ١٩٨٤م، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

١٠ - الأذكار: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) الناشر: الجفان والجابي - ط/ دار ابن حزم للطباعة والنشر الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١١ - الإسلام منقذ للإنسانية، محمد عطية الإبراشي، ط/ دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، بدون تاريخ.

١٢ - أضواء البيان في إيضًاح القرآن بالقرآن: للشيخ/ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، ط/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان الطبعة: ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م.

١٣ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية، ط/ دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

١٤ - اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٧هـ، تحقيق: الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني.

١٥ - آيات التقوى في القرآن الكريم: د/ حسين علي خلف الجبوري، بحث متعدد الأغراض في التقوى بمعانيها المختلفة كما وردت في القرآن الكريم، المكتبة الشاملة.

١٦ - أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، ط/ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١٧ - البحر المديد: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت.

١٨ - التبيان في آداب حملة القرآن: لأبي زكريا بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ، ط/ ابن حزم، بيروت، تحقيق: محمد الحجار.

١٩ - التحرير والتنوير: للشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور، ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.

٢٠ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للإمام محمد عبد الرحيم بن عبد الرحمن المباركفوري، ٦/ ١٠٤، ط/ دار الكتب العلمية بيروت.

٢١ – تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين: للإمام محمد بن على الشوكاني، ط/ دار القلم – بيروت – لبنان سنة ١٩٨٤م.

٢٢ – التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ط/ مكتبة دار البيان – دمشق – الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٢٣ – تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم: للشيخ العالم بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني (ت: ٧٣٣هـ)، ط/ دار ابن عباس، المنصورة.

٢٤ – التذكرة في الوعظ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط/ دار المعرفة – بيروت – ١٤٠٦هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح.

٢٥ – تسلية أهل المصائب، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٦ – تفسير ابن أبى حاتم، للإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، ط/ المكتبة العصرية – صيدا، بيروت، تحقيق: أسعد محمد الطيب.

٢٧ – تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض – تحقيق: سامي بن محمد سلامة.

٢٨ – تفسير البحر المحيط: لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ط/ دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت – ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م، الطبعة الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض.

٢٩ – تفسير البغوي (معالم التنزيل): لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦ ه)، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.

٣٠ - تفسير السراج المنير: للإمام/ محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.

٣١ - تفسير السعدي: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، للشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط/ مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

٣٢ - تفسير الفخر الرازي: (مفاتيح الغيب)، للإمام محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين، ط/ دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٣٣ - تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/ الأولى ١٩٩٠م.

٣٤ - تفسير النكت والعيون: للإمام علي بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط/ دار الكتب العلمية: بيروت لبنان، بدون تاريخ.

٣٥ - التفسير الوسيط، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط/ دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ.

٣٦ - تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي (ت: ٨٥٢هـ)، ط/ دار الكتب العلمية بيروت، ط/ الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٨٩م.

٣٧ - تنبيه الغافلين: للإمام الشيخ/ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت:٣٧٣هـ)، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبدالرحمن.

٣٨ - تنبيهات الأكابر إلى العلم الشريف الطاهر، د/ حمزة بن فايح الفتحي، منشور بموقع صيد الفوائد.

٣٩ - التهجد وقيام الليل، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ مكتبة الرشيد - الرياض - الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي.

٤٠ – التوابين: للإمام ابن قدامة المقدسي، ط/ دار الكتب العلمية بيروت تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

٤١ – التواضع والخمول، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا.

٤٢ – التيسير بشرح الجامع الصغير: للإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، ط/ مكتبة الإمام الشافعي بالرياض ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٤٣ – الجامع في شرح الأربعين النووية: د/ محمد يسرى، ط/ دار الحديث بالقاهرة.

٤٤ – جامع الأصول في أحاديث الرسول: للإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ط/ مكتبة دار البيان – تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

٤٥ – جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ط/ مؤسسة الرسالة: بيروت – ط/ الأولى: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م: تحقيق: العلامة/ أحمد محمد شاكر.

٤٦ – جامع العلوم والحكم: للإمام الحافظ الفقيه زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب (ت: ٧٩٥هـ)، ط/ دار الحديث، القاهرة.

٤٧ – جامع بيان العلم وفضله: لأبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، ط/ مؤسسة الريان – دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤ – ٢٠٠٣ ه، دراسة وتحقيق: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي.

٤٨ – الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط/ دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط/ ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٩ – الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر (ت: ٤٦٣هـ)، ط/ مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ، تحقيق: د. محمود الطحان.

٥٠ – الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت: ٣٩٠هـ)، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، تحقيق: د.مروان قباني.

٥١ – الذخيرة: للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، ط/ دار الغرب، بيروت، ١٩٩٤م، تحقيق: محمد حجي.

٥٢ – الرحلة في طلب الحديث – الخطيب البغدادي، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، تحقيق: نور الدين عتر.

٥٣ – رسائل ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد المتوفى سنة ٤٥٦ ه، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، تحقيق، د/ إحسان عباس.

٥٤ – الرضا عن الله بقضائه، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ الدار السلفية – بومباي – الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: ضياء الحسن السلفي.

٥٥ – الرقة والبكاء، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.

٥٦ – روضة المحبين ونزهة المشتاقين: للإمام ابن القيم، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢ – ١٩٩٢م.

٥٧ – زاد المسير في علم التفسير: للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط/ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ.

٥٨ – الزهد والرقائق لابن المبارك، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

٥٩ – سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، للشيخ محمد بن إسماعيل الأمير اليمنى الصنعاني (ت:١١٨٢هـ)، ط/ دار العقيدة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

٦٠ – سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة (ت: ٢٧٣هـ) ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة، ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

٦١ – سنن أبي داود، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت: ٢٧٥هـ) ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة، ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

٦٢ – سنن الدارمي، للإمام عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي.

٦٣ – السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة، ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

٦٤ – السنن الكبرى، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن على البيهقي، ط/ دائرة المعارف النظامية بالهند، حيدر آباد، ط/ الأولى ١٣٤٤هـ.

٦٥ – سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط.

٦٦ – سير السلف الصالحين: للأصبهاني ط/ دار الراية – الرياض.

٦٧ – سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: لابن الجوزي، ط/ دار مكتبة الهلال – بيروت، ٦٨ – كتاب حطِّم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا، د/ مجدي الهلالي، ط/ مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة سنة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م٠

٦٩ – شرح الزرقاني على موطأ مالك: لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١ ه.

٧٠ – شرح صحيح البخاري: للإمام أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، ط/ مكتبة الرشد – السعودية / الرياض – ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م – الطبعة: الثانية – تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

٧١ – شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط/ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط/ : الأولى، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣م، تحقيق: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد.

٧٢ - الشكر، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ المكتب الإسلامي - الكويت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، تحقيق: بدر البدر.

٧٣ - صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت، ط/ الثانية، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

٧٤ - صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ) ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة - ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

٧٥ - صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت:٢٦١هـ) ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة - ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

٧٦ - صلاح الأمة في علو الهمة: د/ سيد بن حسين العفاني، ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت.

٧٧ - الصمت وآداب اللسان، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: أبو إسحاق الحويني.

٧٨ - صيد الخاطر: للإمام جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط/ دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م - تحقيق: حسن المساحي سويدان.

٧٩ - عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي، للإمام أبو بكر ابن العربي المالكي (ت:٥٤٣هـ)، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٠ - العزلة والإنفراد، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ دار الوطن، الرياض، السعودية ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان.

٨١ - غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: للإمام محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م - الطبعة: الثانية - تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي.

٨٢ – غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، ط/ جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ط/ الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق، د. سليمان إبراهيم محمد العايد.

٨٣ – فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ: أحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ) تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي ط: دار الكتب العلمية – بيروت ط/ الثانية (١٤١٨هـ، ١٩٩٧م).

٨٤ – فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ط/ دار الفكر بيروت.

٨٥ – قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، لمحمد جمال الدين القاسمي، ط/ مؤسسة الرسالة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى.

٨٦ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، ط/ دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

٨٧ – كشف المشكل من حديث الصحيحين: للإمام ابن الجوزي، ط/ دار الوطن بالرياض ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٨٨ – الكليات: لأبي البقاء الكفوي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري.

٨٩ – لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، للإمام الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥هـ، ط/ مكتبة الإيمان، المنصورة، تحقيق: محمد بيومي.

٩٠ – المجالسة وجواهر العلم: لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت: ٣٣٣هـ)، ط/ جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم)، ط/ دار ابن حزم (بيروت – لبنان)، ١٤١٩هـ، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

٩١ – المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، ط/ دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

٩٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ط/ دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

٩٣ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٩٤ - المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، ط/ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي.

٩٥ - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (ت: ١٤١٤هـ)، ط/ إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٩٦ - المستدرك على الصحيحين - لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ)، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت - ط/ الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٩٧ - مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت:٢٤١هـ)، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت - ط/ الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون.

٩٨ - مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ط/ المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، تحقيق: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

٩٩ - مصنف ابن أبي شيبة - ط/ مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

١٠٠ - المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، ط/ مكتبة الرشد - الرياض، ط/ الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت

١٠١ – معالم السنن شرح سنن أبي داود، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (ت: ٣٨٨هـ)، ط/ المط/ العلمية بحلب، سوريا، ط/ الأولى ١٣٥٢هـ، ١٩٣٣م، تحقيق: محمد راغب الطباخ.

١٠٢ – المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، ط/ دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

١٠٣ – المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، ط/ مكتبة الزهراء ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م، الموصل، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

١٠٥ – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.

١٠٦ – مفردات ألفاظ القرآن، لأبي الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، ط/ دار القلم، دمشق.

١٠٧ – مكارم الأخلاق، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ مكتبة القرآن – القاهرة، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم.

١٠٨ – مكانة المرأة في الإسلام، محمد عطية الإبراشي، ط/ مطبوعات دار الشعب، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

١٠٩ – مناقب الشافعي، للإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ ه)، ط/ مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م، تحقيق: السيد أحمد صقر.

١١٠ – المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي الأندلسي (ت: ٤٩٤هـ) ط: مط/ السعادة، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط/ الثانية (ن.ت).

١١١ – موسوعة الخطب والدروس: علي بن نايف الشحود – خطبة بعنوان: الحياء هو الحياة إعداد: صلاح عبد الخالق – منشورة بموقع صيد الفوائد على شبكة الإنترنت.

١١٢ - الموسوعة الفقهية الكويتية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة: (من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ ه)، الأجزاء ١ - ٢٣: الطبعة الثانية، دار السلاسل - الكويت، الأجزاء ٢٤ - ٣٨: الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر، الأجزاء ٣٩ - ٤٥: الطبعة الثانية، طبع الوزارة.

١١٣ - موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية: بإشراف د/ مروزق بن صنيتان بن تنباك وآخرون، ط/ دار رواح بالرياض.

١١٤ - موطأ الإمام مالك بن أنس (ت:١٧٩هـ)، ط/ جمعية المكنز الإسلامي بالقاهرة - ط/ الأولى ١٤٢١هـ.

١١٥ - نصب الراية لأحاديث الهداية، لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (ت: ٧٦٢هـ) ط/ مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط/ الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١١٦ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم -، لعدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.

١١٧ - نور من القرآن والسنة، للشيخ/ عبد الوهاب خلاف، ط/ دار الأنصار، القاهرة، بدون تاريخ.

١١٨ - نيل الأوطار، للإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، ط/ دار الحديث - القاهرة - ط/ الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، تحقيق، عصام الدين الصبابطي.

١١٩ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض.

١٢٠ - الورع، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، ط/ الدار السلفية - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، تحقيق: أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود.

المؤلف في سطور

د/ أحمد عرفة أحمد يوسف

عضو هيئة التدريس بقسم الفقه المقارن- بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية- جامعة الأزهر.

- دكتوراه في الدراسات الإسلامية- تخصص الفقه المقارن- بعنوان (التوازي في العقود وتطبيقاته المعاصرة -دراسة فقهية مقارنة- قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب- جامعة المنيا- بتقدير مرتبة الشرف الأولى ٢٠١٨م.
- ماجستير في الدراسات الإسلامية -تخصص الفقه المقارن- بعنوان (الأحكام الفقهية المتعلقة بالرهون المستجدة) دراسة فقهية مقارنة- قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب- جامعة المنيا- بتقدير ممتاز عام ٢٠١٤م.
- دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية- كلية الآداب- جامعة طنطا عام ٢٠١٢م.
- ليسانس الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر- تخصص الشريعة الإسلامية- بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف ٢٠٠٥م.

الوظائف الأكاديمية:

- مدرس بقسم الفقه المقارن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية سبتمبر ٢٠٢٠ وحتى الآن.
- مدرس مساعد بقسم الفقه المقارن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية يناير ٢٠١٩- سبتمبر ٢٠٢٠م.
- خطيب مكافأة بوزارة الأوقاف المصرية (مديرية أوقاف الشرقية) فبراير ٢٠٠٩م- حتى الآن.

- معيد بقسم الفقه المقارن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية من ١٢/ ٥/ ٢٠٠٨م حتى ٢٢/ ١/ ٢٠١٩م.

- إمام وخطيب ومدرس بوزارة الأوقاف المصرية (مديرية أوقاف الشرقية) فبراير ٢٠٠٧-حتى مايو ٢٠٠٨م.

النتاج العلمي:

له العديد من الكتب والبحوث والمقالات المنشورة منها:

١- الاحتكار في الفقه الإسلامي ودور الدولة في مواجهة المحتكرين، دار التعليم الجامعي بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٢١م.

٢- التسعير أحكامه الفقهية وآثاره الاقتصادية، دار التعليم الجامعي بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٢١م.

٣- مواسم الخيرات فضائل وآداب، دار التعليم الجامعي بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٢١م.

٤- الأحكام الفقهية المتعلقة بالرهون المستجدة -دراسة فقهية مقارنة، دار التعليم الجامعي بالإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.

٥- التوازي في العقود وتطبيقاته المعاصرة -دراسة فقهية مقارنة-دار التعليم الجامعي بالإسكندرية- الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.

٦- الدعم الاقتصادي حقيقته وأنواعه -ط/ دار التعليم الجامعي بالإسكندرية- الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.

٧- أساليب ومقومات التكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية- دار التعليم الجامعي بالإسكندرية- الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.

٨- التسامح الإسلامي ودوره في التعايش السلمي بين أبناء الوطن- ط/ دار التعليم الجامعي بالإسكندرية- الطبعة الأولى ٢٠٢٠م.

البحوث المنشورة:

١- التكييف الفقهي للتأمين التجاري -دراسة مقارنة-مجلة الاقتصاد الإسلامي الصادرة عن بنك دبي الإسلامي- سبتمبر ٢٠١٩م.

٢- أحكام التسعير في الشريعة الإسلامية- مجلة الاقتصاد الإسلامي الصادرة عن بنك دبي الإسلامي- ديسمبر ٢٠١٦م.

٣- موقف الشريعة الإسلامية من الاحتكار والمحتكرين- مجلة الاقتصاد الإسلامي الصادرة عن بنك دبي الإسلامي- أبريل ٢٠١٦م.

٤- التمويل الإسلامي بعقد السلم دراسة فقهية اقتصادية-مجلة الاقتصاد الإسلامي الصادرة عن بنك دبي الإسلامي- يناير ٢٠١٦م.

٥- الائتمان المصرفي ماهيته وأنواعه- مجلة الدراسات المالية والمصرفية الصادرة عن مركز الدراسات المالية والمصرفية بالأكاديمية العربية للعلوم المصرفية بالأردن- ديسمبر ٢٠١٥م.

له أكثر من ١٥٠ مقال منشور بجريدة صوت الأزهر، وعقيدتي، واللواء الإسلامي، والأهرام المسائي، ومجلة المجاهد المصرية، ومجلة التصوف الإسلامي، وغيرها.

الجوائز والأوسمة الحاصل عليها:

- جائزة الإدارة المركزية للبرامج الثقافية والتطوعية بوزارة الشباب والرياضة لعام ٢٠١٦م.
-جائزة الشيخ صالح كامل للاقتصاد الإسلامي للسنة السابعة عشرة لعام ٢٠١٦م.
-جائزة الشيخ صالح كامل للاقتصاد الإسلامي للسنة السادسة عشرة لعام ٢٠١٥م.
-جائزة المسابقة البحثية الأولى للقوات المسلحة المصرية عام ٢٠١٥م.

العضويات العلمية:

-عضو الجمعية الفقهية السعودية.
-عضو الجمعية المصرية للتمويل الإسلامي.
-عضو منصة أريد للعلماء والخبراء والباحثين الناطقين باللغة العربية.
-وسائل التواصل: Ahmedarafa11@yahoo.com

فهرس المحتويات

تقديم الأستاذ الدكتور: محمد نبيل غنايم 5

تقديم الأستاذ الدكتور: محمد محمد داود 7

المُقَدِّمَةُ 9

القسم الأول: العلم والعلماء

فَضَائِلُ الْعِلْمِ وَآدَابُهُ 17

فَضْلُ الْعِلْمِ وَمَكَانَةُ الْعُلَمَاءِ 31

مِيرَاثُ الأَنْبِيَاءِ 44

بِالْقِرَاءَةِ نَحْيَا وَنَرْقَى 49

الْكِتَابُ خَيْرُ جَلِيْسٍ 53

القسم الثاني: العمل والعمال

دَعْوَةُ الإِسْلَامِ إِلَى الْعَمَلِ وَمُحَارَبَتُهُ التَّسَوُّلَ 59

أَخْلَاقِيَّاتُ الْعَمَلِ فِي الإِسْلَامِ 64

مَكَانَةُ الْعَمَلِ التَّطَوُعِيِّ فِي الإِسْلَامِ 68

القسم الثالث: الفضائل والأخلاق

فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ 73

فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ 77

فَضْلُ التَّوْبَةِ وَشُرُوطُهَا 81

فَضَائِل الاسْتِغْفَار وَفَوَائِدُهُ 94

فَضَائِلُ الذِّكْرِ وآدابه 108

فَضَائِلُ الكَلِمَاتِ الأَرْبَعِ 138

فَضَائِلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَآدَابُهُ 144

فَضَائِلُ الدُّعَاءِ وَآدَابُهُ 162

فَضَائِلُ الصَّدَقَةِ 182

حُسْنُ الْخُلُقِ 193

الأَمَانَةُ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الْخِيَانَةِ 203

الصِّدْقُ، وَخُطُوْرَةُ الْكَذِبِ 215

الشُّكْرُ، وَمَنْزِلَةُ الشَّاكِرِينَ 226

الصَّبْرُ، وَجَزَاءُ الصَّابِرِينَ 238

أَعْظَمُ الْكَرَامَةِ لُزُومُ الاسْتِقَامَةِ 248

الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ 260

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ» 285

«مَنْ صَمَتَ نَجَا» 312

الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، وَثَمَرَاتُهُ 325

الْعِفَّةُ، وَكَيْفِيَّةُ تَحْقِيقِهَا 336

اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم 344

التَّسَامُحُ الإِسْلَامِيُّ وَحَاجَةُ الأُمَّةِ إِلَيْهِ 350

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى 355

القسم الرابع: الحقوق الإسلامية

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا 395

صلةُ الأرحامِ تَزيدُ في الأَعمار وتُباركُ الأرزاقَ 399

تَذْكِيرُ الأَبْرارِ بِحُقُوقِ الجَارِ 412

عِنَايَةُ الإِسْلَامِ بِالْيَتِيمِ 426

رِعَايَةُ الشَّرِيعَةِ لِلْمُسِنِّينَ 430

عِيَادَةُ المَرِيضِ آدابٌ وأحكامٌ 435

القسم الخامس: آداب إسلامية

أَدَبُ الْحِوَارِ فِي الإِسْلَامِ 441

أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ 449

وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا 461

القسم السادس: متفرقات

الْمَنْهَجُ النَّبَوِيُ فِي الدَّعْوَةِ 471

الْهَدْيُ النَّبَوِيُّ فِي حُبِّ الأَوْطَانِ وَسُبُلُ تَحْقِيْقُهُ 478

سَعَادَةُ الأُمَّةِ وَسُبُلُ تَحْقِيقِهَا 482

مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ 489

الابْتِلَاءَاتُ مِنَحٌ وَعَطَايَا 499

تَكْرِيُم الإِسْلَامِ لِلْمَرْأَةِ 502

تربيةُ الأولادِ فِي الإِسْلَامِ 508

مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي 514

انْتِشَارُ الأَمْرَاضِ وَالأَوْبِئَةِ 514

سُرَادِقَاتُ العَزاءِ وضَياعُ هَيبةِ القُرآن 517

تَذْكِرَةٌ عَنِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِهِ 520

المصادر والمراجع 532

المؤلف في سطور 544

فهرس المحتويات 547